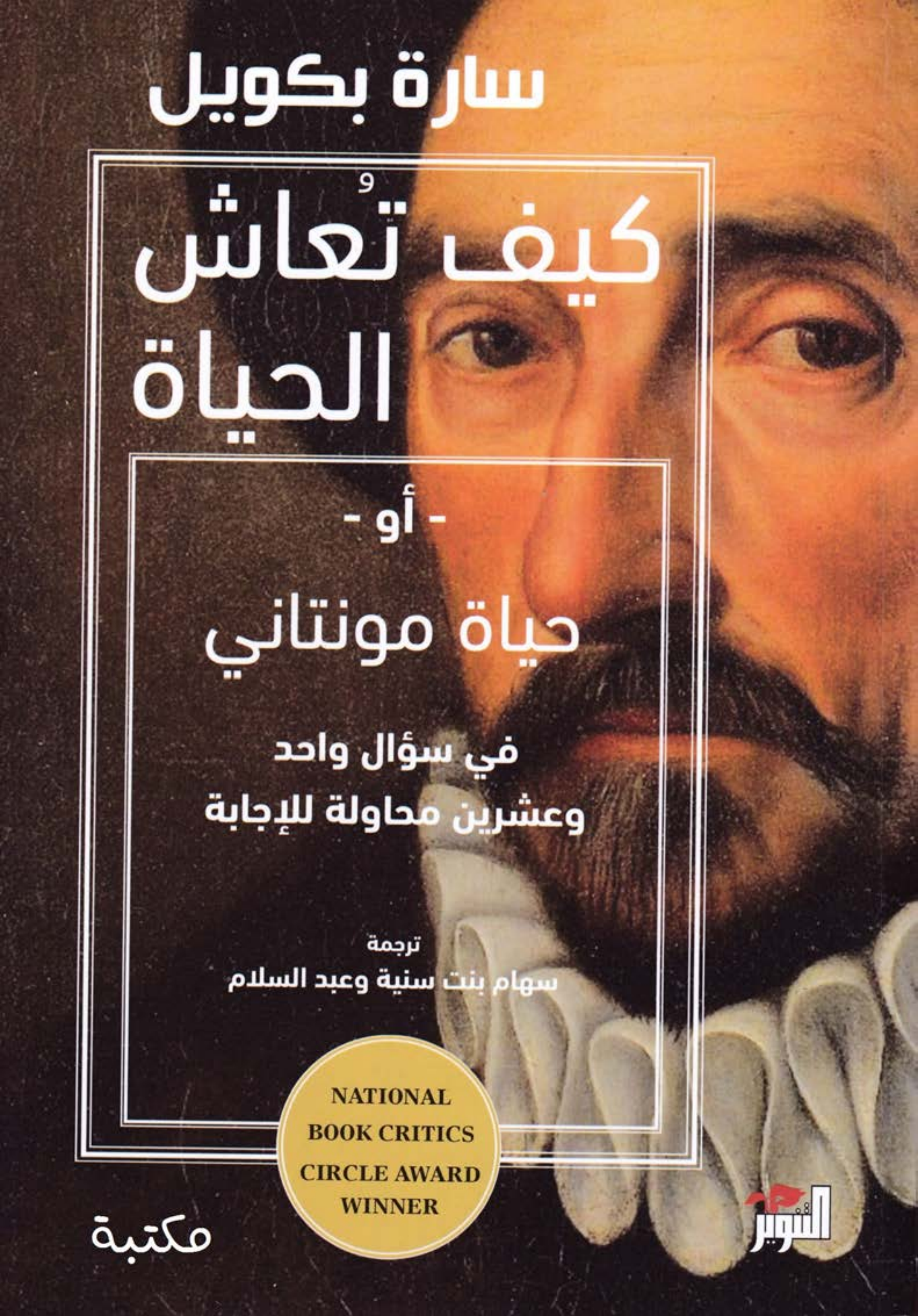

سارة بكويل

كيف تُعاش الحياة

- أو -

حياة مونتاني

في سؤال واحد
وعشرين محاولة للإجابة

ترجمة
سهام بنت سنية وعبد السلام

NATIONAL
BOOK CRITICS
CIRCLE AWARD
WINNER

مكتبة
التنوير

سارة بكويل

كيف تُعاش الحياة

مكتبة | 604

الكتاب: كيف تُعاش الحياة، أو حياة مونتاني في سؤال واحد، وعشرين محاولة للإجابة
تأليف: سارة بكْويل
ترجمة: سهام بنت سنية وعبد السلام
عدد الصفحات: 352 صفحة
الترقيم الدولي: 978-614-472-085-1
الطبعة الأولى: 2019

مكتبة
t.me/t_pdf

هذه ترجمة مرخصة لكتاب
HOW TO LIVE:
Or a Life of Montaigne in One Question and Twenty Attempts at an Answer
by Sarah Bakewell
Copyright © Sarah Bakewell 2010
First published in Great Britain in 2010 by Chatto & Windus
All rights reserved

جميع حقوق الطبعة العربية محفوظة © دار التنوير 2019

الناشر
دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت – بئر حسن – بناية فارس قاسم (سارة بنما) – الطابق السفلي
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة – 2 شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) – جاردن سيتي
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar - altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@daraltanweer.com
موقع إلكتروني: www.daraltanweer.com

سارة بكويل

وكيف تُعاش الحياة

- أو -

حياة مونتاني

في سؤال واحد

وعشرين محاولة للإجابة

مكتبة | 604

ترجمة

سهام بنت سنية وعبد السلام

التنوير

إلى سيمو

مكتبة
t.me/t_pdf

المحتويات

س: كيف تعاشُ الحياة؟ ميشيل دي مونتاني في سؤال واحد وعشرين محاولةً للإجابة 9

1. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟ ج: لا تقلقْ بشأنِ الموت.................. 21

2. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟ ج: انتبهْ...................................... 33

3. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟ ج: أن تولدَ.................................. 49

4. س: كيف تعاشُ الحياة؟ ج: اقرأْ كثيرًا، انسَ معظم ما قرأت، ولا تكن سريع البديهة 75

5. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟ ج: البقاء والحبُّ والفقدان 101

6. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟ ج: استخدمْ حيلًا صغيرة 121

7. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟ ج: شكٌّ في كلِّ شيءٍ........................ 135

8. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟ ج: احتفظْ بغرفةٍ خاصَّةٍ بكَ خلفَ الدكَّان.......... 167

9. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟ ج: كنْ سهْلَ المعْشرِ: عشْ مع الآخرينَ.......... 183

10. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟ ج: استيقظْ من سَباتِ العادةِ............. 195

11. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟ ج: عِشْ باعتدال 209

12. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟ ج: احرُسْ إنسانيتَك 217

13. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟ ج: افعلْ شيئًا لم يفعلْه أحدٌ قبْلَك.......... 235

14. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟ ج: شاهدِ العالم............................ 241

15. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟ ج: أدِّ وظيفتَك جيِّدًا، لكن لا تسرفْ في إجادتها 259

16. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟ ج: تفلسَفْ بالمُصادفَةِ فَقطْ 287

17. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟ ج: تأمَّلْ كلَّ شيءٍ بعمْقٍ ولا تندمْ على شيء 299

18. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟ ج: تخلَّ عن التحكُّم 305
19. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟ ج: كنْ عاديًّا ولا تكنْ كاملَ الأوصاف 329
20. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟ ج: دعِ الحياةَ تكونُ الإجابةَ عن السؤال عنها....... 335
شكر وعرفان 347
نبذة عن المؤلفة 349
نبذة عن المترجمة 350

مكتبة
t.me/t_pdf

س: كيف تعاشُ الحياة؟

ميشيل دي مونتاني في سؤال واحد

وعشرين محاولةً للإجابة

أُغرِقَ القرنُ الحادي والعشرون بتخمةٍ من صور النّاسِ عن أنفسهم. فنصفُ ساعة من التجوّل في فضاء الشَّبكة العنكبوتيّة المليئة بالمدوَّنات، والتغريدات، وأفلامِ اليوتيوب، والوجوهِ، والصفحات، والحاويات، تقدِّم لنا آلافًا من الأفراد المفتونين بأنفسهم والصارخين طلبًا لجذب الانتباه. فهم لا يملّون من الحديث عن أنفسهم؛ عبر كتابة المذكّرات، والثرثرة، ونشر صورٍ لكل ما يفعلونه. وحيث إنهم انفتاحيون لا يُحبط انفتاحيّتهم شيء، فهم ينظرون أيضًا إلى داخل أنفسهم على نحو غير مسبوق. بل يتوغّلون في خبرتهم الخاصّة بصفتهم مدوِّنين ومستخدمين للشّبكة العنكبوتية، فهم يتواصلون مع رفاقهم من البشر في مهرجانٍ مشتركٍ يحتفي بالذات.

حاول بعض المتفائلين جعل هذا اللقاء الكوكبي للعقول أساسًا لمدخلٍ جديدٍ إلى علاقات عابرة للحدود. أسَّس المؤرخ تيودور زيلدين موقعًا اسمه «موقع أكسفورد للإلهام» www.oxfordmuse.com ، يشجِّع فيه الناسَ على تجميع بورتريهات (سِيَر ذاتية ومذكَّرات) موجزة عن أنفسهم بالكلمات، يصفون فيها حياتهم اليوميّة وما تعلَّموه. وهم يحمِّلونها ليراها الآخرون ويتفاعلون معها. يرى زيلدين أن تبادلَ بوحِ الناسِ عن أنفسهم أفضلِ طريقة لإرساء الثّقة والتّشارك في جميع أنحاء الكوكب، إذ يحلُّ أناسٌ حقيقيون محلَّ الصّور النمطيّة لأشخاص من مختلف البلدان. وهو يقول إن المِيزة العظمى لعصرنا هي «استكشاف مَن الذين يسكنون العالم، شخصًا شخصًا».

وهكذا يمتلئ «موقع أوكسفورد للإلهام» بمقالات عن أمورٍ شخصيةٍ أو لقاءات مع آخرين تحت عناوين مثل:

لماذا يعمل شخصٌ روسيٌّ متعلِّم كنّاسًا في أكسفورد؟

كيف يؤدّي العمل في مهنة تصفيف الشعر إلى إشباع الحاجة إلى الكمال؟

كيف أن كتابة بورتريه عن نفسِك ليست هي ما تعتقد أنه أنت؟
ما الذي يمكن أن تكتشفه لو لم تشربْ أو ترقصْ؟
ما الذي يضيفه الشخصُ إلى ما قاله في الحوار حين يكتبُ عن نفسه؟
كيف تكونُ ناجحًا وكسولًا في الوقتِ نفسه؟
كيف يعبّر مسؤولُ العملِ عن طيبته؟

حينَ يصفُ المساهمون في هذا الموقع ما يجعلهم مختلفين عن **أي شخصٍ** آخر، فهم يكشفون عما هو مشترك بينهم وبين أي شخص آخر، ألا وهو أنهم جميعًا بشر.

ف. كوينسيل، F. Quesnel، مونتاني، كندا، 1588. نسخة فوتوغرافية من صورة مرسومة بالقلم الرصاص من مجموعة مقتنيات خاصة.
Bibliothèque des Arts Décoratifs, Paris, France/Archives Charmet/The Bridgeman Art Library.
هذا أقرب شكل أصلي معروف لمونتين.

إن هذه الفكرة، أي فكرة الكتابة عن الذّات لخلق مرآة يمكن أن يتعرّف فيها الآخرون على إنسانيتهم لم توجدْ منذ الأزل، بل كان لا بد من اختراعها. وهي لا تشبه الكثير من الاختراعات الثقافيّة الأخرى، إذ يمكن إرجاعها إلى شخصٍ واحدٍ، هو ميشيل إكويم دي مونتاني، وهو أحد النبلاء، وموظفٌ حكوميٌّ، وصانعٌ للنبيذ عاش في منطقة بيريجورد في جنوب غربي فرنسا من العام 1533 إلى العام 1592.

خلق مونتاني الفكرة ببساطة، بأن كتب عن نفسه. هو لا يشبه معظم كاتبي المذكّرات من أبناء عصره، فهو لم يكتب ليسجّل أعماله وإنجازاته العظمى، ولم يقدّم تقارير شاهد عيانٍ على الحوادث التاريخية، على الرغم من أنه كان بمقدوره أن يفعل ذلك. لقد نجا من حرب أهلية دينية كادت تدمر بلده عبر العقود التي قضاها في التفكير وكتابة كتابه. وهو ابن جيلٍ حُرم من المثالية الواعدة التي تمتّع بها معاصرو والده؛ فتأقلم مع البؤس العام بأن ركّز اهتمامه على الحياة الخاصّة. وقد صمد في وجه الاضطرابات، وأدار ممتلكاته العقارية، وتولّى تقدير القضايا المقدَّمة للمحكمة بوصفه قاضيًا، وأدار شؤون بوردو بوصفه أكثر من تولّاها من العُمَد هدوءًا ووِدًّا طوال تاريخها. وكان طوال الوقت لا يكفّ عن كتابة مقطوعات تمهيدية عامة أعطاها عناوين بسيطة:

عن الصداقة
عن آكلي لحوم البشر
عن عادة ارتداء الملابس
كيف نبكي ونضحك على الشيء نفسه
عن الأسماء
عن الروائح
عن القسوة
عن أصابع الإبهام
كيف يكبح عقلنا نفسه
عن التنوُّع
عن المركبات التي يجرّها الخيل
عن الخبرة

وكتب إجمالًا مائةً وسبعةً من هذه المقالات، بعضها من صفحة أو صفحتين؛ وبعضها أطول من ذلك بكثير، وبذا تتجاوز معظم الإصدارات الحديثة لأعماله

الكاملة ألف صفحة. ونادرًا ما تقدِّم شرحًا أو تعلِّم شيئًا. يقدم مونتاني نفسه باعتباره شخصًا يدوِّن كل ما يطرأ على فكره حين يمسك بالقلم، فيسطِّر به ما يمر في عقله وحالاته العقلية حين حدوثها. وجعل من هذه التجارب أساسا لتوجيه أسئلة إلى نفسه، أهمّها الأسئلة الكبرى التي فتنته كما فتنت الكثيرين من معاصريه، ويمكن وصف هذه الأسئلة التي تدور حول كيف تعاش الحياة بعبارة «How to live?» باللغة الإنجليزية على الرغم من أنها ليست فصيحة تمامًا نحويًّا.

هذا ليس السؤال الأخلاقي نفسه الذي يقول «كيف ينبغي أن يعيش المرءُ؟»، فقد أثارت المعضلات الأخلاقية اهتمام مونتاني، وكان اهتمامه بما ينبغي أن يفعله الناس أقل من اهتمامه بما يفعلونه بالفعل. أراد أن يعرف كيف يعيش حياةً طيِّبة، بمعنى حياةً مستقيمةً شريفةً، لكنّها أيضًا حياة إنسانية كاملة، باعثة على الرضا، وخصبة. دفعه هذا السؤال للكتابة والقراءة، لأن الفضول انتابه حول الحياة الإنسانية برمَّتها، في الماضي والحاضر. وتساءل دائمًا عن الانفعالات والدوافع الكامنة خلف ما يفعله الناس. وحيث إن مونتاني نفسه كان أقرب الأمثلة التي يعرفها لإنسان يؤدِّي أعماله المعتادة، فقد تساءل عن نفسه أيضًا بالقدر نفسه.

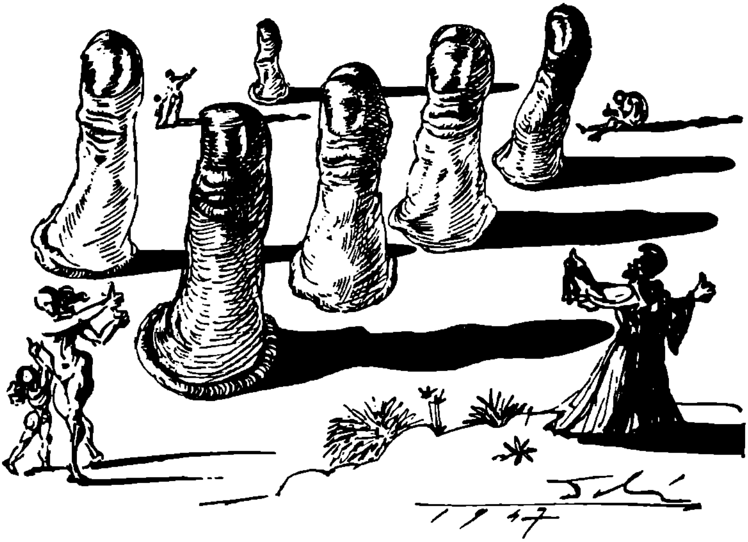

سلفادور دالي. صورة توضيحية للوحته «عن أصابع الإبهام» في طبعته من كتاب المقالات لمونتاني
(New York: doubleday, 1947), p. 161. © Salvador Dali, Gala Salvador Dali foundation. DACS, London 2009.

تفتّت السؤال العملي: «كيف تُعاش الحياة؟» إلى عدد لا يُحصى من الأسئلة العملية الأخرى. واجه مونتاني صعوباتٍ مع ما في الوجود من أمور محيّرة كبرى مثل: كيف يتعامل المرء مع الخوف من الموت؟ كيف يتغلّب المرء على فقدان طفل أو صديق محبوب؟ كيف تتصالح مع الفشل؟ كيف تستغل كل ثانية بأقصى ما يمكن بحيث لا تذهب الحياة هدرًا من دون تقدير؟

لكنه صادف ألغازًا صغيرة أيضًا: كيف تتجنّب الغرق في خضمّ جدلٍ عقيم مع زوجتك أو مع الخادم؟ كيف يمكنك طمأنة صديق يعتقد بأن ساحرة ألقت عليه لعنة؟ كيف تسرّي عن جار يبكي؟ كيف تحرس بيتك؟ ما أفضل استراتيجية تتبعها إذا احتجزك لصوص مسلحون يبدو أنهم لم يحسموا أمرهم هل يقتلونك أم يحتجزونك ويطالبون بفدية؟ لو سمعت عَرَضًا معلمة ابنتك تعلّمها شيئًا تعتقد أنه خطأ، هل من الحكمة أن تتدخّل؟ كيف تتعامل مع التنمّر؟ ماذا تقول لكلبك إذا أراد الخروج واللعب، بينما تريد الجلوس إلى مكتبك لتكتب الكتاب الذي تؤلّفه؟

يخبرنا مونتاني بما فعله هو في كل حالة بدلًا من أن يعطينا إجابات مجرَّدة، كما يخبرنا بما أحسَّه عندما فعل ذلك. وهو يقدِّم لنا جميع التفاصيل اللازمة لجعل رواياته واقعية، بل قد يقدِّم لنا أحيانًا أكثر مما نريد. فهو يخبرنا، من دون سبب محدَّد، أن الفاكهة الوحيدة التي يحبّها هي الشمّام، وأنه يفضِّل ممارسة الجنس وهو مستلقٍ لا وهو واقف، وأنه لا يمكنه الغناء، وأنه يحبُ الصحبة المرحة، وأنه كثيرًا ما تحمّسه شرارة سرعة البديهة. لكنّه يصف أيضًا أحاسيس يصعب التعبير عنها بالكلمات، بل ولا حتى الوعي بوجودها: كيف يشعر المرء بأنه كسولٌ، أو شجاعٌ، أو لم يقرّ قراره؛ أو كيف يشعر بالتمادي في لحظة خيلاء، أو محاولة التخلّص من وسواس مخيف. بل إنه كتب عن مجرّد شعور المرء بأنه حيٌّ.

عبر تأمّله لهذه الظواهر عبر عشرين عامًا، سأل مونتاني نفسه مرارًا وتكرارًا، ورسم صورة لنفسه - صورة شخصية في حركة دائمة، شديدة الحيويّة إلى حدّ أنها تنهض بالفعل وتخرج من الصفحة وتجلس إلى جوارك لتقرأ من فوق كتفك. يمكنه قول أشياء مدهشة. تغيّر الكثير منذ ولد مونتاني، منذ نحو نصف ألفية مضت، ولم يعد ممكنًا التعرّف على العادات ولا المعتقدات التي كانت في أيامه. لكن قراءة مونتاني تعني تلقّي سلسلة من صدمات الشعور بالألفة، مما يختزل القرون التي بينه وبين قارئ القرن الحادي والعشرين إلى لا شيء. يظلّ القراء يرون أنفسهم فيه، بالضبط كما يرى زوار «موقع أكسفورد للإلهام» أنفسهم، أو يرون جوانب من أنفسهم في قصّة «لماذا

يعمل شخص روسي متعلّم كنّاسًا؟»، أو في سؤال «ما شعور المرء الذي يفضل ألّا يرقص؟».

قال الصحافي برنارد ليفين في مقال كتبه عن الموضوع لجريدة **التايمز** في العام 1991: «أتحدّى أيَّ قارئ لمونتاني ألّا يترك الكتاب جانبًا في لحظة ما ويقول بارتياب: كيف عرف كل هذا عنّي؟». الإجابة طبعًا أنه عرف ذلك بمعرفته لنفسه. والناس يفهمونه بدورهم لأنهم يعرفون أيضًا بالفعل «كل هذا» انطلاقًا من خبرتهم الشخصية. وقد كتب بليز باسكال - وهو من قرائه المبكرين المهووسين به - ما يلي في القرن السابع عشر: «ليس في مونتاني، بل في نفسي، أجد كل ما ألاحظه هناك».

وتخيَّلت الروائية فيرجينيا وولف الناس يمرّون ببورتريه مونتاني الذاتية مثل زوار لمعرض فن تشكيلي. يتوقّف كلُّ شخص قبالة الصورة وينحني إلى الأمام ليحدِّق في أشكال انعكاسات وجهه على الزجاج. «دائمًا يزدحم الناس أمام هذه الصورة، محدّقين في أعماقها، يرون وجوههم معكوسة فيها، وكلما أطالوا النظر رأوا المزيد، ولا يمكن أبدًا أن يقولوا ماذا يرون بالضبط». الوجه الذي تمثِّله الصورة ووجوههم هم يندمجون في وجه واحد. كانت وولف ترى أن الناس يستجيبون لبعضهم البعض بهذه الطريقة عمومًا:

> **حينما نواجه بعضنا البعض في الحافلات أو في مركبات مترو الأنفاق فإننا ننظر في المرآة... وسيزداد إدراك كُتَّاب الرواية وكاتباتها في المستقبل لأهمية هذه الانعكاسات، لأنه بالطبع لا يوجد انعكاس واحد بل عدد لا نهائي تقريبًا من الانعكاسات، تلك هي الأعماق التي سيستكشفونها، وتلك هي الأشباح التي سيتعقّبونها.**

كان مونتاني أول كاتب يبدع أدبًا يكتبه قصدًا بهذه الطريقة، ويكتبه باستخدام المادة الثرية لحياته الخاصّة بدلًا من الفلسفة البحتة او الاختراع البحت. كان أكثر الكتاب إنسانية، وأكثرهم اجتماعية. ولو كان عاش في عصر الاتصالات واسعة النطاق عبر شبكة الإنترنت، لدهش من المستوى الذي تمكّنت القدرات الاجتماعية من الوصول إليه؛ لا عشرات أو مئات في معرض فنٍّ تشكيلي، بل ملايين الناس يرون أنفسهم وقد ارتدّت نحوهم من مختلف الزوايا.

يمكن لتأثير هذا الانعكاس أن يدير الرؤوس في زمن مونتاني كما في زمننا. قال أحد المعجبين من القرن السادس عشر، هو تابوروت دي آكوردز أن كلَّ من قرأ كتاب

المقالات شعر كما لو كان هو الذي كتبه. وبعد ما يزيد على مائتين وخمسين عامًا قال كاتب المقالات رالف والدو إيمرسون الشيء نفسه بالعبارة نفسها تقريبًا. «بدا الأمر لي كما لو أني كتبت الكتاب بنفسي، في حياة سابقة من نوع ما». وكتب الروائي أندريه جيد في القرن العشرين: «لقد تملّكته إلى حد بعيد، إلى درجة بدا معها أنه نفسي أنا ذاتي». أما استيفان زفايج، وهو كاتب نمساوي كان قاب قوسين أو أدنى من الانتحار بعد نفيه قسرًا أثناء الحرب العالمية الثانية، وجد في مونتاني صديقه الصدوق الوحيد: «هاهنا «أنت» حيث تتجلى «أناي»؛ حيث تُمحى المسافات جميعها». تبهت الصفحة المطبوعة مختفية من المشهد؛ ويخطو شخص حيٌّ إلى الغرفة بدلًا من ذلك. «أربعمائة عام تختفي كالدخان».

ما زال المشترون المتحمسون من موقع **أمازون دوت كوم** لبيع الكتب على الشبكة العنكبوتية يستجيبون بالطريقة نفسها. يسمي أحدهم كتاب **المقالات** بأنه «ليس كتابًا بقدر ما هو رفيق مدى الحياة» ويتوقّع أحدهم أنه سيصير «أفضل صديق صادقته طوال عمرك». والقارئ الذي يحتفظ دائمًا بجوار فراشه بنسخة يعبّر عن حزنه لكبر حجم الكتاب (في نسخته الكاملة) بحيث يصعب حمله والتنقّل به طوال اليوم. ويقول آخر: «توجد هنا قراءات تكفي العمر بطوله؛ لأن هذا الكتاب الكلاسيكي الضخم يبدو كما لو كان قد كتب بالأمس، على الرغم من أنه **لو كان** قد كتب بالأمس لصار الآن مجلة **هالو!**»[1].

يمكن حدوث كل هذا لأن مقالات كتاب **المقالات** ليس لها معنًى عظيمٌ، لا توجد فكرة تسعى لإثباتها، ولا حجّة تقدّمها. فليس فيها مخطّطات تفرضها عليك؛ إذ يمكنك التصرّف بها كما يحلو لك. مونتاني يدع مادّته تتدفّق، ولا يقلق أبدًا من أن يكون قد قال شيئًا في صفحة ما وعكسه في الصفحة التي تليها، أو حتى في الجملة التالية. وكان يمكن أن يتّخذ من أبيات والت ويتمان التالية شعارًا له:

هل أناقض نفسي؟
فليكنْ، أنا أناقض نفسي،
(أنا متّسِعٌ، أنا متعدِّدٌ)

كانت تعنّ له طريقة جديدة للنظر إلى الأشياء بعد كل مجموعة من العبارات القليلة،

(1) هالو مجلة أسبوعية بريطانية واسعة الانتشار مُتخصِّصة في مجال أخبار المشاهير والقصص واهتمامات البشر المُختلفة. صدر العدد الأول منها في سنة 1988 (المترجمة).

فيغيِّر من اتجاهه. وكانت كتاباته تتبع أفكاره، حتى حين تكون هذه الأفكار غير عقلانية إلى أقصى حدٍّ وشبيهة بالأحلام. يقول مونتاني: «لا يمكنني الحفاظ على موضوعاتي ساكنة، فهي تمضي مرتبكة مترنِّحة وهي في حالة سُكْرٍ بَيِّنٍ طبيعي». كلُّ إنسانٍ حرٌّ في أن يسايره طالما رغب في ذلك، ويتركه يهيم وحده على وجهه في مسار متعرِّج إذا لم يرغب؛ فستتقاطع مساراتكما مرة أخرى عاجلًا أم آجلًا.

لقد ابتكر مونتاني جنسًا أدبيًّا جديدًا بكتابته على هذا النحو، سمَّاه **المقالات**، وهو المصطلح الجديد الذي أطلقه عليها. كلمة «مقالات» لها اليوم وقع الصّوت المكتوم. إنها تذكّر الكثيرين بالواجبات المفروضة في المدارس، أو الكلّيات، لاختبار معرفة الطلبة بما يوجد في قائمة القراءة من مقالات تعرض حجج كتَّاب آخرين، مع مقدّمة مملّة وخلاصة بسيطة تلصق بنهاية كل منها مثل شوكتين في كوز من الذّرة. وجد مثل هذا النوع من الخطاب في زمن مونتاني، لكن **المقالات** essais لم تكن موجودة. Essayer كلمة فرنسية معناها **يحاول**. to essay أي شيء معناه أن تختبره أو تتذوَّقه، أو تبذل جهدًا في محاولة فعله. عرَّف أحد أتباع مونتاني من القرن السابع عشر المقال بأنه مثل إطلاق النار من مسدس لترى ما إذا كانت طلقته ستمضي في خط مستقيم، أو تجريب ركوب جواد لترى هل سيمكن التعامل معه جيِّدًا. إجمالًا، اكتشف مونتاني أن المسدس يطلق نيرانه في جميع أنحاء المكان وأن الحصان يركض خارج نطاق السيطرة، لكن هذا لم يضايقه. كان مبتهجًا لرؤية كتاباته تخرج على هذا النحو غير المتوقَّع.

قد لا يكون مونتاني خطَّط أبدًا لخلق ثورة أدبية يثيرها رجلٌ واحدٌ، لكنّ نظرة إلى الخلف جعلته يعرف ما فعله. كتب: «إنه كتاب فريد من نوعه في العالم، كتاب له خطّة جامحة وعجيبة». أو كما كان يبدو غالبًا، لم تكن له خطة على الإطلاق. لم تُكتب **المقالات** بنظامٍ مرتَّبٍ، من البداية إلى النهاية. بل نَمَتْ لتكتسي بقشرةٍ صلبةٍ، كما يحدث مع الشِّعاب المرجانية، من العام 1572 إلى العام 1592. وما أوقفها في النهاية هو موت مونتاني.

فإذا نظرنا للأمر بطريقة أخرى نجد أنها لم تتوقّف أبدًا. بل استمرّت في النمو، لا من خلال كتابات لا تتوقّف، بل من خلال قراءات لا تتوقّف. فمنذ أوّل جارٍ أو صديقٍ من القرن السادس عشر تصفّح مسوّدة كتاب **المقالات** التي على مكتب مونتاني، وحتى آخر إنسان (أو غيره من الكيانات الواعية) يستخرجها من ذاكرة بنك مكتبة افتراضية مستقبليّة، تعني كل قراءة جديدة كتاب **مقالات** جديد. يقارب القرّاء

مونتاني من منظوراتهم الخاصّة، مسهمين في كتاباته بخبرات حياتهم. وفي الوقت نفسه، تشكّلت هذه الخبرات في قوالب بفعل اتجاهات واسعة النطاق، تأتي وتذهب في صياغات متمهّلة. أيُّ شخصٍ ينظر عبر أربعمائة وثلاثين عامًا من قراءة مونتاني يمكنه أن يرى تلك الاتجاهات وهي تتراكم وتتلاشى كالسُّحب في السماء، أو ازدحام الركاب على رصيف محطّة السكّة الحديدية بين قطارات تتبدّل. كلُّ طريقة من طرق القراءة تبدو طبيعيّة طالما كانت في المشهد؛ ثم يحلُّ محلَّها أسلوبٌ جديدٌ ويرحل الأسلوب القديم، الذي يصير أحيانًا كأنما عفَّى عليه الزمن حتى لا يكاد أحد يفهمه، إلا المؤرخين.

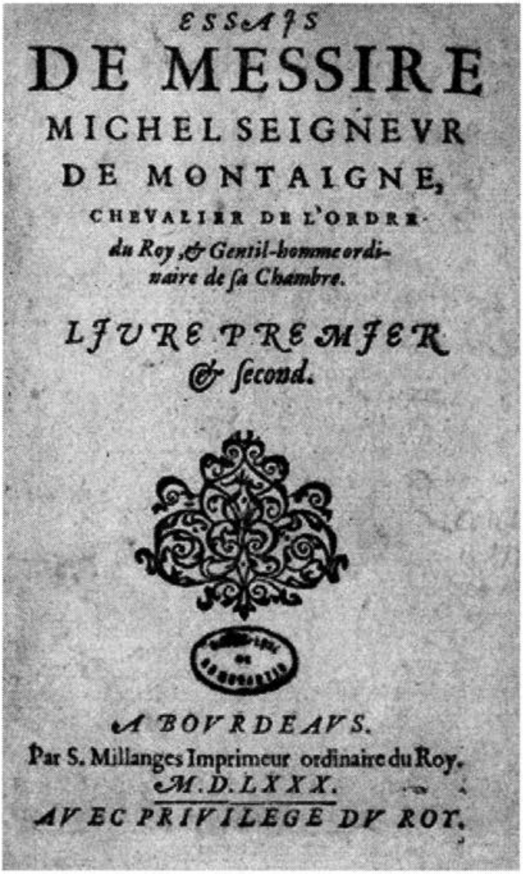
ESSAIS
DE MESSIRE
MICHEL SEIGNEVR
DE MONTAIGNE,
CHEVALIER DE L'ORDRE
du Roy, & Gentil-homme ordi-
naire de sa Chambre.
LIVRE PREMIER
& second.
A BOVRDEAVS.
Par S. Millanges Imprimeur ordinaire du Roy.
M.D.LXXX.
AVEC PRIVILEGE DV ROY.

غلاف كتاب المقالات لمونتاني
Montaigne, Essais (Bordeaux: S. Millange, 1580).

فكتاب **المقالات** أكثر من مجرَّد كتاب. إنه حوار بطول قرن بين مونتاني وجميع

من عرفوه؛ حوار يتغيَّر عبر التاريخ، ويكاد يبدأ مجدّدًا مع كل مرّة بهذه الصيحة: «كيف عرف كل هذا عني؟». ويظلُّ في معظم الأحوال لقاء بين شخصين: كاتبٍ وقارئ. لكنَّ القرّاء تدور بينهم دردشةٌ جانبيةٌ أيضًا، سواء عن وعي أو عن لا وعي؛ فكلُّ جيلٍ يقارب مونتاني بتوقّعات مستمَدة من معاصريه وأسلافه. ومع مضيّ الحكاية قُدمًا، يزداد المشهد ازدحامًا. ويتحوَّل من مأدبة غداء خاصّة إلى مأدبة ضخمة حيوية، ومونتاني هو سيِّد الاحتفاليّات الذي لا يدري ما يدور حوله.

رسام مجهول. مونتاني، كندا 1590. زيت على نحاس. مجموعة مقتنيات خاصَّة

Montaigne, ca. 1590. Oil on copper. Private collection

هذا الكتاب عن مونتاني، الإنسان والكاتب. وهو أيضًا عن مونتاني، الطرَف في سلسلة طويلة من تراكم الحوارات المتبادلة والخاصّة عبر أربعمائة وثلاثين عامًا. ستكون الرِحلة غريبة ووعرة، لأن كتاب مونتاني لم ينزلق بنعومة عبر الزمن كحصاة في جدول ماء، ويزداد انسيابية وصقلًا على الدوام وهو يمضي في طريقه. لقد تعثَّر في مساره من دون أن يكون له اتّجاه محدَّد، يلتقط الحطام، وأحيانًا يصطدم بنتوءات غريبة. تدور قصّتي مع التيّار أيضًا. وهي تمضي «مرتبكةً ومترنِّحةً»، مع تغيّرٍ سريعٍ

للاتجاه، فهي تلتصق في البداية التصاقًا وثيقًا بالرجل نفسه: حياة مونتاني، وشخصيّته وعمله الأدبيّ. وبعد ذلك يزداد تفتُّتُها إلى حكايات من كتابه وكتب القراءات في كتاباته، صعودًا حتى أحدثها. وحيث إنه كتاب صادر في القرن الحادي والعشرين فلا مفرَّ من أن يكون مونتاني فيه مواكبًا للقرن الحادي والعشرين. وكما يقول مثلٌ سائرٌ يفضِّله مونتاني، لا يمكننا الهرب من وجهة نظرنا: لا يمكننا السَّير إلّا على سيقاننا، ولا الجلوس إلّا على مؤخِّراتنا.

معظم من يقصدون كتاب **المقالات** يريدون منه شيئًا ما. قد يسعون إلى التسلية، أو التنوير، أو فهم التاريخ، أو شيء أكثر شخصية. وكما نصح الروائي جوستاف فلوبير صديقًا كان يتساءل كيف يقارب مونتاني:

لا تقرأه كما يفعل الأطفال، من أجل التسلية، ولا كما يفعل المتعطشون للحصول على الإرشادات. **لا، اقرأه كي تعيش الحياة.**

تأثرًا بملحوظة فلوبير، أسأل سؤال عصر النهضة: «كيف تعاشُ الحياة؟» كدليلٍ للعثور على طريق من خلال زاوية حياة مونتاني الدنيويّة والأخرويّة. يظلُّ السّؤال هوَ نفسه طوال الوقت، لكن الفصول تأخذ شكل عشرين إجابةً مختلفةً - كل منها إجابة كان من شأن مونتاني أن يتخيَّل أنها أُعْطيت له. في الواقع، عادةً كان مونتاني يردُّ على الأسئلة بأمواجٍ من المزيد من الأسئلة والكثير الكثير من الحكايات الطريفة، وغالبًا ما تشير جميعها إلى اتِّجاهات مختلفة وتؤدِّي إلى خُلاصات متناقضة. **كانت** الأسئلة والحكايات هي إجاباته، أو الطرق الإضافية التي يسلكها لمحاولة الإجابة عن السؤال.

وبالمِثْلِ، ستأخذ كلُّ واحدة من الإجابات العشرين الواردة في هذا الكتاب شكل حكاية طريفة: فصلٌ أو فكرةٌ من حياة مونتاني، أو من حياة قرّائه. لن نقدِّم حلولًا جاهزةً، لكنَّ هذه «**المقالات**» العشرين التي نقدِّمها في شكل إجابات ستمكِّننا من أن نسترق السمع إلى شذرات من الحوار المطوَّل، ومن الاستمتاع بصحبة مونتاني نفسه.

1. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟

ج: لا تقلقْ بشأنِ الموت

معلّقًا بطرف شفتيَّ:

لم يكن مونتاني Michel De Montaigne دائمًا شخصًا طبيعيًّا في التجمُّعات الاجتماعية. فمن وقت إلى آخر، كان في شبابه يجلس بعيدًا عن أصدقائه عازفًا عن مشاركتهم، بينما هم يرقصون، ويضحكون ويشربون. كاد رفاقه لا يتعرّفون عليه في هذه المناسبات؛ فقد اعتادوا أكثر على رؤيته يغازل النساء، أو يجادل بحماسةٍ حول فكرة جديدة عنّت له. وكانوا يتعجَّبون مما إذا كان قد شعر بالإساءة من شيء قالوه. والحقيقة، كما باح بها فيما بعد في كتابه **المقالات**، أنه حين يكون في هذا المزاج يكاد لا يعي ما يحيط به على الإطلاق. وكان يفكِّر وسط الاحتفالات في قصَّة حقيقية مخيفة سمعها حديثًا، ربما كانت قصّة عن شاب غادر مأدبة مماثلة منذ أيام قليلة قبل زملائه شاكيًا من الشّعور بحمّى خفيفة، ومات بهذه الحمى تقريبًا قبل أن يشفى رفاقه الذين حضروا الحفل من الصداع الذي يعقب السُكر. إذا كان الموت قادرًا على لعب هذه الحيل، فلم يفصل مونتاني عن الخواء في كل لحظة غير غشاء رقيق. لقد صار شديد الخوف من فقدان حياته إلى درجة أنه لم يعد قادرًا على الاستمتاع بها بينما هو على قيد الحياة.

وقد عانى مونتاني حين كان في العشرينيات من عمره من هذا الوسواس المَرَضي لأنه كان يقضي وقتًا طويلًا في قراءة كتابات الفلاسفة الكلاسيكيين. والموت كان موضوعًا لم يسأم القدماء أبدًا من تناوله. لخّص شيشرون مبدأهم بدقّة: «أن يتفلسف المرء يعني أن يعرف كيف يموت». ومونتاني نفسه استعار هذه الفكرة المرعبة ذات يوم ليجعل منها عنوانًا لأحد الفصول.

لكنْ إذا كانت مشكلاته قد بدأت بنهم للفلسفة في عمر يكون فيه المرء عرضةً للتأثر بالانطباعات، فهي لم تنته لمجرّد أنه كبر. مع وصول مونتاني لثلاثينيات عمره، ربما حين توقّع الحصول على وجهة نظر أكثر قابلية للقياس، صار إحساسه الوسواسي

باقتراب الموت أقوى مما كان إطلاقًا، وأكثر شخصانية. تحوَّل الموتُ من شيءٍ مجرّدٍ إلى واقع، وبدأ في حصد كلٍّ من اهتمَّ بهم تقريبًا، مقتربًا منه. فحين بلغ الثلاثين من عمره في العام 1563 مات أقرب أصدقائه، إتيين دي لا بويتي، متأثرًا بالطاعون. وفي العام 1568 مات والده، ربما من مضاعفات أعقبت نوبة حصى في الكلى. وفي ربيع العام التالي، فقد مونتاني أخاه الأصغر آرنود دي سان مارتين في حادث نجم عن نزوة رياضية. وهو نفسه كان متزوجًا حديثًا في ذلك الوقت، وعاشت أول طفلة أثمرها هذا الزواج حتى الشهر الثاني من عمرها، وماتت في أغسطس من العام 1570. ثم فقد مونتاني أربعة أطفال بنات آخريات، فمن ست بنات أنجبهنَّ لم تعش إلا واحدة لتصل إلى سن البلوغ. هذه السلسلة من الفواجع جعلت التهديد بالموت أقل ضبابية، لكن يصعب أن يكون هذا أمرًا مطمئنًا. كانت مخاوفه قويّة كعهدها.

رقصة الموت من:
.H. Schedel, Nuremberg Chronicle, f. CCLXIIIv. Morse Library, Beloit College

يبدو أن أكثر حالات الفَقْد إيلامًا كانت فقد لا بويتي الذي أحبّه مونتاني أكثر من أي شخص آخر. لكن أكثرها صدمةً لا بد أنّها حالة فقد أخيه آرنود. كان آرنود في السابعة والعشرين من عمره فقط حين ارتطمت برأسه كرة وهو يلعب التنس بصورته المعروفة آنذاك باسم لعبة النخيل. لا يمكن أن تكون خبطة قوية، ولم يبد عليه أي تأثر مباشر بها، لكنه فقد الوعي بعد خمس إلى ست ساعات من الخبطة ثم مات، يفترض أن الوفاة

نتجت عن جلطة أو نزيف في المخ. لا يمكن أن يتوقّع أي شخص أنّ خبطةً بسيطةً في الرأس تقضي على حياة شاب سليم البنية. لم يكن لهذا معنى، لكنه، مع ذلك، كان أكثر تهديدًا على المستوى الشخصي من قصّة الشاب الذي مات من الحمّى. كتب مونتاني عن آرنود: «مع مثل هذه الأمثلة المتواترة والعادية التي تمرُّ أمام أعيننا، كيف يمكن أن نخلّص أنفسنا من فكرة الموت ومن فكرة أنه يأخذ بخناقنا في كلِّ لحظة».

لم يستطع مونتاني تخليص نفسه من هذه الفكرة، بل لم يرغب في ذلك. كان لم يزل تحت تأثير سطوة فلاسفته. «دعونا لا نفكِّر في شيء أكثر من الموت». وقد كتب في مقال مبكّر عن الموضوع:

> **دعونا نصوِّره في كل لحظة في خيالنا بكل جوانبه. في تعثّر فرس، أو سقوط بلاطة، أو أبسط وخزة دبوس، فلنفكِّر مليًّا في هذا: حسنًا، ماذا لو كان هذا هو الموت نفسه؟**

تقول الحكمة الرواقية التي يفضِّلها مونتاني، إنك لو تصفحت صور موتك بتواترٍ كافٍ فلا يمكن أن تفاجأ به. فمعرفتك بمدى جودة استعدادك له لا بد أن تحرِّرك وتجعلك تعيش بلا مخاوف. لكن مونتاني اكتشف العكس. فكلما ازدادت قوة تخيّله للحوادث التي قد تحل به وبأصدقائه، صار أقل إحساسًا بالهدوء؛ فحتى لو تمكَّن في عجالة من قبول الفكرة في المطلق، لم يتمكَّن أبدًا من استيعابها بالتفصيل. عقله مليء بمناظر الإصابات والحِمَّيات؛ أو بناس ينتحبون بجوار فراشه وهو يموت، وربما «بلمسة يد يعرفها» وضعت على جبينه لتوديعه. تخيَّل العالم ينغلق حول الكوة التي كان فيها؛ وقد جُمِّعَت متعلقاته، وثيابه لتوزَّع على الأصدقاء والخدم. لم تحرِّره هذه الأفكار، بل سجنته.

من حسن الحظِّ أن هذا المضيق لم يستمر. فحين ناهز مونتاني أربعينيات وخمسينيات العمر تحرَّر إلى حالة من الدعة وسعة الصدر. وتمكّن من كتابة أكثر مقالاته تدفُّقًا وحبًا للحياة، ولم يُظْهِرْ أيًّا من بقايا علامات حالته العقلية المرضية السابقة. نعرف فقط بأنها كانت موجودة لأن كتابه يحكي لنا عنها، وصار الآن يرفض القلق على أي شيء. الموت ليس إلا بعض اللحظات السيِّئة في نهاية الحياة، وقد كتب في إحدى أواخر الملحوظات التي أضافها، أن الموت لا يستحق إهدار الوقت في القلق منه. وتحوَّل من أكثر معارفه اكفهرارًا إلى أكثر الرجال الذين في منتصف العمر خلُوًّا من القلق، وسيدًا لفنٍ طيِّب العيش. كَمَنَ الشفاء في رحلة إلى قلب المشكلة؛

في لقاء درامي مع موته هو نفسه، تبعته أزمة منتصف عمر ممتدّة قادته إلى كتابة **المقالات**.

حدث اللقاء العظيم بين مونتاني والموت في يوم من العام 1569 أو في بدايات العام 1570 - لست متأكدة من الفترة بالضبط - بينما كان في الخارج يقوم بشيء يبدّد قلقه عادة ويعطيه إحساسا بالانفلات: امتطاء جواده.

كان في حوالي السادسة والثلاثين في ذلك الوقت، وشعر بأن لديه الكثير مما ينبغي له الهروب منه. ورث مونتاني بعد وفاة والده المسؤولية الكاملة عن ضيعة العائلة وقصرها الريفي في دوردونيي[1]. كانت أرضًا جميلة، في منطقة تغطّيها كروم العنب - كما هو الحال الآن - والتلال الناعمة، والقرى، والغابات. لكنها مثّلت لمونتاني عبئًا ومسؤولية. إذ كان دائمًا في الضيعة من يجذب كمّه، يريد شيئًا أو يجد أخطاء في ما فعله. كان هو **السيد الإقطاعي** الذي يُرْجَع إليه في كل شيء.

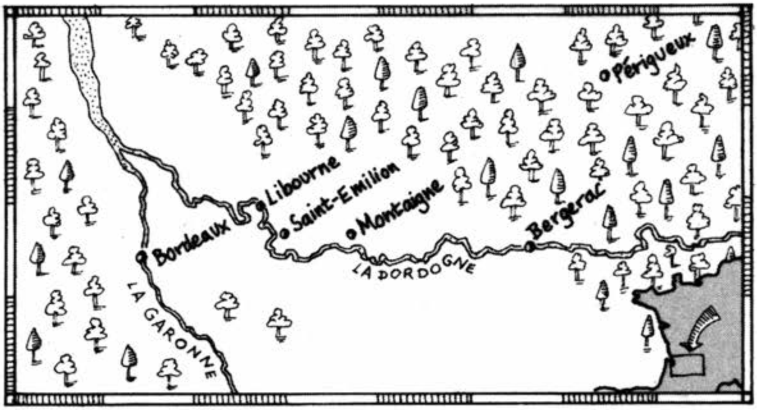

إقليما دوردوينيي وبيريجورد الفرنسيان. خريطة رسمتها ساندرا أوكينز. Sandra Oakins.

من حسن الحظّ أنه لم يكن من الصعب عادة إيجاد عذر ليكون المرء في مكان آخر. وقد وجد مونتاني هذا العذر حين عمل قاضيًا في بوردو منذ أن كان في الرابعة والعشرين من عمره، وبوردو هي العاصمة الإقليمية التي تبعد حوالي ثلاثين ميلًا، فكان لديه دائمًا أسباب للذهاب إلى هناك. ثم إنه يمتلك مزارع كروم العنب المترامية الأطراف، متناثرة في قطع منفصلة موزّعة في أنحاء القرية على بعد أميال، ومن المفيد زيارتها إذا شعر بمَيْلٍ إلى ذلك. وكان دائم الاتصال بالجيران الذين يعيشون في قصور

(1) دوردونيي إقليم يقع في جنوب غربي فرنسا (المترجمة).

أخرى في المنطقة؛ فالمحافظة على حسن العلاقات شيء مهم. شكّلت كل هذه المهمات مبرِّرات ممتازة لامتطاء الجواد عبر الغابات في يوم مشمس.

وحين يتجوَّل مونتاني في طرق الغابات يمكن لأفكاره أن تشرد في أوسع نطاق يرغبه، على الرغم من أنه حتى هنا كان مصحوبًا دائمًا بالخدم والمعارف. يندر أن يتجوَّل الناس في المنطقة وحدهم في القرن السادس عشر. لكنه يمكن أن يلكز حصانه مبتعدًا عن الحوارات المملّة، أو ينتحي بذهنه جانبًا ليغرق في أحلام اليقظة، وهو يراقب وميض الضوء على قمم الأشجار التي تظلل ممر الغابة. قد يتساءل عما إذا كان صحيحًا أن السائل المنوي للرجل يخرج من عموده الفقري، كما قال أفلاطون؟ هل يمكن أن تكون سمكة الريمورا قويّة جدًّا حقًّا إلى حدٍّ أنها تستطيع أن توقِف سفينة بأكملها بتثبيت شفتيها عليها وامتصاصها؟ وماذا عن الحدث الغريب الذي شهده في البيت ذات يوم، حين حدّقت قطته قصدًا في شجرة حتى سقط منها طائر ميتًا، بين براثنها بالضبط؟ أي قوة امتلكتها؟ كانت مثل هذه التأمّلات تستغرق مونتاني إلى درجة أنه كان ينسى أحيانًا إيلاء انتباهه الكامل للطريق ولِما كان رفاق صحبته يفعلونه.

كان مونتاني يمضي قدمًا في سكينة في هذه المناسبة عبر الغابة مع جماعة من الرجال الممتطين صهوات الجياد، جميعهم أو معظمهم من موظفيه، على بعد حوالى ثلاثة أو أربعة أميال من القصر. كانت رحلة ركوب خيل سهلة، ولم يكن يتوقع أيَّ مشكلات، لذلك اختار جوادًا هادئًا لا يتميّز بالقوة. كان يرتدي ملابس عادية: بنطالًا قصيرًا، وقميصًا وسترة، أو ربما معطفًا. كان سيفه معلّقًا إلى جانبه – فالسيد النبيل لا يخرج أبدًا من دون سيف – لكنه لم يكن يحمل أي سلاح آخر ولا يرتدي أيَّ ملابس واقية خاصّة. لكن المخاطر كانت موجودة دائمًا خارج البلدة، أو خارج جدران القصر؛ فاللصوص كثيرون، وكانت فرنسا حينها بلا قانون، معلّقة بين معركتين من معارك الحرب الأهلية. وكان الجنود الذين يعانون البطالة يتجوَّلون في جماعات تجوب أنحاء الريف، بحثًا عن أي غنيمة قد يعثرون عليها بديلًا للأجور التي فقدوها أثناء هدنة السلام. وعلى الرغم من قلق مونتاني حيال الموت بصفّة عامّة، فقد ظلّ عادة هادئًا حيال مثل هذه المخاطر الخاصّة. لم يجفل من كل غريبٍ مريب كما يفعل الآخرون، أو ينتفض فزعًا عند سماع أصوات مجهولة في الغابة. لكن لا بد أنّ التوتر السائد قد انتقل إليه أيضًا، لأنه حين لطمه شيء ثقيل الوزن من الخلف، كانت أوّل فكرة طرأت له أنه لا بد قد تعرَّض لهجومٍ مقصودٍ. كان الأمر مثل طلقة من قَرَبِينَة، وهي البندقية قديمة الطراز التي كانت موجودةً في أيامه.

أ.آلسياتو، الشعار (بادوا: پ. پ. توزِّي. 1621). الشعار رقم 83: In facile à virtute Desciscentes
(«ينحرف بسهولة عن المسار المستقيم»)، يعرض سمكة ذات ممصّات تمسك بسفينة وتعرقل سيرها. .Wellcome Library, London

لم يكن لديه وقت ليتساءل لماذا يطلق عليه أي شخص النار. خبطه ذلك الشيء «مثل صاعقة»؛ فكبا جواده، وطار مونتاني نفسه من على صهوته. وسقط مرتطمًا بالأرض بشدَّة، على بعد أمتار، وفقد وعيه على الفور.

سقط الجواد منطرحًا على الأرض، وأنا على بعد عشر أو اثنتي عشرة خطوة خلفه، ممددًا على ظهري. وجهي مليء بالرضوض ومتسلّخ، وسيفي، الذي كنت أمسكه بيدي، على بعد أكثر من عشر خطوات منِّي، وحزامي ممزَّقٌ إلى قطعٍ صغيرةٍ، وأنا بلا حراك ولا إحساس؛ مثلي مثل جذع شجرة.

أتته فكرة القَرَبِينَة في ما بعد؛ والحقيقة أنه لم يكن هناك سلاح. ما حدث أن أحد خدم مونتاني، وهو رجل مفتول العضلات، كان يسير خلفه على جوادٍ قويٍّ، وهمز مطيته ليركض بأقصى سرعته عبر الطريق «ليستعرض جرأته ويسبق صحبه»، كما خمَّن مونتاني. وفشل لسبب ما في التنبّه إلى مونتاني في طريقه، أو ربما أساء حساب عرض الطريق واعتقد أنه يمكنه المرور. لكنه بدلًا من ذلك سقط كتمثالٍ ضخمٍ على الرجل النحيل والجواد الضَّعيف.

توقَّف بقيّة الركب في هلع. نزل خدم مونتاني عن صهوات جيادهم وحاولوا إفاقته، لكنّه ظلَّ فاقدًا الوعي. فرفعوه عن الأرض وحملوا جسده الرخو للعودة به إلى القلعة. وأفاق مونتاني في منتصف الطريق. كان أول ما أحسّ به أن شيئًا ارتطم برأسه (وأوحى فقدانه الوعي بأن هذا كان صحيحًا)، لكنه بدأ في السعال أيضًا، كما لو كان قد تلقَّى خبطة في صدره. وحين رآه الرجال الذين كانوا بصحبته يناضل ليتنفّس جعلوه في وضع مستقيم، وبذلوا أقصى جهدهم ليحملوه وقد اتّخذ جسمه هذه الوضعيّة الغريبة. وتقيأ كتلًا من الدمِ المتجلِّط عدّة مرات. وكانت هذه علامة تنذر بالخطر، لكن السعال والتقيؤ جعلاه يظلُّ مستيقظًا.

عاد لرشده شيئًا فشيئًا مع اقترابهم من القلعة. لكنه كان لم يزل يشعر أنه ينزلق إلى الموت بدلًا من أن يخرج إلى الحياة. ما زال بصره زائغًا ولا يكاد يبصر الضوء. صار يعي جسده، لكن ما رآه لم يكن يبعث على الارتياح، لأن ملابسه كانت ملوّثة بالدم الذي كان يتقيأه. كان لديه بالكاد وقت ليسأل عن القَرَبينة قبل أن يعود إلى حالة شبه النسيان.

أخبر شهود الحادث مونتاني في ما بعد أنه كان يضرب الهواء بذراعيه، وكان يمزِّق سترته بأظافره، كما لو كان يخلِّص نفسه من حملٍ ثقيل. «كانت معدتي مثقلة بالدم المتجلِّط، وبشكلٍ تلقائي وضعت يداي على معدتي، كما نفعل حين نهرش، بلا قصدٍ منا». كان يبدو كما لو كان يحاول تمزيق جسده بيديه، أو ربما إبعاده عنه بحيث تتمكّن روحه من الرحيل. لكن أحاسيسه الداخلية ظلت في سكينة طوال ذلك الوقت:

> **بدا لي أن حياتي كانت معلَّقة بطرف شفتيَّ فقط؛ وأغمضت عينيّ لكي أساعد على إخراجها، كما بدا لي، وشعرت بسعادة لأني دخلت في حالة خمول وتركت نفسي تذهب. كانت مجرد فكرة تطفو على سطح روحي، رقيقة وواهية مثل جميع الأفكار الأخرى، لكنها في الحقيقة لم تكن مجرّد فكرة خالية من الكرب، بل كانت مختلطة أيضًا بالشعور الحلو الذي يشعر به الناس وهم يستسلمون للاستغراق في النوم.**

حمله الخدم متّجهين به إلى البيت، وهو في هذه الحالة من الإعياء الداخلي والاهتياج الخارجي. لاحظت أسرته اهتياجه وجرى أفرادها نحوه. وقد صاغ هذا المشهد في ما بعد بتلك العبارة «مع الصراخ العالي المعتاد في مثل هذه الحالات». سألوا ماذا حدث. كان مونتاني متمكنًا من الإجابة لكنَّ إجاباته لم تكن مترابطة. رأى

زوجته تشقّ طريقها بخطوات خرقاء في الطريق غير الممهَّد، وفكَّر في أن يخبر رجاله بأن يعطوها حصانًا لتركبه. وكتب أن المرء قد يعتقد بأن هذا كلّه لا بد أنه أتى من «روح شديدة اليقظة»، لكن الحقيقة «أنني لم أكن هناك إطلاقا». لقد ارتحل مونتاني بعيدًا جدًّا. «كانت هذه أفكارًا كسولة، في السحاب، تحرِّكها أحاسيس العينين والأذنين، لم تكن تأتي من داخلي»؛ وقد استخدم مونتاني هنا العبارة الفرنسية chez moi التي تعني عادة «داخل البيت». كانت أفعاله وكلماته جميعًا تنبع من جسده وحده بشكل ما. «ما أسهمت به الروح كان في حلمٍ، مسَّ برقةٍ ومُسح ونُثر، إذا جاز القول، بانفعالٍ رقيقٍ للحواس». بدا أن مونتاني على وشك مفارقة صحبة الحياة بلا ندم ولا وداعٍ رسميٍّ. كان هو والحياة كضيفين سكرانين يغادران حفلًا وقد أصابهما دوارٌ شديد لا يقدران معه على توديع بعضهما البعض.

استمرَّ اضطرابه بعد حمله إلى داخل بيته. كان لا يزال يشعر بأنه محمولٌ عاليًا في الهواء على بساط سحري بدلًا من كونه محمولًا بأيدي الخدم. لم يعانِ أيَّ ألمٍ ولا قلقٍ من وجود من حوله في حالة طوارئ. كل ما شعر به كسلٌ وضعفٌ. وضعه خدمه في الفراش؛ حيث رقد في سعادة تامة، بلا أي أفكار تدور في رأسه ما عدا فكرة مدى المتعة التي يشعر بها وقد استراح. «شعرت بحلاوة لا نهائية وقد أُضجعت في سكينة، لأن هؤلاء الرفاق المساكين الذين تحمّلوا مشقّة حملي بسواعدهم على طول طريق طويلٍ وغير ممهّد نقلوني بطريقة سيئة». رفض تعاطي أي دواء، وكان مصيره الموت المؤكَّد. كان سيكون «موتًا سعيدًا جدًّا».

تجاوزت هذه الخبرة تخيُّلات مونتاني السابقة عن الموت ببون شاسع. كانت أشبه بِرحلة واقعية في أرض الموت؛ لقد انزلق إلى موقعٍ قريبٍ من الموت ولمسه بشفتيه. لقد تمكّن من **تذوّقه**، كشخص يجرِّب عيّنة من شيءٍ له مذاق غير مألوف. كان هذا مقالًا عن الموت؛ **تدريبًا** أو exercitation[1]، وهي الكلمة التي استخدمها عندما كتب عن هذه الخبرة. وسوف ينفق المزيد من الوقت في ما بعد في فحص وتمحيص الأحاسيس في ذهنه، معيدًا بناءها بأقصى قدرٍ ممكنٍ من الدقَّة بحيث يمكن التعلُّم منها. لقد منحه الحظ الفرصة لاختبار الإجماع الفلسفي على الموت. لكن كان من الصعب التأكُّد أنه تعلَّم الإجابة الصحيحة. من المؤكَّد أن الرواقيين كانوا سينظرون إلى نتائجه باستنكارٍ.

كانت بعض أجزاء الدرس صحيحة: فمن خلال تدريبه (الذي عبّر عنه بلفظ

(1) عبارة قديمة غير معتاد استخدامها بمعنى تدريب (المترجمة).

exercitation)، تعلَّم ألّا يخاف من عدم وجوده هو نفسه. قد يكون للموت وجه ودود، بالضبط كما وعد الفلاسفة. نظر مونتاني في هذا الوجه؛ لكنه لم يحدِّق فيه تحديقًا صريحًا، كما ينبغي لمفكِّرٍ عقلانيٍّ. فقد طفا على وجه الموت وهو يكاد يكون فاقد الوعي بدلًا من المضي قدُمًا بعينين مفتوحتين، متّكئًا على نفسه كجندي، وقد أغواه الموت. وقد أدرك الآن أن المرء لا يلتقي بالموت إطلاقًا عند موته، لأنّك تكون قد ذهبْتَ قبل أن يصلَ هو إليك. أنت تموت بالطريقة نفسها التي تنام بها؛ بأن يجرفك تياره بعيدًا. فإذا حاول الآخرون جذبك لإعادتك، فإنك تسمع أصواتهم «على حوافّ الروح». وجودك معلَّقٌ بخيطٍ؛ لا يستقرُ إلا على طرف شفتيك، كما عبَّر مونتاني. الموت ليس فعلًا يعِدُّ له المرء العدَّة. بل هو حلم يقظة بلا هَدف.

ومن الآن فصاعدًا، كلّما قرأ مونتاني عن الموت، كان يظهر اهتمامًا أقلَّ بالنِّهايات التي وضعها الفلاسفة العظام على سبيل العبرة، ويولي مزيدًا من الاهتمام للنهايات التي عبَّر عنها الناس العاديون، وبالذات الذين حدث موتهم وهم في حالة «وهنٍ وغيبوبةٍ». كتب مونتاني في أكثر مقالاته نضجًا بإعجاب عن رجال مثل بيترونياس[1] وتيجيليناس[2]، وهما رومانيان ماتا محاطين بالنكات، والموسيقى، والحوارات اليومية، فانساب إليهما الموت ببساطة وسط البهجة العامّة الطيّبة. وبدلًا من أن يحوِّلا حفلًا إلى مشهد موت، كما فعل مونتاني في تخيلاته وهو شاب، حوَّلا مشهد موتهما إلى حفلٍ. وأحبَّ بشكلٍ خاصٍّ قصة مارسيلينيوس[3]، الذي تجنَّب موتًا مؤلمًا بسبب المرض بطريقة الموت الرحيم المهذَّبة. بعد أن صام مارسيلينيوس لعدّة أيامٍ رقد في حمام شديد السخونة. لا شكَّ أنّه كان بالفعل قد ضعف بفعل مرضه؛ وما فعلهُ الحمّام هو أنهّ أخرج منه آخر أنفاسه مع البخار. انزلق خارج الحياة ببطء، ثم مات. ومع موته غمغم بإعياء لأصدقائه بكلمات عن المتعة التي كان يشعر بها.

قد يتوقّع المرء المتعة في ميتة مثل ميتة مارسيلينيوس، لكن مونتاني تعلَّم شيئًا أكثر إثارة للدهشة؛ أنه يمكن أن يتمتّع بمشاعر الطفو السّارَّة نفسها حتى لو بدا جسده في حالة تشنّج، متخبطًا بما يبدو للآخرين مثل حالة عذاب.

تعارض اكتشاف مونتاني هذا مع نماذجه الكلاسيكية؛ كما تحدَّى الفكرة المسيحيّة التي سادت عصره. لأن الفكرة الأخيرة التي يجب أن تطوف في ذهن المسيحي هي

(1) كاتب، وسياسي من روما القديمة ولد في 27م وتوفّي في 66م (المترجمة).
(2) قائد الحرس الإمبراطوري الروماني من 62 – 68م (المترجمة).
(3) البابا مارسيلينيوس الذي عيِّن أسقفًا لروما في 296م (المترجمة).

أن تمجِّد روحه الإله بوعي، وليس أن يطلق 'الآآآآآآآآآآآآآآه... ' المغتبطة التي يبدو أن خبرة مونتاني الخاصَّة لَم تضع فيها أي أفكار عن الإله إطلاقًا. ولم يطرأ على ذهنه - على ما يبدو - أن موت الإنسان سكرانًا ومحاطًا بالبغايا قد يدمِّر الحياة الأخرى للمسيحي. كان أكثر اهتمامًا بإدراكه العلماني الخالص بأن النَّفس الإنسانية، والطبيعة عمومًا، كانا أصدق أصدقاء الرّجل الذي يعاني سكرات الموت. وبدا له الآن أن الوحيدين الذين ماتوا بشجاعة تضاهي شجاعة الفلاسفة لا بد أنهم من لم يعرفوا أي فلسفة على الإطلاق، ألا وهم الفلاحون الأمّيون في ضيعته وقريته. كتب: «لم أرَ أبدًا أحدًا من جيراني الفلاحين يتأمّل الهدوء والأمان اللذين يمكن أن يغمراه وهو يمر بهذه الساعة الأخيرة»، وكتب أنه ليس بالضرورة أن يعرف ما إذا كانوا فعلوا هذا. لقد اعتنت بهم الطبيعة. علَّمتهم أنهم لا ينبغي أن يفكِّروا في الموت إلا عندما يحين أجلهم، وحتى حينئذ ينبغي ألّا يكثروا من التفكير فيه. يجدُ الفلاسفة صعوبة في مغادرة الدنيا لأنهم يحاولون الحفاظ على التحكُّم فيها. يكفي أن «تفلسُف المرء يعني أن يتعلَّم كيف يموت». بدت الفلسفة أشبه بطريقة لتعليم الناس نسيان المهارة الطبيعية التي لدى كل فلاح بحكم المولد.

لم يمتْ مونتاني في هذه المناسبة، على الرغم من ترحابه بالطفو مبتعدًا. لقد شفِي؛ وعاش منذئذ فصاعدًا بطريقة مختلفة قليلًا. فمنذ كتب مونتاني مقاله عن الموت، أخذ بالتأكيد درسًا غير فلسفي عن الفلسفة، لخّصه بهذه الطريقة العفوية:

> **لو لم تكن تعرف كيف تموت، لا تقلق؛ الطبيعة ستخبرك بما يجب أن تفعله في حينها، تمامًا وبكفاءة. ستقوم لك بهذه المهمّة بشكلٍ دقيقٍ؛ لا تُشغل رأسَك بها.**

صارت عبارة «لا تقلق من الموت» أكثر إجابات مونتاني عن سؤال كيف تعاشُ الحياةُ أصالةً وتحريرًا لنفسه من ربقة القلق. هذه العبارة جعلت من الممكن: أن عِشْ.

لكن الحياة أصعب من الموت: فالحياة تستدعي انتباهًا لها وإدارة لشؤونها، وليس الاستسلام السّلبي لها. ويمكن أيضًا أن تكون الحياة أكثر إيلامًا. لم يستمرّ انجراف مونتاني انجرافًا سارًّا مع تيارات النسيان. فحين عاد تمامًا للوعي، بعد ساعتين أو ثلاث ساعات، وجد نفسه وقد انهالت عليه الأوجاع، أطرافه «ممزَّقة وفيها كدمات». وعانى لعدّة ليالٍ بعد ذلك، وحدثت عواقب أبعد مدى. وكتب أخيرًا بعد ثلاث سنوات من هذا الحادث: «ما زلت أشعر بأثر صدمة هذا الارتطام».

استغرقت استعادة ذاكرته وقتًا أطول مما استغرقتْه استعادة حواسِّه الجسديّة، على الرغم من أنه أنفق عدة أيام يحاول إعادة بناء الحدث باستجواب شهود العيان. لم يسفر هذا عن أدنى شرارة تَذَكُّر، إلى أن عاد الحدث بأكمله إلى ذاكرته مرة واحدة مع صدمة كما لو كان قد صعقه البرق؛ إعادة عرض «لصاعقة» الوقع الأَوَّلِيّ للحادث. كانت عودته إلى الحياة عنيفة مثلما كان الحادث؛ كل التدافع، ووقع التأثيرات، والومضات والصوت العاصف. دفعت الحياة بنفسها عميقًا في داخله، بينما كان الموت شيئًا خفيفًا وسطحيًّا.

ومنذئذ حاول مونتاني أن يجلب إلى الحياة شيئًا من رقّة الموت وما فيه من بهجة الإحساس بالطفو. فكتب في مقال متأخِّر أن «النِّقاط الرديئة» موجودة في كلِّ مكانٍ. ونحن نعيش بطريقةٍ أفضل حين «ننزلق فوق هذا العالم بشيءٍ من الخفّة وعلى السطح». وانزاح عن مونتاني الكثير من خوفِه من خلال هذا الاكتشاف للانزلاق والانجراف، واكتسب في الوقت نفسه معنًى جدِّيًّا لأن مرور الحياة، حياته الخاصّة، حياة ميشيل دي مونتاني عبر جسمه كان موضوعًا مدهشًا للفحص. من شأن مونتاني أن يمضي في الاهتمام بالأحاسيس والخبرات، لا لِما كان يجب أن تكون عليه، ولا للدروس الفلسفية التي قد تحملها، بل للطريقة التي يحسّها بها المرء فعلًا. من شأنه أن يمضي مع التيار.

كان هذا تدريبًا جديدًا له، سيطر على روتينه اليومي، وأعطاه – من خلال الكتابة – شكلًا من أشكال الخلود. وهكذا، في حوالي منتصف عمره، وُلِد مونتاني من جديد.

مكتبة
t.me/t_pdf

2. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟

ج: انتبهْ

بدء الكتابة:

لم يستمر حادث وقوعه عن الحصان - الذي غيَّر منظور مونتاني إلى حدٍّ بعيدٍ - إلا لحظات قليلة في حدِّ ذاته، لكنْ يمكن تفكيكه إلى ثلاثة أجزاء وبسطه عبر عدة سنوات. أولًا، نجد مونتاني مستلقيًا على الأرض، يقبض على معدته بأصابع متشنّجة وهو يشعر بانشراحٍ وهميٍّ. يلي ذلك مونتاني في الأسابيع والشهور التي أعقبت الحادث، حيث يتأمل هذه الخبرة بعمقٍ ويحاول النظر إليها في ضوء قراءاته الفلسفية. ثم نجد مونتاني بعد بضع سنوات، يجلس ليكتب عن تلك الخبرة، وعن الكثير من الأشياء الأخرى. المشهد الأوَّل يمكن أن يحدث لأيِّ شخص؛ والمشهد الثاني يمكن أن يحدث لشابٍّ حسّاسٍ، متأمّلٍ، من أبناء عصر النهضة. أما المشهد الأخير فيجعل مونتاني متفرّدًا.

الرابط ليس شيئا بسيطًا؛ فهو لم يجلس في فراشه ويبدأ فورًا في الكتابة عن الحادث. وبدأ في تأليف كتاب **المقالات** بعد بضع سنوات من الحادث، في حوالي العام 1572، وحتى حينذاك، كتب فصولًا أخرى من الكتاب قبل أن يصل إلى الفصل الذي يتناول فقدان الوعي. لكنّه حين بدأ كتابته، جعلته الخبرة يحاول نوعًا آخر من الكتابة، يكاد لا يكون غيره من الكتّاب قد حاوله؛ نوع إعادة خلق الأحاسيس المتتابعة التي يشعر بها في داخله، متابعًا إياها من لحظة إلى أخرى. ويبدو أنه كان لديه رابط زمني بين الحادث ونقطة تحوّل أخرى في حياته، فتحت له الطريق إلى الأدب؛ ذلك كان قراره بالاستقالة من وظيفة القاضي التي يشغلها في بوردو.

عاش مونتاني منذئذٍ حياتين جنبًا إلى جنبٍ: حياة حضرية وسياسية، والأخرى ريفية وإدارية. وعلى الرغم من أنه أدار الضيعة منذ وفاة والده في العام 1568 فقد استمرّ في العمل في بوردو. لكنّه في بدايات العام 1570 عرض منصب القضاء الذي يتقلّده للبيع. كانت لديه أسباب أخرى إضافة إلى ما سبّبه الحادث؛ فقد تلقّى للتو رفضًا لتعيينه في منصب تقدَّم له في المحكمة العليا، ربما لأن أعداءه السياسيين حالوا دون تعيينه.

كان التصرّف الأكثر اعتيادًا التظلم من هذا الرفض، أو محاربته، لكنه بدلًا من ذلك تخلّص منه. ربما فعل هذا تحت تأثير الغضب، أو الخذلان، أو ربما جعله لقاؤه مع الموت مشفوعًا بفقدان أخيه يفكِّر بطريقة مختلفة في كيف يريد أن يعيش حياته.

كان مونتاني قد قضى ثلاثة عشر عامًا من العمل في برلمان بوردو حين أخذ هذه الخطوة. كان في السابعة والثلاثين، ربما في منتصف العمر بمعايير زمنه، إنما لم يكن مسنًّا. لكنه فكَّر في نفسه باعتباره شخصًا يتقاعد تاركًا تيار الحياة السائدة ليبدأ وجودًا جديدًا تأمليًّا. وأعلن هذا القرار حين حلّ عيد ميلاده الثامن والثلاثين - بعد عام بالفعل من اتخاذه القرار - ووضع علامة على ذلك بأن أمر بأن يكتب باللغة اللاتينية على جدار غرفة جانبية مجاورة لمكتبته:

> **في العام 1571 من ميلاد المسيح، في سن الثامنة والثلاثين، تقاعد ميشيل دي مونتاني، الذي قضى عمرًا طويلًا في خدمة المحكمة وفي شغل الوظائف العامّة، وهو ما زال بكامل قواه؛ ليعود إلى أحضان العذارى العارفات [إلهات الفنون الملهمات المعروفات باسم الميوزس]، حيث سيقضي ما بقي له من عمر، انقضى أكثر من نصفه الآن، في هدوءٍ وراحة بالٍ. وإذا سمحتِ الأقدارُ فسوف يكمل بناء هذا المسكن، هذا المكان الخاصّ الآمن الجميل الذي يرجع لأسلافه؛ ويكرِّسه لحرِّيته، وسكينته، ووقت فراغه.**

سيعيش مونتاني من هنا فصاعدًا لنفسه لا للواجب. ربما لم يقدِّر العمل الذي بذله في ترتيب الضيعة حق قدره، ولم يشر بعد إلى كتابة المقالات. لم يتحدَّث إلا عن «الهدوء والحرية». لكنه كان قد أنجز فعلًا العديد من المشروعات الأدبية الصغيرة. واستجاب لطلب أبيه بشيء من المضض فترجم كتابًا دينيًّا، وبعد ذلك حرَّر مجموعة مجلّدات من المسوَّدات التي تركها صديقه إتيين دي لا بويتي، مضيفًا إليها إهداءات وخطابًا كتبه بنفسه يصف فيه الأيام الأخيرة للا بويتي. وفي خلال تلك السنوات القليلة الواقعة عند منعطف العام 1570 واكبت كتاباته الأدبية المتقطِّعة خبرات أخرى، هي سلسلة الفواجع التي ألمّت به، وموته الوشيك هو نفسه، ورغبته في ترك السياسة في بوردو، وتشوّقه إلى الحياة الهادئة، وشيءٍ آخر أيضًا، لأن زوجته كانت حبلى الآن بطفلهما الأول. امتزج توقُع الحياة الجديدة بظلِّ الموت؛ وقاداه معًا إلى طريق كينونة جديد.

قورن تغيَّر اتجاه مونتاني من منتصف ثلاثينيات عمره حتى أواخرها بأشهر تغيّرات الحياة في الأدب، ألا وهو تغيُّر دون كيشوت، الذي هجر نظام حياته ليرحل بحثًا عن مغامرات فروسية؛ وتغيّر دانتي الذي فقد نفسه في الأدغال «في منتصف طريق حياته».

خطا مونتاني داخلًا في الأدغال المتشابكة لمنتصف حياته، واكتشف طريق الخروج منها، وتركت خطواته في هذه المسيرة سلسلة من آثار الأقدام؛ علامات تركها رجل مترنّح، يتعثّر، ثم يعود للسير قدمًا:

يونيو 1568 - ينتهي مونتاني من ترجمة الكتاب الدِّيني. ويموت والده؛ ويرث هو الضيعة.
ربيع 1569 - يموت أخوه في حادث التنس.
1569 - يتوقّف عمله في بوردو.
1569 أو بدايات 1570 - يكاد يموت.
خريف 1569 - تحبل زوجته.
بدايات 1570 - يقرِّر التقاعد.
صيف 1570 - يتقاعد.
يونيو 1570 - تولد طفلته البكر.
أغسطس 1570 - تموت طفلته البكر.
1570 - يحرِّر كتابات لا بويتي.
فبراير 1571 - يكتب عن ميلاده على جدار المكتبة.
1572 - يبدأ في تأليف كتاب المقالات.

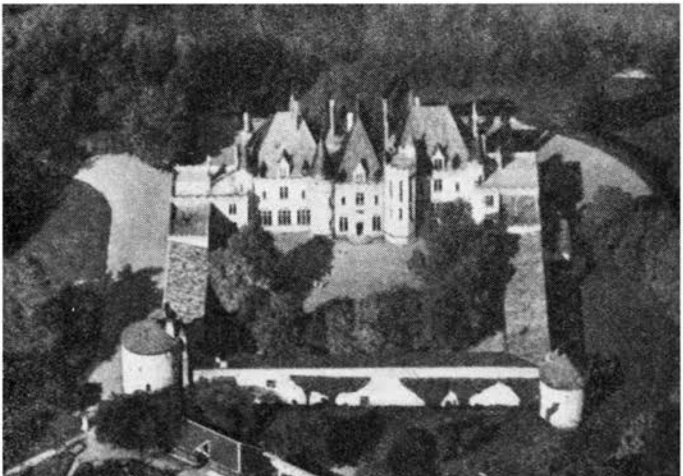

قصر دي مونتاني. من ف. استروفسكي ,F. Strowski، مونتاني. (Paris: Nouvelle Revue Critique, 1938). برج مونتاني في أسفل اليسار.

ربما وجد مونتاني حياة جديدة تأمّلية حين كرّس نفسه لفعل ما يأمل، ومضى مونتاني في مشقّة عظمى لإقامة هذه الحياة كما أرادها بالضبط. واختار بعد تقاعده أحد برجين موجودين في زوايا مباني قصره ليكون مكانه الخاصّ الآمن الذي يخدم جميع أغراضه ومركز عملياته، وجعل البرج الآخر لزوجته. احتضنت هذه القطع المعمارية في الزاويتين مع مبنى القصر الرئيسي والجدران الواصلة بينه وبينهما فناء مربعًا بسيطًا قائمًا وسط الحقول والغابات.

اندثر المبنى الأساسي الآن. فقد احترق في العام 1885، وبُني مكانه مبنًى جديدٌ بالتصميم المعماري نفسه. لكن لحسن الحظ لم تمسّ النيران برج مونتاني، الذي ظلَّ على حالته أساسًا، وما زال يمكن للزوار ارتياده. وليس من الصعب لمن يسير في أنحاء المكان أن يرى لماذا أحبَ مونتاني ذلك البرج إلى هذه الدرجة. يبدو شكله من الخارج محَبَّبا لمن يراه ومكتنزًا بالنسبة لبرج مكوَّن من أربعة طوابق، جدرانه في سمك جدران قلعة رملية. صُمّم أساسًا لاستخدامه في الدفاع عن المكان؛ وعدَّله والد مونتاني ليُستخدم في شؤون أكثر سلميّة؛ فحوَّل الطابق الأرضي إلى كنيسة صغيرة، وأضاف سلّمًا داخليًّا حلزونيًّا. وصار الطابق الذي يعلو الكنيسة غرفة نوم مونتاني. وكثيرًا ما

مشهد بانورامي لمكتبة مونتاني. الصورة بكاميرا جون ستافورد. John Stafford.

كان ينام هناك بدلًا من العودة إلى المبنى الرئيسي. وبُني على السلالم التي تعلو هذه الغرفة غرفة صغيرة للحمام، وفوقه، تحت العلّيّة تمامًا، «بجرسها الضخم» الذي كانت دقات ساعته تصيب سامعها بالصمم، يقع المزار المفضَّل لمونتاني: مكتبته.

ومن يصعد اليوم سلالمه - التي بليت درجاتها الصخرية وامتلأت بالفجوات بفعل الكثير من الأقدام التي داستها - يمكنه الدخول إلى هذه المكتبة والتجوُّل فيها في دائرة ضيّقة، والنظر من نوافذها إلى الفناء والمنظر الطبيعي، بالضبط كما كان يفعل مونتاني. ربما لم يختلف المنظر كثيرًا عن أيامه، لكن الغرفة نفسها اختلفت؛ فهي الآن خالية من الأثاث وبيضاء، بأرضية صخرية عارية، كانت في ما مضى مغطّاة بدواسة، يحتمل أن تكون مصنوعة من البوص. وكان على جدرانها لوحات زيتية جدارية لم يجفّ طلاؤها بعد. وفي الشتاء، كانت النيران تشعل في معظم الغرف، لكن ليس في المكتبة الرئيسية، التي لم يكن فيها مدفأة. فكان مونتاني يلجأ في الأيام الباردة إلى الغرفة الجانبية الأدفأ المجاورة للمكتبة، إذ كان فيها مدفأة.

كانت أكثر الملامح المثيرة للانتباه في غرفة المكتبة الرئيسية حين شغلها مونتاني مجموعة الكتب الجميلة التي يقتنيها، مرتّبة في خمسة صفوف على مجموعة من

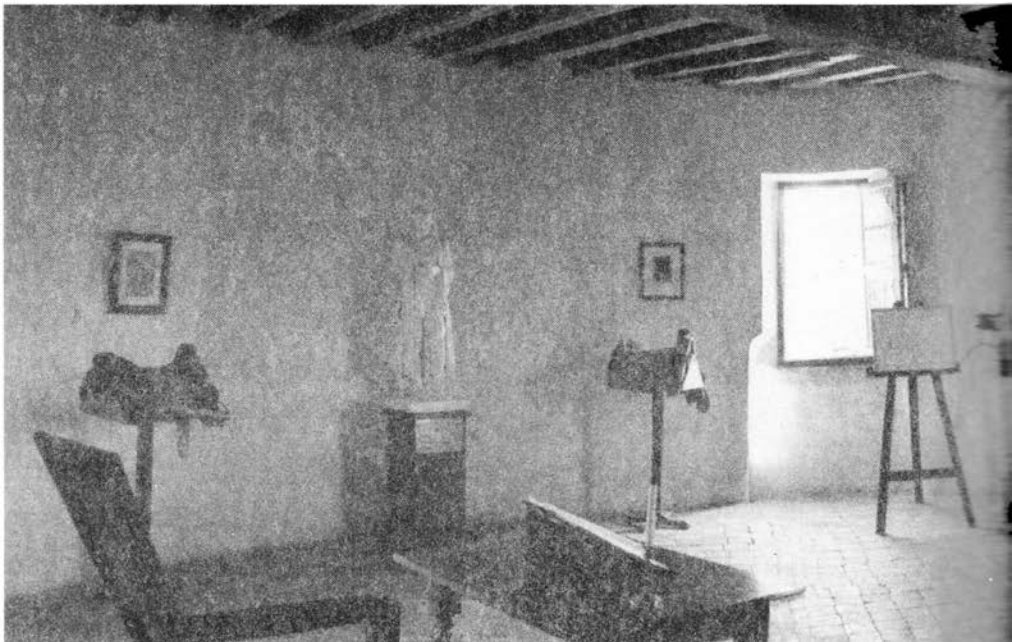

الرفوف الجميلة ذات الانحناءات. كانت الانحناءات ضرورية لتناسب البرج ذا الشكل المستدير، ولا بد أنها كانت تحدِّيًا شديدًا للنَجّار الذي صنعها. أتاحت الرفوف عرض جميع كتب مونتاني أمام ناظريه في نظرة واحدة؛ وهذا يتيح مسحًا للكتب باعثًا على الرضا. كان يمتلك حوالى ألف مجلد حين انتقل إلى المكتبة، الكثير منها ورثها عن صديقه لا بويتي، وبعضها الآخر اشتراه بنفسه. كانت مجموعة كبيرة، وقرأ مونتاني بالفعل كتبه أيضًا. وقد تفرّقت هذه الكتب الآن، وأزيلت الرفوف أيضًا.

وتفرقت في أنحاء الغرفة مجموعات مقتنيات مونتاني الأخرى: تذكارات تاريخية، وقطع متاع موروثة عن العائلة، ومصنوعات فنّية من أمريكا الجنوبية. وكتب مونتاني عن أسلافه: «أحتفظ بكتابات بخطِّ يدهم، وبختمهم، وبكتاب صلواتهم اليومية، وبسيفٍ استخدموه، ولم أستبعد من غرفة مكتبي بعض العصيّ الطويلة التي كان والدي يحملها عادة في يده». أما مجموعة مقتنيات أمريكا الجنوبية فقد تكوَّنت من هدايا الرحّالة؛ وشملت مجوهرات، وسيوفًا خشبيةً، وعصيًّا تستخدم للرقص في الاحتفالات. لم تكن مكتبة مونتاني مجرّد مخزن أو مكان للعمل. كانت غرفة للروائع، وبدا أنها مثل نسخة القرن السادس عشر من آخر بيت سكنه سيجموند فرويد في هامبستيد بلندن: غرفة كنوز مزدحمة بالكتب، والأوراق، والتماثيل الصغيرة، والصور، وأواني الزهور، والتمائم، وتحف من شعوب مختلفة الأعراق، صُمِّمت لتنشيط الخيال والتفكير الذهني كليهما.

كانت المكتبة أيضًا علامة على أن مونتاني رجلٌ يتبع الموضة. كانت هذه الأماكن الخاصّة الآمنة موضة شائعة تنتشر ببطء في أنحاء فرنسا، حيث بدأت في إيطاليا في القرن السابق. كان الرجال الميسورو الحال يملأون الغرف برفوف الكتب ووسائل القراءة، ثم يستغلّونها كأماكن يهربون إليها بزعم أنهم مضطرون للعمل. وسَّع مونتاني من إمكانات الهروب بنقل مكتبته من البيت تمامًا.

كانت المكتبة تجمع بين كونها موقعًا ممتازًا وكهفًا في الوقت نفسه، أو فلنستخدمْ عبارة أحبَّها هو نفسُه، «غرفة خلف المتجر arrière – boutique». كان بوسعه أن يدعو الضيوف إلى هناك إذا أحبَّ – وكثيرًا ما كان يفعل – لكن لم يكن الواجب يقتضي ذلك. لقد أحبَّها. «من جهتي، أشعر بالأسف للرجل الذي ليس لديه في بيته مكان له وحده، ليهتمَّ فيه بنفسه بخصوصية، ليختبئ».

وحيث إن المكتبة مثّلت الحرية نفسها، فلا عجب أن مونتاني مارس طقس تزيينها وجعلها مميزة ومختلفة. كان في الغرفة الجانبيّة – إضافة إلى النصِّ المحفور الذي يحتفي بتقاعده – لوحات زيتية جدارية من الأرض إلى السقف. لقد شحبت هذه اللوحات، لكن مما تبقّى مرئيًّا منها، نجدها تصوِّر حروبًا شعواء، وفينوس تنعى موت

أدونيس، والإله نبتون ملتحيًا، وسفينة تعصف فيها الرياح العاتية، ومشاهد من الحياة الريفية؛ جميعها إحياءً لروح العالم الكلاسيكي. وكان مكتوبًا على عوارض السقف الخشبية في الغرفة الرئيسية اقتباسات، معظمها كلاسيكي أيضًا. كان هذا أيضًا موضة شائعة، على الرغم من أنها ظلّت تنتمي لذائقة الأقليّة. فقد وضع الفيلسوف الإنساني الإيطالي مارسيليو فيسينو اقتباساتٍ على جدران فيلّته في توسكانيا، وبعد ذلك، فعل البارون مونتسكيو الشيء نفسه في منطقة بوردو، في تكريمٍ مقصودٍ لمونتاني.

بَهَتَتِ الكتاباتُ التي على عوارض سقف مونتاني بمرور السنوات، لكنها رُمّمت فيما بعد وصارت واضحة وسهلة القراءة، فإذا سار المرء في أنحاء الغرفة الآن، تهمس له أصوات من فوق رأسه:

الشيء المؤكّد: أنه لا شيء مؤكّدٌ
ولا يوجد ما هو أكثر بؤسًا أو غطرسة من الإنسان (بلِّيني الأكبر)

ΚΡΙΝΕΙ ΤΙΣ ΑΥΤΟΝ ΠΩΠΟΤ ΑΝΘΡΩΠΟΝ ΜΕΓΑΝ ΟΝ
ΕΞΑΛΕΙΦΕΙ ΠΡΟΦΑΣΙΣ Η ΤΥΧΟΥΣ' ΟΛΟΝ

كيف يمكن أن تعتقد أنك رجلٌ عظيمُ، بينما يمكن لأول حادث يعترضك أن يزيلك عن وجه البسيطة (يوريبيدِس).

ΕΝ ΤΩ ΦΡΟΝΕΙΝ ΓΑΡ ΜΗΔΕΝ ΗΔΙΣΤΟΣ ΒΙΟΣ
ΤΟ ΜΗ ΦΡΟΝΕΙΝ ΓΑΡ ΚΑΡΤ' ΑΝΩΔΥΝΟΝ ΚΑΚΟΝ

لا يوجد أجمل من حياة رجل عديم الاهتمام؛
عدم الاهتمام شرٌ، لكنّه شرٌّ خالٍ من الألم حقًا (سوفوكليس).

تشكِّل عوارضُ السقف شاهدًا حيًا يذكِّرنا بقرار مونتاني بالانتقال من الحياة العامّة إلى وجودٍ تأمُّليٍّ؛ حياةٍ تعاشُ حرفيًّا تحت راية الفلسفة لا راية السياسة. كان هذا الانتقال من عالمٍ إلى آخر جزءًا من نصيحة الأقدمين أيضًا. فالرواقي العظيم سينيكا حثَّ زميله رومانز مرارًا وتكرارًا على التقاعد لكي «يجد نفسه»، بعبارتنا. وكان التقاعد في عصر النهضة، مثلما في روما القديمة، جزءًا من إجادة إدارة الحياة. لقد قضيت مدّتك في الوظيفة، ثم انسحبت منها لتستكشف معنى الحياة الحقّة ولتبدأ العملية الطويلة، ألا وهي عملية إعداد نفسك للموت. كان لدى مونتاني تحفُّظات على الجزء الثاني من هذه العبارة، لكن لا شكَّ في اهتمامه بتأمُّل الحياة. كتب مونتاني: «دعونا نتحرَّر من جميع الروابط التي تربطنا بالآخرين؛ دعونا نكتسب القوّة لنعيش حقًّا وحدنا ونعيش على هذا النحو براحتنا».

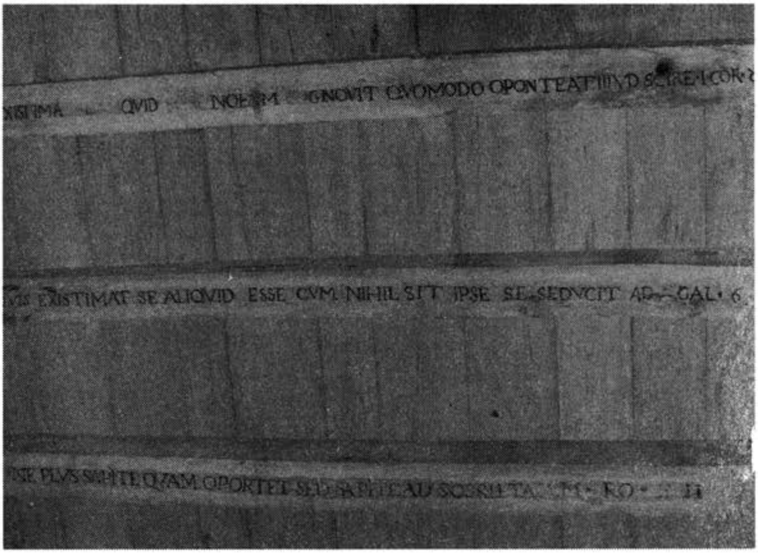

عوارض سقف مكتبة مونتاني. الصورة بكاميرا سارة بيكويل. **Sarah Bakewell**

عندما نصح سينيكا بالتقاعُد، حذَّر أيضًا من مخاطره. في حوار بعنوان «عن سكينة العقل». كتب سينيكا أن البطالة والعزلة يمكن أن تُظهرا جميع عواقب عيش الحياة بطريقةٍ خاطئةٍ، وهي العواقب التي يتجنَبها الناس عادة بأن يظلّوا في انشغالٍ دائم؛ أي بالاستمرار في عيش الحياة بالطريقة الخاطئة. يمكن أن تشمل أعراض ذلك: الشعور بعدم الرضا، ومقت الذات، والخوف، والتردّد، والخمول والاكتئاب السوداوي. يجلب التخلّي عن العمل أمراضًا روحية، خاصّة لو اكتسب المرء حينذاك عادة قراءة الكثير من الكتب، أو الأسوأ من ذلك ترتيب الكتب وعرضها وتأمّل منظرها بحبور.

بدا أن مونتاني كان يعاني بالضبط في بدايات سبعينيات القرن السادس عشر أثناء تنقله بين القيم من الأزمة الوجودية التي حذَّر منها سينيكا. كان لديه عمل، لكن بكمٍّ أقل مما اعتاد عليه. ولَّد الكسل أفكارًا غريبة و«روح دعابة اكتئابية سوداوية» منافية لسماته الشخصية. قال إنه ما إن تقاعد حتى انطلق عقله من عقاله وركض كحصانٍ هاربٍ؛ وهذه مقارنة سديدة، مع الأخذ في الاعتبار ما حدث مؤخرًا. رأسه مُلِئ بالكلام الفارغ، بالضبط مثل أرض بور مليئة بالحشائش الضارّة. وفي صورة حيّة أخرى – أحبّ مونتاني مراكمة مؤثّرات مثل هذه – قارن بين مخّه الكسول وبين رحم المرأة العاقر، الذي لا يولد منه إلا كتل لا شكل لها من اللحم بدلًا من الأطفال، كما تحكي القصص المعاصرة. وفي تشبيه مستعَار من فيرجيل، وصف مونتاني الأفكار بأنها تشبه الأشكال التي ترقص عبر السقف حين ينعكس عليه ضوء الشمس من سطح الماء الموجود

في وعاء، مثلما تتمايل خطوط الضوء الشبيهة بخطوط جلد النَمِرِ المتعرِّجة، وهكذا يتذبذب العقل غير المنشغل بشيء بشكل لا يمكن توقّعه ويجلب نزوات مجنونة حائرة. إنه يخلق خيالات أو تهويمات، وهما كلمتان كانت ترتبط بهما معانٍ أقلّ إيجابية مما هما عليه اليوم، توحيان بأوهام هذيان لا بأحلام يقظة.

و»نزوة» مونتاني جعلته يفكر في فكرة أخرى مجنونة؛ ألا وهي فكرة الكتابة. سمّى الكتابة تهويمة أيضًا، لكنها كانت تهويمة تحمل وعدًا بحلٍّ. وحين وجد عقله متخمًا «بأوهام ووحوش خيالية، تتوالى تباعًا، من دون نظام أو هدف»، قرّر أن يكتبها، لا ليتغلّب عليها مباشرة، بل ليفحص غرابتها في وقت فراغه. فالتقط قلمه؛ وهكذا وُلدت أولى مقالة من كتاب **المقالات**.

كان سينيكا سيوافق على ذلك. فإذا أصابك الاكتئاب أو الملل في فترة تقاعدك، ينصحك سينيكا بأن تنظر حولك وتهتمّ بتنوّع الأشياء وروعتها. يكمن الخلاص في الانتباه التامّ للطبيعة. حاول مونتاني فعل ذلك، لكنه فهم أن «الطبيعة» في المقام الأول تعني الظاهرة الطبيعيّة الأقرب إلى متناول اليد، ألا وهي نفسه. بدأ في ملاحظة خبرته الخاصّة والتساؤل حولها، وكتابة ما لاحظه.

كان هذا يعني في البداية أساسًا اتباع ما يثير حماسته الشخصية، خاصّة القصص التي عرفها من قراءاته: قصص من أوفيد، ووقائع تاريخية من قيصر وتاكيتوس، وشذرات من السِّيَر الذاتية من بلوتارخ، ونصائح عن كيف تُعاش الحياة من سينيكا وسقراط. ثم كتب قصصًا سمعها من أصدقائه وحوادث من الحياة اليومية للضيعة، وحالاتٍ ترسَّبت في ذهنه من السنوات التي عمل فيها بالقانون والسياسة، ومتفرّقات رآها في أسفاره (التي كانت محدودة جدًّا). كانت تلك بداياته المتواضعة؛ ثم نمت مادة كتابته بعد ذلك حتى شملت تقريبًا كل أثر من عاطفة أو فكر مرَّ بهما في حياته، وليس أقلها رحلة دخوله في الغيبوبة واستعادته للوعي.

ربما مرَّت فكرة النشر بذهنه في فترة مبكرة، على الرغم من أنه زعم العكس، قائلا إنه يكتب فقط للأسرة والأصدقاء. ربما بدأ حتّى بقصد تأليف كتاب عادي: مجموعة مختارة من الاقتباسات والقصص مرتّبة بحسب موضوعاتها، من النّوع الشائع بين السّادة في زمنه. إذا كان الأمر كذلك، لم يستغرق مونتاني وقتًا طويلًا لتجاوز هذا، ربما تحت تأثير الكاتب الذي أحبّه أكثر من سينيكا، ألا وهو بلوتارخ. حاز اسم بلوتارخ شهرة في القرن الأول الميلادي، بكتاباته الجميلة التي تذكر المختصر المفيد عن السيرة الذاتية لرموز تاريخية، كما كتب مقطوعات قصيرة تسمى الموراليا **(الأخلاق)**، تُرجمت إلى

الفرنسية في السنة التي بدأ فيها مونتاني في تأليف كتابه **المقالات**. جمَّعت هذه الكتابات أفكارًا وحكايات عن أسئلة تتراوح ما بين «هل يمكن القول بأن الحيوانات ذكية؟»، إلى «كيف يحقِّق المرء راحة البال؟». وكانت نصيحة بلوتارخ بشأن الموضوع الأخير هي نصيحة سينيكا نفسها: ركِّزْ على ما هو موجود أمامك الآن، وانتبهْ له.

ومع مرور سنوات سبعينيات القرن السادس عشر، وتأقلم مونتاني مع حياته الجديدة التي تلت الأزمة، صار الانتباه طريقةً مفضلةً لديه لتزجية الوقت. كانت السنة التي كتب فيها معظم كتاباته هي 1572؛ حين بدأ في كتابة معظم مقالات الكتاب الأول وبعض مقالات الكتاب الثاني. ثم تتالت بقية الكتابات في 1573 و1574. لكن سيمضي وقت طويل قبل أن يشعر بأنه على استعداد للنشر؛ ربما لمجرَّد أن الموضوع لم يطرأ على ذهنه، أو ربما لأنه استغرق عدة سنوات ليرضى عما أنجزه. وسيمضي عقد من الزمان منذ تقاعده في 1570 إلى اليوم الذي تلا عيد ميلاده السابع والأربعين في 1 مارس 1580، حين مهر استهلال الطبعة الأولى من كتاب **المقالات** بتوقيعه وأرَّخه، وحاز الشهرة في يوم وليلة.

أخرجت الكتابة مونتاني من أزمة «تهويماته المجنونة»، وعلّمته الآن أن ينظر إلى العالم عن كثب، وأكسبته المزيد من عادة وصف الأحاسيس الداخلية واللقاءات الاجتماعية بدقّة. اقتبس مونتاني من بلِّيني فكرة الانتباه إلى المقتطفات الجالبة للأوهام، من قبيل: «يمكن لكل إنسان أن يعلّم نفسه جيِّدًا، بافتراض أن لديه القدرة على التجسّس على نفسه عن قرب». وأثناء مضيّ مونتاني الإنسان في حياته اليومية في الضيعة، كان مونتاني الكاتب يقتفي أثره، يتجسَّس ويدوِّن ملحوظات.

وحين وصل أخيرًا إلى الكتابة عن الحادث الذي تعرّض له أثناء ركوب الخيل، فعل ذلك لا لينفض عن نفسه بقايا خوفه من الموت كما ينفض الرمل عن حذائه، بل ليرتقي أيضًا بتقنية التجسّس على نفسه إلى مستوى يتجاوز ما حاوله من قبل. وبالضبط كما حدث في اليوم الذي أعقب الحادث، جعل خادمه يكرِّر على مسامعه قصة ما حدث، فلا بد أنه الآن قد راجع هذه الأحاسيس المتقلّبة في ذهنه وعاشها مرة أخرى، هذا الإحساس بأن أنفاسه أو روحه تتلكأ على أعتاب جسده، وألم عودتها إليه. لقد «عالجها»، كما قد يقول علماء النفس اليوم، من خلال الأدب. وبينما هو يفعل ذلك، أعاد بناء الخبرة كما كانت بالفعل، لا كما قال الفلاسفة إنها يجب أن تكون.

لم تكن هوايته الجديدة هذه سهلة أبدًا. أحب مونتاني التظاهر بأنه ألقى المقالات معًا كيفما اتفق، لكنه كان ينسى الوضع عرَضًا ويعترف بأنه عمل شاقٌّ:

إنها مهمة شائكة، أكثر مما تبدو عليه، مهمة تتبّع حركة شاردة إلى حدٍّ بعيدٍ مثل حركة عقلنا، اختراق الأعماق المظلمة لأعمق تلافيفه، التقاط الموجات السريعة التي لا تُعَدّ ولا تُحصى، والتي تثيره، وتثبيتها.

ربما بَجَّلَ مونتاني جمال الانزلاق بخفّة على سطح الحياة؛ لقد أجاد هذا الفن كلمّا تقدّم في العمر. وفي الوقت نفسه، عمل - باعتباره كاتبًا - على فنٍّ سبر أغوار الأعماق. كتب: «أتأمّل أي شيء باعث على الرضا، ولا أتصفّحه سريعًا، بل أسبر غوره». كان عاقدًا العزم بشدّة على الوصول إلى القاع، حتى قاع ظاهرة تُفقَد بشكل طبيعي بحكم تعريفها؛ ألا وهي النّوم؛ حيث جعل خادمًا يعاني طويلًا ليوقظه بانتظام في منتصف الليالي على أمل أن يلتقط لحظة فقدانه لوعيه.

أراد مونتاني أن ينجرف بعيدًا عن الواقع، لكنه أراد أيضًا أن يربط نفسه بالواقع ويستخلص كل ذَرَّة خبرة منه. مكّنته الكتابة من فعل الشيئين معًا. حتى حين فقد نفسه في تهويماته، زرع خطاطيفه سرًّا في أي شيء حدث، بحيث يتمكّن من استعادته بإرادته. كان تعلُّم كيف يموت تعلّمًا للتخلّي عن الحياة؛ بينما كان تعلّم كيفية عيش الحياة تعلّمًا للتشبّث بها.

تيّار الوعي:

لكن الحقيقة أنك مهما حاولت بشدة، فلن تتذكَّر أبدًا أيَّ خبرة بأكملها. وعلى حدِّ قول الفيلسوف هيراقليطس، أنت لا تنزل في النهر نفسه مرتين. حتى لو رجعت للنقطة نفسها على شاطئه، فستكون مياه مختلفة تجري فيه وتغمرك في كل لحظة. وبالمثل، إن رؤيتك للعالم كما فعلت بالضبط منذ نصف ساعة مضت أمر مستحيل، كما يستحيل عليك رؤيته من وجهة نظر شخص آخر يقف بجوارك. العقل يتدفَّق ويتدفَّق، في «تيّار وعي» لا ينقطع - وهي عبارة صاغها عالم النفس ويليام جيمس في 1890، على الرغم من أنها اكتسبت في ما بعد مزيدًا من الشهرة بفضل كُتَّاب الرواية.

كان مونتاني من بين الكثيرين الذين استشهدوا بعبارة هيراقليطس، وقد فكر كيف ننجرف مع أفكارنا، «آنًا برِقّة، وآنًا بعنف، وفقًا لما إذا كانت المياه مهتاجة أم هادئة... كل يوم ولع جديد، وتتغيَّر أمزجتنا مع التقلّبات الجويّة». لا عجب أن العقل يعمل على هذا النحو حتى منذ وجد العالم المادي الذي يبدو صامدًا وسط تقلّبات لا نهائية. تمكّن مونتاني من خلال النظر إلى المنظر الطبيعي المحيط بمنزله من تخيّله وهو يموج ويغلي مثل العصيدة. حفر نهر دوردوني الذي كان يجري في منطقته مجراه بحيث صارت شواطئه تشبه ما يحفره إزميل النجار في الخشب.

وكان مندهشًا من كثبان الرمال المتحرِّكة في ميدوك، بقرب المكان الذي يعيش فيه أحد أخوته؛ إذ كانت الكثبان تتجوَّل في الأرض وتبتلعها. وفكر في أننا لو استطعنا أن نرى العالم وهو يتحرَّك بسرعة مختلفة فسنرى كلَّ شيء مثل هذا، سنراه «تضاعفًا بلا نهاية وتغيّرًا في الأشكال». المادّة توجد في حالة **تمايل** لا ينتهي: وهي كلمة مشتقّة من رقصة ريفية في القرن السادس عشر هي **رقصة التمايل**، التي تعني شيئًا مثل «الاهتزاز». كان العالم تأرجحًا كونيًا: اهتزازًا.

1. دورر. A. Dürer, **رقصة التمايل**. 1514.
Musée de la Ville de Paris, Musée du Petit - Palais,
France / Girraudon / The Bridgeman Art Library.

شارك كتَّابٌ آخرون من القرن السادس عشر مونتاني الافتتان بما هو غير ثابت. أما ما كان غير معتاد في مونتاني فهي فطرته التي تجعله يعتقد أن الملاحِظ غير ثابتٍ مثله مثل ما يلاحظه. يتفاعل نوعَا الحركة [حركة الملاحِظ وحركة ما يلاحظه] مثلما تتفاعل المتغيِّرات في معادلة رياضية مركبة، والنتيجة أن المرء لا يجد أي نقطة آمنة يمكن أن يقيس منها أي شيء. إن محاولة فهم العالم تشبه محاولة القبض على سحابة غاز، أو سائلٍ، باستخدام يدَين هما مصنوعتان من الغاز أو الماء، فتذوبان وأنت تغلق قبضتيهما. هذا هو السبب في تدفّق كتاب مونتاني على النحو الذي هو عليه؛ فهو يتّبع تيّار

وعي مؤلفه من دون محاولة لإيقافه أو حجزه خلف سَدّ. الصفحة النموذجية من كتاب **المقالات** عبارة عن تتابع من التعرّجات، والمنحنيات، والتشعّبات. عليك أن تترك نفسك له ليحملك، بأمل ألّا تنقلب كلما أخلَّ تغير الاتجاه بتوازنك. في الفصل الذي كتبه بعنوان «عن المقعَدين» مثلًا، يبدأ مونتاني بشكل تقليدي بتكرار شائعة عن النساء القعيدات؛ إذ يُقال إن ممارسة الجنس معهن أكثر متعة. وسأل لماذا يمكن أن يحدث هذا؟ هل لأنهنّ يتحرّكن على نحو غير معتاد؟ ربما، لكنه يضيف: «المدهش أني عرفت لتوي أن الفلسفة القديمة حلّت هذا السؤال». قال أرسطو إن مهبلهنَّ أقوى عضليًا لأنه يتلقّى التغذية التي تُحرم منها سيقانهنَّ. يسجل مونتاني هذه الفكرة، ثم يعود على أعقابه ليشكّك فيها: «ما الذي يمكن ألّا نفكر فيه تفكيرًا منطقيًا متماسكًا إذا صحَّ هذا؟». جميع هذه النظريات لا تتمتّع بالثبات. والحقيقة أنه يكشف في نهاية المطاف أنه أجرى التجربة بنفسه، وتعلّم منها فكرة جديدة مختلفة تمامًا؛ هي أن السؤال لا يعني الكثير، لأن خيالك يمكن أن يجعلك **تعتقد** بأنك تمر بمتعة كبيرة سواء كنت تمرّ بها «حقًا» أو لا. وفي النهاية، كل ما يمكننا التأكّد منه هو غرابة أطوار العقل البشري؛ وهو استنتاج يفوق المعتاد، يبدو أن ليس له أدنى علاقة بالموضوع الذي كان يهدف إليه.

يبدأ مقال آخر بعنوان «لا ينبغي الحكم على سعادتنا إلا بعد موتنا»، بعبارة بديهية مقتبسة من صولون: لا تقُلْ عن أيِّ إنسان إنه سعيد حتى يموت. ينتقل مونتاني فورًا إلى فكرة أكثر إثارة للاهتمام؛ ربما كان حكمنا على الإنسان بأنه سعيد أو تعيس له علاقة أكثر بكيف يموت. يميل الناس إلى تذكر الإنسان الذي يموت ميتة طيّبة كما لو كان عاش أيضًا عيشة طيّبة. بعد أن أعطى مونتاني أمثلة على هذا، يغيِّر اتجاهه مرة أخرى. في الحقيقة، الشخص الذي عاش حياة طيّبة يمكن أن يموت ميتة سيئة، والعكس صحيح. في زمن مونتاني، مات ثلاثة من أكثر أصحاب السمعة السيئة الذين يعرفهم ميتات جميلة، «وقورة إلى حدِّ الكمال». صار الفصل الآن كتلة طويلة فيها ثلاث انعطافات، ويبدو أن مونتاني يضع النهاية بأن يقول إنه، على أي حال، يأمل أن تكون ميتته جيّدة. لكنه يبدي في نهاية المطاف ملحوظة فحواها أن «الذهاب بشكل جيِّد» يعني الذهاب «في هدوء وبلا اكتراث»؛ وهو ما لا يكاد يكون الفكرة المعتادة عن الميتة المثيرة للإعجاب. وتنتهي المقطوعة بهذا بغتة، في اللحظة التي يبدأ فيها القارئ في التساؤل عما إذا كان هذا يعني أن مونتاني عاش عيشًا طيّبًا أم لا.

هكذا يتكوَّن معظم فكر مونتاني من سلسلة إدراكات أن الحياة ليست بالبساطة التي رآها للتوّ.

لو كان عقلي قد تمكَّن من تثبيت أقدامه ما كتبت مقالات، بل لاتخذت قرارات؛ لكنه في حالة تلمذةٍ وتجريبٍ دائمَيْن.

يفسّر تغيير مونتاني لاتجاهاته جزئيًّا باتجاهه نحو التساؤل، وجزئيًّا بأنه ألّف الكتاب في عشرين عامًا. أفكار المرء تتغيّر كثيرًا عبر عقدَين من الزمان، خاصة لو كان المرء يقضي هذا الوقت في السفر، والقراءة، والحديث مع أناس مثيرين للاهتمام وممارسة السياسة العليا والعمل الدبلوماسي.

حين راجع مونتاني المسوَّدات المبكرة لكتاب **المقالات** مرارًا وتكرارًا، أضاف إليه الأفكار كما كانت تطرأ على ذهنه، ولم يبذل أدنى محاولة لتنسيقها في تجانس مصطنع. ففي مساحة بضعة أسطر، قد نقابل مونتاني شابًا، ثم مسِّنًا إحدى قدميه في القبر، ثم نعود لنراه عمدة في متوسط العمر أثقلت الهموم كاهله. نستمع إليه وهو يشكو من العنَّة؛ وبعد هنيهة نراه شابًّا شهوانيًّا؛ «جنسيًّا بوقاحة» في شهواته. إنه سريع الغضب وصريح؛ متفرِّد؛ وهو مفتتن بالآخرين؛ وهو ضجر من كثرتهم. تستقرّ أفكاره حيث تقع. ويجعلنا نشعر بمرور الزمن في عالمه الداخلي. كتب مونتاني، «أنا لا أرسم صورة الوجود، أنا أرسم صورة المرور. ليس المرور من سنٍ إلى آخر... بل من يوم إلى يوم، من دقيقة إلى دقيقة».

كان من بين القراء المفتونين بطريقة مونتاني في تصوير تدفّق خبرته إحدى الرائدات العظيمات لرواية «تيار الوعي» في بدايات القرن العشرين، ألا وهي فيرجينيا وولف. كان هدفها الخاص في أدبها أن تغمر نفسها في النهر الذهني وتتبّع كلّ ما يقودها إليه. توغّلت رواياتها في عوالم الشخصيات «من دقيقة إلى دقيقة». وكانت أحيانًا تترك قناة من القنوات لتحرُّك مغيّر القنوات إلى مكان آخر، ممرّرة وجهة النظر كمكبِّر الصّوت من فرد إلى آخر، لكن التدفّق نفسه لم يتوقّف أبدًا حتى نهاية كل كتاب. وقد عرَّفت مونتاني بأنه أول كاتب يحاول فعل شيء من هذا القبيل، وإن يكن مع «تيّاره» الوحيد فقط. واعتبرته أيضًا أول من يولي مثل هذا الانتباه إلى الشعور البسيط بأنه حيٌّ. قال إن القاعدة التي يسير عليها هي «لاحِظ، لاحِظ على الدوام». وما لاحظه كان، قبل أيِّ شيء، نهر الحياة يجري مخترقًا وجوده.

كان مونتاني أول من كتب بهذه الطريقة، لكنّه لم يكن أول من يحاول العيش بانتباه تام للحظة الراهنة. كانت هذه قاعدة أخرى أوصى بها الفيلسوف الكلاسيكي. يقولون إن الحياة هي ما يحدث بينما أنت تضع خططًا أخرى؛ فلا بد أن تعيد الفلسفة توجيه انتباهك مرارًا وتكرارًا إلى حيث تنتمي؛ إلى هنا. فهي تلعب دورًا كالدور الذي تلعبه

طيور الميناء في رواية آلدوس هكسلي **الجزيرة**، وهي طيور مدرَّبة على الطيران طوال اليوم وهي تنادي «انتباه! انتباه!» و«هنا والآن!». وعلى حدِّ تعبير سينيكا، الحياة لا تتوقّف لتذكِّرك بأنها تتسرَّب من بين يديك. الوحيد الذي يمكنه أن يجعلك تنتبه لهذا هو أنت.

> **لن يسبِّب تذكيرك بسرعة مرورها أي ارتباك، فهي تنزلق بهدوء... ما النتيجة؟ أنت مهموم والحياة تمرّ سريعًا. وسيصل الموت في تلك الأثناء، ولا خيار لك في جعل نفسك متاحًا له.**

إذا فشلت في الإمساك بالحياة، سوف تتملَّص منك على أية حال. فلا بدّ أن تتبعها، و«لا بدّ أن تشرب بسرعة كما لو كنت تشرب من تيار مياه سريع التدفّق لن يظل متدفِّقًا على الدّوام».

الحيلة هي أن تحافظ على نوعٍ من الدهشة الساذجة في كلِّ لحظةٍ من لحظات الخبرة، لكن مونتاني تعلَّم أن الكتابةَ عن كلِّ شيء من أفضل التقنيات لفعل هذا. مجرّد وصفِ شيء موضوع على طاولتك، أو المنظر الذي تراه من نافذتك، يفتح عينيك على مدى روعة هذه الأشياء العادية. بل إن النظر إلى داخل نفسك يفتح لك عالمًا أكثر روعة. قال الفيلسوف موريس مارلو - بونتي إن مونتاني كاتب «يضع وعيًا مندهشًا من نفسه في قلب الوجود الإنساني». وفي وقت أحدث، علّق الناقد كولين بارو على أن الدهشة، مع سمة رئيسية أخرى من سمات مونتاني، هي التدفّق، هما ما يجب أن تكون عليه الفلسفة، لكنّها نادرًا ما كانت كذلك في التقليد الغربي.

مع تقدّم مونتاني في السنِّ، لم تقلّ رغبته في أن ينتبه للحياة بدهشة؛ بل ازدادت قوّةً. ومع نهاية تأليف كتاب المقالات التي استغرقت وقتًا طويلًا، كان قد أجاد الحيلة إلى حد يكاد يبلغ الكمال. ومع معرفته بأن ما تبقّى من حياته قد لا يكون طويلًا قال: «أنا أحاول زيادة وزنها، أحاول إيقاف سرعة مضيّها بسرعة استيعابي لها... كلّما كان مرور حياتي قصيرًا، كلّما تعيّن عليَّ أن أجعلها أعمق وأكثر امتلاء». وقد اكتشف نوعًا من أنواع التأمّل الذي يمارس أثناء المشي:

> **حين أسير وحيدًا في البستان الجميل، إذا تطرَّقت أفكاري إلى حوادث غريبة لبعض الوقت، فإني أعيد أفكاري إلى المشي، إلى البستان، إلى حلاوة هذه الوحدة، وإلى نفسي.**

كان يبدو في لحظات كتلك أنه أنجز نظامًا شبيهًا بنظام الزِن[1]: القدرة على مجرد أن يكون.

حين أرقص أرقص، وحين أنام أنام.

يبدو أن من السهل صياغة الأمر هكذا، لكن لا شيء أصعب من فعل ذلك. لهذا ينفق أساطين الزِن حياتهم بأكملها، أو عدة حيوات، في تعلّمه. بل حتى حينئذ - على حد قول القصص التقليديّة - كثيرًا ما لا يمكنهم ذلك إلا بعد أن يضربهم معلِّمهم بعصًا كبيرة اسمها الكيسكو، تُستخدم لتذكير المتأمِّلين بالاستغراق في الانتباه التام. تمكّن مونتاني من فعلها بعد حياة واحدة قصيرة إلى حدٍّ ما، وقد تمكَّن من ذلك جزئيًّا لأنه أنفق شطرًا كبيرًا من هذه الحياة يخطّ على ورقة بعصًا صغيرة جدًّا.

حين كتب عن خبرته كما لو كان هو نهرًا، بدأ تقليدًا أدبيًّا من ملاحظة دخيلة نفسه عن كثب، وهو تقليد صار الآن مألوفًا جدًّا إلى حدٍّ أنه يصعب تذكّر أنه من التقاليد الموروثة. الحياة تبدو فقط على ما هي عليه، ووظيفة الكاتب تأمّل تبدّل حالاته الداخلية. لكن هذه الفكرة لم تكن شائعة قبل مونتاني، وطريقته القلقة ذات القالب الحرّ في فعلها كانت مجهولة تمامًا. وباختراع مونتاني لها، ومن ثم محاولة إيجاد إجابة ثانية لسؤال كيف تُعاش الحياةُ، خرج من أزمته بل حوَّل هذه الأزمة إلى صالحه.

كانت عبارتا «لا تقلق من الموت»، و«انتبه» كليهما حلَّين لفقدان الاتجاه في منتصف العمر؛ لقد خرجتا من خبرة رجلٍ عاش طويلًا بما يكفي لارتكاب أخطاء وليعيش بدايات زائفة. لكنّهما كانتا أيضًا علامة على بداية جلبت ميلاد ذاته الجديدة الكاتبة للمقالات.

(1) الزن طائفة بوذية يابانية يكثر أفرادها من التأمّل في وضع الجلوس وترديد الأقوال المأثورة (المترجمة).

3. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟

ج: أن تولدَ

ميشو

كانت ذات مونتاني، التي لم تكتب مقالات بل تحرَّكت وعاشت فحسب مثل جميع البشر الآخرين، بداية أكثر بساطة. أتى مونتاني إلى هذا العالم في 28 فبراير 1533، وهو اليوم نفسه الذي وُلدت فيه الطفلة التي ستصير في المستقبل الملكة إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا. وُلد بين الساعة الحادية عشرة صباحًا والظهيرة، في قصر العائلة الذي سيصير بيته طوال حياته. سُمّي ميشيل، لكنه عُرف باسم ميشو، على الأقلّ بالنسبة لوالده. ظهر اسم الشهرة هذا حتى في وثائق رسمية مثل وصية والده، بعد أن صار الصبي رجلًا.

كتب مونتاني في كتاب **المقالات** أن أمَّه حملته في رحمها أحد عشر شهرًا. كان هذا زعمًا قديمًا، حيث كان معروفًا أن مثل هذه المعجزات الطبيعية نادرة لكنها ممكنة. العقول الخبيثة ستقفز بالتأكيد إلى خلاصات فظَّة. في كتاب **جارجانتوا**[1] لرابليه قضى العملاق الذي سُمّيت الرواية باسمه أحد عشر شهرًا في رحم أمِّه أيضًا. يسأل رابليه: «هل يبدو هذا غريبا؟»، ويجيب عن سؤاله على سبيل الهزل بسلسلة من دراسات الحالة كان فيها المحامون من المهارة إلى درجة إثبات شرعية الحمل حتى في حالة طفل مات والده المفترض قبل ولادته بأحد عشر شهرًا. «بفضل هذه القوانين العليمة ببواطن الأمور يمكن لأراملنا الفاضلات، أن يستغرقن بعد شهرين من وفاة أزواجهن استغراقًا تامًّا في ألعاب القبض على الأرداف من دون تمحيص، بسرعة وفي فوضى، حتى يشبعن». قرأ مونتاني رابليه، ولا بد أنه فكَّر في ما تنطوي عليه من نكات واضحة، لكنه بدا غير مهتمٍ.

(1) حياة جارجانتوا وبانتاجرويل رواية من خمسة أجزاء كتبها فرانسوا رابليه في القرن السادس عشر عن عملاق هو جارجانتوا وابنه العملاق بانتاجرويل بـنبرة من التسلية والمبالغة والسخرية، تضم الكثير من الدعابات الفجّة، ودعابات تذكر البراز والعنف، حيث تكثر بها الشتائم البذيئة والمقذعة (المترجمة).

لا تظهر في كتاب **المقالات** أي شكوك أخرى في الأبوة. بل إن مونتاني كثيرًا ما يتأمّل قوة الوراثة في عائلته، واصفًا سمات انحدرت إليه عبر جدِّ والده وجدّه ووالده، تشمل الأمانة السمحة والاستعداد للإصابة بحصوات الكلى. يبدو أنه اعتبر نفسه ابن أبيه بدرجة كبيرة جدًّا.

كان مونتاني سعيدًا لحديثه عن الأمانة والأمراض الوراثية، لكنه كان أكثر تحديدًا بشأن جوانب أخرى لميراثه، لأنه لم ينحدر عن الأرستقراطية القديمة، بل انحدر من الجانبين عن عدّة أجيال من التجّار الذين صعدوا في السلم الاجتماعي. بل إنه لفَّق أن ضيعة مونتاني كانت المكان الذي وُلد فيه «معظم الأسلاف»، وهذا هراء صارخ؛ إذ كان والده هو أول من وُلد فيها.

كان للعائلة هذه الممتلكات نفسها منذ فترة طويلة، فقد اشتراها حقًّا جد والد مونتاني، رامون إيكويم في 1477، قُبيل نهاية حياته الطويلة الناجحة في جمع المال بالاتجار في النبيذ، والسمك، والنيلة (النبات الذي تستخرج منه الصبغة الزرقاء)، وهو من المنتجات المحلية المهمة. أما جريمون، ابن رامون، فلم يفعل الكثير للضيعة إلا إضافة ممر محفوف بأشجار البلوط والأَرْز للكنيسة المجاورة. لكنه زاد من تراكم ثروة إيكويم، وبدأ تقليدًا عائليًّا جديدًا بالانخراط في الأمور السياسية في بوردو. وتخلّى عند لحظة معيّنة عن التجارة وبدأ العيش على نحو «نبيل»، وهي خطوة مهمّة. لم تكن النبالة مسألة مساواة مع طبقة ونمط حياة، بل كانت أمرًا تقنيًّا، فالقاعدة الأساسيّة لاكتساب النبالة أنك أنت وذريتك يجب ألّا تشتغلوا بالتجارة ولا تدفعوا ضرائب على الأقلّ لمدّة ثلاثة أجيال. تجنّب بيير ابن جريمون التجارة أيضًا، فحلّت حالة النّبالة للمرة الأولى على الجيل الثالث: ميشيل إيكويم دي مونتاني نفسه. والمفارقة أنه بحلول هذا الوقت حوَّل والده بيير الضيعة من قطعة أرض إلى مشروع تجاريٍّ ناجح. صار القصر المكتب الرئيسي لمشروع كبير إلى حد ما لإنتاج النبيذ، ينتج عشرات الآلاف من الليترات من النبيذ سنويًّا. وما زال ينتج النبيذ حتى اليوم. كان هذا مسموحًا به؛ إذ يمكنك أن تجني أموالًا بقدر ما تحبّ من بيع منتجات أرضك، من دون أن يعتبر هذا تجارة.

تضرب قصّة عائلة إيكويم مثالًا على درجة التغيّرات الاجتماعية التي كانت ممكنة حينذاك، على الأقلّ قرب الطرف العلوي من السلم الاجتماعي. وجد النبلاء الجدد أن من الصعب أحيانًا الحصول على الاحترام التام، لكن هذا ينطبق أساسًا على من يُسَمّون «نبلاء الرداء»، الذين رُفعوا إلى مرتبة الإسهام في مناصب الوظائف السياسية والعامّة، وليس إلى مرتبة «نبلاء السيف»، الذين حصلوا على مكانتهم من امتلاك الأراضي،

مثلما فعلت عائلة مونتاني، وكانوا يفخرون بأنفسهم في المهمّات العسكرية التي كان من المتوقَّع أن تأتي مع النبالة. وفي تلك الأثناء، ظلَّ المزارعون في معظم الأحوال حيثما كانوا دائمًا: في القاع. كان السيد الإقطاعي المحلّي يهيمن على حياتهم، وهو في هذه الحالة عميد عائلة إيكويم، الذي كان يمتلك بيوتهم، ويوظِّفهم لديه، ويؤجِّر لهم حق استخدام معصرة النبيذ والمخبز المملوكَيْن له. وحين أتى دور مونتاني، يرجَّح أنه ظلَّ سيدًا إقطاعيًّا نموذجيًّا من وجهة نظرهم، مهما كثر مدحه لحكمة المزارعين في كتابه **المقالات**؛ وهو كتاب لا يرجَّح أن يقرأه أي عامل زراعي في ضيعته أبدًا.

ملصق على زجاجة نبيذ من إنتاج قصر ميشيل دي مونتاني.

تصوير جون ستافورد. **John Stafford**.

ينصُّ المدخل المخصّص لميلاد مونتاني في كتاب العائلة على أنه ولد «in confiis Burdigalensium et Petragorednsium»؛ أي على الحدود بين بوردو وبيريجورد. كان هذا شيئًا رائعًا، لأن معظم سكان بوردو كانوا من الكاثوليك، بينما ساد بيريجورد داعمو الديانة الجديدة، التي هي الديانة الإصلاحية أو البروتستانتية. كان على عائلة إيكويم أن تحافظ على سلامها مع الجانبين اللذين يقفان على طرفي نقيض سيقسم أوروبا إلى قسمين في فترة حياة مونتاني، وما يتجاوزها بشوطٍ بعيدٍ.

كان الإصلاح الديني خبرًا حديث العهد؛ ترجع بدايته عادة إلى العام 1517، العام الذي كتب فيه مارتن لوثر مقالًا هاجم فيه التقليد الكاثوليكي الذي يبيع سبلًا دنيوية سريعةً للغفران أو «صكوك الغفران»، وذكرت التقارير أنه علَّقه على باب الكنيسة في فيتينبرج على سبيل التحدّي. ذاعت أخبار المقال على نطاق واسع، فأطلق تمردًا

عظيمًا ضد الكنيسة. ردَّ البابا أولًا بطرد لوثر باعتباره «ألمانيًا سكّيرًا»، ثم بإصدار حرمان كنسي له. أعلنت القوى العلمانية للإمبراطورية الرومانية أن لوثر خارج عن القانون ويحلّ قتله فورًا، فجعلته بذلك بطلًا شعبيًا. وانقسمت أوروبا في نهاية المطاف إلى معسكرين: من ظلّوا على ولائهم للكنيسة الكاثوليكية، ومن ساندوا تمرّد لوثر. لم يكن هذا الانقسام ذا حدود جغرافية أو أيديولوجية واضحة، فقد تداعت أوروبا كرغيفٍ يتفتّت، لا كتفاحة تقسم إلى نصفين بالسكين. أصاب الانقسام جميع البلدان الأوروبية تقريبًا، لكن القليل منها مضى بعزم في أحد الطريقين أو الآخر. وامتدّت التصدّعات في معظم الأماكن، بالذات في فرنسا عبر قرى، بل حتى عبر عائلات، لا بين أراض منفصلة.

ظهر في منطقة مونتاني المسماة جويين (وتُعرف أيضا باسم آكيتين أو أقطانيًا) نمط مميَّز: فقد مضى الريف على طريق ومضت العاصمة على طريق عكسي تقريبًا. ازدادت التوتّرات بفعل الشعور العام، الذي كان منتشرًا بالفعل في المنطقة قبل الإصلاح، بأن آكيتين لا تشكّل جزءًا من فرنسا. كانت لها لغتها الخاصّة، وروابط تاريخية قليلة مع شمال البلد. لقد ظلّت لوقت طويل أرضًا إنجليزية. ولم يُطرد الإنجليز منها إلا في العام 1451 على يد الغزاة الفرنسيين، الذين كانوا يُعتبرون غرباء وكواسر غير جديرين بالثقة. عاد الناس بالذاكرة إلى العصر القديم بحنين، لا لأنهم افتقدوا الإنجليز، بل لأنهم كرهوا الفرنسيين الشماليين كرهًا شديدًا. تتالت حالات التمرّد. بنَتِ السلطات ثلاث قلاع ثقيلة لتضع المدينة تحت المراقبة هي: قصر ترومبيتي، وقلعة دو ها، وقلعة لويس. كرهها الناس جميعًا، واندثرت كلّها الآن.

أقامت بوردو روابط دبلوماسية حيثما كان ممكنًا مع أي أحد غير قاهريها. وتأثّرت المنطقة إلى حدٍّ بعيدٍ أيام مونتاني بمحكمة نافاري البروتستانتية الموجودة في بيرن، في البلد الحدودي الإسباني جنوبًا. وحافظت أيضًا على العلاقات مع إنجلترا، التي أحبّت مذاق نبيذ بوردو. وقد استدعي إلى هناك أسطول نبيذ بانتظام لتحميل الشحنات؛ وهي أخبار جيّدة للمورّدين المحلّيين، ليس أقلهم عائلة إيكويم التي ينتمي إليها مونتاني.

ومع نمو أهمية الضيعة، أتى «مونتاني» ليحجب اسم إيكويم القديم، الذي كان له صوت مميّز في الإقليم. وما زال أحد فروع العائلة حيًّا في الذاكرة بسبب ضيعة النبيذ الأسطورية التي امتلكها، وهي قصر إيكويم. وعلى الرغم من تفضيل مونتاني للمحلّيّة والخصوصيّة في معظم الأشياء، صار أول من يستبعد هذا الاسم ويعرف بالاسم الفرنسي الأصلي لبيته. لهذا قسا عليه كتاب السيرة الذاتية، لكنه كان يوسّع من

حركة بدأها والده بالفعل بتسمية نفسه «دي مونتاني» في توقيعه على الوثائق. وقد مال مونتاني إلى إهمال اسم «إيكويم»، بينما كان والد مونتاني يهمل هذا الجزء الزائد إذا أراد الاختصار.

إذا كان ميشيل إيكويم دي مونتاني - الذي هو نتاج نهضة اجتماعية فائقة السرعة - قد تخطّى سريعًا الخلفية التجارية لوالده في كتاب **المقالات**، فقد يكون هذا لضمان أن يروق كتابه للنوع المهم من السوق المترف النبيل؛ وقد يكون أيضًا لأنه لم يفكِّر في الأمر كثيرًا. يرجَّح أن والده تجنَّب إمتاعه بقصص عن نشأتهم؛ فقد يكون مونتاني نشأ وترعرع وهو لا يكاد يعيها. لا شك أن الزهو الأجوف تسلَّل إليه أيضًا، وكان أحد نقاط الضعف المثيرة للرثاء التي اعترف بها مونتاني بسعادة، مضيفًا:

> **إذا تمعَّن الآخرون في فحص أنفسهم باهتمامٍ كما أفعل، لوجدوا أنفسهم - كما وجدت نفسي - مليئة بالتفاهة واللغو. ولا يمكنني التخلّص منهما إلا بتخلّصي من نفسي. جميعنا منزلقون في هذه الهوة بالقدر نفسه، لكن من يعون انزلاقهم أفضل بقليل من غيرهم، على الرغم من أني لست أدري.**

هذا التذييل النهائي - »على الرغم من أني لست أدري» - هو مونتاني تمامًا. لا بد أن يتخيّل المرء روحه ملحقةً بكلِّ شيءٍ كتبه مونتاني تقريبًا. فهذه الفقرة تحكم فلسفته برمّتها. نعم، إنه يقول إننا بُلهاء لكن يستحيل أن نكون غير ذلك، فيمكننا أيضًا أن نسترخي ونعيش بما نحن عليه. إذا كانت خلفية والده غامضة، فعائلة أمه يكمن فيها سرٌّ أخطر. فأنطوانيت دي لوبيز دي فيلينوف، كان أسلافها تجارًا، وكانوا أيضًا مهاجرين من إسبانيا، الأمر الذي كان - في سياق ذلك الزمن - يوحي بشدّة بأنهم كانوا مهاجرين يهودًا. وقد اعتنقوا المسيحية تحت التهديد مثلهم مثل الكثيرين من الآخرين، وغادروا إسبانيا عقب اضطهاد اليهود في شبه الجزيرة في نهايات القرن الخامس عشر.

ربما لم يعرف مونتاني أنه من أصول يهودية، إذا كان كذلك حقًّا. لم يظهر إلا اهتمامًا قليلا بالموضوع، إذ لم يذكر اليهود إلا عرضًا في كتاب **المقالات**، عادة إما بشكل محايد أو بتعاطف، لكن ليس أبدًا بطريقة توحي بأنه شعر شخصيًّا بأنه منهم. سافر مونتاني في ما بعد في سياق حياته إلى إيطاليا، وزار المعابد اليهودية وشهد خِتانًا، لكنه فعل كل هذا بالفضول نفسه الذي أظهره نحو كل شيء آخر صادفه؛ مثل خدمات الكنيسة البروتستانتية، ومشاهد الإعدام، وبيوت الدعارة، والنوافير السحرية، والحدائق الصخرية، وقطع الأثاث غير المعتادة.

وعبَّر أيضًا بامتعاضٍ عن الشكِّ في «التحوّل الديني» لبعض حديثي الهجرة - وهو أمر معقول جدًّا، منذ توقَّف فعل هذا بالاختيار. فإذا كان الأمر - كما فكر البعض - أن المقصود بهذا نبش بسيط في أسرة أمِّه، فلن يكون باعثًا على الدهشة. وقد عانى مونتاني من صعوبات مستمرّة في حياته السياسية من بعض أقاربها في بوردو. بل يبدو أنه واجه صعوبة في الانسجام مع أنطوانيت نفسها.

لا شك أن أم مونتاني كانت شخصيّة قوية، لكن الأعراف أحبطتها وجعلتها بلا حول ولا قوة. تزوجت صغيرة، كالمعتاد بين نساء زمنها، ويرجَّح أنها لم تكن لديها فرصة كبيرة للاختيار في هذا الزواج. كان بيير إيكويم أكبر منها كثيرًا؛ إذ يوصف إيكويم في وثيقة الزواج التي كتبت في 15 يناير 1529، بأنه في الثالثة والثلاثين، بينما لا يذكر عنها إلا أنها «بالغة»، الأمر الذي يعني أيّ سنٍّ بين الثانية عشرة والخامسة والعشرين؛ وحيث إنها حملت بآخر أطفالها بعد ما يزيد على ثلاثين عاما من الزفاف، فلا بد أنها كانت عند الزفاف أصغر الطرفين سنًّا. ولَّدت أنطوانيت طفلين قبل ميشيل، لم يعشْ كلاهما. يرجَّح جدًّا انها كانت في سن المراهقة حين أتى ميشيل مونتاني، لكنها وقتها كان قد مضى عليها أربع سنوات وهي متزوّجة.

إذا كان في أنطوانيت شيء طفولي أو رزين وهي عروس، فسرعان ما تلاشى. ترسم الوثائق القانونية التي وصلتنا من مختلف فترات حياتها صورة امرأة قاسية، وعنيدة وشديدة القدرة. ترك زوجها في وصيته الأولى في العام 1561 مهمة إدارة بيت الأسرة لها لا لولده البكر، على الرغم من أنه غيَّرها بعد ذلك. ففي العام 1561 إما أن بيير إيكويم فقد الثقة في ميشو (الذي كان في حوالى الثامنة والعشرين في ذلك الوقت)، أو أن رأيه في زوجته كان إيجابيًّا بشكل استثنائي، الأمر الذي كان مثارًا للإعجاب في عصر كانت فيه النساء تعتبر بالكاد قادرات على التفكير الرشيد.

أظهرت الوصية الثانية المكتوبة في 22 سبتمبر 1567 مزيدا من ثقة بيير في ابنه، لكن يبدو أن بيير شعر في هذا الوقت بالحاجة لاستخدام الوثيقة ليأمر زوجته أن تحبَّ أطفالها، وأن يخبرهم بأن يحترموها ويكرِّموها. من الواضح أنه خشي أنها هي وابنها البكر لن يعيشا معًا بالمعروف، لأنه أمر مونتاني أن يجد لها مسكنًا في مكان آخر إذا لم ينفع العيش معًا في ضيعة العائلة. ظلّت أنطوانيت معه ومع أسرته لفترة طويلة بعد وفاة زوجها، - حتى حوالى العام 1587 - لكن حياتهما معًا لم تتسم بحسن المعشر. ووُقِّعت وثيقة قانونية أخرى بين الأم والابن في 31 أغسطس 1568 أكّدت حقَّ أنطوانيت في أن تلقى «من ابنها غاية التكريم، والاحترام، والخدمة»، علاوة على خدم لرعايتها

ومائة جنيه سياحي[1] سنويًا من أجل النثريات. وهي بدورها كان عليها الاعتراف بأنه «صاحب الأمر والنهي والسيادة» على القصر والضيعة. ظهر من العقد ضمنيًا أن أنطوانيت شعرت بأنها لا تلقى رعاية جيدة، بينما أراد مونتاني إيقاف تدخّلها في حياته.

ساءت الأمور عن ذي قبل. كتبت أنطوانيت وصيتها في 19 أبريل 1597 بعد خمس سنوات من وفاة زوجها، لأنها عاشت بعده. نصَّت الوصيّة على رغبتها في ألّا تُدفن في الضيعة، وفي الواقع، حُرمت ليونور، ابنة مونتاني الوحيدة، من الميراث. اشتكت أنطوانيت من أنها كان يجب أن تنفق دوطتها الأصلية في شراء المزيد من الممتلكات، لكن هذا لم يحدث، وأضافت: «عملت مع زوجي فترة أربعين عامًا في بيت مونتاني؛ وبفضل عملي في الرعاية والتدبير زادت قيمة المنزل المذكور كثيرًا، وتحسَّن وتوسّع». تمتّع ابنها مونتاني بفوائد هذا التحسّن طوال حياته، كما تمتّعت به ليونور، التي صارت بذلك «شديدة الثراء وصارت ترفل في رغد العيش» وليست بحاجة لشيء آخر. وأخيرا، علّقت أنطوانيت بأنها كانت تعرِّف عن نفسها أنها «في سن يسهل الاحتيال عليها فيه»؛ ويرجَّح أنها كانت في الثمانين. والظاهر انها خشيت الطعن في الوصية على أساس شيخوختها.

امتلأ كتاب مونتاني باعترافات متواترة بالكسل والحماقة، وقراءة هذه الاعترافات تجعل من السهل أن نرى لماذا اعتقدت انطوانيت أن الضيعة أهملت في الفترة التي كان مسؤولًا عنها فيها. كان يرى أن الأمور العمليّة مملّة ويتجنّبها بقدر إمكانه. والأكثر إثارة للدهشة أن تشكو أنطوانيت الشكوى نفسها من زوجها بيير، لأن كتاب **المقالات** لم يتحدّث عنه أبدًا بهذه الطريقة. صوَّر مونتاني والده رجلًا رصينًا حقّانيًا مليئًا بالطاقة، يكرّس نفسه لواجباته ويعمل دائمًا على إدخال تحسينات على البيت، لا يكلّ ولا يملّ ويتدخّل لإصلاح أي خطأ.

كان بيير إيكويم دي مونتاني رجلًا من القرن الخامس عشر، ولد في 29 سبتمبر 1495. كل ما يحيط به يعلن ابتعاده عن عالم ابنه. امتهن بيير مهنة الحرب اتباعًا لتقاليد النبالة، وكان أول من فعل ذلك في عائلته. لم يقتفِ ميشيل خطاه في هذا، كان مجبرًا على حمل سيف باعتباره نبيلًا، لكن لا توجد أي إشارة في كتاب **المقالات** إلى أنه جرَّده كثيرًا من غمده. وقد وصفه معاصره برانتوم بأنه «يجر» سيفه متجوِّلًا في أنحاء البلدة، وألمح إلى أنه اقتصر على حمل قلم. لم يكن ممكنًا رمي بيير بمثل هذه الافتراءات، فقد اندفع في أول فرصة للقتال في صفوف قوات فرنسا في حروبها في إيطاليا.

---

(1) إحدى العملات المستخدمة في فرنسا في القرون الوسطى (المترجمة).

كانت القوات الفرنسية تهاجم دول شبه الجزيرة[1] وتهزمها بانتظام منذ العام 1494، وستظل تفعل ذلك حتى العام 1559، حين أوقفت معاهدة سلام قصر كامبريسيس غزو فرنسا الأجنبي، وفتحت الطريق بذلك لكارثتها الحقيقية التي حدثت في القرن السادس عشر، ألا وهي الحرب الأهلية. كانت المغامرات الإيطالية أقل تدميرًا، لكنها كانت أبهظ ثمنًا ولا جدوى منها في معظم الأحوال، علاوة على الصدمات التي تعرّض لها كلُّ من تورّطوا فيها. انخرط بيير في القتال في نحو العام 1518. وبغضّ النظر عن فاصل وجيز في العام الذي تلاه، ظل بعيدًا عن البيت حتى بدايات العام1529، حين عاد ليتزوج.

كانت الحروب في القرن السادس عشر مهنة تضرب الفوضى في أطنابها، ولم تكن مسألة فتنة ساحة القتال بقدر ما كانت انخفاض حرارة الجسم، والحمّى، والجوع، والمرض، والجروح الملوثة من السيوف وجروح رصاص البنادق التي لم يكن لها

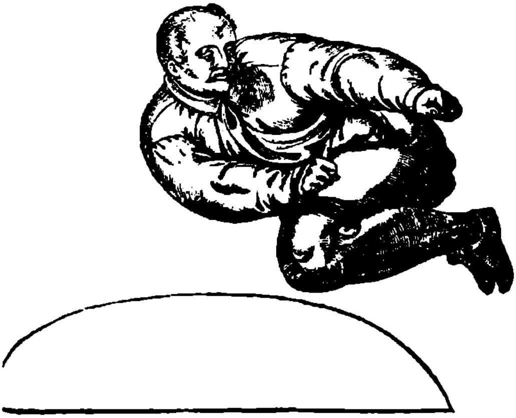

لاعبو جمباز من القرن السادس عشر، من أ. توكارو ,A. Tuccaro،
حوار ثلاثي عن رياضة الوثب في الهواء (Paris: C. de Monstr'oeil,1599).

علاج فعّال إلا بقدر ضئيل. وقبل كل شيء كان الحصار الذي تضوَّر فيه من الجوع كلّ من المدنيين والجنود على قدم المساواة إلى درجة تسليم أنفسهم للعدو. ربما عانى بيير من حصار ميلان وبافيا في العام 1522، وربما أيضًا من الحصار الكارثي لبافيا في العام 1525، الذي انتهى بذبح أعداد مهولة من الجنود الفرنسيين وأُخذ

(1) المقصود إيطاليا (المترجمة).

الملك الفرنسي أسيرًا. وسوف يمتّع بيير عائلته في أواخر حياته بقصص تقشعرّ لها الأبدان عن خبراته في الحرب، تشمل تقارير عن الانتحار الجماعي لأهالي قرى بأكملها بسبب الجوع وتعذّر وجود وسيلة أفضل من ذلك للخروج من هذا المأزق. ربما كان هذا سبب تفضيل مونتاني عندما كبر لسحب قلمه على سحب سيفه.

ربما كانت الحروب الإيطالية مزعجة بطريقة ما، لكنّها جلبت للفرنسيين تحسنًا كبيرًا بكلِّ معنى الكلمة في تعليمهم أشياء جديدة. كان الرجال الفرنسيون يجدون بين كل حصارَيْن أفكارًا مدهشة عن العلوم، والسياسة، والفلسفة، والتربية، والسلوكيات المسايرة لروح العصر. كان عصر النهضة الإيطالي الرفيع قد تلاشى الآن، لكن إيطاليا كانت وقتها أكثر الحضارات تقدّمًا في أوروبا إلى حد بعيد. كان الجنود الفرنسيون يتعلّمون طرقًا جديدة في التفكير في كل شيء تقريبًا، وحين عادوا إلى الوطن جلبوا

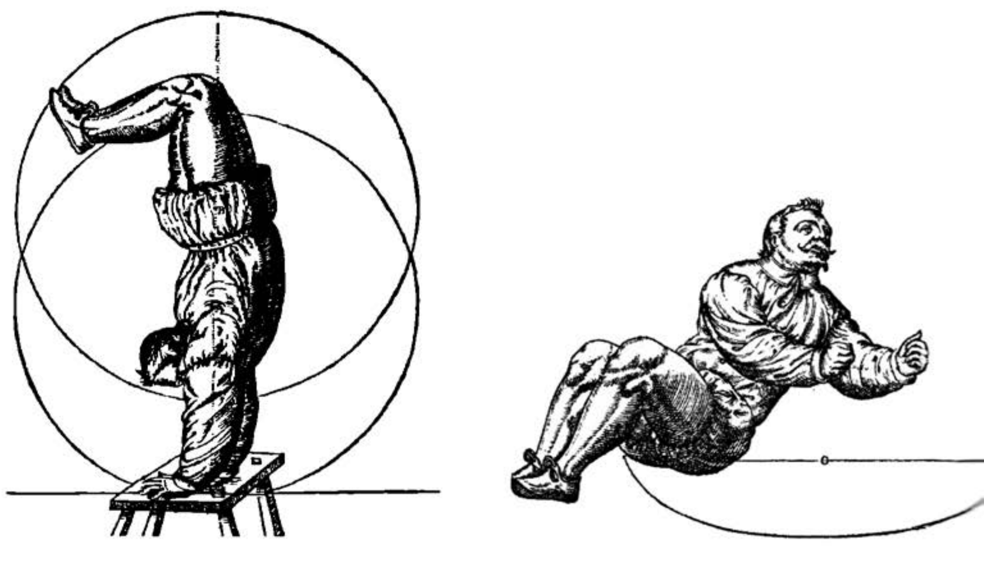

معهم اكتشافاتهم. كان بيير بالتأكيد أحد أبناء هذا الفصيل من النبلاء الفرنسيين المصطبغين بالصبغة الإيطالية، الذين تأثّروا برحلاتهم، وبملكهم فرانسوا الأول ذي الجاذبية الشخصية (الكاريزما) الآخذ بالحداثة. لكن الملوك الذين تلوا فرانسوا تخلّوا عن مثال عصر النهضة الذي أخذ به، وفقد الجميع تقريبًا إيمانهم بالمستقبل تمامًا أثناء الحرب الأهلية، لكن في شباب بيير كان ذلك الوهم قد تبدد منذ فترة طويلة. وكانت المُثُل ما زالت جديدة في ذلك الوقت إلى درجة جعلتها مشوّقة.

ربما كان قوام بيير يشبه قوام مونتاني، إلا أنه كان أكثر تحمّلًا من ابنه. يصفه مونتاني بأنه «رجل ضئيل الحجم، مليء بالقوّة، مستقيم القامة ذو نِسَب جسدية متناسقة»، و«وجهه جذّاب يميل للسمرة». كان يتمتّع باللياقة البدنية ويحافظ على لياقته. كان يحب أن يدرِّب عضلة عضده ذات الرأسين باستخدام أكواز مليئة بالرصاص، وينتعل أحذية أُضيف في نعلها رصاص ليدرب نفسه على الركض والقفز، إذ كان القفز موهبة خاصّة به. كتب مونتاني: «وظل الناس يتذكّرون بعض قفزاته التي كانت مثل المعجزات الصغيرة». كما كتب، «لقد رأيته وقد جاوز الستين من عمره، تضاهي رشاقته رشاقتي، إذ كان يقفز إلى سرج الحصان في جلبابه المصنوع من الفراء، ويدور دورة فوق المنضدة مستندًا على إبهامه، ولا يصعد أبدًا إلى غرفته إلا بقفز السلالم ثلاث أو أربع درجات في القفزة».

كان والد مونتاني صورة من الأب ويليام[1]، وكانت له بعض الخصائص الأخرى الجميلة، جميعها تميِّز جيله أكثر مما تميِّز جيل مونتاني. كان جادًّا، ومعتنيًا بهندمة مظهره وملبسه، وأظهر «ضميرًا حيًّا ودِقّة مفرطة» في كل الأشياء. مواهبه في الرياضة البدنية وسلوكيات الفروسية التي اتّسم بها جعلته مشهورًا وسط النساء؛ يصفه مونتاني بأنه «مؤهَّل جيِّدًا لخدمة السيدات، بطبيعته وبمعرفته لفنون إرضائهنَّ». ويُرجَّح أنه كان يثب فوق المناضد لتسلية النساء اللاتي بصحبته. وقد أعطى بيير لابنه رسائل غير متّسقة في ما يخصّ طيشه الجنسي في الواقع. فمن جهة، حكى قصصًا عن «علاقات حميمة مشهودة، خصوصًا في ما يخصّه، مع نساء محترمات، لا تتطرّق إليهنّ ذرة شك». ومن جهة أخرى «أقسم بأغلظ الأيمان أنه حافظ على عذريته حتى تزوج». بدا أن مونتاني لم يقتنع بادعاء والده للعذرية، وأبدى مجرد ملحوظة عن أنه «على الرغم من ذلك شارك لمدة طويلة في الحروب الإيطالية».

بدأ بيير العمل في السياسة في بوردو بعد عودته من إيطاليا وزواجه. انتخب موظفًا عامًّا ورئيسًا لمجلس المدينة في العام 1530، ثم وكيلًا للعمدة في العام 1537، وأخيرًا عمدة في العام 1554. كان ذلك وقتًا عصيبًا في المدينة، إذ فرضت ضريبة محلّية جديدة على الملح في العام 1548 أثارت أعمال شغب، عاقبت فرنسا بوردو عليها بأن نزعت عنها الكثير من الحقوق القانونية. فعل بيير كل ما بوسعه وهو في منصب العمدة

(1) الأب ويليام شخصية وردت في أغنية تغنيها آليس (بطلة رواية آليس في بلاد العجائب) للدودة مدخنة النارجيلة التي قابلتها، وهي عن حوار بين ابن ووالده العجوز ويليام، الذي ما زال مصرًّا على أداء حركات بهلوانية عنيفة مثل الوقوف على الرأس أو التشقلب (المترجمة).

لاستعادة ثروات بوردو، لكن الامتيازات عادت ببطء. دمَّرت الضغوط صحة بيير، كما أن رواياته عن أهوال الحرب أبعدت ابنه مونتاني عن الحياة العسكرية، وشجَّعته كذلك رؤيته لإجهاد بيير على مزيد من الابتعاد عن الوظيفة عندما صار هو نفسه عمدة بوردو بعد حوالى ثلاثين عامًا.

كان لدى بيير بعض الأفكار الألمعية، منها فكرة عن شيء قريب من الإعلانات الإلكترونية eBay لكن بمستوى القرن السادس عشر، إذ اقترح أن تخصِّص كل بلدة مكانًا يمكن أن يعلن فيه أي شخص عما يريد: «أنا أريد بيع بعض اللآلئ؛ وأنا أريد شراء بعض اللآلئ؛ فلان الفلاني يريد من يصحبه في ذهابه إلى باريس؛ فلان الفلاني يبحث عن خادم مؤهّلاته كذا وكيت؛ فلان الفلاني يريد مخدومًا؛ فلان الفلاني عامل؛ أحدهم كذا وأحدهم كيت». يبدو الموضوع معقولًا، لكن لسبب ما لم تتمخّض الخطة عن شيء.

من الأفكار الطيبة أيضًا لبيير احتفاظه بدفتر يدوِّن فيه أي شيء يحدث في الضيعة: مجيء الخدم وذهابهم، وبيانات ماليّة وزراعيّة من كافة الأنواع. وشجَّع ابنه على فعل الشيء نفسه. بدأ مونتاني في فعل ذلك بعد وفاة بيير، بدافع من النيات الحسنة، لكنه لم يستمرّ فيه؛ فلم يتبقَ من دفتره إلا مقتطف واحد. كتب مونتاني في **المقالات**، «أعتقد أنني أبله لأني أهملته». لكنه تمكّن من الحفاظ على سجل آخر بدأه والده، مستخدمًا تقويمًا مطبوعًا سمَّاه الكاتب الألماني ميشيل بويثر **تقويم اليوميات**ephemeris وصل لنا هذا التقويم كاملًا تقريبًا، ولم ينقص منه إلا بضع وريقات، وهو مليء بملحوظات كتبها مونتاني وآخرون من أفراد عائلته. كل تاريخ من تواريخ السنة له صفحته الخاصة، يجمع ما بين ملخَّص مطبوع للحوادث التاريخية ومساحة خالية من الكتابة لإضافة ملحوظات عامًا بعام. استخدم مونتاني تقويم اليوميات الخاصّ به لتسجيل وقائع الميلاد، والسفر، والزيارات البارزة التي حدثت طوال حياته. دأب على التدوين فيه بأمانة شديدة، لكن مع مَيْلٍ إلى الخطأ في التواريخ، والأعمار وغيرها من هذه المعلومات الدقيقة.

على الرغم من ذلك اشتكت زوجته، إذ كان بيير على ما يبدو لا يعشق من بين جميع أنواع عمله إلا تطوير الضيعة. ربما كان ما أثار حفيظتها تفضيله للإنفاق على تطوير الضيعة أكثر من شراء أملاك جديدة، مع عادته في بدء أشياء جديدة كثيرة من دون أن يتمَّها. ربما يبدو تخلّي بيير عن فكرة اتخاذ التجارة مهنة أكثر اتساقًا مع شخصيته عما تبدو عليه في الظاهر. وقد ورث مونتاني بعد وفاة بيير الكثير من الأعمال غير المكتملة

في الضيعة، شعر دائمًا بأنه ينبغي أن ينجزها، لكنّه لم يفعل ذلك أبدًا. العمل غير المنتهي في موقع البناء سبّب ضيقًا شديدًا لمونتاني، وربما كان الامتناع عن الفعل طريقة مونتاني في التعامل مع هذا الضيق، بالضبط كما كان السخط الخفي طريقة أنطوانيت.

قد يكون بعض العمل المتروك علامة على استنفاد طاقة بيير، حيث عانى منذ سن السادسة والستين من هجمات منتظمة موهنة للقوى بسبب حصوات الكلى. كثيرًا ما رأى مونتاني والده وقد انثنى على نفسه في ألم شديد خلال السنوات القليلة الأخيرة من حياته. ولم ينسَ أبدًا صدمة مشاهدته للنوبة الأولى، التي أصابت بيير من دون إنذار وأفقدته الوعي من الألم الخالص. سقط بيير بين ذراعَيْ ولده وهو يسلم الروح. ربما كانت هذه نوبة مشابهة أو مضاعفات من النوبة قتلته في النهاية. ومات بيير في 18 يونيو 1568 عن أربعة وسبعين عامًا.

بحلول هذا الوقت، كان بيير قد كتب وصية أخرى غير وصيته الأولى، فكان بذلك ينتقد ضمنيًّا قدرات ابنه بوصية جديدة حمَّلت مونتاني مهمّة رعاية أخوته وأخواته الأصغر وخدمتهم باعتباره أبًا بديلًا. وكتب ذلك بالصيغة التالية: «لا بد أن يأخذ مكاني ويمثّلني بالنسبة لهم». وأخذ مونتاني مكان والده، ولم يجده دائمًا مكانًا مريحًا.

وقد تصادف أن ذكر مونتاني في كتاب **المقالات** صورة سلبية نوعًا ما لبيير. فكثيرًا ما كان مدحه لوالده يعقبه تأكيد على أنه هو نفسه مختلف عن والده تمامًا. وعلى ذكرنا لكيف أحب بيير أن يبني الضيعة، نجد مونتاني يعطينا صورة كوميدية مبالغًا فيها تقريبًا عن أنه هو نفسه تنقصه إما الخبرة أو الاهتمام بهذا النوع من العمل. وقال إن كلَّ ما فعل «سواء إكمال بناء جزء صغير من جدار قديم، أو إصلاح بعض المباني سيئة الإنشاء»، كان تكريمًا لذكرى بيير أكثر منه إرضاء لنفسه. كما كان يمكن لفيلسوف القرن التاسع عشر فريدريك نيتشه أن يحذِّر: «ينبغي ألّا يحاول المرء تجاوز والده في الكدِّ والاجتهاد؛ فهذا خليق بإمراض المرء». وعمومًا لم يحاول مونتاني فعل ذلك، وهكذا حافظ على قواه العقلية.

وحيث إن مونتاني كان مفتقرًا للكفاءة في مهارات الحياة العمليّة كما شعر هو نفسه، فقد كان يعرف امتيازه في الأدب والتعلّم. كانت معرفة بيير بالكتب محدودة بينما كان حبّه لها بلا حدود. وفي رأي مونتاني، أن بيير جعل الكتب شيئًا من لوازم نوع من العبادة، وهو أمر نمطي في جيله، وكان يقطع أشواطًا هائلة ليجد مؤلفيها، «مستقبلًا إياهم في بيته استقبال القديسين» و«جامعًا لأقوالهم وخطاباتهم مثل الخطباء الحكماء». لكنه لم يُظهر فهمًا نقديًّا كبيرًا لها. حسنًا، يبدو أن مونتاني يقول إن بيير كان

يمكنه التواثب فوق المناضد على إبهام واحد فقط، لكنه كان مخزيًا في أمور الثقافة. لقد عبدَ الكتب من دون فهمها. وسيحاول ولده أن يفعل العكس دائمًا.

كان مونتاني محقًّا في الاعتقاد بأن هذا من السمات المميزة لمعاصري بيير. كان نبلاء بواكير القرن السادس عشر يحبون كل شيء يتّسم بالمهارة والصبغة الإيطالية؛ وابتعدوا عن تحدي أسلافهم الشديد للثقافة. أما ما أهمل مونتاني ملاحظته أنه هو نفسه كان نموذجًا طبق الأصل لعصره في رفض التعلّق الشديد بالمعرفة النظرية. ملأ الآباء أبناءهم بالأدب والتاريخ، ودرَّبوهم على التفكير النقدي، وعلّموهم تقاذف الفلسفات الكلاسيكية مثل تقاذفهم للكرة. وعلى سبيل الشكر، تخلَّص الأبناء من كل هذا باعتباره بلا قيمة وأخذوا باتجاه متعالٍ. بل إن بعضهم حاول إحياء التقاليد الأقدم الكارهة للثقافة، كما لو كان ذلك ابتعادًا جذريًّا عن آبائهم لم يفكِّروا فيه من قبل أبدًا.

كان جيل مونتاني يشعر بالمرارة والألم، مع نوع جديد من الإبداع المتمرِّد. ومن السهل معرفة سبب فقد ثقتهم في آبائهم، إذ كان عليهم مراقبة الأفكار التي وجَّهت نشأتهم وتربيتهم وهي تتحوَّل إلى نكتة لا تدعو للتفاؤل. الإصلاح الديني الذي هلّل له بعض المفكِّرين السابقين باعتباره تيارًا من الهواء النقيِّ مفيدًا حتى للكنيسة نفسها، صار حربًا، وهدّد بتدمير الحضارة. مبادئ عصر النهضة التي هي الجمال، والاتزان، والوضوح والذّكاء ذابت في العنف، والقسوة واللاهوت المتطرِّف. كان نصف القرن الذي عاشه مونتاني كارثيًّا بالنسبة لفرنسا حتى إن الأمر اقتضى نصف قرن آخر للشفاء منه. ولم يأتِ الشّفاء أبدًا بشكلٍ ما، لأن أعمال الشغب التي نشبت في نهايات القرن السادس عشر أوقفت فرنسا عن بناء إمبراطورية عالم جديد كبرى مثل إمبراطوريتَي إنجلترا وإسبانيا، وأبقتها في حالة نظر إلى الداخل. وفي وقت وفاة مونتاني، كانت فرنسا ضعيفة اقتصاديًّا، دمّرها المرض، والمجاعة والفوضى العامة. فلا عجب أن النبلاء الشباب من جيله انتهى أمرهم بأن صاروا أعداء للإنسانية متعلِّمين تعليمًا رائعًا.

كان في مونتاني شيء من هذه المسحة المضادَّة للثقافة. نشأ وهو يشعر بأن الأمل الوحيد للإنسانية يكمن في بساطة طبقة الفلاحين وجهلها. كانوا الفلاسفة الحقيقيين للعالم الجديد، ورَثَة الحكماء الكلاسيكيين مثل سينيكا وسقراط. كانوا يعرفون فقط كيف يعيشون، بالضبط لأنهم لم يكونوا يعرفون الكثير عن أي شيء آخر. إلى هذا الحدِّ، عاد مونتاني إلى عقيدة الجهل. وكانت هذا صفعة على وجه بيير.

لكن لا شيء يتشابه أبدًا في المرّة الثانية تقريبًا. ولا يوجد من هو أقل شبهًا بنبلاء القرون الوسطى من مونتاني، بمقالاته التي يكتبها ومغامراته، وبإلحاقه لتذييلات مبهَمة

بكلِ ما كتب. كما أن طريقة إضافته لعبارة «ومع ذلك لا أعرف»، تلميحًا أو تصريحًا، لكلِّ فكرة تعنّ له تقريبًا جعلت بينه وبين الطرق القديمة بَوْنًا شاسعًا. وعاشت مُثُل والده فيه رغم كل شيء، لكن بشكل متحوِّر؛ مخفَّفة ويكتنفها التعتيم، ومنزوع عنها اليقين.

التجربة:

ربما كان هذا الاستعداد للتشكّك في اليقينيّات والتحيّزات مجرّد أمر تتوارثه العائلة. قال مونتاني إن عائلة إيكويم ذاع صيتها «صارت شهيرة» وسط الانشقاق الديني بسبب تحرّرها من التنافر الطائفي. ظل معظم أفرادها كاثوليك، لكن مجموعة منهم تحوّلوا إلى البروتستانتية مسببين بذلك على ما يبدو بعض الاضطراب. وحين ظهرت علامات التطرّف على شاب بروتستانتي من عائلة إيكويم، نصح لا بويتي صديقه مونتاني أن يتحاشاه، «من باب احترام السمعة الحسنة التي تتمتّع بها عائلتك والتي اكتسبتَها بفضل الانسجام المستمرّ بين أفرادها؛ عائلة يضاهي إعزازي لها إعزازي لأي عائلة في العالم؛ يا رب، يا لها من عائلة! لم يصدر منها أبدًا إلا ما يصدر عن رجلٍ ذي قيمةٍ».

كانت هذه العشيرة الجديرة بالإعجاب كبيرة جدًّا أيضًا. كان لمونتاني سبعة من الأخوة والأخوات، ناهيك عن الاثنين اللذين ولدا قبله وتوفيا، فكان هو الأكبر. كانت الفجوة العمرية بين بقية الأشقاء والشقيقات شاسعة؛ بأوسع ما يمكن أن تكون، قد يحسُّها المرء باعتبارها انقسامًا بين أجيال، لأن مونتاني كان في السابعة والعشرين حين ولد أصغر أخوته، برنارد.

وحتى الآن لم يتلقَ أي من الأشقاء أو الشقيقات الأصغر - على حدِّ علمنا - اهتمامًا كبيرًا أو تعليمًا استثنائيًّا كما تلقى ميشو الصغير. يرجَّح أن تكون البنات قد تلقَّينَ التعليم العادي الذي تتلقّاه الإناث، والذي يمكن أن يقال إنهن لا يتلقّين عن طريقه شيئًا إطلاقًا. حتى الأبناء الآخرون كانوا يعامَلون بطريقة تقليدية، بقدر ما نعرف. الطفل الوحيد في العائلة الذي وُثّقت حياته بشكل جيِّد هو ميشيل دي مونتاني، ولم يكن مجرّد شخص تلقّى تعليمًا. فقد جعله والده موضوعًا لتجربة تربوية تكاد تكون غير مسبوقة.

بدأت المعاملة غير المعتادة فور ولادة مونتاني، حين أرسل بيير ميشو ليعيش مع عائلة متواضعة في قرية مجاورة. كان إحضار مرضعة ريفية للطفل أمرًا طبيعيًّا جدًّا في زمنه، لكن والد مونتاني أراد لابنه أن يمتصَّ فهم طرق العامة في العيش مع لبن ثدي إحدى نسائهم، فينمو مرتاحًا في العيش مع الناس الذين كانوا في أمسّ الحاجة إلى عون من **سيد إقطاعي**. فبدلًا من أن يحضر والد مونتاني مرضعة للرضيع، أرسله إليها

لفترة طويلة حتى تمّ فطامه. حتى في حفل التعميد، جعل بيير «أناسًا من أدنى الطبقات» يحملون الطفل فوق جرن المعمودية. كان لدى مونتاني من البداية انطباع فوري بكونه فلّاحًا وسط الفلاحين، وبأنه ذو خصوصية شديدة ومختلف. هذا هو خليط المشاعر الذي سيصاحبه طوال حياته. شعر بأنه شخصٌ عاديٌّ، لكنه كان يعرف جيِّدًا أن حالته العادية جعلته استثنائيًا.

كان لخطة إرسال ميشو إلى القرية جانب سلبي لا يرجَّح أن بيير أخذه في الاعتبار. لا بد أن حياة ميشو مع الأغراب جعلته يفشل في «الارتباط» (كما قد نقول الآن) بوالديه الحقيقيين. ينطبق هذا إلى حد ما على أي طفل أرضعته مرضعة، بينما معظمهم كانوا على اتصال بأمهاتهم بقية الوقت. لكن الظاهر أن مونتاني لم يكن على اتّصال بأمّه وهو رضيع. فإذا كانت لأفكار القرنين العشرين والحادي والعشرين أي مصداقية - وربما لم يكن لهما - فقد يثبت أن ارتباط الأم بالطفل ولع انتقالي قصير المدى بالقدر نفسه الذي يكون عليه الارتباط بين الطفل ومرضعته؛ فمن شأن هذا الحرمان في الشهور الأولى من الحياة التأثير في علاقة مونتاني بأمّه إلى الأبد. لكن وفقًا لتقدير مونتاني نفسه، مضى المخطّط بشكل جميل، ونصح قراءه، كلما أمكن، بفعل الشيء نفسه. قال: «دع أطفالك يتشكّلون بحسب حظّهم في ظلِّ قوانين عامّة الناس والطّبيعة».

ومهما كان عمر مونتاني حين أعاده أهله إلى القصر - ربما كان في السنة الأولى أو الثانية من عمره - فلا بد أن القطيعة مع الأسرة التي تبنَّته كانت سريعة وحاسمة حقًا، لأنه سيثبت أن العنصر الثاني من تعليمه التجريبي لا يتوافق إطلاقًا مع عنصره الأول. برجوع الفلاح الصغير ميشو لبيت عائلته، كان لا بد من تنشئته باعتباره متكلِّمًا باللاتينية كأهلها.

كانت أكثر لغة سمعها حتى الآن في بيت الأسرة التي رعته هي لهجة بريجورد المحلّيّة. ولو كان بلغ عمرًا يمكّنه من أكل طعام مضيفيه، فهذا يعني أنه كبر بما يكفي لتنضبط أذنه على لهجتهم، على الرغم من أنه كان أصغر من أن يقدر على التحدّث بها. كان عليه الآن أن يقفز من هذه اللهجة إلى اللغة اللاتينية، متجاوزًا اللغة التي سيكتب بها يومًا ما، ألا وهي اللغة الفرنسية. كان هذا مشروعًا مذهلًا بالنسبة لأيِّ شخصٍ، حتى ولو على مستوى الفكرة، ناهيك عن تنفيذه، وأثار معضلة عملية. بيير نفسه لم يكن متمكِّنًا من اللغة اللاتينية؛ وزوجته والخدم كانوا يجهلونها تمامًا. حتى في العالم الأوسع، لم يعد من الممكن العثور على وفرة من المتكلّمين باللاتينية كأهلها. كيف اعتقد بيير أنه سينشّئ مونتاني ليصير فصيحًا في لغة شيشرون وفيرجيل؟

وجد بيير حلًّا مكوَّنًا من جزأين. كانت الخطوة الأولى استخدام معلّم خصوصي،

ليس من أهل اللغة اللاتينية لكنه يتكلّمها بما يقرب من الطلاقة. وجد بيير ألمانيًا اسمه د. هورست، كانت أعظم مؤهِّلاته إجادته للغة اللاتينية، لكنه يكاد لا يتكلّم الفرنسية أبدًا، ناهيك عن لهجة بريجورد، وبهذا لا يمكن له هو وميشو الصغير إلا التواصل بطريقة واحدة. وكما قال ميشو إنه منذ نعومة أظفاره «قبل ان أفقد لغتي الأولى» صار د. هورست (أو باللاتينية هورستاناس) أهم شخص في حياته.

كانت الخطوة الثانية منع جميع من في البيت من الحديث مع ميشو بأي لغة حيَّة. فإذا أرادوا إخبار الصبي أن يتناول إفطاره، فهم مجبرون على أن يقولوا له هذا باللغة اللاتينية مع نطق نهايات الحروف بطريقة مضبوطة. أقدم الجميع على تعلّم القليل من اللغة اللاتينية بحسب الأصول، بمن فيهم بيير نفسه، الذي عمل على صقل معارف ابنه التلميذ. وبذا، استفاد الجميع، كما كتب مونتاني.

> **تعلّم أبي وأمي بهذه الطريقة ما يكفي من اللغة اللاتينية لفهمها، واكتسبا مهارة كافية في استخدامها عند اللزوم، وهذا ما فعله أيضًا الخدم الذين كانوا أكثر ارتباطًا بخدمتي. واكتسبنا جميعًا الصبغة اللاتينية إلى حدٍّ بعيدٍ إلى درجة أنها فاضت وغمرت قريتنا من كل جانب؛ حتى أنه لا يزال فيها العديد من الأسماء اللاتينية للحرَفيين والأدوات تعمّقت جذورها بالاستخدام. أما أنا فقد كنت قد تجاوزت السادسة قبل أن أفهم المزيد من اللغة الفرنسية أو لهجة بريجورد بأكثر مما أفهم العربية.**

وهكذا، تعلَّم مونتاني اللّغة اللاتينية «من دون وسائل مصطنعة، ومن دون كتاب، ومن دون نحو ولا قواعد، ومن دون السَّوط وبلا دموع»، وتمكّن من الحديث بها بجودة تضارع جودة حديث معلِّمه الخاصّ بها، وبطلاقة طبيعية تفوق ما يمكن لهورست أن يفعله. وحين التقى في ما بعد بمعلّمين آخرين، مدحوه على لغته اللاتينية التي كانت مضبوطة تقنيًّا وعملية.

لماذا فعل بيير ذلك؟ تلك لحظة من اللحظات التي تنفتح فيها تحت أقدامنا فجأة الفجوة التي تبلغ نصف ألفية بيننا وبين موضوعنا. من شأن معظم الناس الآن أن يعتقدوا أن من الجنون فصل الطفل عن والديه من أجل تعلّم لغة ميتة. لكن في عصر النهضة، كانت مكافأة هذا تعتبر أمرا يستحق التضحية. كان أسمى أهداف التعليم الآخذ بالنزعة الإنسانية التمكّن من اللغة اللاتينية الجميلة ونحوها المضبوط؛ إذ إنها تفتح الأبواب على العالم القديم - الذي كان يعتبر مركز جميع ما لدى البشر من حكمة - علاوة

على الكثير من الثقافة الحديثة، حيث كان معظم العلماء وقتها يكتبون باللاتينية. قدّمت اللاتينية لمونتاني مدخلًا إلى مستقبلٍ وظيفيٍّ طيِّب. فقد كانت اللاتينية أساسية للوظائف القانونية والعامة. كانت اللغة تضفي بركة تكاد تكون سحرية على أي شخص يتكلّمها. فإذا تكلَّمْتَ جيِّدًا، فلا بد أنك قادر على التفكير الجيد. أراد بيير أن يعطي ابنه أفضل ميزة يمكن تخيلها، ألا وهي ربطه بكلٍّ من الفردوس المفقود للقديم وبمستقبل شخصي ناجح. جسّدت الطريقة التي أراد بها بيير تعليم ميشو مُثُلَ زمنه أيضًا. معظم الصبية تعلَّموا اللغة اللاتينية ببذل جهدٍ شاقٍ في المدرسة، لكن الرومان لم يفعلوا ذلك، فقد تكلَّموها بطريقة طبيعية كما يتنفَّسون الهواء. ولأن المحدِّثين كان عليهم تعلّم اللغة بطريقة مصطنعة فلم يقدروا أبدًا على مضاهاة القدماء في الحكمة أو عظمة الروح، أو أن النظرية قالت هذا.

لم تكن التجربة قاسيةً على ميشو، على الأقل في جوانبها الظاهرة. أكَّدت نظريات التربية الجديدة أن التعلُّم يجب أن يكون ممتعًا، وأن الدافع الوحيد الذي يحتاجه الأطفال هو رغبتهم الغريزية في المعرفة. وحين تقدّم مونتاني قليلًا في العمر، تعلَّم اليونانية بروح المرح أيضًا. يتذكَّر مونتاني: «كنا نتقاذف حروف العطف جيئة وذهابًا». «مثل من يتعلّمون الرياضيات والهندسة عن طريق ألعاب مثل الداما والشطرنج». لم تلتصق لغته بذهنه، إذ اعترف في ما بعد أن معرفته باللغة كانت ضئيلة. لكن عمومًا، كان الأخذ بمذهب اللذّة مدخلًا فارقًا بالنسبة له للتعلّم. قاده في البداية فضوله وحده، فنما رجلًا راشدًا مستقل الفكر، يتبع طريقه الخاص في كل شيء ولا يسلم قياده للواجب والنظام، وربما وصلت هذه النتيجة إلى أبعد مما ساوم عليه والده.

كانت جوانب أخرى من الحياة المبكرة لمونتاني محكومة بمبادئ مشابهة في السهولة. كان من المعتقد أن «مما يُتعب أدمغة الأطفال الغضة إيقاظهم صباحًا لينهضوا مفزوعين من الفراش»، وهكذا جعل بيير ابنه يغادر فراشه كل صباح منجذبًا كثعبان الكوبرا إلى صوت اللوت LUTE الصادح أو غيره من الآلات الموسيقية. كاد العقاب البدني يكون مجهولًا لديه طوال فترة صباه، لم يُضرب بالعصا إلا مرتين فقط ضربًا رفيقًا. كان تعليمه «تعليمًا بمزيج من الحكمة والكياسة».

استقى بيير أفكاره من أصدقائه العلماء المحبوبين، وربما من أناس قابلهم في إيطاليا أيضًا، مع أن المُنَظِّر الأيديولوجي الذي ترجع إليه هذه الأفكار هو الهولندي إيرازموس من روتردام، الذي كتب عن التربية والتعليم وهو مقيم في إيطاليا قبل عقدين سابقين. كتب مونتاني أن هذا المخطط خرج من معطف ما فعله والده من «طرح جميع أنواع

الأسئلة التي يمكن لرجل طرحها على رجال حازوا التعليم والفهم». ذلك أمر نموذجي بالنسبة لبيير، إذ كانت الفكرة فكرة علماء وفكرة متهوِّرة في الوقت نفسه. وقد حملت الفكرة علامة بيير بالتأكيد لا علامة أنطوانيت التي قد يدفع المرء الكثير ليعرف رأيها في المشروع. إذا كانت رعاية الفلاحين لمونتاني قد أبعدته عن أمه بالفعل، فقد أكدت هذه المرحلة من مراحل تعليمه أن الانفصال كان أبعد من ذلك. كانا الآن يعيشان تحت سقف واحد، لكنهما كانا من كوكبَيْن مختلفين لغويًّا وثقافيًّا. لم يكن من المرجَّح أن تجيد الأم اللغة اللاتينية إلى درجة الاحتراف، على الرغم من أن مونتاني يقول إنها تعلَّمت بعضًا منها من أجله. ووفقًا له، ظلَّت مهارات بيير ضئيلة جدًّا هي الأخرى. فإذا (إذا كبيرة) كانت التجربة صارمة ودقيقة كما يقول تقرير مونتاني ضمنًا، فقد كان الوالدان يتكلَّمان مع ابنهما بطريقة منمَّقة وغير طبيعية. حتى هورست لم يكن يمكنه الكلام مع مونتاني بطريقة تلقائية تمامًا، مهما كان عمق معارفه. قدر هائل من «الطبيعية»! أشك في أن هذه القواعد كانت تُكسر من حين إلى آخر، وآمل في ذلك. لكن مونتاني لا يذكر شيئًا عن ذلك. كما يبدو أنه يعتقد أن التجربة كانت ناجحة نجاحًا باهرًا.

آندرو، آدولف بيست، إيزيدور ليلوار، كشف حياة مونتاني في طفولته. متحف الأسرة، محاضرات مسائية، المجلد الرابع. (يناير 1840)، ص 100.
Musée des Familles, Lectures du soir, VI (Jan. 1840), p. 100

أثمر تعليمِ مونتاني الكلام باللاتينية كأهلها في هذه السن المبكرة، لكن بذور هذه الثمار لم تحقِّق مزيدًا من الإنبات. وفي نهاية المطاف، وبسبب عدم الممارسة، انتهى بأن صار على المستوى نفسه لأي شاب من النبلاء المتعلِّمين تعليمًا جيِّدًا. لكن اللغة

توارت في أعماقه. وحين غشي على والده بسبب نوبة من نوبات حصوات الكلى بعد عقود تالية، تعجَّب مونتاني مما أصاب والده باللغة اللاتينية وهو يتلقاه بين ذراعيه.

أما ما قُدّر له على الدوام فهو ما تركه تعليم مونتاني على شخصيته من تأثيرات. فقد أفاده التعليم بالضبط في المجالات التي دمَّرته أيضًا، كما يحدث مع الكثير من خبرات بواكير الحياة. فقد أبعده التعليم عن استقلاله الفكري، لكنه ربما مال به إلى انفصال معيَّن عن العلاقات مع الناس. أعطاه التعليم توقّعات عظيمة، حيث نشأ وترعرع في صحبة أعظم الكتّاب القدماء لا في صحبة الفرنسيين القرويين في الحي الذي يعيش فيه. لكنه قطعه أيضًا عن طموحات أخرى أكثر تقليدية، لأنه جعله يتشكَّك في كل ما كان الآخرون يكافحون من أجله. كان مونتاني الشاب فريدًا من نوعه. لم يحتج إلى التنافس؛ بل احتاج بالكاد إلى إجهاد نفسه. نما وترعرع مقيَّدًا ببعض أغرب الحدود التي وُضعت لطفل على الإطلاق، وامتلك في الوقت نفسه حرية غير محدودة. كان عالَمًا في حدِّ ذاته.

تعلَّم مونتاني الفرنسية وأجادها في نهاية المطاف، لكنها لم تكن أبدًا الفرنسية المضبوطة الخالية من الأخطاء التي أحب أهل القرون التالية الإصرار على أن يكتب بها كتَّابُهم. كتب مونتاني بحساسية مفرطة؛ قد يتّهمه البعض بأن كتابته تبدو ككتابة ريفي ينقصه الانضباط. لكن ظلّت الفرنسية، وليس اللاتينية، اللغة التي اختارها للكتابة. يقدِّم مونتاني في كتاب **المقالات** سببًا غريبًا لهذا الاختيار. قال إنه لا يمكن توقّع أن تبقى الفرنسية طويلًا مثل اللغات الكلاسيكية؛ من ثم، حكم على كتاباته بسرعة الزوال، وكان يمكنه الكتابة بأي طريقة يحبّها دون قلق على سمعته. أعجبه أنه لم يتجمّد في قالب من الكمال المتصلِّب على أساس أن اللغة إذا كانت بها عيوب ستقلّ الضغوط من أجل استخدامها بطريقة مثالية.

كره مونتاني عادة المخطَّطات المثالية، لكنه في هذه الحالة أقرّ تجربة والده. وحين كتب عن التعليم بنفسه، خرجت فكرته في ثوب نسخة أكثر تواضعًا من أفكار بيير، التي كانت من التطرف بمكان بحيث لا يمكن أن تروق أبدًا لأي شخصٍ آخر. معاصره الكاتب تابورات دي آكوردس، السائر على نهج مونتاني، أشار إلى أن جماعة من السادة المهذَّبين يمكن أن يجمعوا الموارد في مكان واحد لتنشئة أبنائهم بطريقة تشبه الكوميونة اللاتينية، حيث كان من الصعب تدبير هذا الأمر على كل رجلٍ بمفرده، لكن لا توجد علامة على أنهم فعلوا هذا حقًّا.

ازدهرت جوانب للقرن السادس عشر عبر السنين - وما زالت حتى زمننا الحالي - أقل غرابة من «تعليم الأطفال». وضع جان جاك روسو في القرن الثامن عشر مذهبًا في

تربية الأطفال في ضوء الطبيعة، واستعار بعض أفكاره من مونتاني، خاصة من المقال التقريري على نحو غير معهود الذي كتبه مونتاني عن التعليم.

كان مونتاني مضطرًّا لأن يكون تقريريًّا، لأنه يكاد يكون قد كتب مقالًا «عن التعليم» بناء على تكليف من جارته ديان دي فيوكس كونتيسة جورسون، التي كانت حبلى، وأرادت أن تعرف رأي مونتاني في كيف يجب أن تعطي ابنها (بفرض أنه صبي) أفضل بداية للحياة. توضح نصيحة مونتاني مدى سروره بخبراته المبكرة في الحياة. قال أولًا إنها يجب أن تكبح غرائزها الأمومية بما يكفي لكي تجلب غريبًا ليكون معلِّمًا خاصًّا ناصحًا لابنها بدلًا منها؛ فالوالدان يفرطان في عواطف الرحمة، ولا يمكنهما التوقّف عن القلق على ما إذا كان الولد سيصاب بالبرد في الجو الممطر، أو يقع من على صهوة جواده، أو يجرح جلده حين يمارس المبارزة بالسيف. يمكن أن يكون المعلِّم الخصوصي أكثر حزمًا. من جهة أخرى، لا بد ألّا يسمح له بأن يكون قاسيًا. لا بد أن يكون التعلّم متعة، ويجب أن يكبر الأطفال وهم يتخيَّلون الحكمة وقد قدِّمت لهم بابتسامة على الوجه، لا بوجه يحمل تعبيرًا شرسًا ومرعبًا.

وقد شجب مونتاني الطرق الوحشية لمعظم المدارس. «سحقًا للعنف والقهر!» ويقول إنك لو دخلت مدرسة في حصة إعطاء الدرس «لن تسمع إلا الصراخ، سواء من الصبيان المتعلِّمين أو من الأساتذة الذين أطاش الغضب صوابهم». كل ما يفعله هذا هو جعل الأطفال يكرهون التعلّم مدى الحياة.

لا حاجة غالبًا لاستخدام الكتب إطلاقًا. المرء يتعلَّم الرقص بأن يرقص، ويتعلّم عزف العود بعزف العود. يصدق الشيء نفسه على التفكير، كما يصدق حقًّا على عيش الحياة. كلّ خبرة يمكن أن تكون فرصة للتعلم: «مزحة بين أصدقاء، أو حماقة يتفوّه بها خادم، أو ملحوظة تُبدَى على المائدة». لا بدَّ أن يتعلّم الطفلُ التساؤل عن كل شيء: «أن يمرِّر كل شيء من خلال غربال ولا يحشر شيئًا في رأسه لمجرّد أن ذوي السلطة طلبوا منه ذلك وعليه أن يثق بهم». السفر مفيد؛ وكذلك الائتناس الاجتماعي، الذي يعلِّم الطفل الانفتاح على الآخرين والتأقلم مع أي شخص في محيطه. لا بدَّ من تذويب الاختلافات في وقت مبكر، لأنها تصعِّب الانسجام مع الآخرين. «رأيت رجالًا يفرّون من رائحة التفاح أكثر مما يفرّون من نيران البندقية، وآخرون يخافون من فأر، وغيرهم يتقيأون عند رؤية القشطة، وآخرون عند نفش فراش من الريش». كل هذا يقف حجر عثرة في طريق إنشاء علاقات طيبة وفي عيش الحياة عيشًا طيبًا. يمكن تجنّب هذا لأن البشر الصغار يتميَّزون بالمرونة.

أو هم على الأقل مرنون إلى حدٍّ معيَّنٍ. وسرعان ما غيّر مونتاني اتجاهه. يقول إنك أيًا كان ما تفعل لا يمكنك أن تغيّر الاستعداد الموروث حقًا. يمكنك أن توجِّهه أو تدرّبه لكن لا يمكنك أن تتخلَّص منه. وكتب في مقال آخر، «لا يوجد من استمع إلى نفسه ولم يكتشف في نفسه نمطًا خاصًا به وحده، نمطًا حاكمًا، يناضل ضد التعليم».

أتخيل أن بيير كان له رأي أقل جبرية في الطبيعة الإنسانية، لأنه اعتقد أن ميشو الصغير يمكن تشكيله، وأن التجربة كانت تستحق الجهد الذي بُذل في سبيلها. ومع اتجاهه المعتاد القائل بأن ابنه الصغير «يمكنه عمله»، شرع في بناء هذا الابن وتطويره كما شرع في بناء ضيعته وتطويرها.

للأسف، ترك بيير العمل من دون أن يكتمل كعهده مع المشروعات الأخرى، أو هكذا اعتقد مونتاني. في سن السادسة تقريبًا، انتُزع الولد بغتة من محضنته الدافئة غير التقليدية وأرسل إلى المدرسة مثل جميع الآخرين. وظل مقتنعًا طوال حياته أن هذا كان خطأه؛ وأن والده يئس منه بسبب عصيانٍ ما ارتكبه بفعل «نمطه الحاكم». أو ربما كان كلَّ ما في الأمر أن بيير استسلم للتقاليد، فلم يعد ناصحوه الآن محيطين به. يبدو على الأرجح أن بيير قصد دائمًا إرسال ميشو إلى المدرسة عند مرحلة معينة. لكن مونتاني لم يفهم الخطة، وقرأ في ضوء نقده لنفسه أن الخطّة ربما لم توجد. تقدم مونتاني في مراحل متعدِّدة: من عائلة من الفلاحين إلى الحضانة اللاتينية إلى المدرسة، وكانت هذه المراحل تضارع وصفة لإنتاج سيد مهذب كامل الأوصاف، مستقل التفكير لكنه قادر على تشكيل نفسه في قالب المجتمع عند الضرورة. وهكذا، التحق مونتاني في العام 1539 بالصبيان الآخرين الذين يناهزونه عمرًا في كولّيج دي جويين Collège de Guyenne في بوردو.

سيظلُّ مونتاني تلميذًا فيها لمدة عِقد من الزمن، حتى العام 1548 على الأقل، وسيتأقلم إلى حدٍّ ما، لكنها كانت صدمة عنيفة لنظامه في البداية. كان عليه أن يتعوّد على سبيل البدء على الوجود في المدينة بعد حريّة حياة الصبي في الريف. كانت بوردو على مبعدة حوالى أربعين ميلًا من بيته، رحلة تستغرق عدة ساعات حتى على صهوة جواد سريع. ومما زاد من بطء الرحلة ضرورة عبور نهر الدوردوين في الطريق بركوب عبَّارة مزدحمة بالمسافرين تسير بين التلال الخضراء وكروم العنب، حتى ينزلوا منها في قلب الحي التجاري لبوردو، عالم مختلف.

لم تكن بوردو في القرن السادس عشر تشبه إطلاقًا مدينة اليوم، إذ كانت محاطة بالأسوار وخانقة ومحتشدة ومتضامّة حول النهر. دُمِّرت شوارعها القديمة في القرنين

الثامن عشر والتاسع عشر لإحلال شوارع متّسعة ومبانٍ بلون الكريما محلها، تعطيها الآن خاصّيتها ذات الصبغة التجريدية الخفيفة. في زمن مونتاني، لم يكن فيها شيء بلون الكريما. كانت مزدحمة بالسكّان، يسكنها حوالى خمسة وعشرين ألف نسمة وتعجّ بالنشاط. نهرها مليء بالسفن. وشاطئا النهر معَدّان لتفريغ شحنات السفن؛ التي تتكوّن أساسًا من النبيذ، علاوة على مزيج ذكيّ الرائحة من السمك المحفوظ، والملح، وأخشاب البناء.

ف. دي بيل - فوريست ,F. de Belle - Forest،
صورة حيَّة لمدينة بوردو، 1575، المكتبة القومية الفرنسية.
.Bibliothèque nationale de France

ما إن يصل المرء إلى كلية دي جويين نفسها حتى يتغيّر المزاج. كانت الكليَّة في منطقة هادئة من المدينة، بعيدًا عن المركز التجاري ومحاطة بأشجار الدردار. كانت مدرسة ممتازة، على الرغم من أن مونتاني لم يذكرها بالخير. بدت مناهجها وطرق التدريس فيها محترمة لأصحاب الذوق الحديث. دار كلّ شيء فيها حول دراسة اللغة اللاتينية باستظهارها عن ظهر قلب، وهي المادّة الوحيدة التي حاز فيها مونتاني ميزة عظيمة؛ حتى إن معلِّميه لا بد أنهم تعجَّبوا منه. كان من المتوقَّع أن يدور الحوار بين الجميع باللغة اللاتينية، سواء المعلمين أو التلاميذ. وكانت المدرسة مثل بيت مونتاني

بالضبط، مليئة بالحديث الصعب المتكلف، لكنَّ الشبه بينهما ينتهي عند هذا الحدِّ. فلم تكن الموسيقى الرقيقة تعزف هنا؛ ولم يكن في المدرسة تركيز على المتعة، أما أشد ما صدم مونتاني من المدرسة، أن من فيها لم يفترضوا أن ميشو الصغير مركز الكون.

كان عليه الآن بدلًا من هذا أن يتلاءم مع الجميع. كانت الدراسة تبدأ في الصباح المبكر بمناقشة دقيقة لأمثلة أدبية، عادة من كتّاب مثل شيشرون الذي كان أبعد ما يكون عن أن يروق لأذواق القراء الصغار السنِّ. وبعد الظهيرة، كانوا يدرسون النحو بشكل مجرَّد دون الرجوع إلى أمثلة. وفي الأمسيات، يقرأون نصوصًا من الكتب المدرسية مع تحليلات لها يمليها عليهم المعلّم، وكان يُتوقَّع أن يحفظها الأولاد عن ظهر قلب ويعيدوا تذكّرها عندما يُطلب منهم هذا.

في البداية، أدت إجادة مونتاني للغة اللاتينية إلى سرعة ترقيته إلى صفوف تتجاوز فئته العمرية. لكن التأثير السيئ لزملائه الأقلّ حظًّا دمّر تمَكّنه السهل من اللغة تدريجيًّا، فوفقًا لما قاله مونتاني، غادر المدرسة وهو يعرف أقلّ مما كان يعرف قبل الالتحاق بها.

والحقُّ أن الكولّيج كانت تتمتّع بروح المغامرة ومتفتّحة العقل نسبيًّا، وتمتّع مونتاني ببعض جوانب الحياة المدرسيّة أكثر مما أحبَّ أن يعترف به. كان تلاميذ الصفوف الأكبر سنًا يتبارون في مناقب الخطابة والمناظرات، كل ذلك باللغة اللاتينية طبعًا، مع انتباه أقل لما قالوه وانتباه أكثر لكيف قالوه. استقى مونتاني من هذا مهارات بلاغيّة وعادات نقديّة في التفكير سيستخدمها طوال عمره. ومن المرجَّح أنه قابل هنا أيضًا للمرة الأولى فكرة استخدام «الكتب الشائعة»؛ وهي كرَّاسات يكتب فيها المرء مقتطفات من التي يختارها أثناء قراءاته، ويرتّبها متجاورة بشكل إبداعي. وفي نهايات مراهقته، درس مونتاني موادَّ أكثر إثارة للاهتمام، تشمل الفلسفة - ليست من النوع الذي يحبه لسوء الحظ -، النوع الذي يتناول كيف تُعاش الحياة، لكن غالبًا المنطق الأرسطي والميتافيزيقا. وكان مسموح أيضًا ببعض الترويح الخفيف عن النفس. ثم التحق بالكولّيج معلِّمٌ جديدٌ، هو مارك أنطوان موريه، كان كاتبًا ومخرجًا مسرحيًّا؛ وقد لعب مونتاني بطولة إحدى مسرحياته. وتبيَّن أن أداء مونتاني طبيعي على خشبة المسرح، (وكتب) أنه حاز - على غير المتوقّع - «ثقةً بالنفس في التعبير ومرونة في الصوت والإيماءات».

حدث كل هذا في غضون فترة عصيبة بالنسبة للكولّيج. في العام 1547، أرغم متطرفون سياسيون الناظر أندريه جوفيه ذا الفكر التقدّمي على ترك منصبه، فغادر البلاد إلى البرتغال، واصطحب معه أفضل معلمي مونتاني. وفي السنة التالية، نشبت

انتفاضات في بوردو نفسها، هي أعمال الشغب التي أعقبت فرض ضريبة الملح؛ مما وضع ضغطًا على والد مونتاني أثناء شغله لوظيفة العمدة. كان الجنوب الغربي مستثنى من هذه الضريبة تقليديًّا. والآن، وفجأة، حاول الملك الجديد هنري الثاني فرضها، مما أدى إلى التهاب الأوضاع.

اجتمعت حشود من المتمرِّدين للاحتجاج، وظلّوا يجوبون الشوارع لمدة خمسة أيام، من 17 إلى 22 أغسطس 1548، يشعلون النار في بيوت جامعي الضرائب. وبعضهم هاجم بيت أي شخص يبدو عليه الثراء، حتى هدَّدت الفوضى بالتحوّل إلى انتفاضة فلاحيّة عامة. وقتل بضعة جامعي ضرائب، وسُحلت جثثهم في الشوارع، وغُطيت بأكوام من الملح لتوضيح الفكرة. وفي واحد من أسوأ الحوادث، أُعدِم تريستان دي مونيين، محافظ البلدة الذي يحمل رتبة الفريق؛ أي الممثل الرسمي للملك. حبس دي مونيين نفسه في قلعة المدينة الضخمة المعروفة باسم قصر ترومبيت، لكنَّ حشدًا اجتمع خارجها وصاحوا باسمه مطالبين بخروجه. وغامر بالخروج إليهم، ربما اعتقادًا منه أنه سيكسب احترامهم بذلك، لكنها كانت غلطة. فقد ضربوه حتى الموت.

ثم وجد مونتاني الذي كان في الخامسة عشرة نفسه في الشارع، لأن الكولّيج علّقت التدريس في الصفوف أثناء أعمال العنف. وشهد مونتاني مقتل مونيين، وهو مشهد لن ينساه أبدًا. فقد أثار في ذهنه، ربما للمرّة الأولى، سؤالًا سيطارده في كتاب **المقالات** برمَّته في أشكال متنوِّعة: أيهما الأفضل، اكتساب احترام العدو بإظهار التحدي له علنا، أم وضع نفسك تحت رحمته متأملا كسبه لصفِّك بالخضوع له أو بأن تستحث أفضل ما فيه.

في هذه الحالة، اعتقد مونتاني أن مونيين قد فشل لأنه لم يكن متأكدًا مما يحاول فعله. أما وقد قرَّر أن يواجه الحشد، فقدْ فقدَ ثقته حينئذ وتصرّف بخضوع، مرسلًا بذلك رسائل مختلطة. كما لم يقِّدر النفسية المشوهة للحشد حق قدرها. فما إن ينزعج المرء بشدة، لا يمكن إلا تلطيف انزعاجه أو قمعه؛ إذ لا يمكن أن نتوقَّع منه أن يظهر تعاطفًا إنسانيًّا عاديًّا. بدا مونيين جاهلًا بهذا. فقد توقّع الشعور الرفاقي نفسه كما يتوقّعه من فرد. كان شجاعًا بالتأكيد إذ رمى بنفسه أعزل من السلاح في «بحرٍ من الجنون». لكن كان أمله الوحيد حينئذ الحفاظ على هذا الوجه الجريء حتى النهاية. فقد

> **كان ينبغي عليه شرب الكأس حتى الثمالة وألّا يتخلى عن دوره؛ حيث إنه بعد أن رأى الخطر قريبًا منه، فقد أعصابه وتحوَّلت أساريره مرة أخرى من تعبير الانبساط والود إلى تعبير خائف، ملأ صوته وعينيه بالدهشة الندم. وأدّت محاولته للصمود والاختباء، إلى إلهاب شعورهم واستنزال غضبهم عليه.**

أدَّت الرؤية الصادمة لمقتل مونيين ومشاهد أخرى مقلقة بلا شك خلال ذلك الأسبوع إلى تعليم مونتاني الكثير عن الطابع النفسي المركّب للصراع وصعوبة تدبير المرء لأمره جيِّدًا في الأزمات. هدأ العنف في نهاية المطاف، أساسًا بفضل حَمو مونتاني المرتقب، جيفري دي لا تشاسين، الذي فاوض من أجل السلام. لكن المدينة نالها عقاب شديد لسماحها بأعمال العصيان. أرسلت عشرة آلاف فرقة ملكية إلى هناك في أكتوبر بقيادة الكونستابل دي مونتمورينسي؛ علمًا أن لقب «كونستابل» لا يعني رسميًّا إلا معنًى واحد، ألا وهو «رئيس الاصطبلات الملكية»، لكن مهمته كانت مهمة قيادة قوة جبارة. ظلّت الفرق في البلدة لما يزيد عن ثلاثة شهور، ومونتمورينسي يقود حكمًا من الرعب. شجّع رجاله على السلب والقتل، كما تفعل أيّ قوة احتلال في بلد أجنبي. أي شخص يكتشف مباشرة أن له دورًا في أعمال الشغب كانت تحطَّم عظامه بعجلة التعذيب، أو يُحرَق. فعلوا كل شيء لإهانة بوردو جسديًّا، وماليًّا، وأخلاقيا. فقدت بوردو الصلاحيّة القانونيّة لإدارة أمورها؛ وصودرت مدافعها وبارودها؛ وحُلَّ برلمانها، وحكمها لفترة حكام من أجزاء أخرى من فرنسا. كان عليها أيضًا ان تدفع نفقات احتلالها. وحين أخرجوا جثمان مونيين من قبره لإعادة دفنه في الكاتدرائية، أُرغم الموظفون المحليّون على الركوع أمام بيت مونتمورينسي ملتمسين العفو.

استعادت المدينة امتيازاتها تدريجًا، جزئيًّا بفضل جهود والد مونتاني، عمدة المدينة الذي عمل على إعادة بوردو إلى بهائها في عين الملك. والمدهش، أن التمرَّد حقَّق هدفه على المدى البعيد. قرر هنري الثاني الذي أوهنت حوادث الشغب قواه ألّا يطبق ضريبة الملح. لكن ثمن هذا القرار كان باهظًا.

وما إن هدأ غبار هذه الحوادث المأساوية في العام 1549، حتى تفشّى الطاعون في المدينة. لم يكن تفشّيه كبيرًا ولا لفترة طويلة، لكنه كان كافيًا لجعل الجميع يفحصون جلدهم في قلق ويرتعبون من صوت السعال. كما أرغمت الكولّيج على الإغلاق مرة أخرى لفترة، لكن في هذا الوقت كان مونتاني قد انتقل منها على الأرجح. غادر مونتاني الكولّيج في وقت ما من عام 1548، مستعدًا لبدء المرحلة الجديدة من شبابه.

مرَّت بعد ذلك فترة طويلة، حتى العام 1557، لم يكن واضحًا فيها ما كان يفعله مونتاني. ربما عاد إلى الضيعة. أو ربما أرسله والده إلى أكاديمية لإكمال الدراسة، حيث يتعلَّم الشبان إتمام أسلوب النبلاء في الفروسية، والمبارزة، والصيد، وشعارات النبالة، والغناء والرقص (لكن مونتاني لم يهتمّ بأي شيء سوى بدروس الفروسية؛ إذ كانت هذه هي المهارة الوحيدة من بين تلك المهارات التي زعم في ما بعد أنه أجادها).

ولا بد أنه درس القانون أيضًا في مرحلة ما. ودخل مرحلة الرّشد مسلحًا بكل ما يحتاجه ليصير **سيدًا إقطاعيًّا** شابًّا ناجحًا، وعلى الرغم من كراهيته للتجربة، فقد خرج منها بمجموعة مفيدة من القدرات والخبرات التي اكتسبها من الكولّيج. أهم ما في كل هذا اكتشاف كان من شأنه أن يسرّ والده، ألا وهو اكتشاف الكتب، والعوالم التي فتحتها له؛ عوالم تتجاوز بمراحل كروم العنب في جويين ومَلل مدرسة القرن السادس عشر.

مكتبة
t.me/t_pdf

4. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟

ج: اقرأْ كثيرًا، انسَ معظم ما قرأت، ولا تكن سريع البديهة

انضم إلى مكتبة اضغط هنا

القراءة:

أدَّت دراسة مونتاني النحوية لشيشرون وهوراس عن كثب إلى قتل اهتمامه تقريبًا بالأدب في مهده. لكن بعض معلِّمي الكولّيج ساعدوا على استمرار هذا الاهتمام، أساسًا بألّا ينتزعوا الكتب المسلِّية من يدي الصبي حين يضبطونه يقرأها، وربما دسّوا بعضًا منها في طريقه؛ يفعلون ذلك بتحفُّظ شديد بحيث يمكنه التمتّع بقراءتها من دون التوقُّف عن الشعور بأنه متمرد.

من النصوص غير المناسبة التي اكتشفها مونتاني حين كان في السابعة أو الثامنة، وغيَّر حياته، كتاب **مَسخ الكائنات (أو التحوُّلات)**[1] لأوفيد. كانت هذه الباقة المدوَّخة من القصص عن معجزات التحوُّل بين الأرباب القدماء والبشر الفانين هي أقرب ما لدى عصر النهضة إلى القصص الخرافية الموجزة. كان الكتاب مليئًا بالرعب والمسرّات مثله مثل قصص جريم أو أندرسن، ولا يشبه أبدًا الكتب المدرسية، كان الشيء الذي يمكن أن يقرأه صبي واسع الخيال من القرن السادس عشر وقد استدارت عيناه وأبيضَّت مفاصل أصابعه بسبب تشديد قبضته على غلاف الكتاب.

يتغيّر الناس في كتابات أوفيد. إذ يتحوَّلون إلى أشجار، أو حيوانات، أو نجوم، أو مسطّحات مائية، أو إلى أصوات لا يظهر جسد مصدرها. ويغيرون جنسهم، ويصيرون مستذئبين. تنزل امرأة اسمها شيلا في بركة مسمَّمة، وترى كل طرف من أطرافها وقد تحوَّل إلى وحش شبيه بالكلب، ولا يمكنها الخروج منها **لأنها هي** أيضًا من الوحوش. ويتحوّل الصياد آكتيون إلى أحد ذكور الأيائل، وتطارده كلاب الصيد المملوكة له. ويطير إيكاروس عاليًا حتى إن الشمس تحرقه. ويتحوّل ملك وملكة إلى

---

(1) **مسخ الكائنات** هي ترجمة د. ثروت عكاشة لعنوان كتاب أوفيد Metamorphoses المعروف باسم **التحوُّلات** (المترجمة).

جبلين. والحورية ساماسيز تلقي بنفسها في البركة التي يستحمّ فيها هيرمافروديتوس[1] الجميل، وتلفّ جسمها حوله كحبّار ضخم يمسك بسرعة بفريسته حتى يذوب لحمها في لحمه ويصير الاثنان شخصًا واحدًا، نصفه ذكر ونصفه أنثى. يعطي هذا النوع من الذوق دفعة لمونتاني، ما إن يأخذها حتى يرمح عبر كتب أخرى مليئة بالمُثُلِ بحكايات جيدة: **آنيد** Aeneid لفرجيل، ثم تيرانس، وبلاوتوس وكوميديات هنديّة حديثة متنوّعة. تعلَّم مونتاني - تحدِّيًا للسياسة المدرسية - ربط القراءة بالتشويق. كان هذا هو الشيء الوحيد الإيجابي الذي خرج به من الوقت الذي أمضاه هناك. (ويضيف مونتاني، «لكنها، على الرغم من كلِّ ذلك، ظلَّت مدرسة»).

هيرمافروديتوس ورودوبي وهيمو، من أوفيد، ترجمة ل. دولسي، مسخ الكائنات (فينيسيا: ج. جيوليتو دي فيراري، 1561). Venice G. Giolito de Ferrari, 1561

ظلَّ مونتاني محبًّا طوال عمره لأحد اكتشافاته المبكرة. فعلى الرغم من أن الإثارة الأولى لكتاب **مسخ الكائنات** قد بليت، فقد ملأ مونتاني كتاب **المقالات** بقصص منه،

(1) Hermaphroditus: في الميثيولوجيا الإغريقية، هو ابن افروديت وهيرمس.

وحاكى أسلوب أوفيد في الانتقال من موضوع إلى آخر بلا مقدِّمة ولا نظام واضح. وظَلّ فيرجيل مفضَّلًا لديه أيضًا، على الرغم من أن مونتاني في طور نضجه كان لديه ما يكفي من الصفاقة ليشير إلى أن بعض فقرات **آنيد** ربما تكون «قد خُفِّفت قليلًا».

ولأن مونتاني كان يحب أن يعرف ما فعله الناس فعلًا لا ما اعتقد أحدهم أنهم فعلوه، فسرعان ما تحوّل تفضيله من الشعراء إلى المؤرّخين وكتاب السِّيَر. قال إن المرء يقابل في قصص الحياة الواقعية الطبيعة الإنسانية بكل ما فيها من طابع مركَّب، فأنت تتعلَّم «تنوُّع الإنسان وحقيقته»، علاوة على «تنوّع طرق تجميع شتاته، والحوادث التي تتهدِّده». ومن بين الكتابات التاريخية كان أحبَّها إلى قلبه تاكيتوس، إذ علَّق ذات مرة أنه قرأ كتاب **التاريخ** الذي ألفه تاكيتوس من الجلدة للجلدة من دون توقف. أحبَّ طريقة تاكيتوس في معالجة الحوادث العامّة من وجهة نظر «السلوك الخاصّ والميول الخاصّة»، وصعق من حظ المؤرِّخ في العيش في فترة «غريبة ومتطرِّفة»، كما حدث لمونتاني نفسه. لقد كتب مونتاني عن تاكيتوس، «ستقول غالبًا إنه يصفنا نحن».

وعندما التفت مونتاني لكُتّاب السيَر، أحب من ذهبوا منهم إلى ما وراء حوادث الحياة الخارجية، وحاولوا إعادة بناء العالم الداخلي للشخص مما لديهم من شواهد. لم يتفوَّق أحد في هذا على كاتبه المفضل من بين جميع كُتَّاب السيَر الإغريق، ألا وهو بلوتارخ، الذي عاش في ما بين نحو العام 46 م. إلى نحو العام 120م.، والذي قدَّم كتابه الضخم **حيوات متوازية** حكايات عن مشاهير الإغريق والرومان يقترن فيها اسمًا كل اثنين منهم. كان بلوتارخ بالنسبة لمونتاني ما كانه مونتاني بالنسبة للكثير من قرّائه المتأخِّرين، قدوة تحتذى، وكنزًا من الأفكار، والاقتباسات، والروايات ليختلس منه الآخرون. «هو شامل ومتخم إلى حدٍّ أنه في جميع المناسبات وأيما كان الموضوع الذي تضطلع به، فهو يشقّ طريقه إلى عملك». لا شكّ في أن هذا الجزء الأخير حقيقي؛ فالعديد من أقسام كتاب **المقالات** مأخوذة من بلوتارخ كما هي،، وترد فيه بلا أي تغييرات تقريبًا. لم يفكِّر أحد في أن هذا انتحال؛ فقد كانت مثل هذه المحاكاة للمؤلفين العظام تعتبر وقتها عملًا ممتازًا. كما أن مونتاني أدخل تعديلات بسيطة على كل ما سرقه، حتى ولو بمجرد وضعه في سياق مختلف وإحاطته بالشكوك.

أحبَّ مونتاني طريقة تجميع بلوتارخ لعمله بحشوه بحفنات من الصور، والحوارات، والناس، والحيوانات، وموضوعات من جميع الأنواع، بدلًا من أن يرتِّب ملخّصات ومجادلات ببرودٍ. أشار مونتاني إلى أن كتابات بلوتارخ مليئة **بالأشياء**. إذا أراد بلوتارخ أن يخبرنا أن حيلة العيش الكريم تكمن في استغلال أي موقف، فهو يفعل

ذلك بحكي قصة رجل قذف كلبه بحجر، فأخطأه، فأصاب الحجر زوجة أبيه بدلًا من الكلب، وتعجَّب، «الأمر ليس سيِّئًا جدًّا قبل كلِّ شيء!» أو لو أراد أن يرينا كيف نميل لنسيان الأشياء الجيّدة في الحياة وينتابنا هوسٌ بالأشياء السيِّئة فقط، يكتب عن ذباب وقف على مرآة وظلَّ ينزلق على سطحها الناعم، عاجزًا عن أن يجد موقعًا يثبِّت فيه أقدامه حتى اصطدم بسطح خشن. لا يكتب بلوتارخ نهايات منمَّقة، بل يبذر بذورًا يمكن أن تنشأ عنها عوالم بأكملها من التساؤلات. إنه يشير إلى أين يمكن أن نذهب إذا أحببنا، فهو لا يقودنا، وأمر الطاعة أو العصيان متروك لنا.

أحب مونتاني أيضًا الإحساسَ القويَّ بشخصية بلوتارخ كما ترد في كتاباته: «أعتقد أني أعرفه حتى في روحه». هذا ما كان مونتاني يبحث عنه في أي كتاب، كما بحث عنه الناس في ما بعد في عمله: الإحساس بمقابلة شخص حقيقي عبر القرون. بقراءة مونتاني لبلوتارخ، فقد الوعي بالفجوة الزمنية التي تفصلهما، وهي فجوة أكثر اتساعًا من تلك التي بين مونتاني وبيننا. كتب أنه لا يهم ما إذا كان الشخص الذي يحبّه المرء قد مات منذ خمسة آلاف عام، أو مات منذ ثمانية عشر عامًا، مثل والده في عصره الحالي. الاثنان بعيدان بالقدر نفسه؛ والاثنان قريبان بالقدر نفسه.

إن دمج مونتاني لمؤلفيه المفضلين مع والده يخبرنا الكثير عن كيف كان يقرأ؛ فهو يهتم بالكتب كما لو كانوا بشرًا، ويرحِّب بهم في عائلته. الولد المتمرِّد قارئ أوفيد سيجمع يومًا مكتبة فيها حوالى ألف مجلّد؛ حجم جيّد، لكنه ليس تكديسًا عشوائيًّا للكتب. ورث مونتاني بعض الكتب عن صديقه لا بويتي؛ واشترى البعض الآخر بنفسه. جمع مونتاني الكتب بلا منهج نظاميٍّ، من دون أن يهتم بالتجليد الجميل أو القيمة الناتجة عن الندرة. لن يكرِّر مونتّاني غلطة والده أبدًا في عبادة الكتب أو مؤلِّفيها. لا يمكن أن يتخيَّله المرء يُقَبِّل المجلدات كأنها آثار مقدّسة، كما اعتاد إرازموس أو الشاعر بترارك مرارًا وتكرارًا كما ورد عنهما، أو أن يرتدي أفضل ملابسه قبل أن يقرأها، مثل ميكافيللي، الذي كتب: «أخلعُ ملابس العمل المتربة المليئة بالعرق، وأرتدي المعاطف التي أرتديها حين أرتاد البلاط والقصر، وبهذا الزي الخطير أدخل إلى بلاط القدماء وألقى الترحيب منهم». ربما وجد مونتاني هذا مثيرًا للسخرية. لقد فضَّل الحوار مع القدماء بنغمة ودٍّ، بل كان يغيظهم أحيانًا مثلما عندما كان يلوم شيشرون بسبب تباهيه، أو يلمِّح إلى أن فرجيل ربما كان يمكنه بذل المزيد من الجهد.

لم يزعم هو نفسه أبدًا أنه بذل جهدًا، لا في القراءة ولا في الكتابة. كتب: «أتصفَّح الآن كتابًا، وفي حين آخر كتابًا آخر، بلا نظام وبلا خطة، أقرأ شذرات مفكّكة». قد يبدو

غاضبًا بالتأكيد إذا اعتقد أن أي أحدٍ قد يشكّ في أنه باحث دقيق. وما إن ضبط نفسه يقول إن الكتب تقدِّم السلوى، أضاف على عجل: «أنا أستخدمها فعلًا في ما ندر، ليس بأكثر ما يستخدمها من لا يعرفون عنها شيئًا إطلاقًا». وتبدأ إحدى جمله بما يلي: «نحن ذوو الصلة الضعيفة بالكتب... ». ظلّت القاعدة التي يخضع لها في القراءة هي نفسها التي تعلّمها من أوفيد؛ ألا وهي المتعة القصدية. كتب: «إذا لقيت صعوبة في القراءة، لا أقضم أظافري بسبب ذلك؛ بل أتركها جانبًا. لا أفعل شيئًا من دون بهجة».

العبيط القارئ، رسم أ. دورر، A. Dürer, من س. برانت، نارينشيف (بازل: بيرجمان فون أولبي. 1494).
Basel: J. Bergmann von Olpe, 1494

والحقيقة أنه بذل جهدًا شاقًا في العمل أحيانًا، ولكنه لم يفعل ذلك إلا حين كان يعتقد أن العمل يستحق. بقيت عدة حواشٍ بخط مونتاني على عددٍ قليلٍ من مجموعة كتبه، ملحوظ منها نسخة من كتاب لوكريتيوس **عن طبيعة الأشياء**، والواضح أنه نصّ يستحق الانتباه الشديد. هذا بالضبط نوع الكتب الذي نتوقّع أن مونتاني يريد بذل الجهد فيها، فهو ذو خصوصية ومغامر ثقافيًا.

مما يناسب مونتاني تقديم نفسه على أنه شخص كسول، يتصفّح صفحات قليلة قبل أن يرمي بالكتاب جانبًا وهو يتثاءب. وقد تناغم هذا مع جو الهواة الذي أراد استدعاءه في كتاباته. وكما يتّضح من نسخة لوكريتيوس، لا بدّ أن الحقيقة أكثر تعقيدًا. لكن لا

شك أنه هجر كل ما أصابه بالملل؛ فهكذا نشأ، فقد علّمه بيير قبل كل شيء أنه لا بد من مقاربة كل شيء في «رقّة وحرّية من دون صرامة ولا إكراه». وقد جعل مونتاني من هذا مبدأ تامًّا لعيش الحياة.

مونتاني بطيء الفهم كثير النسيان:

وفقًا لما يقول مونتاني، أنه حينما يتعِب نفسه بتصفح كتاب، ينسى فورًا كل شيء قرأه تقريبًا. كتب مونتاني، «الذاكرة أداة رائعة مفيدة، ومن دونها يفعل الحكم على الأشياء فعله بصعوبة»، ثم أضاف: «إنها تنقصني تمامًا».

> **لا يوجد أقل مني انشغالًا بالحديث عن الذاكرة. لأني لا أكاد أدرك أثرًا لها في نفسي، ولا أعتقد أنه يوجد شخص آخر في العالم فيه هذا النقص المهول.**

وقد اعترف بأن هذا شيء مزعج. كان من بواعث ضيق مونتاني أنه يفقد أكثر أفكاره روعة لمجرَّد أنها خطرت على باله وهو يركب الخيل خارج البيت ولم يكن معه ما يستطيع أن يدوِّنها به. وربما لو تذكّر جميع أحلامه أيضًا لكان ذلك أفضل. وكتب مستشهدًا بتيرانس، «أنا مليء بالتصدعات، وجميع جوانبي ترشح بما فيها».

كثيرًا ما تطلع مونتاني إلى الدفاع عن ضعفاء الذاكرة. شعر «باستياء» و«ندم شخصي» عندما كان يقرأ، مثلًا عن لاينسيستاس، الذي أُرغم على إلقاء خطاب دفاع عن نفسه على جيش بأكمله بعد اتهامه بالتآمر ضد الإسكندر الأكبر. حفظ لاينسيستاس الخطبة عن ظهر قلب، لكن حين حاول إلقاءها لم يتذكّر منها إلا بضع كلمات، ثم اختلط عليه الأمر ونسي بقيتها. وبينما كان يتلجلج ويتجنّب الحديث الواضح المباشر، فقَدَ بعض الجنود القريبين منه صبرهم وطعنوه برماحهم؛ إذ اعتقدوا أن عدم قدرته على الكلام تثبت أنه مذنب. تعجب مونتاني من ذلك وقال: «كان هذا بالتأكيد استنتاجًا جيدا!» لم يثبت إلا أن الذاكرة المجهَدة بحمل زائد يرجَّح أن ينتابها الرعب تحت ثقل حمولتها مثل حصان انتابه الفزع، فألقى حمولته.

حتى لو لم تكن حياة المرء عرضة للخطر، فإن حفظ خطبة عن ظهر قلب ليست فكرة جيّدة. الإنصات للأحاديث التلقائية أكثر متعة. حين كان مونتاني نفسه يضطر للحديث على الملأ، حاول أن يكون حديثه فاترًا، واستخدم «إيماءات تلقائية وغير مدروسة لم يفكِّر فيها من قبل، كما لو كانت نبعت من المناسبة الحاليّة فورا». وتجنّب بشكل خاص إعلان نقاط متتالية مرقّمة («سأناقش الآن ستة مداخل ممكنة... ») لأن هذه الطريقة كانت مملّة وتحمل مخاطر؛ إذ يرجَّح إما أن ينسى المرء بعضًا من النقاط أو ينتهي أمره بأخذ كثرة مفرطة منها.

كان مغزى معلومة ما أو أهميتها هما اللذان يطردانها أحيانًا من عقله. ففي ذات مرة، حالفه الحظ والتقى بجماعة من شعب التوبينامبا أحضرهم المستعمرون الفرنسيون من البرازيل، واستمع بشغف لإجاباتهم حين سألوهم عن رأيهم في فرنسا. أجابوا بثلاثة تعليقات، جميعها فاتنة؛ لكن حين أتى مونتاني لتذكّر الحوار في كتابه **المقالات**، لم يتذكّر إلا اثنين. والزلّات الأخرى كانت اسوأ. اعترف مونتاني في خطاب منشور يصف موت لا بويتي - أكثر من أحبَّهم من الرجال في حياته - أنه ربما نسي بعضًا من أعمال صديقه وكلمات الوداع الأخيرة له.

كان اعتراف مونتاني بهذه الكبوات طعنًا مباشرًا في مثال الخطابة والبلاغة لعصر النهضة، الذي يقول إن إجادة التفكير وإجادة الحديث هما الشيء نفسه، وأن القدرة على إجادة الحديث تعتمد على تذكّر تدفق الحجّة مع تزيينها باقتباسات لامعة وأمثلة. تعلَّم من كرّسوا أنفسهم لفن الذاكرة أو **الآرس ميموريا** ars memoriae، تقنيات تجميع ما يساوي ساعات من البلاغة، بل أنشأوا من هذه التقنيات برنامجًا كاملًا من تحسين الذات على نحو فلسفي. لم يرق هذا لمونتاني.

رفض بعض القراء منذ البداية تصديق أن ذاكرة مونتاني يمكن أن تكون بالسوء الذي زعمه. ضايقه هذا كثيرًا إلى درجة أنه اشتكى منه في كتاب **المقالات**. لكنَّ الشكّاكين استمروا في الإشارة إلى أنه على ما يبدو لم يجد أي صعوبة مثلًا في تذكّر اقتباسات من قراءاته؛ إذ ظهر منها الكثير في كتاب **المقالات**، ليس أقلّها الاقتباس الذي يتحدّث عن الإحساس بأنه مثل وعاء يرشح بما فيه. إما أنه كان أقل ارتشاحًا مما زعم أو أنه كان أقل كسلًا، لأنه لو لم يتذكّر الاقتباسات، فلا بد أنه دوَّنها. غضب بعض الناس بشدة بسبب هذا. قال أحد معاصريه القريبين منه، هو الشاعر دومينيك بوديير، إن رثاء مونتاني لذاكرته جعله يصاب «بالغثيان والضحك»، وهو رد فعل متطرف. وشعر فيلسوف القرن السابع عشر كاليبرانش أن مونتاني كان يكذب عليه، وهي تهمة خطيرة إذا وُجّهت لكاتب يكثر من التنبيه إلى أمانته.

كانت تهمة وراءها شيء. كان مونتاني بالتأكيد يتذكّر أكثر مما ينسى. ليس من غير المعتاد أن يشعر المرء أن ذاكرته تخونه؛ فهذا جزء من النقص الموجود في الطبيعة البشرية. كما يمكن أيضًا توقع أن تكون ذاكرة مونتاني غير منضبطة بسبب نشأته الخالية من الضغوط، وكراهيته للإرغام على فعل أي شيء. ويمكن ترجمة تواضعه الظاهر في هذا الموضوع إلى ادّعاء محكَم للفضائل التي اعتقد أنها أكثر أهمية. من المفارقات أن إحداها كانت الأمانة. وعلى حد القول القديم، الذاكرة السيئة تخلق كذابين سيئين. إذا

كان مونتاني كثير النسيان إلى حد أنه يحتفظ بالقصص مباشرة في رأسه، فقد كان عليه أن يقول الحقيقة. كما أن ضعف ذاكرته جعل خطبه موجزة وحكاياته مختصرة، لأنه لم يكن يقدر على تذكّر القصص والحكايات الطويلة، كما مكّنه من التدرّب على الحكم السليم على الأشياء. ذوو الذاكرة القوية لديهم عقول مشوَّشة، لكن مخّه كان مشمولًا ببركة الخلوّ إلى حد أن لا شيء يمكن أن يعترض طريق الحسِّ السليم لديه. وأخيرا، كان ينسى بسهولة أي مشهد يرغمه عليه الآخرون، ومن ثم لم يشعر إلا بقليل من الندم. بالاختصار، قدم مونتاني نفسه كشخص يطفو فوق العالم على سجّادة الفراغ الذي لا يملأه إلا البِرّ والإحسان.

وحيثما بدا أن ذاكرة مونتاني تعمل جيِّدًا، إذا أراد لها ذلك، كانت تعيد بناء التجارب الشخصيّة مثل حادث ركوب الخيل. وبدلًا من تحويلها إلى حكايات منمَّقة سطحية، كان يستعيد أحاسيسه الداخلية بها، ليس بشكل كامل، لأن التيار الهيراقليطي ظلّ يجرفه. فكّر عالِم النفس دوجالد ستيوارت الذي عاش في القرن التاسع عشر أن عدم تحكم مونتاني في ذاكرته جعله أفضل في مثل هذه المهمات. كان مونتاني منضبطًا على موجة من نوع الذاكرة «اللاإرادية» التي ستفتن بروست في يوم ما؛ هذه الانفجارات الآتية من الماضي والتي تظهر من دون توقّع في الحاضر، ربما استجابة لطعم أو رائحة طواهما النسيان منذ فترة طويلة. تبدو في مثل هذه اللحظات ممكنة فقط إذا كانت محاطة بمحيط من النسيان، علاوة على مزاج مناسب ووقت فراغ كاف.

من المؤكَّد أن مونتاني لم يحبّ أن يتعب في فعل الأشياء. وقد قال عن ذاكرته، «عليَّ أن أستعطفها بلا مبالاة، إنها تخدمني في الوقت الذي يناسبها، لا الذي يناسبني أنا». أي جهد يبذله مونتاني لجذب شيء من ذاكرته بحسب الطلب لم يكن يفعل إلا المزيد من إبعاد الشيء الذي يسعى لتذكّره ودفعه إلى منطقة تكتنفها الظلال. وعلى العكس، لاحظ مونتاني أن لا شيء يجعل حدثًا يلتصق بالذاكرة أكثر من الجهد الواعي المبذول لنسيانه.

كتب مونتاني: «ما أفعله بسهولة وبشكل طبيعي لا أتمكّن من فعله لو أمرت نفسي بفعله بصرامة». شكّل تركه لذاكرته أن تأخذ مجراها الخاصّ جزءًا من سياسته العامّة في جعل الطبيعة تحكم أفعاله. كانت النتيجة في طفولته أنه كثيرًا ما ظهر كسولًا ولا يصلح لشيء، ويرجَّح أنه كان كذلك بعدّة طرق. فعلى الرغم من الجهود المستمرّة لوالده لإعطائه دوافع، كتب أنه تحوّل إلى شخص «بطيء جدًّا، ومتراخٍ، ونعسان، إلى حد أنهم لم يتمكّنوا من انتزاعي من كسلي، ولو حتى ليجعلوني ألعب».

بحسب تقديره الخاص، لم يكن فقط كسولًا بل كان أيضًا بطيء الفهم. لم يتمكن ذكاؤه من اختراق أبسط السحب: «لا توجد مهارة تافهة لن تربكني. لا أفهم شيئًا عن الألعاب التي يلعب العقل دورًا فيها، مثل الشطرنج، والكوتشينة والداما، وغيرها؛ إلا النزر اليسير». كان لديه «فهمٌ متوانٍ»، و«خيالٌ ضعيف» و«عقلٌ بطيءٌ». لم يساعد ضعف ذاكرته أيًا من فهمه أو خياله أو عقله. جميع خصائصه غفت معًا، وأصدرت شخيرًا رقيقًا، جعل مخَّه يبدو مثل حفل شاي جميع ضيوفه فئران نعسانة[1].

لكن كان لذلك فوائد؛ فما إن يفهم مونتاني شيئًا حتى يفهمه بشدة. حتى وهو طفل، يقول: «ما كنت أراه، كنت أراه جيّدًا». كما استخدم سلوكه الخامل قصدًا كغطاء يمكن أن يخفي تحته «الأفكار الجريئة» والآراء المستقلّة. لقد مكّنه تواضعه الظاهر من أن يدّعي شيئًا أهم من سرعة الفهم؛ ألا وهو الحكم السليم على الأشياء.

يشكِّل مونتاني مثالًا جيِّدًا «للحركة البطيئة» الحديثة، التي انتشرت (في شكل موضة لتزجية وقت الفراغ) لتصير شيئًا شبيهًا بالطقوس منذ ظهورها في نهايات القرن العشرين. وكان معتنقوها يسيرون، مثل مونتاني، بخطًى وئيدةٍ سعيًا إلى مبدأ أخلاقي. النصُّ المؤسِّسُ لها هو رواية **اكتشاف البطء** من تأليف ستين نادولني، التي تحكي قصّة حياة جون فرانكلين مستكشف القطب الشمالي، وقد صوَّرت الرواية بطء حركة حياة هذا الرجل وتفكيره في صورة رجلٍ كسلان مسنٍّ بعد جلسة تدليك طويلة وتدخين أنبوب من الأفيون. تعرّض فرانكلين للسخرية في طفولته، لكنه حين وصل إلى أقصى الشمال وجد المناخ مناسبًا تمامًا لطبيعته؛ فهو مكان يأخذ فيه المرء وقته، لا يحدث فيه إلا النزر اليسير من الحوادث، ومكان لا بد لك فيه من أن تتوقّف وتفكّر قبل أن تندفع إلى الفعل. نشرت الرواية في ألمانيا في العام 1983، وبعد نشرها بمدة طويلة، ظلت رواية **اكتشاف البطء** تحقّق أفضل المبيعات بل سُوِّقت بمثابة بديل لكتيِّب عن الإدارة. وفي الوقت نفسه، نشأت في إيطاليا حركة الطعام البطيء، التي بدأت احتجاجًا على فرع ماكدونالدز في روما ونمَت لتصير فلسفة كاملة لطيب العيش.

كان يمكن لمونتاني أن يفهم كل هذا بشكلٍ جيِّد. فقد فتح له البطء سبيلًا إلى الحكمة، وإلى روح من الوسطية التي تتخلّص من الإسراف والتعصّب اللذين سادا فرنسا في زمنه. كان سعيد الحظ لأنه كان محصَّنًا بطبيعته ضد الاثنين، لا يميل إلى أن تجرفه الحماسة التي يبدو أن الآخرين عرضة للانجراف في تيارها. كتب مونتاني: «أنا

---

(1) الإشارة هنا إلى حفل الشاي في رواية آليس في بلاد العجائب، الذي كان ضيوفه (إلى جانب آليس) صانع القبعات المجنون، والأرنب البري، والفأر النعسان (المترجمة).

دائمًا في المكان المناسب تقريبًا، مثل الأجساد الثقيلة والخاملة». وما إن تثبت جذوره حتى يسهل عليه مقاومة التهديد، لأن الطبيعة جعلته «غير قابل للخضوع للغصب والعنف».

وهذا جزء واحد من القصّة، كمعظم ما في مونتاني. **كان يمكن** في شبابه أن يستشيط غضبًا، وكان قلقًا. يقول في كتاب **المقالات**: «لا أعرف أيّهما السبب، عقلي أم جسدي. صرت أجد مزيدًا من الصعوبة في البقاء في مكانٍ واحدٍ». ربما كان يلعب دور الكسلان وقتما يناسبه ذلك.

صارت عبارتا «انسَ الكثير مما تعلمته»، و«لا تكن سريع البديهة» اثنتين من أفضل إجابات مونتاني على سؤال كيف تُعاش الحياةُ. حرَّرتاه من التفكير بحكمة بدلا من العفوية، وجعلتاه يتجنّب الأفكار المتعصّبة والخدع البلهاء التي وقع الناس الآخرون في شراكها، كما جعلتاه يتبع أفكاره الخاصّة إلى حيث تقوده؛ وهو كل ما كان يريد أن يفعله حقًا.

يمكن زرع بطء الفهم والنسيان، لكن مونتاني اعتقد أنه كان محظوظًا بامتلاكه لهما منذ ميلاده. اتضح مَيله لفعل الأشياء بطريقته منذ سن مبكرة، وكان مصحوبًا بدرجة مدهشة من الثقة في النفس. كتب: «أتذكّر أنني منذ نعومة أظفاري لاحظ الناس أن جسدي كان يأخذ وضعية غير مفهومة، وأنني أبدي إيماءات معيّنة تشهد على شيء من الكبرياء الفارغة والغبيّة».

كان اختياله سطحيًا؛ إذ لم يكن متغلغلًا في أعماقه، بل كان «منثورًا» نثارًا خفيفًا. لكن استقلاله الداخلي جعله باردًا. على استعداد دائم للحديث عمّا في عقله، كان مونتاني الشاب مستعدًا أيضا لجعل الآخرين ينتظرون ما ينبغي أن يقوله.

مونتاني الشّاب في أوقات عصيبة:

كانت بنية مونتاني البدنية مائلة للضآلة، مما جعل من الصعب عليه تدبّر أمر هيئته الموحية بالعظمة المقرونة باللامبالاة، وهو ما أحزنه بشكلٍ دائم. كتب أن الأمر كان مختلفًا بالنسبة للنساء. فالأشكال الأخرى لحسن المظهر يمكّن أن تعوِّض ذلك. أما في الرجال، فقد كانت القامة «هي ملمح الجمال الوحيد»، وكانت تلك بالضبط الخاصية التي تنقصه.

> **حيث يهتمّ الناس بالقامة، لا يمكن أن يُعتبر الرجل وسيمًا لمجرد أنه يتمتع بجبهة عريضة مستديرة، ولا لصفاء عينيه ونعومة نظراته، ولا للشكل المتوسِّط**

> **لأنفه، ولا لصغر أذنيه وفمه، ولا لانتظام أسنانه وبياض لونها، ولا للحيته الناعمة الكثّة الكستنائية، ولا لشعره المجعّد، ولا لاستدارة رأسه بشكل مضبوط، ولا لنضارة لون بشرته، ولا لتعبيرات وجهه الباعثة على السرور، ولا لجسده الذي لا تنبعث منه روائح، ولا لمجرّد توازن نِسَب أطرافه.**

حتى مستخدمو مونتاني لم ينظروا إليه، وحين كان يسافر أو يزور البلاط الملكي مع حاشية من الخدم، كان أكثر ما يضايقه أنه كان الشخص الذي يوجَّه له هذا السؤال: «أين السيد؟» لكن لم يكن بوسعه فعل شيء إلا أن يغادر على صهوة جواده حيثما أمكن، وكانت تلك هي الذريعة المفضَّلة بالنسبة له.

توحي زيارة برج مونتاني بأنه كان يقول الحقيقة، فارتفاع فتحات الأبواب يبلغ حوالى خمسِ أقدامٍ فقط. الناس عمومًا كانوا أقصر قامة في ذلك الحين، والأبواب بُنيت قبل أن يسكنَ مونتاني المكان، لكن من الواضح أن رأسه لم يرتطم بالأبواب كثيرًا إلى حدٍّ يجعله يُتعب نفسه ويأمر بزيادة ارتفاعها. من الصعب طبعًا أن نعرف ما إذا كان العامل الحاسم لعدم زيادة ارتفاع الأبواب هو ما أعلنه بنفسه عن ضآلة حجمه أم ما أعلنه بنفسه عن كسله.

ربما كان ضئيل الحجم، لكنه يخبرنا أن بنيته قويّة وصلبة، وأنه تدبّر أمر نفسه بذكاء، وكثيرًا ما تجوَّل ومعه عصًا يتوكّأ عليها «بطريقة متكلِّفة». وعاد في أواخر حياته إلى الأخذ بطريقة والده في الملبس المتقشِّف، الذي يقتصر على اللونين الأسود والأبيض، لكنه في شبابه كان يأخذ راحته في ارتداء أزياء متلائمة مع الموضة في زمنه، فيرتدي «عباءة تُلبس كأنها وشاح، وغطاء الرأس المثبت بها ملقًى على إحدى الكتفين، ويهمل ارتداء الجوارب».

تأتي أكثر صور مونتاني الشّاب حيوية من قصيدة وجّهها إليه صديقه إتيين دي لا بويتي الذي كان يكبره بقليل. تُظهر القصيدة ما في مونتاني من مشكلات وما يجعله جذّابًا. أعتقد لا بويتي أن مونتاني عبقري وواعد، لكنه مهدَّد بخطر إهدار مواهبه. كان يحتاج توجيهًا من مرشد أهدأ وأحكم منه – وهو الدور الذي اختار لا بويتي أن يلعبه – لكن كانت لدى مونتاني نزعة عنيدة نحو رفض هذا التوجيه حين قُدِّم له. كان شديد التأثّر بالشّابات الجميلات، وشديد السرور بنفسه. جعل لا بويتي مونتاني يقول برضا في القصيدة: «بيتي يقدّم ثروات سخية، وسنّي يقدم قوة سخية»، «وفتاة حلوة تبتسم لي

حقًّا». يقارنه لا بويتي بآلسيبياديس[1] الجميل، وقد رزق بالثروة، أو هرقل، القادر على إتيان أعمال بطولية لكنّه يتردّد طويلًا في مفترق طرق الأخلاق. كانت أعظم محاسنه هي أعظم أخطائه.

كان مونتاني في وقت كتابة هذه القصيدة، قد ابتعد شوطًا كبيرًا عن أيام دراسته في الكولّيج في صباه، وحظي بوظيفته في برلمان بوردو. وقد اختفى من المشهد في سيرة حياته لعدة سنوات بعد إتمام دراسته في الكولّيج، ثم عاد للظهور في المدينة بوصفه قاضيًا شابًّا.

ولا بد أنه كان قد درس القانون في مكان ما لكي يضطّلع بمثل هذا المسار. لا يرجّح أنه فعل ذلك في بوردو؛ بل درسه على الأرجح في باريس أو تولوز. وربما قضى وقتًا في المدينتين كلتَيهما. توضح التعليقات الواردة في كتاب **المقالات** أنه كان يعرف تولوز جيِّدًا، وكان لديه الكثير أيضًا ليقوله عن باريس. يخبرنا أن المدينة ملكت قلبه منذ طفولته؛ التي قد تعني أي مرحلة من مراحل شبابه، حتى حوالى الخامسة والعشرين. يقول: «أحبها بحنان، حتى بثآليلها وبُقَعها». كانت باريس المكان الوحيد الذي لا يعبأ فيه بالشعور بأنه رجل فرنسي وليس أحد سكان جاسكونيا[2] المحليين الذين يتيهون فخرًا بأنفسهم. كانت مدينة عظيمة بكل المقاييس: «عظيمة في سكانها، وعظيمة في النعيم الذي يبدو عليها، لكنها كانت قبل كل شيء عظيمة ولا نظير لها لما فيها من أطايب العيش المتنوعة والمختلفة».

أيًّا كان المكان الذي تدرب فيه مونتاني، فقد أدى وظيفته؛ إذ دفعه إلى الوظيفة القانونية والسياسية التي قد يكون والده تصوَّرها له منذ البداية. ثم جعله يستمر في هذا العمل لمدة ثلاثة عشر عامًا. عادة ما تنكمش هذه الفترة لحجم أصغر في سِيَر الحياة، حيث إن سيرة حياته وُثِّقت في شكل رقع، لكنها كانت سنوات مهمّة حقًّا، تمتد مما قبيل عيد ميلاد مونتاني الرابع والعشرين لما بعد سن السابعة والثلاثين. وحين تقاعد ليعيش في الريف، يزرع الكروم ويصنع النبيذ ويكتب في برجه، كان قد راكم بالفعل ثروة من الخبرة في الوظيفة العامة، وكانت لا تزال حيَّة في ذهنه في المقالات المبكرة التي كتبها. وعندما حان وقت كتابة المقالات المتأخرة، كانت مسؤوليات أصعب قد استولت عليه.

لم يكن المنصب الأول الذي شغله مونتاني في بوردو، لكن في بلدة أخرى مجاورة

---

(1) آلسيبياديس قائد أثيني في حرب البلوبونيز (450 – 404 ق. م.) (المترجمة).
(2) جاسكونيا منطقة في جنوب غربي فرنسا (المترجمة).

لها، هي بيريجو، التي تقع في الشمال الشرقي من ضيعة العائلة. كانت محكمتها حديثة الإنشاء في العام 1554، وستلغى على الفور تقريبًا في العام 1557. كان الغرض الأساسي منها جلب المال، حيث إن الوظائف العامّة كانت تُباع دائمًا بالمال. حدث الإلغاء لأن برلمان بوردو الأقوى اعترض على وجود محكمة بيريجو، بل اعترض بمزيد من الجد على أن موظّفيها كانوا يقبضون مرتبات أعلى لسبب ما.

ذهب مونتاني إلى بيريجو في نهايات العام 1556، ولم تبق المحكمة إلا للوقت الكافي له ليبدأ وظيفته. وضعه تحوّل الأمور على مضمار ترقٍّ سريع في السياسة في بوردو، لأنه حين أُغلقت محكمة بيريجو نُقل الكثيرون من الموظّفين إلى هناك. وكان مونتاني منهم؛ إذ ظهر اسمه في قائمة المنقولين. لم يحظوا بالترحاب، لكن لم يكن لقضاة بوردو خيار في الأمر. وقد عوَّضوا عن ذلك بجعل حياة رجال بيريجو غير مريحة بقدر الإمكان، فخصَّصوا لهم مكان عمل مزدحمًا وحرموهم من خدمات حُجَّاب المحكمة. الاستياء مفهوم؛ فقد كان رجال بيريجو لا يزالون يتلقّون مرتباتهم الأعلى. لكن المرتبات انخفضت في أغسطس 1561، مما جعل فريق بيريجو تعساء. وعلى الرغم من أن مونتاني كان لا يزال صغيرًا، في الثامنة والعشرين من عمره، فقد اختاروه ليقدّم تظلّمهم للمحكمة. خطابه مدوّن في سجلات بوردو، وهو علامة على أول ظهور له هناك. لا شك أنه استخدم حيله التي شحذها حديثًا للخطاب العام، المليئة بالتلقائية والارتجال الفتّان. لكنها لم تنجح. حكم البرلمان ضد المحتجّين، وانخفضت رواتبهم في نهاية المطاف.

لا بدّ أن الحياة في برلمان بوردو كانت أكثر إمتاعا من الحياة في بيريجو، على الرغم مما في سياسة الوظيفة من تنافر. كان برلمان بوردو واحدًا من أهم ثمانية من برلمانات المدن الأساسية في فرنسا، وكان من أقواها، حتى مع إنه لم يسترد امتيازاته إلا جزئيًّا. كان مسؤولًا عن معظم القوانين المحلِّية والإدارة المدنية، وكان يمكنه رفض الفرمانات الملكية أو تقديم اعتراضات رسمية للملك عندما يصدر قانونًا لا يحبه أعضاؤه؛ كما كان يحدث دائمًا في أيام القلاقل تلك.

في البداية شملت الحياة اليومية لمونتاني القانون أكثر من السياسة. عمل أولًا في مجلس التحقيق، حيث كانت مهمته تقدير القضايا المدنية التي يبلغ تعقيدها حدًّا يجعل قضاة المحكمة الابتدائية يعجزون عن حلِّها فورًا. كان يدرس تفاصيل القضية، ويلخِّصها، ويقدّم تفسيره المكتوب للمستشارين. لم يكن مسموحًا له بإصدار أحكام، بل بتجميع الأشياء معًا بذكاء ووضوح، وفهم وجهة نظر كل طرف من الأطراف. ربما

كان ذلك حيث اكتسب للمرة الأولى إحساسه بتعدّدية وجهات النظر في كل موقف من المواقف التي يتعرّض لها الإنسان، وهو إحساس يسري مثل شريان خلال كتاب **المقالات**.

التفكير في وظيفته على هذه الأسس يجعل العمل بقانون القرن السادس عشر يبدو مهنة جذّابة، لكن التحذلق المتطرِّف عرقلها. كان لا بد أن تُبنى جميع الحجج القانونية على مراجع قانونية مكتوبة، وتوضع في فئات سبق تحديدها. كثيرًا ما كانت حقائق كل قضية تعتبر أمرًا ثانويًا بالنسبة للمدوَّنات القانونية، والنصوص التشريعية، والأعراف الموثّقة، والكتابات الفقهيّة، وقبل كل شيء التعليقات والحواشي؛ مجلدات ومجلدات منها. حتى القضايا البسيطة كانت تستلزم دراسة مذكّرات مليئة بالحشو والإطناب الذي يبدو بلا نهاية، وعادة ما يدرسها شابّ يعاني طويلًا مثل مونتاني.

كانت التعليقات أكثر ما يكرهه مونتاني، وهو يكتب أي نوع من التحليل الشارح:

> **إنها وظيفة لتفسير التفسيرات أكثر منها تفسير الأشياء، ويُوجد الكثير من الكتب عن كتب أكثر من الكتب التي عن أي موضوع آخر. نحن لا نفعل شيئًا إلا كتابة حواشٍ عن بعضنا البعض.**

سخِرَ رابليه من جبل الوثائق التي تراكمت حول كل قضية؛ فشخصية القاضي التي كتبها لقاضي اسمه بريدلجوز، كان ينفق الساعات يقرأ ويطيل التفكير قبل أن يأخذ قراره النهائي برمي زهر الطاولة، وهي طريقة وجدها تضاهي في مصداقيتها أي طريقة أخرى. كما هاجم كثيرون من الكتاب الآخرين انتشار الفساد بين المحامين. وعمومًا، كانت العدالة تعرف بأنها ليست عادلة إلى حدٍّ بعيدٍ، حتى شكا مونتاني من أن الناس العاديين صاروا يتجنّبونها أكثر من أن يسعوا إليها. واستشهد بحدث محلِّي وجد فيه بعض الفلاحين رجلًا راقدًا مطعونًا بسلاحٍ وهو ينزف على قارعة الطريق؛ استجداهم أن يسقوه جرعة من الماء وأن يساعدوه للوقوف على قدميه، لكنهم ركضوا بعيدًا عنه، ولم يجرأوا على مسّه تحسبًا لتحميلهم مسؤولية الهجوم عليه. كانت وظيفة مونتاني أن يتحدّث معهم بعد تعقّبهم. كتب مونتاني: «ماذا يمكنني أن أقول لهم؟». كانوا محقّين في خوفهم. وذكر حالة أخرى عن عصابة من القتلة اعترف أفرادها بارتكاب القتل في قضية حوكم فيها شخص آخر وكان على وشك تلقّي حكم بالإعدام. بالتأكيد هل ينبغي أن يعني هذا بقاء حكم الإعدام؟ قرّرت المحكمة ألغاءه؛ مما أنشأ سابقة خطيرة لإبطال الأحكام.

لم يكن مونتاني الوحيد الذي نادى بالإصلاح القانوني في القرن السادس عشر. كان الكثير من نقده صدى للنقد الذي قدَّمه في الوقت نفسه مستشار فرنسا المستنير ميشيل دي لوبيتال، في حملة نتج عنها تحسّن حقيقي. بعض حجج مونتاني الأخرى كانت أكثر أصالة ووصلت إلى حدٍّ بعيد. كانت أكبر مشكلة بالنسبة له في القانون أنه لم يأخذ في الاعتبار الحقيقة الأصلية عن حالة البشر؛ ألا وهي أن الناس عرضة للخطأ. كان من المتوقّع دائمًا صدور قرار نهائي، لكن بحكم تعريفه كان يستحيل غالبًا التوصّل إلى حكم موثوقٍ به. كانت الأدلة غالبًا خاطئة أو غير كافية، ولإكمال الأمر، ارتكب القضاة أخطاء شخصية. لم يستطع أيُ قاضٍ أن يفكِّر بشكلٍ مضبوط وبأمانة في جميع قراراته. كان القضاة يتبعون الميول أكثر مما يتبعون الأدلة، وكان حسن هضمهم لوجبة الغداء يصنع فارقًا. كان هذا أمرًا طبيعيًّا ومن ثم يستحيل تجنّبه، لكن على الأقلّ كان يمكن للقاضي الحكيم أن يصير واعيًا بأنه يمكن أن يكون عرضة لهذا الخطأ ويأخذه في الاعتبار. يمكنه تعلّم الإبطاء؛ بأن يتعامل مع ردود فعله الأولية بحذر ويفكِّر في الأمور بمزيد من العناية. الشيء الوحيد الجيِّد في القانون أنه جعل الفشل البشري شديد الوضوح؛ إنه درس فلسفي جيد.

إذا كان المحامون عرضة للخطأ، فهكذا أيضًا تكون القوانين التي يضعونها، حيث إن القوانين من نتاج عمل البشر. لكن كانت هذه حقيقة يسهل الاعتراف بها واستيعابها أكثر مما يمكن تغييرها. صارت هذه الخطوة الجانبية نحو الشكِّ في النفس علامة مميَّزة لتفكير مونتاني في جميع الموضوعات، لا في ما يخصّ القانون فقط. ويبدو أنها لم تمتد امتدادًا كبيرًا، لذلك يمكن اقتفاء أثر شرارتها الأولى وإرجاعه إلى هذه السنوات المبكرة من الخبرة في بوردو.

عندما لا يكون مونتاني في المحكمة، كانت وظيفته تشمل مجال نشاط آخر من شأنه أن يوضح لأي شخصٍ مدى محدودية الشؤون الإنسانية وعدم جدارتها بالثقة؛ هذا المجال هو السياسة. كانوا دائمًا يرسلونه في مهمات إلى مدن أخرى، تشمل عدة رحلات إلى باريس، وهي رحلة تستغرق أسبوعًا أو نحو ذلك بعيدًا عن بوردو، حيث يجب عليه نسج خيوط الاتصال ببرلمان باريس وأحيانًا مع المحكمة الملكية. وكانت تلك المهمّة الأخيرة بالذات درسًا يتعلّمه عن الطبيعة البشرية.

كانت أول محكمة عرفها مونتاني هي محكمة هنري الثاني. لا بدَّ أنه قابل الملك شخصيًّا، لأنه اشتكى من أن هنري «لا يمكنه المناداة أبدًا بالاسم الصحيح: سيِّد مهذَّب من هذا الجزء من جاسكونيا»؛ يفترض أنه يقصد نفسه هنا، ففي ذلك الزمن

كان لا يزال يُعرف بالاسم الإقليمي إيكويم. لم يكن هنري الثاني يشبه والده الذكي فرانسوا الأول، الذي ورث منه العرش في العام 1547. كانت تنقصه البصيرة السياسية التي تمتّع بها فرانسوا، واعتمد بشدّة على المستشارين، بمن فيهم عشيقة مسنّة، هي ديان دي بويتيريه، وزوجة قوية، هي كاثرين دي ميديتشي. يقع اللوم على ضعف هنري الثاني جزئيًا في ما عانته فرنسا من مشكلات لاحقًا، حيث أحسّت فصائل أعدائه بوجود فرصةٍ جيِّدةٍ، فبدأوا صراع قوّة سيسود البلد لعدّة عقود. تركّز التنافس في ثلاث عائلات: عائلة جويسيه، وعائلة مونتمورنسي، وعائلة البوربون. اختلطت طموحاتهم الشخصيّة بشكلٍ خطيرٍ بالتوترات الدينية التي كانت تزداد حدّة بالفعل في فرنسا، كما في الكثير من أنحاء أوروبا.

كان هنري الثاني قمعيًا أكثر من فرانسوا في مسألة الدين، فلم يتعامل فرانسوا بشدَّة مع الهرطقة إلا بعد حملة دعاية بروتستانتية شرسة في العام 1534. فرَّ القائد الإصلاحي الفرنسي جون كالفين إلى جنيف، واتّخذها مقرًّا ثوريًّا في المنفى. وصارت الكالفينية الشكل الأساسي للبروتستانتية الآن في فرنسا، لا اللوثرية الأكثر اعتدالًا التي سادت في بواكير عهد الإصلاح الديني. وقد شكَّلت تهديدًا حقيقيًّا لسلطة البلاط والكنيسة.

الكاليفينيون أقليّة دينيّة الآن، لكن أيديولوجية الكالفينية ما زالت قويّة ومؤثرة. مبدأها الأوّل معروف باسم «الفساد التامّ»، الذي يؤكّد أن البشر لا يمتلكون فضائل وأنهم معتمدون على بركة الرب في كل شيء، بما في ذلك خلاصهم، بل حتى قرارهم باعتناق الكالفينية. المطلوب فقط قدر قليل من المسؤولية الشخصيّة، لأن كل شيء مقدَّر ومكتوب، ويستحيل وجود أيِّ حلٍّ وسطٍ. الاتجاه الوحيد الممكن تجاه الإله هو التسليم التام. ومقابل ذلك، ينعم الإله على أتباعه بقوة لا تقهر؛ أن تتخلَّى عن إرادتك الشخصية، لكنك تتلقّى ثقل كون الإله بأكمله خلفك. هذا لا يعني أنك يمكن أن تجلس خاملًا ولا تفعل شيئًا. يميل اللوثريون إلى التحفُّظ في الشؤون الدنيوية، ويعيشون وفقًا لضميرهم الخاصّ، بينما يفترض في الكالفينيين أن ينشغلوا بالعمل السياسي، ويعملوا على جلب إرادة الإله على الأرض. بناء على ذلك كان الكاليفينيون في القرن السادس عشر يدرَّبون في سويسرا في أكاديمية خاصّة، وأرسلوا إلى فرنسا مسلَّحين بحجج ومنشورات ممنوعة لتحويل أهل فرنسا إلى مذهبهم وزعزعة استقرار الدولة. وفي وقت ما في خمسينيات القرن السادس عشر، صار اسم «الهيجونوت»[1] مرتبطًا باتباع كالفين داخلًا البلاد وخارجها. يرجَّح أن هذه الكلمة مشتقّة من فرع مبكر

(1) البروتستانتيون الفرنسيون (المترجمة).

من الإصلاحيين المنفيين، «الإيدجنوسين»[1] أو «الحلفاء». التصق بهم الاسم؛ إذ استخدمه البروتستانتيون الفرنسيون لتسمية أنفسهم، واستخدمه أعداؤهم لتسميتهم أيضًا.

استجابت الكنيسة الكاثوليكية في الأيام المبكرة لتهديد البروتستانتية بمحاولة إصلاح نفسها. وبذلك نشأ مونتاني وترعرع في كنيسة مكرَّسة للبحث عن الروح والتشكّك في الذات، وهي أنشطة لا تعتنقها غالبًا المؤسسات الدينية بكثير من الحماسة. لكن بينما كان هذا يحدث، كثر عدد القوات المقاتلة وازدادت قوة. تأهّبت طريقة الجيزويت، التي أنشأها إجناسيو لوبيز دي لويولا في العام 1534 لمحاربة معركة أفكار ضد العدو، المتمثّل في حركة أشرس وأضعف في طابعها الثقافي، ظهرت في فرنسا من خمسينيات القرن السادس عشر، وتجمَّعت بشكلٍ غير محكَمٍ تحت اسم «الروابط». لم يكن هدفهم التفوُّق بذكاء على الهراطقة بحجَجٍ ممتازة، بل مسحهم من على ظهر الأرض بالقوة. تواجهوا مع نظرائهم الكالفينيين من دون أدنى رغبة في التسوية في قلوبهم، كصور مرآوية متعصِّبة. عارض أتباع حركة الروابط أي ملك فرنسي يحاول أبسط محاولة للتسامح مع البروتستانتية؛ وقد صارت هذه المعارضة أقوى مع مرور السنوات.

كان من السهل أن يتذبذب موقف هنري الثاني تحت ضغوط حركة الروابط، فأدخل قوانين صارمة ضد الهرطقة بل حتى أنشأ مجلسًا جديدًا في برلمان باريس مكرَّسًا لمحاكمة المتهمين بجرائم دينية. وصار ازدراء القديسين، أو نشر كتب محظورة، أو التبشير بشكل غير قانوني، كلّها تستحق عقوبة الإعدام بدءًا من يوليو 1557. لكن هنري غيَّر اتجاهه بين هذه النقلات، وحاول التخفيف عن مشاعر الهيجونوت بالسماح بشكل محدود من العبادة البروتستانتية في مناطق معيّنة، أو تخفيف عقوبات الهرطقة مرة أخرى. وكلما فعل فيها هذا، احتج اللوبي الكاثوليكي، فسارع لاستخدام القمع. كان يتحرّك جيئة وذهابًا، ولم يُرضِي أي طرف.

أقلقت مشكلات أخرى فرنسا في غضون هذه السنوات، تشمل تضخّمًا منفلتًا، آذى الفقراء أكثر من أي أحد آخر، وأفاد الأعيان ملّاك الأراضي الذين تلقوا إيجارات أعلى واستجابوا بشراء المزيد من الممتلكات؛ كما حدث لعدّة أجيال من عائلة مونتاني. وغذّت الأزمة الاقتصادية التطرّف بالنسبة للطبقات الأقل حظًّا. جلبت الإنسانية هذا

(1) Eidgenossen كلمة ألمانية معناها اتحاد تحالفي، وتشير إلى جماعة من الناس المتساوين المرتبطين باتحاد ممهور بقسم يحترمه الجميع (المترجمة).

البؤس على العالم بكل خطاياه، فلا بد من استرضاء الإله باتباع الكنيسة الحقيقية الوحيدة. لكن، أيها كانت الكنيسة الحقيقية؟

نشبت الحروب الأهلية بسبب هذا الكرب الديني، والاقتصادي والسياسي؛ وهي حروب سادت فرنسا طوال معظم بقية القرن السادس عشر، منذ العام 1562، حين كان مونتاني في التاسعة والعشرين، حتى العام 1598، بعد موته بقليل. فقبل ستينيات القرن السادس عشر، قدّمت المغامرات الحربية في إيطاليا وغيرها من البلدان متنفسًا لتوترات فرنسا. لكن في أبريل 1559 أنهت اتفاقية شاتو كامبريسيس العديد من الحروب الأجنبية بالضربة القاضية. جلب هذا السلام على الفور تقريبًا نشوب حرب أسوأ بكثير؛ بإزالته لعوامل تشتيت الانتباه، وامتلاء البلد بالجنود المسرَّحين العاطلين عن العمل وسط ركود اقتصادي.

حدث أول فأل سيئ أثناء بطولة مبارزة أقيمت للاحتفال بزواجين في الأسرة الحاكمة مرتبطين باتفاقية السلام. لعب الملك الذي كان يحبّ البطولات، دور البطولة. في أحد اللقاءات، صدم أحد المعارضين بلا قصد قناع وجه الملك ببقايا رمح مكسور فأسقطه. اخترقت شظايا الخشب وجه الملك فوق إحدى عينيه وقريبًا منها. حملوه بعيدًا؛ وبعد ملازمة الفراش لعدة أيام بدا أنه شفي، لكن شظية اخترقت مخه. وأصيب بحمى في اليوم الرابع، ومات في 10 يوليو 1559.

فسَّر البروتستانتيون وفاة الملك بأنها طريقة الإله في القول بأن هنري الثاني أخطأ في قمع ديانتهم. لكن موت هنري سيجعل الأمور تزداد سوءًا بالنسبة لهم ولن تحسّنها. انتقلت وراثة العرش بالتالي لثلاثة من أبنائه: فرانسوا الثاني، وتشارلز التاسع، وهنري الثالث. الأولان كانا تحت سنِّ الرشد، إذ كانا على التوالي في الخامسة عشرة والعاشرة من العمر حين انتقلت لهما وراثة العرش. وكانا ضعيفين، تهيمن عليهما أمهما كاثرين دي ميديتشي، وكانا غير أكفاء للتعامل مع الصراع الديني. مات فرانسوا الثاني بالدرن عقب موت والده تقريبًا في العام 1560. تولّى تشارلز مقاليد الحكم، وبقي حتى العام 1574. في السنوات المبكرة من حكمه، حكمت أمه بوصفها وصية عليه، وحاولت الوصول إلى توازن بين الفصائل الدينية والسياسية، لكنها لم تحرز إلا القليل من النجاح.

كان من علامات الوضع في بدايات ستينيات القرن السادس عشر - وهو العقد الذي عمل فيه مونتاني موظفًا في بوردو - عرش ضعيف، وأعداء جشعون، وصعوبات اقتصادية، وتوتّر دينيٌّ متصاعد. وقال المستشار ميشيل دي لوبيتال في ديسمبر 1560 في

حديث يعبر عن شعورٍ شائع في ذلك الوقت: «من الحماقة أن يأمل المرء في السلام، والتقارب، والصداقة بين النّاس مختلفي العقائد»؛ فحتى لو كان ذلك أمرًا مرغوبًا، سيكون مستحيلًا. كان الطريق الوحيد للوحدة السياسية هو الوحدة الدينية. وكما علّق الفقهاء الإسبان، يستحيل حكم أي جمهورية حكمًا جيّدًا إذا كان «كل شخص يعتبر إلهه الإله الحقَّ الوحيد... وأن الآخرين عميان ومضلّلون». معظم الكاثوليك كانوا سيعتبرون هذا أمرًا شديد الوضوح بذاته إلى درجة أنه لا يستحقّ الذكر. حتى البروتستانت مالوا لفرض الوحدة وقتما يحصلون على دولتهم ليديروها، وشاع المثل السائر: ملك واحد، عقيدة واحدة، قانون واحد. كان الشيء الوحيد الذي يمكن أن يوافق عليه الجميع عمليًّا هو كراهية أي شخص يغامر باقتراح أرض وسيطة.

لم يدْعُ لوبيتال وحلفاؤه للتسامح أو «التنوع» بأي معنى حديث. لكنه فكّر أن من الأفضل استدراج الخراف الضالّة للعودة إلى الحظيرة بجعل الكنيسة الكاثوليكية أكثر جاذبية، بدلًا من إعادتهم بالتهديد. وتراخت قوانين الهرطقة بعض الشيء تحت تأثيره في بدايات ستينيات القرن السادس عشر. صدر مرسوم في يناير 1562 يسمح للبروتستانت بالتعبّد علنًا خارج البلدات، وسرًّا بين أسوار البلدة. ولم يرض أحد بهذا، مثلما لم يرضوا بالتسويات السابقة على ذلك. شعر الكاثوليك بأنهم تعرَّضوا للخيانة، بينما تشجَّع البروتستانت على الشعور بأنهم يجب أن يطلبوا المزيد. وقبل بضعة شهور، كتب سفير البندقية عن «خوفٍ رهيبٍ» ينتشر في المملكة؛ ونما هذا الخوف الآن إلى إحساس بكارثة وشيكة.

اندلعت شرارة الحوادث في 1 مارس 1562 في مدينة ڤاسي، أو واسي، في منطقة الشمبانيا في الشمال الغربي. اجتمع خمسمائة بروتستانتي ليتعبَّدوا في حظيرة في البلدة، الأمر الذي كان مخالفًا للقانون، لأن هذه الاجتماعات كان مسموح بها فقط خارج أسوار البلدة. كان الدوق دي جويز، وهو قائد كاثوليكي متطرّف يمر في المنطقة مع ثلة من جنوده حين سمع عن هذا الاجتماع. فسار إلى الحظيرة. ووفقًا لتقارير من نجوا، سمح لرجاله باجتياح المكان وهم يصيحون: «اقتلوهم جميعا».

وقاتل جمع الهيجونوت دفاعًا عن أنفسهم؛ إذ كانوا يتوقّعون حدوث مشكلات منذ زمن طويل، وكانوا على أهبّة الاستعداد للدفاع عن أنفسهم. أرغموا الجنود على مغادرة المكان وأحكموا إغلاق باب الحظيرة بالمتاريس، ثم تسلّقوا خارجين على سقالة فوق السطوح ليرجموا رجال جويز بالحجارة، التي كوَّموها هناك لاستخدامها وقت الحاجة. أطلق الجنود نيران بنادقهم، وتمكّنوا من الدخول إلى الحظيرة مرة أخرى. فرَّ البروتستانت الآن بجلدهم؛ وسقط الكثيرون منهم من فوق السطوح أو

أصابتهم النيران فأردتهم قتلى أثناء فرارهم. مات حوالى ثلاثين شخصًا، وجرح ما يزيد على المائة شخص.

كانت العواقب مأساوية. حثَّ القائد القومي البروتستانتي لويس الأول دي بوربون، أمير ديكوندي، البروتستانت على الانتفاض لإنقاذ أنفسهم من المزيد من الهجمات. حمل الكثيرون السلاح، وردًّا على ذلك فعل الكاثوليك الشيء نفسه؛ وكان الجانبان يدفعهما الخوف أكثر مما تدفعهما الكراهية. وأمرت كاثرين دي ميديتشي – التي تتصرّف نيابة عن تشارلز التاسع الذي يبلغ الثانية عشرة من عمره – بالتحقيق في حوادث ڤاسي، لكن التحقيق فشل كشأن التحقيقات العامّة، وكان الوقت قد تأخّر. التقى قادة الجانبين في باريس مع حشود من مسانديهما. وأثناء دخول دوق دي جويز إلى المدينة، تصادف مروره بمسيرة بروتستانتية يقودها كوندي؛ تبادل الرجلان تحايا باردة بمقبضَيّ سيفَيْهما.

أحد المراقبين كان محاميًا صديقًا لمونتاني اسمه إتيان باسكوير، علّق في خطاب كتبه له بأن كل ما يمكن للمرء أن يقوله بعد مذبحة ڤاسي هو الحرب. «إذا سُمح لي بتقدير هذه الحوادث، لقلت لك إنها بداية مأساة». وكان محقًّا. تصاعدت الصدامات المتزايدة بين الطرفين حتى وصلت إلى معارك صريحة، كانت هي المعارك الأولى للحروب الأهلية الفرنسية. كانت متوحشة لكنها قصيرة المدى، انتهت في العام التالي حين أطلقت النيران على دوق دي جويز، فصار الكاثوليك مؤقتًا بلا قائد ومستعدين على مضض لتوقيع اتفاقية صلح. لكن لم يكن هناك مَيل إلى الصلح، ولم يكن الجانبان سعيدين. ستنشب حرب أخرى في 30 سبتمبر 1567 بمذبحة أخرى قَتَل البروتستانت فيها هذه المرة الكاثوليك في نيمز.

تُوصف بأنها حروب، بصيغة الجمع، لكن الأكثر معقولية على الأقل اعتبارها حربًا واحدة طويلة مع فواصل من السلام. كثيرًا ما أشار مونتاني ومعاصروه إلى نشوب القتال بعبارة «قلاقل»، ويجمعون على وجود ثمانية من هذه القلاقل، وربما يكون مُرْضيًا أن نلخِّصها هنا لنفهم كم كيَّفت الحرب حياة مونتاني:

القلاقل الأولى (1562 – 63). بدأت بمذبحة البروتستانت في ڤاسي، وانتهت بسلام آمبويس.

القلاقل الثانية (1567 – 68). بدأت بمذبحة الكاثوليك في نيمز، وانتهت بسلام لونجچوميو.

القلاقل الثالثة (1568 – 70). بدأت بالتشريع الجديد المضاد للبروتستانتية، وانتهت بسلام سان چيرمان.

القلاقل الرابعة (1572 – 73). بدأت بمذبحة عيد سان بارتيلوميو الذي يحتفل به البروتستانت في باريس وغيرها من الأماكن، وانتهت بسلام لا روشيل.

القلاقل الخامسة (1574 – 76) بدأت بالقتال في بويتو وسانتونج، وانتهت بـ«سلام مسيو».

القلاقل السادسة (1576 – 77). بدأت بتشريع ضد البروتستانتية في إيستاتس – جنرال أوف بلويز، وانتهت بسلام بويتيريز.

القلاقل السابعة (1579 – 80). بدأت بقبض البروتستانت على لا فير في نورماندي، وانتهت بسلام فليكس.

القلاقل الثامنة (1585 – 98). أطول هذه القلاقل وأسوأها بما لا يُبارى. بدأت باضطرابات ليجويست، وانتهت باتفاقية فيرفينز وبمرسوم نانتس.

أعقب كل واحدة من هذه القلاقل نمطٌ أنشأته الحربان الأولى والثانية. إذ تحدث مذبحة فجائية أو استفزازات تقاطع فترة السلام؛ فتحدث المعارك، والحصار، والبؤس العام، حتى تظهر مظاهر ضعف على جانب أو آخر وتؤدّي إلى اتفاقية سلام. لا يشعر أحد بالرضا بعد هذه الاتفاقيات، لكنهم يبقون تقريبًا في أماكنهم حتى يحدث استفزاز آخر؛ وهكذا تدور الدوائر في إطار هذا النمط. حتى الاتفاقية الأخيرة لم تُرضِي الجميع، ولا حتى وُجد دائمًا طرفان متعارضان بوضوح. تورّطت ثلاثة فصائل على الأقل في معظم القلاقل، تدفعها الرغبة في التأثير على العرش. كانت هذه حروبًا دينية، كالتي كانت تنشب في بلدان أوروبية أخرى أثناء هذه الفترة، لكنها كانت حروبًا سياسية بالقدر نفسه.

جعلت نهاية أحد الصراعات الخارجية الحرب الأهلية ممكنة في المقام الأول، وأنهى بدء حرب أخرى الحروب الأهلية أخيرًا، بعد أن أعلن هنري الرابع الحرب على إسبانيا في العام 1595. كان الأثر النافع لهذه الخطوة مفهومًا في ذلك الوقت. وقد لاحظ مونتاني في غضون «القلاقل» الأخيرة، أن الكثيرين أملوا في شيء مثل هذا. احتاج العنف إلى تصريف، مثل الصديد من جرح ملوَّث. كان لدى مونتاني مشاعر مختلطة حول أخلاقيات المنهج: «لا أعتقد أن الإله يفضِّل عملًا ظالمًا جدًّا مثل جرح الآخرين والشجار معهم من أجل ما يلائمنا». لكن هذا ما كانت فرنسا تحتاجه، وما حصلت عليه أخيرًا من هنري الرابع، أول ملك ماهر يمسك بمقاليدها منذ سنوات طويلة.

كان الطريق لا يزال بعيدًا في ستينيات القرن السادس عشر، حين لم يحلم أحدٌ بأن الرعب يمكن أن يستمر لمثل هذه الفترة الطويلة. امتدّت السنوات التي قضاها مونتاني

في البرلمان عبر القلاقل الثلاث الأولى؛ وقد حدث الكثير من التوتّر السياسي حتى خلال فترات السّلام. وحين وصلت الحرب الثالثة إلى نهايتها، كان مونتاني قد اكتفى بما رأى، وكان في طريقه للتقاعد من الحياة العامّة. وحتى ذلك الحين، وضعه منصبه في بوردو في خضمّ الحوادث، وسط مجتمع مركّب بشكل خاصٍّ. كانت بوردو مدينة كاثوليكية، لكنها محاطة بأراضٍ بروتستانتية وفيها أقلية بروتستانتية معتبرة، لم تتردَّد في الانخراط في تحطيم الأيقونات وغيرها من الأفعال العدوانية.

هاجم حشد من البروتستانت قصر ترومبيت بالمدينة، معقل قوة الحكومة، في ليلة 26 يونيو 1562، بعد بضعة شهور من مذبحة ڤاسي، في مواجهة شديدة العنف. قُمعت أعمال الشغب، لكن ثبت أن العقاب أسوأ من الجريمة، كما في أعمال الشغب التي أعقبت ضريبة الملح. أرسل الملك ضابطًا جديدًا برتبة فريق اسمه بليز مونلوك لتعليم مدينة بدت غير قادرة على إدارة شؤونها درسًا، وأمره «بتهدئة» منطقة القلاقل.

فهم مونلوك «التهدئة» على أنها تعني «مذبحة جماعية». بدأ العمل بشنق أعداد مهولة من البروتستانت من دون محاكمة، أو تكسير عظامهم على عجلة التعذيب. وبعد معركة واحدة في قرية تيروب، أمر بقتل الكثير من سكانها وإلقاء جثثهم في البئر، حتى إن المرء يمكن أن يدخل يده في فوهة البئر العليا فيلمس قمة كومة الجثث. وحين كتب مونلوك مذكّراته بعد عدة سنوات، ذكَّرنا بأحد قادة الثوار الذي توسل إليه شخصيًّا ليرحمه بعد أن أسره جنود مونلوك. ردَّ مونلوك بالقبض على حلق الرجل وقذفه على صليب صخري بعنف شديد حتى إن الصخر تفتت ومات الرجل. كتب مونتاني أن مونلوك قال: «لو لم أتصرّف على هذا النحو، لكنت عرضة للسخرية». وفي حدث آخر، طمع كابتن بروتستانتي خدم تحت رئاسة مونلوك نفسه في إيطاليا في وقت سابق في أن يُبقِي رفيقه السابق على حياته إكرامًا للأيام الخوالي. لكن على العكس، أمر مونلوك بقتله على الفور، وبرر ذلك بأنه لم يتردّد لأنه يعرف مدى شجاعة الرجل، فلا يمكن أن يكون إلا عدوًا خطيرًا. تلك هي أصناف المشاهد التي ستتكرّر في مقالات مونتاني؛ شخص يطلب الرحمة، وآخر يقرِّر ما إذا كان سيُنعم بها عليه أم لا. كان مونتاني مفتَتِنًا بما يتضمّنه ذلك من تعقيد أخلاقي. ما التعقيد الأخلاقي؟ كان يمكن لمونلوك أن يقول إن القتل هو الحل السليم دائمًا: «رجل واحد يُشنق أكثر تأثيرًا من مائة شخص يقتلون في معركة». حقًا، لقد نُفِّذَ الكثير من عمليات الإعدام في منطقة كانت المشانق التي زوِّدت بها قليلة؛ فاتفق مونلوك مع نجَّارين لصناعة المزيد من المشانق، وعجلات تكسير الأطراف، وأوتاد ليُشد إليها من سيُحرقون. وحين تنشغل جميع المشانق بالمشنوقين،

كان مونلوك يستخدم الأشجار، وأرسل بالبريد يقول إن رحلته عبر جويين يمكن تتبّعها عبر الجثث التي تتأرجح على طول الطريق. وحين أتى الوقت الذي أنهى فيه مهمَّته قال إن لا شيء تحرَّك في الإقليم بأكمله. والتزم جميع من نجوا الصمت.

بليز دي مونلوك. صورة في صدر كتابه التعليقات مواجهة للعنوان الداخلي (لندن: هـ. بروم، 1674).

كان مونتاني يعرف مونلوك، لكنه عرفه أساسًا في فترة متأخِّرة من حياته، واهتم بشخصيته ذات الخصوصية بأكثر مما اهتم بأفعاله العامّة؛ خاصّة فشله كأب والندم الذي عذَّبه بعد أن فقد ابنه الذي مات في زهرة العمر. اعترف مونلوك لمونتاني أنه أدرك متأخرًا أنه لم يعامل الولد أبدًا إلا ببرود، على الرغم من أنه كان يحبّه كثيرًا في الواقع. يرجع هذا جزئيًا إلى اتّباعه طريقة تعسة في تربية الأبناء، روّجت للبرود العاطفي في تعامل المرء مع أطفاله. كان من شأن مونلوك أن يقول: «هذا الولد المسكين لم يرَ مني إلا وجهًا عابسًا معبرًا عن الازدراء، لقد أجهدت نفسي وعذّبتها لأحافظ على هذا القناع الأجوف». الحديث عن الأقنعة مناسب، حيث إنه في العام 1571 – حوالى

وقت تقاعد مونتاني - أصيب مونلوك بطلقة بندقية شوَّهته. ولم يخرج أبدًا طوال بقية حياته من دون تغطية وجهه ليخفي الندوب. يمكن للمرء تخيّل الأثر المربك لقناع حقيقي فوق الوجه الذي لا يحمل تعبيرًا والشبيه بالقناع، وجه رجلٍ قاسٍ لم يجرؤ على النظر في عينيه إلا القليل من الناس.

وكان مونتاني يكثر طوال ستينيات القرن السادس عشر التي اتّسمت بالقلاقل من الذهاب إلى باريس في أعمال تخصّ **البرلمان**، ومن الواضح أنه ظل بعيدًا خلال معظم العام 1562 وبدايات العام 1563، على الرغم من أنه عاد إلى بوردو بسرعة تضاهي تقريبًا سرعة سائق سيارة حديث أو مسافر بالقطار. كان بالتأكيد في المنطقة في أغسطس 1563 حين مات صديقه إتيان دي لا بويتي. ولا بد أنه كان في بوردو في ديسمبر 1563، لأن حادثًا غريبًا حدث حينئذ، وكانت تلك المرّة أكثر ما يجدر ذكره من المرّات القليلة التي ظهر فيها مونتاني في سجلات المدينة.

تحدّى كاثوليكيٌّ متطرّف اسمه فرانسوا دي بيروس ديسكار في الشهر السابق رئيس البرلمان المعتدل جاك بينويت دي لاجيباتون تحديًا مباشرًا، إذ دخل المجلس واتهمه بأن لا حقَّ له في الحكم. نجح لاجيباتون في مواجهته وهزيمته، لكن ديسكار تحدَّاه مرة أخرى في الشهر التالي، ورد عليه لاجيباتون بإصدار قائمة بأسماء أعضاء المحكمة الذين يعتقد أنهم متواطئون مع ديسكار، وربما كانوا يعملون لديه بأجر. من المدهش أن يظهر وسط هذه الأسماء اسم مونتاني وإتيين دي لا بويتي المتوفَّى حديثًا. يتوقَّع المرء أن يجدهما كليهما واقفين بصلابة إلى جانب لاجيباتون؛ فقد كان لا بويتي يعمل بنشاط لحساب المستشار لوبيتال الذي كان لاجيباتون من اتباعه، كما عبر مونتاني أيضًا عن إعجابه بهذا في كتابه **المقالات**. من جهة أخرى كان ديسكار من أصدقاء الأسرة، وقد ذهب لا بويتي إلى بيت ديسكار حين أصيب بالمرض الذي سيقتله. كان هذا مثيرًا للشك، وربما تعرّض مونتاني للتحقيق لارتباطه به.

كان لجميع المتّهمين حقَّ الدفاع عن أنفسهم أمام **البرلمان**؛ وهي فرصة لمونتاني ليستخدم مهاراته البلاغية مرة أخرى. كان هو المتحدِّث الذي ترك أكبر تأثير من بين المتحدِّثين. نقرأ في الملحوظة الموجودة بالسجلات: «عبَّر عن نفسه بكل ما في شخصيته من حيوية». وأنهى خطابه بقوله: «إنه ذكر أسماء جميع من في المحكمة»، ثم اندفع خارجًا.

نادته المحكمة ليعود وأمرته بتفسير ما قصده بهذا. أجاب بأنه لم يكن عدوًا للاجيباتون، الذي كان صديقه وصديق جميع أفراد أسرته. لكن - وقد قيلت «لكن»

بوضوح - هو يعرف أن المتَّهمين يسمح لهم تبعًا للتقاليد برفع دعاوى مضادّة ضدّ من يتّهمهم؛ فأراد الاستفادة من هذا الحق. ثم إنه ترك الجميع متحيّرين، لكن المعنى الضمني كان أن لاجيباتون هو المذنب لارتكابه بعض الأخطاء. لم يقدم مونتاني أي مزيد من الشرح. ومورس عليه ضغط ليسحب التعليق، فسحبه، وانتهى الموضوع عند ذلك الحدِّ. لم تسفر الاتّهامات عن أيِّ شيء خطير، وسرعان ما طواها النسيان.

يظلُّ ذلك الحادث مبهمًا، لكنه يرينا بالتأكيد وجهًا مختلفًا لمونتاني عن وجه الكاتب الهادئ المتّزن صاحب كتاب **المقالات**، أو الصورة التي رسمها لنفسه في شبابه تأخذه سنّة من النوم وهو منكب على كتبه. هذا رجل معروف «بالحيوية» وميّال للاندفاع داخلًا إلى الغرف وخارجًا منها، موجّهًا اتهامات لا يستطيع إثباتها، ويثرثر بعنفٍ شديدٍ إلى درجة أن لا أحد يتأكّد مما يريد قوله. يعترف مونتاني في كتابه **المقالات**: «أنا عرضة بطبيعتي لنوبات غضب فجائية، وهي على الرغم من بساطتها وقصرها، كثيرًا ما تضرّ بشؤوني». الجزء الأخير من هذه العبارة يجعل المرء يتساءل عما إذا كان دمّر مستقبله الوظيفي في البرلمان بكلماته العصبيَّة، إن لم يكن في تلك المناسبة ففي مناسبات أخرى.

بل مما يثير المزيد من الدهشة أكثر من الالتقاء بالجانب سريع الغضب من مونتاني الشاب هو رؤيته محاطًا بالمتعصّبين والمتطرّفين. كان حلفاؤه السياسيون معقّدين؛ وليس من السهل دائمًا تخمين الجانب الذي سوف يدلي برأيه معه حول أي موضوع معيَّن. لكن هذه الحالة قد يكون لها مزيد من العلاقة بالولاءات الشخصية أكثر من الاعتقاد. كان لعائلته ارتباطات مع كل من جانبي الانقسام السياسي، وكان عليه أن يظلَّ على علاقة طيبة معهما. ربما أدى الإجهاد الناتج عن هذا الصراع إلى جعله اندفاعيًا. كان الاتهام أيضًا إهانة لنفسه، والأخطر للا بويتي، الذي لم يعد موجودًا ليقدِّم أي دفاع عن نفسه. كان لاجيباتون يستعلم عن شرف أهم الشرفاء الذين عرفهم مونتاني؛ الشخص الذي يرجَّح أنه أكثر من أحبَّ في حياته كلِّها، والذي فقده لتوه. رد الفعل الناتج عن الغضب المغلوب على أمره مفهوم.

كان بطء التفكير والنسيان للحدِّ الذي وصلا إليه لدى مونتاني ردَّيْن جيِّدين على سؤال كيف تُعاشُ الحياةُ؛ فقد مكّناه من التخفِّي الجيِّد، وأعطياه مساحة لإصدار أحكام ناتجة عن إمعان الفكر. لكن بعض تجارب الحياة دفعت بشغف أشد للمقدِّمة، ودعت لنوع مختلف من الإجابات.

مكتبة
t.me/t_pdf

5. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟

ج: البقاء والحبُّ والفقدان

لا بويتي: الحبُّ والطغيان:

كان مونتاني في منتصف العشرينيات من عمره حين قابل إتيين دي لا بويتي. عمل الاثنان في **برلمان** بوردو، وسمع كلاهما عن بعضهما البعض مسبقًا. عرف لا بويتي عن مونتاني أنه شابٌّ صريحٌ وسابقٌ لسنِّه. وسمع مونتاني عن لا بويتي باعتباره المؤلِّف الواعد لمخطوط مثير للجدل يتداوله الناس محليًا، اسمه «**عن العبودية الطوعية**». قرأ مونتاني هذا المخطوط للمرة الأولى في نهايات خمسينيات القرن السادس عشر، وكتب بعد ذلك عن امتنانه له، لأنه قدَّمه لمؤلِّفه. وبدأت صداقةً عظيمةً: شخصٌ «كامل ومكتمل إلى حد أنك بالتأكيد يصعب أن تقرأ مثيلًا له.... فلا بد إذن من عدة مصادفات لبناء مثل هذه الصداقة التي لا يمكن بناء مثلها مرّة كل ثلاثة قرون إلا بالكثير من الحظ».

مضى زمنٌ طويلٌ قبل أن يتقابل الشابان بطريقة أو بأخرى، على الرغم مما كان ينتابهما من الفضول تجاه بعضهما البعض. وأخيرًا حدث اللقاء بالمصادفة. كان الاثنان يحضران احتفالًا في المدينة؛ فتكلَّما، ووجدا نفسيهما «مأخوذين بشدة بعضهما ببعض، ومستأنسين بشكلٍ جيِّدٍ جدًّا، ومرتبطين بشدة»، إلى حدٍّ أنهما منذ تلك اللحظة فصاعدًا صارا صديقين صدوقين. لم يكن لديهما إلا ست سنوات يقضيانها في صداقتهما، أمضيا حوالى ثلثها وهما بعيدان عن بعضهما البعض، حيث كانا كلاهما يُرسلان للعمل في مدن أخرى. لكن هذه الفترة القصيرة ربطتهما بشكلٍ وثيقٍ يضاهي خبرة حياةٍ مشتركةٍ طوال العمر.

حين تقرأ عن مونتاني ولا بويتي كثيرًا ما تخرج بانطباع أن الأخير كان أكبر بكثير في السنِّ وأكثر حكمةً من الأول. في الواقع، كان لا بويتي أكبر من مونتاني بسنتين فقط. لم يكن مندفعًا ولا وسيمًا، لكن المرء يأخذ عنه انطباعًا بأنه ذكيٌّ وطيّب القلب ويعطي انطباعًا بالجدِّية. وكان - على عكس مونتاني - متزوجًا حين التقيا، ويشغل منصبًا

أعلى في البرلمان. عرفه زملاؤه كاتبًا وموظَّفًا عامًّا في آنٍ واحدٍ، بينما لم يكن مونتاني قد كتب شيئًا حتى ذلك الحين إلا التقارير القانونية. جذب لا بويتي الانتباه وحظي بالاحترام. فإذا حدث أنك أخبرت معارفهما في بوردو في بدايات ستينيات القرن السادس عشر أن الناس يتذكَّرونه الآن أساسًا بصفته صديقًا لمونتاني وليس العكس، فسيرفضون تصديقك على الأرجح.

قد يرجع بعض الانطباع الذي يأخذه الناس عن لابوتييه بالنضج إلى أنه تيتَّم في سنٍ مبكرة. ولد لا بويتي في 1 نوفمبر 1530 في بلدة سارلات التي يقام فيها سوق مركزي، وتبعد حوالى خمسة وسبعين ميلًا عن ضيعة مونتاني، في مبنى جميل، مرتفع، غنيٍّ بالزخارف بقيَ حتى اليوم. بُنِيَ هذا البيت قبل خمس سنوات من ميلاد لا بويتي، بناه والده، وهو أب آخر مفرط النشاط، مات عندما كان ابنه في العاشرة من العمر. وماتت أمُه أيضًا، فبقي لا بويتي وحيدًا. كفله عم له يشترك معه في اسم إتيين دي لا بويتي، ومن الواضح أنه وفَّر للصبي تعليمًا بحسب الموضة السائدة في التعليم مع أخذه بالنزعة الإنسانية، وإن كان أقل راديكالية من التعليم الذي تلقّاه مونتاني.

ومضى لا بويتي - مثلما فعل مونتاني - لدراسة القانون. وفي نحو العام 1554، تزوَّج من مارجريت دي كارل، وهي أرملة لها طفلان (إحداهما ستتزوج شقيق مونتاني الأصغر توماس دي بيريجارد). وفي مايو من العام نفسه - قبل سنتين من بدء عمل مونتاني في بيريجو - تقلَّد لا بويتي منصبًا في برلمان بوردو. ومن المرجَّح أنه كان أحد موظَّفي بوردو الذين نظروا شزرًا إلى رجال بيريجو الذين يتقاضون مرتَّبات أفضل عند وصولهم.

كان المستقبل الوظيفي للا بويتي في برلمان بوردو جيِّدًا جدًّا. فإذا نحَّينا الاتهامات الغريبة التي وُجِّهت إليه في العام 1563 جانبًا، لوجدناه عمومًا الرجل الذي يوحي بالثقة. أسندت إليه مهمَّات حسَّاسة، وعُهد إليه كثيرًا بالعمل مفاوضًا - كما سيصبح مونتاني فيما بعد -. ويرجَّح أن لا بويتي كان يُعتبر شخصية يمكن الاعتماد عليها في تلك اللحظة. كانت تظهر عليه الرصانة المطلوبة، ولديه اتجاه أفضل نحو العمل الشاقّ والواجب. كانت الفروق بينهما ذات دلالة، لكنَّ الرجلين التصقا ببعضهما البعض كقطعتين في لغز الصورة المقطَّعة. اشتركا في أشياء مهمّة هي التفكير المُحكَم، والشغف بالأدب والفلسفة، والإصرار على عيش حياة طيِّبة مثل الكتّاب الكلاسيكيين والأبطال الحربيين اللذين ترعرعا وهما يعجبان بهم. كلّ هذا قرَّبهما من بعضهما البعض، وأبعدهما عن زملائهما المتعلِّمين الأقلّ ميلًا للمغامرة.

يُعرف لا بويتي الآن أساسًا بعيني مونتاني؛ مونتاني الذي عاش في سبعينيات وثمانينيات القرن السادس عشر، الذي نظر للماضي بأسى وتوق لصديقه الفقيد. خلق هذا الحنين ستارًا من الضباب لا يمكن للمرء إلا أن يضيِّق حدقتي عينيه وهو ينظر من خلاله في محاولة لاستخلاص صورة لا بويتي الحقيقية. أما صورة مونتاني المتاحة كما رآه لا بويتي فهي أوضح. لأن لا بويتي كتب سوناتا وضّح فيها ما اعتقد أن مونتاني يحتاجه عن طريق التحسين الذاتي لنفسه. اقتنصت السوناتا مونتاني حيًا وهو يمرّ بعملية تحوّل، بدلًا من مونتاني كامل الأوصاف المجمَّد في الذاكرة. ليس من المؤكَّد بأي طريقة أن صاحب هذه الشخصية المليئة بالعيوب سيصنع شيئًا من نفسه أبدًا، خاصة لو استمر في إهدار قواه في إقامة الحفلات ومغازلة النساء الجميلات.

تكلّم لا بويتي مع مونتاني مثل عَمٍ حنونٍ غير موافقٍ على ما يفعله، لكنه زيَّن قصيدته بمشاعر عائلية أقلّ من ذلك: «لقد ارتبطت بي يا مونتاني بقوة الطبيعة وبالفضيلة، التي هي فتنة الحبّ الحلوة». ويكتب مونتاني بالطريقة نفسها في كتابه **المقالات** قائلًا إن الصداقة انتزعت إرادته و«قادتها للذوبان في إرادة لا بويتي»، بالضبط كما انتزعت إرادة لا بويتي و«قادتها للذوبان في إرادتي». مثل هذا الكلام لم يكن غير مألوف. كان عصر النهضة فترة يكتب فيها الرجال روتينيًّا لبعضهم البعض كأنهم مراهقون صعقهم الحبُّ، بينما كان ينظر برعب إلى أي إشارة للمثلية الجنسية الحقيقيّة. كانا في حالة حب، ليس بينهما بل مع مثال رفيع للصداقة، مأخوذ من الأدب اليوناني واللاتيني. كان مثل هذا الرباط بين شابّين نبيلي المحتدّ قمة الفلسفة؛ درسا معًا، وعاش كلٌّ منهما تحت نظر الآخر، وساعدا كلّ واحدٍ الآخر على الوصول بفن عيش الحياة إلى حد الكمال. افتتن كل من مونتاني ولا بويتي بهذا النموذج، ومن المرجح أنهما كانا يبحثان عنه حين التقيا. وفَّر عليهما قصر الفترة التي قضياها معا خيبة الأمل. عبّر لا بويتي في سوناتته عن أمله في أن يقترن اسمه باسم مونتاني إلى الأبد، مثل «مشاهير الأصدقاء» الآخرين عبر التاريخ. وتحقَّق أمله.

يبدو أنهما كانا يفكِّران في علاقتهما قبل كلِّ شيء بالتناظر مع أحد النماذج الكلاسيكية؛ ألا وهو نموذج الفيلسوف سقراط وصديقه الشاب الوسيم آلسيبياديس؛ الذي قارن لا بويتي مونتاني به صراحة في سوناتته. وأشار مونتاني بدوره إلى عناصر سقراطية في لا بويتي؛ مثل حكمته، لكن أيضًا إلى خاصّية مذهلة؛ ألا وهي دمامته. كان سقراط شهيرًا بأنه يعطي انطباعًا أوليًّا سيئًا على المستوى الجسدي، ويشير مونتاني بتأكيد إلى لا بويتي باعتباره يمتلك «دمامة كستْ روحًا شديدة الجمال». هذا رجع

صدى لمقارنة آلسيبياديس في **محاورات** أفلاطون بين سقراط وبين تماثيل الساتير «سيلينوس»[1] الصغيرة، التي تزيّن علبًا كانت تستخدم شعبيًّا بمثابة صناديق لإخفاء الجواهر وغيرها من الأشياء الثمينة. كانت هذه الصناديق مثل سقراط، لها وجوه وأشكال بشعة من الخارج لكنها تحتفظ بكنوز داخلها. من الواضح أن مونتاني ولا بويتي استمتعا بلعب هذه الأدوار، ومثّلاها لتسلية نفسيهما. تسلّى مونتاني على الأقل بذلك. أما لا بويتي، فكان إحساسه بكرامته الفلسفية يمنعه من إظهار أي علامة إذا شعر بالإهانة.

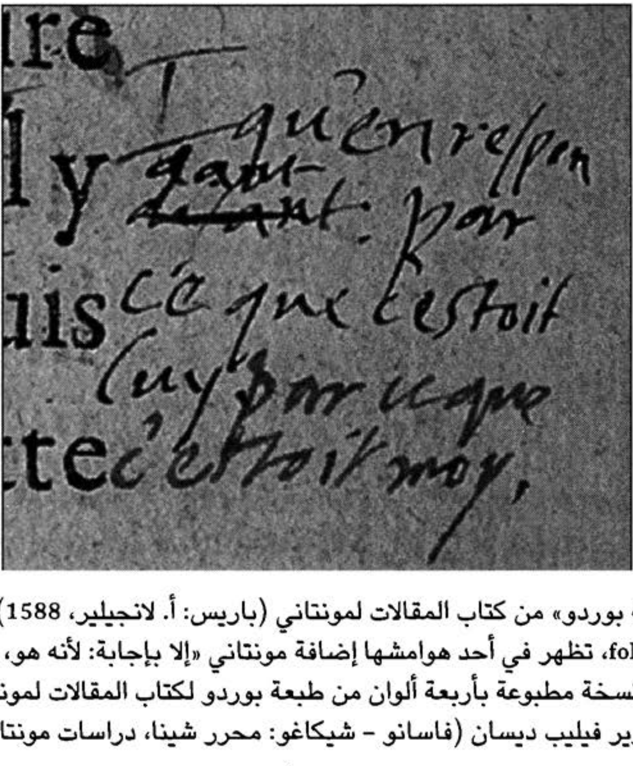

«نسخة بوردو» من كتاب المقالات لمونتاني (باريس: أ. لانجيلير، 1588)، ج 1، fol.71v.، تظهر في أحد هوامشها إضافة مونتاني «إلا بإجابة: لأنه هو، ولأني أنا». نسخة مطبوعة بأربعة ألوان من طبعة بوردو لكتاب المقالات لمونتاني. تحرير فيليب ديسان (فاسانو - شيكاغو: محرر شينا، دراسات مونتاني، 2002)

رفض سقراط الدميم تودّد آلسيبياديس الجميل له - وفقًا لقول أفلاطون - لكن علاقتهما كانت غزليّة حسيّة بوضوح. هل يصدق الشيء نفسه على مونتاني ولا بويتي؟ قلائل يعتقدون اليوم أنه كانت بينهما علاقة جنسية كاملة، على الرغم من أن

(1) الساتير قوات مرافقة للإله ديونيسيوس إله الخمر والصخب، وهي على شكل مزيج من الماعز والإنسان. وسيلينيوس أحد هؤلاء الساتيرات ويتميّز بالدمامة (المترجمة).

للفكرة أتباعها. لكن حرارة لغتهما مدهشة، ليس فقط في سوناتا لا بويتي، بل أيضًا في الفقرات التي يصف فيها مونتاني صداقتهما على أنها طلسمٌ سام، أو بأنها فيضان عظيم من الحب جرفهما هما الاثنين في تياره. خانه تمسّكه بالتوسّط في كل شيء، وكذلك حبه للاستقلال حين يأتي الأمر للا بويتي. يكتب، «روحانا تختلطان وتمتزجان مع بعضهما تمامًا إلى حد أنهما تمحوان خط الاتصال الذي ربطهما، وتعجزان عن العثور عليه مرة أخرى». الكلمات نفسها ترفض تنفيذ أمره. وكما كتب في إضافة هامشية:

> **إذا ضغطت عليَّ لأخبركَ عن سبب حبِّي له، أشعر بأنه شعور يستحيل التعبير عنه، إلا بإجابة: لأنه هو، ولأني أنا.**

كان من المفترض في صداقات عصر النهضة - كما في العصور الكلاسيكية - أن يختار الأصدقاء بعضهم البعض في ضوء النهار الواضح العقلاني. لهذا كانت لهذه الصداقات قيمة فلسفية. لا يناسب وصف مونتاني للحب الذي «لا يمكن التعبير عنه» هذا النمط من الصداقات. حقًّا، إنه يعترف بأنه «لا يوجد لصداقتنا نموذج آخر تقاس عليه غير نفسها، ولا يمكن مقارنتها إلا بنفسها». فإذا كانت لديه نقطة مرجعية أصلًا، فيبدو أنها **محاورات** أفلاطون، حيث يجد آلسيبياديس نفسه متحيِّرًا أيضًا إزاء الجاذبية الشخصية لسقراط، إذ يقول: «في كثير من الأوقات كنت لأشعر بالسعادة لو اختفى من على وجه الأرض، لكني أعرف أنه لو قدِّر لهذا أن يحدث، سيتجاوز أسفي ارتياحي بمراحل. وفي الحقيقة أنا لا أعرف ما أفعله بشأنه».

لم يتوغّل لا بويتي في سوناتته في الارتباك مثلما فعل مونتاني؛ فعواطفه لم تكن مستثارة بتذكّره للحزن مثلما كانت عواطف مونتاني. يمكن أن نجد لدى لا بويتي حديثًا شبيهًا عن اللاعقلانية والجاذبية الشخصية، لكن ليس في السوناتا، ولا حتى في أي من قصائد الحبِّ ذات المستوى المتوسِّط التي وجَّهها للنساء؛ بل يظهر هذا الحديث - من بين جميع الأماكن - في المقال المبكر له عن السياسة، والذي كان يجري تداوله بحماسة في بوردو عندما سمع مونتاني عنه للمرّة الأولى.

كان لا بويتي حديث السن بشكل واضح حين كتب ذلك المقال: «**عن العبودية الطوعية**»، كان في السادسة عشرة فقط على حد قول مونتاني، وكتبه باعتباره تدريبًا يكتبه تلميذ: «موضوع شائع تطرَّقت إليه الكتب في آلاف الأماكن». ربما كان مونتاني يقلّل قصدًا من جدية العمل لأنه كان مثيرًا للجدل، وهو لم يكن يريد تدمير سمعة لا بويتي ولا الدخول في مشكلات لأنه ذَكَره هو نفسه. وحتى لو لم يكن هذا مقالًا كتبه

فتى صغيرٌ كما وضح مونتاني، فقد أظهر ذكاء ألمعيًّا مبكرا؛ وقد سمَّى أحد الكتاب لا بويتي رامبو[1] علم النفس السياسي.

موضوع **العبودية الطوعيّة** هو السهولة التي ساد به الطغاةُ الجماهيرَ عبر التاريخ، حتى ولو كانت قوّتهم ستتبخّر فورًا إذا سحبت هذه الجماهير دعمها لهم. لا حاجة لثورة؛ فكل ما يحتاجه الناس مجرّد إيقاف التعاون مع الطغاة، والكفُّ عن تزويد الجيوش بالعبيد والمتملِّقين لسند ظهر الطاغية. لكن هذا يكاد يكون لم يحدث أبدًا، حتى للذين أساؤوا معاملة رعيتهم ببشاعة. كلما جوّعوا شعوبهم وأهملوها بدا أن الشعوب تحبّهم. حزن الرومان على نيرون حين مات، على الرغم من إساءته لمعاملتهم، وحدث الشيء نفسه عند وفاة يوليوس قيصر؛ الذي لم يكن لا بويتي معجبًا به عادة. (كان لدى مونتاني تحفّظات مماثلة). كان إمبراطورًا «ألغى القوانين وصادر الحرّيات، شخصية لم يكن فيها، على ما يبدو لي، أيُّ شيء ذو قيمة»، لكن الشعب كان يعبده. إن غموض سيادة الطغاة يضاهي في عمقه الحب نفسه.

يعتقد لا بويتي أن الطغاة ينوّمون شعوبهم مغناطيسيًّا بطريقة ما - على الرغم من أن هذا المصطلح لم يكن قد اختُرِع بعد. بعبارة أخرى، الشعوب تقع في حب الطاغية. تذوب إرادتها في إرادته. إنه مشهدٌ رهيبٌ رؤية «مليون شخص يخدمون ببؤس وعلى رقابهم النير، دون إكراه من قوة عظيمة، لكنهم (يبدون) بشكل ما مسحورين ومفتونين وخاضعين بمجرد ذكر اسم شخص ينبغي ألّا يخشوا قوته، حيث إنّه متوحِّش ويعاملهم معاملة خالية من الإنسانية». لكنهم يعجزون عن الاستيقاظ من الحلم. يجعل لابوتيه المسألة تبدو تقريبًا مثل نوع من أنواع السحر. إذا كان هذا قد حدث على نطاق أضيق، يرجّح أن يحرق شخص ما على المحرقة، لكن حين يستولي السحر على مجتمع بأكمله، لا يشكِّك فيه أحد.

يقترب تحليل لا بويتي للقوة السياسية كثيرًا من إحساس مونتاني بالغموض تجاه لا بويتي نفسه: «لأنه هو هو، ولأني أنا أنا». وقد أظهرت سلسلة من المستبدِّين في تاريخنا الحديث أن الجاذبيّة الشخصيّة للطاغية تقوم بعمل السحر أو الجرعة التي تجلب الحب. حين وُجِّه سؤالٌ لأحد أتباع الديكتاتور الأوغندي عيدي أمين في لقاء معه لماذا أحب قائده بكل هذا الولاء، أجاب بطريقة تبدو بالضبط مثل حديث مونتاني عن لا بويتي، أو آلسيبياديس عن سقراط.

---

(1) آرثر رامبو (1854 - 1891) شاعر فرنسي، أثّر شعره في الفنانين السورياليين والرمزيين، كتب وهو في العشرين من عمره قصيدته «فصل في الجحيم» التي تشير إلى علاقة مثلية بينه وبين الشاعر فيرلين، واعتزل بعدها الكتابة وقضى حياته في الترحال (المترجمة).

كما ترى، هو الحب، شيء يسمى الحب؛ قد تجد رجلا يحب امراة عوراء. إذا سألت هذا الرجل، لماذا تحب هذه المرأة الدميمة، هل تعتقد أن هذا الشخص سيخبرك؟ سر هذا الشيء بين اثنين. ما الذي جعلني أحبه وما الذي جعله يحبني

يخلق الطغيان دراما من الخضوع والسيادة، تكاد تشبه مشاهد معركة المواجهة الضاغطة التي كثيرًا ما يصفها مونتاني. يسلِّم عامّة الناس أنفسهم للطاغية بترحاب، وهذا فقط يشجّع الطاغية على انتزاع أي شيء يمتلكونه منهم؛ حتى حياتهم، حين يرسلهم إلى الحرب ليحاربوا من أجله. يوجد في البشر شيء يدفعهم إلى «نسيان الحرّية نسيانًا عميقًا». الجميع من قمة النِّظام حتى أسفله مفتونون بعبوديتهم الطَّوعية وبقوة العادة، حيث إنهم غالبًا لم يعرفوا عدا ذلك. لكن كل ما يحتاجون لفعله أن يستيقظوا ويسحبوا تعاونهم مع الطاغية.

يضيف لا بويتي أنه وقتما يتحرّر بضعة أفراد؛ فغالبًا ما يحدث هذا لأن دراسة التاريخ فتحت أعينهم. فحين يعرِّفهم العلم الذي يتعلَّمونه بطغاة مماثلين سابقين يدركون النمط الجاري في مجتمعهم؛ وبدلًا من قبول ما وُلدوا ليجدوا عليه آباءهم، يكتسبون فنَّ الانسحاب خارجه ورؤية كل شيء من زاوية مختلفة؛ وهي حيلة سيجعلها مونتاني في كتابه **المقالات** أسلوبًا للتفكير والكتابة. وللأسف، أصحاب هذه الأرواح الحرَّة قلائل جدًّا، أقلّ من أن يمكنهم عمل أي شيء طيب. وهم لا يعملون معًا، بل يعيشون «وحدهم في خيالاتهم».

يمكن أن نرى السبب الذي جعل مونتاني بعد قراءة مقال عن **العبودية الطوعية** حريصًا على مقابلة مؤلفه. إنه عمل جريء؛ وسواء اتّفق مونتاني معه أم لم يتّفق، فلا بد أنه أذهله. فتأمّلاته في قوة العادة موضوع يهتمّ به مونتاني في كتابه **المقالات**، وفكرة المقال عن أن الحرية يمكن أن تأتي من قراءة كتابات المؤرّخين وكتاب السيرة تتّفق مع فكرةِ مونتاني. كما تتّفق الجرأة الثقافية الخالصة للمقال وقدرته على التفكير بشكل قريب من مونتاني، إذا جاز لنا القول.

من المرجّح أن لا بويتي لم يقصد بمقاله أن يطلق دعوة للثورة. وُزِّعَ من المقال بضع نسخ قليلة منفصلة، وربما لم يقصد لا بويتي نشره أبدًا. فإذا كان قد فكّر في ذلك فربما كان هدفه حضّ النخبة الحاكمة على اتباع سلوك أكثر مسؤولية، لا جعل الطبقة الدنيا تثور وتمسك بمقاليد الحكم. من ثم، سيذعر إذا كان قد عاش ليرى كيف استُخدم مقاله. بعد أكثر بقليل من عقْدٍ بعد موته، عاد مقال عن **العبودية الطوعية** إلى

الظهور في شكل كرّاسة دعاية بروتستانتية راديكالية، بعد إعادة تسميته باسمٍ جديدٍ من أجل مزيد من التأثير هو: «**ضد الواحد**»، ووُضع في سياق نداء للثورة ضد الملك الفرنسي. طبعته سلسلة من المنشورات البروتستانتية أولها المجهول Reveille - matin des François et de leurs visions (1574)، تلتها طبعات مختلفة لسيمون جولار Mémoires de l'estat de France sous Charles IX (1577).. كان مهيِّجًا للجماهير، وقوبل بردٍّ فعلٍ هائج. حرق **برلمان** بوردو الطبعة الثانية لجولار علنًا في 7 مايو 1579، بعد يومين فقط من حصول مونتاني على امتيازه الرسمي لإصدار الطبعة الأولى من كتاب **المقالات**. لا عجب في أن مونتاني أراد التأكيد على أن مقال لا بويتي كان تمرينًا على الكتابة له وهو شاب، ولا يحمل تهديدًا لأي أحد.

كان هذا بداية حياة أخرى طويلة ونابضة بالحيوية لمقال **عن العبودية الطوعية**. وما زال ينشر حتى الآن أحيانًا كدعوة لحمل السلاح، أو على الأقل للمقاومة على قاعدة المبادئ. ظهر هذا المقال أثناء الحرب العالمية الثانية في أمريكا تحت عنوان **ضد الديكتاتور**، مع ملحوظات هامشية تجذب الانتباه إلى موضوعات مثل: «لا فائدة من سياسة المهادنة»، و«لماذا يُلقي الفوهررات خطبًا». وفي ما بعد التقطته الجماعات الفوضوية والمنادية بالتحرّر وأصدرت طبعات باستهلالات وتعقيبات راديكالية. حكاية لا بويتي التي نشرت بعد وفاته عن الفوضوية هي الاستثناء الكبير الوحيد من القاعدة القائلة بأنه لا يُذكر إلا لأنه صديق مونتاني.

أكثر ما أعجب به الفوضويون ودعاة الحرّية في لا بويتي الأفكار الشبيهة بأفكار غاندي التي يحتاجها المجتمع ككلّ، أنه لكي يحرّر نفسه من الطغيان عليه أن يسحب تعاونه مع الطاغية بهدوء. في مِقدّمة طبعة حديثة قُدِّم لا بويتي باعتباره الملهم: «لثورة مجهولة غير ظاهرة للعيان يقوم بها رجل واحد» - هي بالتأكيد أنقى نوع من الثورات يمكن تخيله. وتأخذ «الحركة التطوعية» بأفكار لا بويتي دعمًا لرأيها القائل بضرورة تجنّب جميع الأنشطة السياسية، حتى بما في ذلك التصويت الديموقراطي، حيث إنها تعطي الدولة مسحة زائفة من المشروعية. وعارض بعض التطوعيين الأوائل حقَّ النساء في الاقتراع على أساس أنه إذا كان لا ينبغي للرجال أن يصوِّتوا، فالنساء لا ينبغي لهنّ أن يصوتن أيضًا.

شكّل جانب «الرفض الهادئ» للسياسة في مقال **عن العبودية الطوعية** عنصر جاذبية خاصّة لمونتاني، الذي اتفق معه على أن أهم شيء في مواجهة إساءة المعاملة السياسية الحفاظ على الحريّة الذهنيّة للمرء؛ وهذا قد يعني الانسحاب من الحياة العامّة لا

الانخراط فيها. ومع إصرار مقال **عن العبوديّة الطّوعية** على تجنّب التواطؤ مع الطغيان وعلى أن يحمي المرء نزاهته، يكاد يكون مقالًا من مقالات مونتاني المنشورة في كتابه **المقالات**، وربما كان مقالًا مكتوبًا في مرحلة مبكرة حين كان لا يزال مثيرًا للجدل ولم يمتلك بعد فنّ البقاء على الحياد فورًا إزاء جميع الأطراف. ربما كان من شأن مونتاني أن يتعجّب من مقال **عن العبودية الطوعية** مثلما يتعجّب رالف والدو إيمرسون عند قراءة كتاب **المقالات** بعد قرون من تأليفه. «يبدو لي كما لو أني كتبت الكتاب بنفسي، فقد خاطب فكري وخبراتي بإخلاصٍ شديدٍ».

قبل استيلاء متولّي الدعاية للهيجونوت على مقال لا بويتي، كان مونتاني قد نوى فعلًا أن يجعله جزءًا من كتابه **المقالات**، رغم أنه سينسبه للا بويتي كما ينبغي له. كان مونتاني ينوي أن يضعه بعد الفصل المعنون عن الصداقة؛ وهو الفصل الذي كتب فيه مونتاني عن مشاعره بأكبر قدر من الشغف. تبدو الفكرة أن يستضيف مونتاني المقال كنوع من النجم الضيف أو مقطوعة مركزية، محاطة بفصول تبرز جاذبيتها مثلما يفعل الإطار بالصورة.

لكن في الوقت الذي سلم فيه مونتاني الكتاب للناشر، تغيَّر الوضع. صار يُنظر إلى مقال **عن العبودية الطوعية** ككرّاسة دعاية ثورية، وبدلًا من أن يكون نشر مونتاني للمقال في كتابه تحيّة لألمعية صديقه، كما نوى، وجد أن نشره سيبدو نوعًا من الاستفزاز. فسحبه، لكن ترك مقدمته الموجزة التي كتبها مثل نهاية أحد الأشلاء، علامة دالّة على موقع البتر. وكتب: «غيّرت رأيي في وضع المقال هنا لأني وجدت أن هذا المقال منذ ظهر للنور خلطه من يسعون إلى البلبلة وتغيير نظام الحكم ببعض من اختلاقاتهم ذات القصد الخبيث من دون أن يهتموا بتحسينها». وربما أضاف في ذلك الحين تعليقه عن الطبيعة البدائية والتجريبية للعمل.

وبعد أن فعل مونتاني ذلك غيّر رأيه مرة أخرى في موضوع آخر. أراد ألّا يُظهِر لا بويتي بمظهر غير الصادق؛ فأضاف هامشًا قال فيه إن لا بويتي كان مؤمنًا بما كتبه طبعًا؛ فلم يكن من النوع الذي يكتب عن غير اقتناع. بل إن مونتاني قال إن صديقه كان يفضل أن يولد في البندقية - جمهورية - لا في بلدة سارلات المحلّية، أي في الدولة الفرنسية. لكن انتظروا! لقد جعل هذا لا بويتي يبدو مرة أخرى مثل شخص متمرِّد! واحتاج الأمر إلى قلب الموضوع مرة أخرى: «لكن كان لديه مبدأ سيادة آخر مطبوعًا في روحه؛ أن يطيع القوانين التي وُلد في ظلِّها ويسلّم لها أمره بأقصى ما يمكن من التقوى». وإجمالًا، يبدو أن مونتاني وقع في تشوّش شديد بشأن كرّاسة الدعاية

السياسية التي كتبها لا بويتي. يمكن أن يتخيّل المرء مونتاني وهو يكتب كل هذا على عجلٍ في آخر لحظة في ركن المطبعة، وما زال يتأبّط المخطوط الذي أزاله.

كانت جرأة من مونتاني أن يذكر المقال أصلًا ناهيك عن أن يلتمس له الأعذار، آخذين في اعتبارنا أن مقال عن **العبودية الطوعية** قد أحرق حينها في بوردو. وقد تصرّف مونتاني بحذر في سحب المنشور، لكن بشجاعة في الدفاع عنه، لأن مونتاني متناقض كشأنه دائمًا؛ كما أنه في مناقشته لكيف كتب لا بويتي هذه المقطوعة كشف فعلًا من كان الكاتب. وعلى أي حال، ربما كان هذا معروفًا، لكن لم تذهب أيٌّ من المنشورات البروتستانتية إلى حدٍّ بعيدٍ كهذا.

أما وقد قرّر مونتاني التخلّص من المقال، فقد كتب: «سأضع بدلًا من هذا العمل الخطير عملًا آخر، كتبه لا بويتي في الفصل نفسه من فصول حياته، أكثر تناولًا للجنسية المثلية وأشد تعبيرًا عن الشهوة». كان هذا العمل مختارات من أبيات شعرية للا بويتي، ليست التي كتبها لا بويتي لمونتاني، بل مجموعة من السوناتات موجّهة لامرأة شابّة غير محدّدة الهوية. لكن مونتاني غيَّر رأيه مرة أخرى بعد عدة سنوات وأزال هذه المختارات أيضًا. ولم يبقَ، في نهاية المطاف، إلا المقدِّمة التي كتبها هو مع إهداءٍ، وهامشٍ موجزٍ، يقول: «يمكن الاطلاع على هذه القصائد في مكان آخر». حدث إلغاء مزدوج في فصل كامل برقم 29 في الكتاب الأول؛ تخلَّفت عنه بقية ممزّقة أو فجوة رفض مونتاني إخفاءها قصدًا. بل لفت الأنظار إلى حافَّتيها المتهرّئتين. هذا سلوك غريب، ويوحي بالكثير من التأمُّل. هل كان ما فعله مونتاني مجرّد إضافة المادّة وإزالتها وهو مرتبك، من دون أن يزعج نفسه بترتيب نتائج ما فعل، أم هل كان يحاول تنبيهنا لشيء؟

ظهرت نظرية راديكالية ثم اختفت من نطاق التداول بضع مرات في السنوات الأخيرة. ووفقًا لتعقيب على مقال عن **العبودية الطّوعية**؛ فذلك المقال له ملامح شديدة الشبه بملامح كتابة مونتاني إلى حدٍّ أنه يكاد يكون مكتوبًا بقلمه. تتحدّث هذه الملامح عن الاعتياد، والطبيعة، والمنظور، والصداقة؛ وهي أربعة موضوعات يتردّد صداها في كتاب **المقالات**. كما يؤكّد المقال الحرية الداخلية سبيلًا للمقاومة السياسية؛ وهذا موقف مونتاني. المقال مليء بأمثلة من التاريخ الكلاسيكي، بالضبط مثل كتاب **المقالات**. ويشعر من يقرأه أنه يقرأ مقالًا من كتاب **المقالات**. إنه مقنع، ومسلٍّ، وعرضة للاستطراد. كثيرًا ما يحيد المؤلف عن موضوعه عند نقطة تماسّ ما بين فكرتين – لنقل، في مناقشة لجماعة البلياد من شعراء القرن السادس عشر – قبل أن

يعود بتعليق مثل: «لكن للعودة إلى غرضنا، الذي كدت أتوه عنه»، أو «لكنْ للعودة من حيث فقدت خيط نقاشي، ولا أعرف كيف فقدته». يبدو هذا التظاهر اللعوب بالفوضى غير معتادٍ في تدريبٍ أدبيٍّ يكتبه شابّ، لكنه يملأ المقطوعة بالحياة والتلقائية. يحدِّثنا المؤلّف كما لو كناً نجلس معًا نتقاسم زجاجة نبيذ، أو ارتطمنا ببعضنا البعض على ناصية شارع في بوردو. يظلّ الشكّ برأسه؛ هل كان مونتاني وليس لا بويتي هو مؤلّف مقال عن **العبودية الطوعيّة**؟

لكن، لا بد أن كاتبه هو لا بويتي، هكذا يأتي الرد؛ فقد كانت الأيدي تتداول نسخ المخطوط في بوردو. لكن ولا واحدة من النسخ التي بقيت حتى اليوم مكتوبة بخط يد لا بويتي - كلها بخطوط آخرين - والمصدر الوحيد الواضح لدينا لقصّة «تداول المقال» هو مونتاني نفسه. ومونتاني أيضًا هو الذي يحدّد أن المؤلّف هو لا بويتي، ومونتاني هو الذي تحدّث عن المقال باعتباره مقطوعة كتبها طالب. ربما كان رامبو المراهق هنا هو المتهوِّر المعتاد على الاندفاع دخولًا إلى مجالس البرلمان وخروجًا منها، وليس لا بويتي الذي أوتي الحكمة قبل أوانه. وربما لم يكن المقال من كتابة شاب على الإطلاق؛ فهذا سيفسر بعض الإشارات المرجعية المنطوية على تناقضات تاريخية في النصِّ. وربما كان الأمر كما ألمح بعض المتحمّسين لنظرية المؤامرة، أن مونتاني كتب المقطوعة في وقت متأخر ثم أدرج فيها المفارقات التاريخية لتحذير القرّاء الأذكياء من الخداع.

أول من حاول نسب مقال **عن العبودية الطوعية** لمونتاني في العام 1906 هو المونتانيّ المارق آرثر - أنطوان آرمينجود، وهو رجل له سجِّل مليء بالإشارات المسيئة والجلوس لمراقبة تطاير الريش. لم يتّفق أحد ممن عاشوا في ذلك الوقت مع آرمينجود، وقلائل هم من يتّفقون معه اليوم، لكن فرضيته جذبت جيلًا جديدًا من المارقين، ملحوظ منهم دانييل مارتن وديفيد لويس شافر. شافر حريص - كحرص آرمينجود - على أن يجد جانبًا ثوريًا فاسدًا في مونتاني من جهة المبدأ، بينما كان لدى دانييل مارتين ولع عام بمقاربة الكتاب مثل كلمات متقاطعة غامضة مليئة بمفاتيح حلِّ اللغز. يكتب مارتين: «إن نزع مقال **عن العبودية الطوعيّة** من كتاب **المقالات** مثل نزع الفلوت من أوركسترا سيمفوني».

تروق للناس على عدة مستويات فكرة كتابة مونتاني لكراسة دعاية سياسية راديكالية تحرّض على بدء حركة فوضوية، ثم إثارته لعاصفة من غبار المعلومات الزائفة والتلميحات الخفيّة التي لا يمكن أن يكتشفها إلا شخص حادّ البصر. يقدّم هذا

النوع من الكتابة التشويق الناتج عن تركيب القطع معًا، مثل جميع نظريات المؤامرة، ويجعل مونتاني متألقًا؛ خليّة ثوريّة مكوّنة من رجلٍ واحدٍ وسيِّد المؤامرات.

يمكن أن نجد علامات تبدو عرضًا في كتاب **المقالات** عن أن مونتاني كان قادرًا على لعب دور الخبيث المكّار حين يريد. استخدم مرّة حيلة مطوّلة لمساعدة صديق كان يعاني من العنّة وكان خائفًا من أن يكون أحد قد عمل له عملًا سحريًّا. بدلًا من أن يخرج مونتاني صديقه من معاناته بطريقة عقلانيّة، أعطاه معطفًا وقطعة عملة ذات شكلٍ سحريٍّ منقوشٍ عليها «أشكال فلكية». وطلب منه أن يمارس سلسلة من الطقوس بهذه الميدالية عندما يكون على وشك ممارسة الجنس، بأن يضعها أولًا على كليتيه، ثم يربطها حول وسطه، ثم ينام مع شريكته ويجذب الغطاء ليغطيهما معًا. ونجحت الحيلة. شعر مونتاني بشيء من الذنب، على الرغم من أنه فعلها لمنفعة صديقه. لكن هذا يوضح أنه كان يمكن أن يمارس الخداع لو شعر بأن الموقف يستدعي ذلك، أو لو افتتن بشكلٍ كافٍ بسيكولوجية الحالة.

وعلى الرغم من أن مونتاني كان يلعب هذا النوع من الألعاب نادرًا، فقد كان يفضِّل إجمالًا التأكيد على أمانته وانفتاحه في جميع الأمور، علاوة على بطء فهمه للأحاجي والألغاز. يمكن أن يكون هذا كلّه جزءًا من اللعبة. لكن إذا كان مونتاني حقًّا محتالًا دقيقًا في حيَله، فعلى المرء أن يشكّ في كل كلمة يقولها في الكتاب تقريبًا، وهذا احتمال يصيب المرء بالدوار. توجد أشياء ضمنية مزعزِعة أخرى. لو لم يكن لا بويتي كتب مقالًا **عن العبودية الطوعية**، فهو إذن ليس الرجل الذي جعله مونتاني يظهر في كتاب **المقالات**. حسنًا، لقد كان موجودًا، لكن لم تكن له ملامح واضحة؛ بل كان رمزًا لمهارة مونتاني. ولو لم تكن لديه قدرات استثنائية - لو لم يكن رجلًا من النوع الذي يمكن أن يكتب مقال **العبودية** - لماذا أحبّه مونتاني إلى هذا الحد؟ لا بد أنه كان لديه سبب ليحمل له كل هذه المشاعر القويّة، ويظهر أن السبب لم يكن المظهر الحسن للا بويتي، إلا لو كان يكذب بشأن هذا أيضًا.

لو أخذنا قصة حبهما بجدّية، يكاد يستحيل التفكير في نظرية المؤامرة. فلو أن مونتاني نسب مقال **العبودية** للا بويتي كغطاء يختفي هو خلفه لكان يلعب بسرعة وبحريّة بذكرى لا بويتي؛ وهي ذكرى عبَدها مونتاني بوضوح إلى حد الحبِّ الأعمى. من المدهش أنه كشف عن أن لا بويتي هو مؤلف مقال يُحرق حاليًّا في الميدان العام لبوردو، لكن لو لم يكن لا بويتي هو المؤلّف، سيكون الأمر أكثر من مدهش؛ سيكون خيانة تامَّة، بل تقريبًا فعلًا من أفعال الكراهية. لا يوجد في كتابات مونتاني أي شيء عن

لا بويتي (بما في ذلك تعليقات ظهرت في مذكرات عن السفر لم يقصد أن تنشر أبدًا) يوحي بأنه شعر على هذا النحو.

تقدّم قوة عواطف مونتاني ولا بويتي أيضًا تفسيرًا مقنعًا لسبب التشابه الكبير بين أساليب الكتابة لدى الرجلين. اشترك مونتاني ولا بويتي في كلِّ شيء؛ لقد ذاب أحدهما في الآخر، لا كما يذوب الكاتب في اسمه المستعار، بل ككاتبين يشتركان معًا في تطوير أفكارهما؛ كثيرًا ما يتجادلان، وكثيرًا ما يختلفان، لكنهما مشوّقان بشكل دائم. لا بد أن مونتاني ولا بويتي قد تكلّما من الصباح إلى المساء عبر السنوات القليلة التي عاشاها معًا عن العادات، وعن الحاجة لرفض الأفكار التي يتلقّيانها، وتغيير وجهات النظر، وعن الطغيان، وعن الحريّة الشخصيّة. كان يمكن التعبير عن أفكار لا بويتي بمزيد من الوضوح في البداية، ويُرجَّح أن مونتاني قد تخطاه في ما بعد، متعقبًا أفكارًا عن العرف ووجهات النظر في اتجاه لم يفكّر فيه لا بويتي. كلُّ شيء يجد طريقه في نهاية المطاف إلى كتاب **المقالات**، الذي صار نصبًا تذكاريًّا للا بويتي بأكثر من طريقة. اقترب العقلان من بعضهما البعض إلى درجة وثيقة، حتى إن المرء يعجز عن فصلهما بأفضل الأدوات النقدية في العالم.

لم يكن لدى أي من الرجلين سبب يجعلهما يعتقدان انهما لا يمكنهما المضي على هذا النحو لعقود من الزمن، بل ازداد نجاحهما واحتفت بهما أثينا التي تخصّهما، التي صنعاها وأعطياها مسحة من التحديث. لكن سقراط الشابَّ كان على وشك الاستدعاء من الاحتفال ليعود إلى البيت.

لا بويتي: الموت والحداد

بدأ الأمر في يوم الاثنين 9 أغسطس 1563. كان لا بويتي قد قضى اليوم في الهواء الطلق في ضيعة فرانسوا دي بيروس ديسكار، الرجل الذي تمرّد على لاجيباتون في برلمان بوردو. كان من المفترض أن يتعشّى لا بويتي هذا المساء مع مونتاني، لكن بينما كان على وشك مغادرة منزل ديسكار أصابته نوبة من آلام المعدة والإسهال. أرسل لا بويتي رسالة إلى مونتاني يخبره فيها أنه شعر بالمرض، ويسأله أن يأتي إليه ليراه بدلًا من ذهابه هو؟ وبالفعل ذهب مونتاني. وما نعرفه عن كل ما تلا ذلك جاء من حكاية طويلة كتبها مونتاني في ما بعد في شكل خطاب لوالده، ونشرها في نهاية المطاف.

عندما وصل مونتاني لبيت ديسكار وجد صديقه متألِّمًا. أخبره لا بويتي أنه أصيب برعشة بعد أن ظلَ خارج المنزل طوال اليوم، لكن الأمر بدا اسوأ من ذلك. ربما فكر الرجلان فعلًا في احتمال إصابة لا بويتي بالطاعون، الذي كان منتشرًا وقتها في هذه

المنطقة وفي بوردو، كما في آجينيز، التي زارها لا بويتي مؤخرًا في مهمّة عمل. إذا لم يكن لا بويتي قد أصيب بالطاعون فعلًا فهو عرضة لخطر الإصابة به الآن، وهو في حالة الضعف هذه. نصحه مونتاني بالانتقال إلى منطقة أقل إصابة بعدوى الطاعون، ودعاه لأن يقيم مع شقيقته وزوجها، آل ليستوناك. لكن لا بويتي لم يشعر بأن صحته تساعده على السفر. وفي الواقع، كان الوقت قد تأخَّر؛ فقد صارت إصابته بالطاعون فعلًا أمرًا يكاد يكون مؤكدًا.

غادر مونتاني صديقه، لكن زوجة لا بويتي أرسلت في استدعائه في الصباح التالي، قائلة إن حالة زوجها تتدهور. عاد مونتاني، وقضى الليل هناك بناء على طلب لا بويتي: «طلب مني بحب وإصرار لا مزيد عليهما أبدًا أن أبقى معه أطول وقت ممكن. تأثّرت بهذا جدًّا». وبقي مونتاني مع لا بويتي الليلة التالية أيضًا. استمرّت حالة لا بويتي في التدهور. واعترف في يوم السبت أن مرضه مُعْدٍ وكريه؛ وهي إشارة إلى أن لا بويتي أدرك الآن أنه مصاب بالطاعون. وطلب لا بويتي من مونتاني مرة أخرى أن يبقى، لكن ليس لأكثر من فترة وجيزة، حتى لا يكون عرضة للخطر بشكل كبير. لم يطع مونتاني الجزء الثاني من الطلب. وكتب: «ولم أتركه مرة أخرى».

كان الضعف قد تغلّب على لا بويتي في يوم الأحد وعانى من الهلاوس. وحين مرّت الأزمة، قال إنه «كما لو كان في حالة تشوّش عظمى أكثر من أي شيء، وأنه لم يرَ إلا سحابة كثيفة وضبابًا كثيفًا اختلط فيهما كل شيء واندفع بلا نظام». طمأنه مونتاني قائلًا: «لا شيء في الموت أسوأ من هذا يا أخي»، وردَّ عليه لا بويتي بأنه حقًّا لا يمكن أن يكون أي شيء أسوأ من ذلك. ومنذ تلك اللحظة فصاعدًا، اعترف لا بويتي لمونتاني بأنه فقد الأمل في الشفاء.

قرّر لا بويتي أن ينظِّم أموره، فطلب من مونتاني أن يرعى زوجته وعمّه في حالة تمكّن الحزن منهما. وحين كان لا بويتي على أهبّة الاستعداد، جمع مونتاني العائلة في الغرفة. «تحكّموا في ما يظهر على سحنتهم من انفعالات بأفضل ما استطاعوا»، وجلسوا حول الفراش. أخبرهم لا بويتي بما نوى تركه في وصيته، ذاكرًا بشكلٍ خاصٍّ أنه يوصي بمعظم مجموعة كتبه لمونتاني. وبعد ذلك طلب قسًّا. استجمع لا بويتي قواه بعناية للخطب التي ألقاها وهو على فراش موته إلى حد أن مونتاني شعر بلحظة من الأمل، لكن ما إن نفد الجهد حتى تدهور صديقه مرة أخرى.

وبعد بضع ساعات، أخبر مونتاني لا بويتي وهو ما زال بجوار فراشه أن «وجهه اكتسى بالحمرة من شعوره بالعار» حين رآه يبدي المزيد من الشجاعة في وجه موته

أكثر مما أمكنه – هو مونتاني – أن يجد من الشجاعة في مشاهدة موته (موت لا بويتي). ووعد مونتاني لا بويتي بأن يتذكَّر مثاله حين يحين حينه هو. قال لا بويتي إن نعم، جيِّد أن تفعل هذا. وذكَّر مونتاني بالكثير من أحاديث التنوير التي تبادلاها فعلًا بشأن مثل هذه الموضوعات. وقال إن هذه التجربة «هي الموضوع الحقيقي لدراساتنا، وللفلسفة».

أمسك لا بوتيي بيد مونتاني، وطمأنه بأنه فعل في الحياة كثيرًا من الأشياء كانت أصعب وأكثر إيلامًا. ومضى يقول: «وحين قيل كل شيء، كنت قد صرت مستعدًا للموت منذ مدة طويلة وتعلَّمت درسي وحفظته عن ظهر قلب». واتّبع لا بويتي نصيحة القدماء مثلما اتّبعها مونتاني في هذه المرحلة، وتدرَّب جيِّدًا على موته. وقبل كل شيء، استمرّ في ما يفعله، وظلّ يذكر حكمة الحكماء. لقد عاش صحيحًا وسعيدًا لوقتٍ كافٍ. لا حاجة للأسف. ألم يعش فعلًا حتى عمر طيب؟ قال: «سرعان ما سأبلغ الثالثة والثلاثين». «منحني الإله هذه البركة، إذ كانت حياتي حتى هذه اللحظة مليئة بالصحّة والسعادة. وبرؤية عدم اتساق كل ما يخصّ البشر، يصعب أن تستمر الحياة أطول من ذلك». كِبَرُ السنِّ ما كان يجلب له إلا الألم، وربما جعله شحيحًا؛ من الأفضل تجنّب هذا. بدا مونتاني مشتّت الذهن؛ ذكّره لا بويتي بأنه لا بد أن يكون قويًّا. «ماذا يا أخي! هل تريد أن تغرس فيَّ الخوف؟ لو شعرت بالخوف، مَنْ غيرك سيبعده عني؟».

كانت ميتة لا بويتي ميتة رواقية مضبوطة، مليئة بالشجاعة والحكمة العقلانية. كان من المتوقّع أن يلعب مونتاني دوره؛ بأن يساعد صديقه على الحفاظ على هذه الشجاعة، ثم يتصرَّف بصفته شاهدًا، فيسجِّل التفاصيل بحيث يمكن للآخرين التعلّم من القصّة. ربما حَسَّن مونتاني الحقيقة قليلًا وهو يفعل ذلك، لكي يجعل لا بويتي يبدو أكثر نبلًا وشجاعة مما كان عليه. وربما لم يفعل ذلك؛ لقد تعمَّق إحساس لا بويتي بالفضائل الكلاسيكية إلى حدٍّ أنه يمكن أن يكون قادرًا حقًّا على الاقتداء بأبطاله الحكماء حتى النهاية تقريبًا. وكما كتب عنه مونتاني، «كان عقله مصاغًا وفق نهج نموذج يخصُّ عصورًا أخرى لا عصرنا هذا».

لكن مونتاني نفسه كان مخلوقًا مختلفًا، وظهر المزيد والمزيد من ذاته الحقيقية مع مضيِّه في كتابة تقريره: تشاؤمه، ونظرته للتفاصيل الغريبة، وإصراره على أن يحكي الأشياء كما حدثت. بل توجد لحظات من الاستخفاف. وحين كتب عن خطابات الوداع التي ألقاها لا بويتي في ما بعد أثناء ذلك اليوم، علَّق قائلًا: «كانت الغرفة كلّها مليئة بالعويل والدموع، التي لم تقاطع رغم ذلك تسلسل خطاباته، التي كانت طويلة إلى حدٍّ ما».

كان لا بويتي في الصباح التالي، الموافق يوم الاثنين، يفقد وعيه ثم يستعيده بعد إنعاشه بالخلِّ والنبيذ في كل مرة. ووبَّخ مونتاني قائلًا له: «ألا ترى أن كل العون الذي

تقدِّمه لي من الآن فصاعدًا لا يفعل إلا إطالة ألمي؟». وبعد واحدة من هذه النوبات فقد بصره مؤقتًا. أرعبته مرئيات مَنْ كانوا حوله والذين كان عاجزًا عن رؤيتهم. «يا إلهي، من ذا الذي يعذِّبني هكذا؟ لماذا ينتزعونني من هذه الراحة التي أنا فيها التي تمتِّعني متعةً عظيمةً؟ دعوني وشأني، أتوسّل إليكم».

أعادت إليه رشفة من النبيذ قواه العقلية، لكنه كان ينزلق مبتعدًا الآن. «جميع أطرافه، وحتى وجهه، صارت بالفعل باردة كالثلج، على الرغم من عَرَق الموت الذي غطى جسده من قمة رأسه إلى أخمص قدميه؛ فلا تكاد تحسّ أي علامة دالّة على وجود نبض عنده».

وفي يوم الثلاثاء، تلقى الشعائر الأخيرة، وطلب من القسِّ، ومن عمِّه، ومن مونتاني أن يصلّوا من أجله. ونادى مرتين أو ثلاثًا، قال في إحداها: «حسنًا! دعوه يأتي حين يريد، أنا في انتظاره، قويًّا ورابط الجأش».

وفي المساء حين «لم يتبق إلا شبيه وظل لرجل»، عاد للهلاوس، مصحوبة هذه المرّة بهلاوس بصريّة وصفها لمونتاني بأنها «رائعة، ولا نهائية، وتفوق الوصف». حاول التسرية عن زوجته، قائلًا إن لديه قصّة سيرويها لها. ثم قال: «لكنّي ذاهب». فلما رأى فزعها صحّح نفسه وقال: «أنا ذاهب للنوم».

غادرت زوجة لا بويتي الغرفة. وقال لا بويتي لمونتاني: «يا أخي، ابقَ بجواري، من فضلك». كان الكثير من الناس لا يزالون حوله؛ يكتب مونتاني عنهم باعتبارهم «جميع الصّحبة». لم يكن الإنسان يفعل أي شيء وحده في عصر النهضة، ناهيك عن أن يموت. ويبدو أن زوجة لا بويتي هي الوحيدة التي أرسلوها بعيدًا.

والآن، صار الرجل المحتضر متقلقلًا. كان يتقلّب بعنف في الفراش. وبدأ يطلب طلبات غريبة، كما كتب مونتاني:

> **بدأ يناشدني مرّة أخرى بعاطفة متطرّفة أن أعطيه مكانًا؛ فخشيت أن تكون ملكة الحكم على الأشياء لديه قد تزعزت. حتى حين اعترضت عليه برفقٍ شديدٍ لأنه كان يدع المرض يحمله بعيدًا وأن هذه ليست كلمات رجل له مثل عقله الراجح، لم يستسلم في البداية بل كرر بقوّة: «يا أخي، يا أخي، هل ترفض أن يكون لي مكان؟». وظلّ يكرِّر هذا حتى أجبرني على إقناعه بالعقل وأن أخبره أنه ما دام يتنفّس ويتكلّم وله جسد، فبناء عليه له مكانه. فأجابني: «حقيقي، حقيقي، لي مكان، لكنّه ليس المكان الذي أحتاجه؛ وحيث إن كل شيء قد قيل، فلم تبق لي أي كينونة».**

من الصعب أن يعرف المرء كيف يردُّ على هذه الكلمات. حاول مونتاني التسرية عن لا بويتي فقال: «سيمنحك الإله مكانًا أفضل بأسرع مما تتصوّر».

قال لا بويتي: «أتمنّى لو كنت هناك بالفعل. فأنا أبذل جهدًا مرهِقًا لأغادر منذ ثلاثة أيام».

كتب مونتاني أنه كثيرًا ما كان ينادي عبر الساعة الأخيرة، «لمجرد أن يعرف ما إذا كنت بجواره أم لا». وكان مونتاني دائمًا بجوار لا بويتي.

صار تقرير مونتاني الآن مؤثِّرًا وغريبًا ومخيفًا منذ بدايته التقليدية. يبدو أنه كان يسجّل ما قيل وفُعِل حقًّا، بغضِّ النظر عن معناه الفلسفي. لا بويتي نفسه تجاوز تقليد النماذج؛ فبحديثه عن حاجته إلى مكان بدا أنه يكاد يتكلّم من دون وعي، كما سيفعل مونتاني بعد بضع سنوات حين يحتد ويمزِّق سترته.

وبحلول الساعة الثانية بعد منتصف الليل، صار لا بويتي قادرًا على أن يستريح، وبدا أن هذه علامة طيّبة. غادر مونتاني الغرفة ليخبر زوجة لا بويتي، وقد سرَّهما تحسّنه. لكن بعد ساعة أو نحو ذلك، حين عاد مونتاني إلى الغرفة، تململ لا بويتي مرة أخرى. نطق اسم مونتاني مرّة أو مرّتين. ثم زفر آهةً واحدةً، وتوقّف عن التنفّس. مات لا بويتي «في حوالى الساعة الثالثة من صباح الأربعاء، 18 أغسطس 1563، بعد أن عاش 32 عامًا، و9 شهور، و17 يومًا»، كما سجَّل مونتاني.

كان هذا إذن الموت عن قربٍ؛ وربما كان أول لقاء حميم لمونتاني مع موت أحدٍ يحبّه بعمق. كانت الحقيقة المادّية صادمة، خاصّة أن الموت حدث بسبب مرضٍ مرعبٍ، على الرغم من أن مونتاني لم يقل أي شيء عن خوفه الشخصي من العدوى. وربماً دارت في ذهنه فكرة الأمل في أن يكون في الموت سكينة للشخص الذي يموت، مهما بدا على خلاف ذلك لمن ينظر إليه من الخارج، وهي الفكرة التي ستعود إليه في ضوء خبرته. تناقش مونتاني مع لا بويتي في هذه المسألة ذات مرة؛ حيث اعتقد مونتاني أن الأمر يمكن أن يكون كذلك، واختلف معه لا بويتي. والآن لا بد أن مونتاني كان يأمل بحماسة أن يكون هو الذي على صواب. من الأفضل أن يفكِّر في أن لا بويتي لم يشعر بشيء إلا بالبركة بينما كان جسده يتفصّد عرقًا ويقاوم. وحين كتب مونتاني في ما بعد عن فقده لوعيه، يكاد المرء يراه وقد بدأ هذا الجدال القديم مرّة أخرى، سائلًا صديقه: «انظر، أنت لم تعان، هل عانيت؟»، ويأمل أن يردَّ لا بويتي قائلًا: «لا».

وعلى الرغم من أن مونتاني حوّل حزنه إلى أدب، فقد كان حزنه طاغيًا، وبدا أنه يزداد بمرور الوقت. بعد أن مات لا بويتي، صار كل شيء «لا شيء إلا الظلام والليل

الموحش». وبعد أن سافر مونتاني إلى إيطاليا بعد ذلك بحوالى ثمانية عشر عاما، كتب في يوميَّاته الخاصّة: «في هذا الصباح نفسه، وأنا اكتب للسيد دوسات، تَغَلَّبَتْ عليَّ فكرةٌ مؤلمةٌ عن السيد دي لا بويتي، وظللت في هذا المزاج لفترة طويلة من دون أن أشفى منه حتى إنه آذاني بشدّة». وكتب أيضًا في كتاب **المقالات** عن كيف تاق لصحبة حقيقية في إيطاليا، صحبة شخص تتناغم طرقهما في عيش الحياة، ويحب عمل الأشياء التي يحب مونتاني عملها. «افتقدت مثل هذا الرجل بشدة في جميع سفرياتي».

> **لا تلذّ لي أيّ متعة من دون تواصل. لا تطرأ على ذهني ولا حتّى فكرة واحدة مبهجة من دون أن أستاء لأني أنتجتها لوحدي من دون أن يوجد من يمكن أن أقدِّمها له.**

لم يلغ مونتاني أبدًا إمكانية أن يجد أحدًا يعيد لعب دور لا بويتي. نصح سينيكا بأن الرجل الحكيم يجب أن يكون ماهرًا في عقد صداقات جديدة بحيث يستبدل بصديق قديم صديقًا جديدًا بلا إبطاء. كان مونتاني يبدو أحيانًا أنه ينشر في كتاب **المقالات** نداء مغريًا للمرشحين لصداقته؛ فيأمل أن يسرّ كتابه «رجلًا يستحق»، فيلتمس مونتاني صداقته. لكنه لم يشعر حقًّا بأنَّ أيَّ أحد يمكن أن يحلّ محلّ الرجل الأصلي. خاب أمله للأبد:

> **أليست مزحة بلهاء مني ألّا أنسجم مع ألف شخص تربطني بهم المصائر، لا أستطيع العيش من دونهم، أتعلّق بهم فقط... رغبة عجيبة في شيء لا أستطيع استعادته؟**

كلما بدا مونتاني فاترًا أو منفصلًا عن الآخرين، كما يفعل أحيانًا، ينبغي أن يتذكَّر المرء لا بويتي. كتب أن الناس ينبغي ألّا «يرتبطوا ويلتصقوا بنا بقوة إلى حد أنهم لا يمكن أن ينفصلوا عنا إلا بتمزيق جلدنا وجزء من لحمنا أيضًا». هذه كلمات رجل يعرف كيف يشعر المرء حين ينسلخ على هذا النحو.

من الواضح أن مونتاني قد تمرّد أحيانًا في سياق الحياة على تحسّن تأثير لا بويتي عليه، لكن لم يبق أثر لهذا التمرّد الآن. فبعد أن مات لا بويتي بأمان، يمكن لمونتاني أن يستسلم له بلا تحفظات، ويمكن أن يفعل ما توسل إليه لا بويتي أن يفعله؛ أن يعطيه مكانًا.

أولًا، أخذ مونتاني الكثير من كتب لا بويتي ووضعها في مكتبته، مفسحًا مكانًا لصديقه وسط أثمن ممتلكاته. ثم كتب عن موت لا بويتي، منقذًا كلَّ ما أمكنه إنقاذه مما

تذكّره عن شهادة الفيلسوف الشاب على الأجيال القادمة. جهّز مونتاني مجموعة من كتابات لا بويتي للنشر. وأخيرًا، حين تقاعد، جعل من صديقه الروح الهادية لوظيفته الجديدة. وأضاف كتابة أخرى إلى جدار مكتبته - إلى جانب كتابته الأساسية عن تقاعده - وقد بليت الآن وصار من الصعب فك شفرتها، لكن يبدو أنها تبجِّل جميع ما سيكتبه في المستقبل من «عمل مدروس» إكرامًا لذكرى لا بويتي، «أحلى وأعز وأقرب صديق» يمكن أن ينجبه القرن السادس عشر. كان على لا بويتي أن يراقب كل ما فعله مونتاني في مكتبته؛ سيكون ملاكه الأدبي الحارس!

بموت لا بويتي تحوّل من أن يكون صاحب مونتاني في الحياة الحقيقية، الذي تشوبه العيوب، إلى أن صار كيانًا نموذجيًّا يتحكم فيه مونتاني. لم يعد شخصًا بقدر ما بات نوعًا ما من التقنية الفلسفية. نصح سينيكا أتباعه باستخدام أصدقائهم بهذه الطريقة. قال إن المرء لو وجد رجلًا جديرًا بالإعجاب، لا بد أن يراه بصفته فردًا دائم الحضور من جماهيره، لكي يتعلّق بمعاييره السامية. فإذا كنت ستعيش لنفسك، فلا بد أن تعيش للآخرين - وقبل كل شيء لصديقك المختار.

كان مونتاني مرحِّبًا بمحاولة أي حيلة من هذا النوع، لو وعدت بمواساته. وكما كتب في أحد إهداءاته للا بويتي بعد وفاته، «مازلت مسكونًا به، كاملًا وحَيًّا إلى حد أنني لا يمكنني تصديق أنه دفن بشكل نهائي أو مُحيَ تمامًا، هكذا من تواصلنا». جعل مونتاني لا بويتي يعيش داخل نفسه، وكانت تلك طريقة للوفاء بأمنية صديقه الراحل، والتخفيف عن وحدته. في غضون ذلك، استخدم مونتاني تقنيات تشتيت الانتباه والتلهية ليُخرج نفسه من الموقف العصيب الناتج عن الصدمة الفورية التي سبّبها الفقدان. وأفضل ما في الأمر أنه اكتشف الفوائد العلاجيّة للكتابة. فحين حكى مونتاني قصّة موت لا بويتي ووداعه للعالم في قالب مكتوب، ساعد نفسه على أن يعيش المشهد مرة أخرى، مما مكّنه أن يبقى على قيد الحياة بعده. لم يتجاوز مونتاني لا بويتي تمامًا، لكنّه تعلّم البقاء في العالم دونه، وبذلك، تعلّم تغيير حياته. وأدّت به الكتابة عن لا بويتي في نهاية المطاف إلى كتابة كتاب **المقالات**: أفضل حيلة فلسفية من بين جميع الحيل.

مكتبة
t.me/t_pdf

6. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟
ج: استخدمْ حيلًا صغيرة

الحيل الصغيرة وفن عيش الحياة:

كان مونتاني يرفض عادة التعامل مع الفلاسفة الأكاديميين: كان يكره تحذلقهم وأفكارهم المجرّدة. لكنه أظهر افتتانًا بلا حدود بتقليد فلسفي آخر؛ ألا وهو تقليد المدارس العملية/ النفعية (البراجماتية) العظيمة التي استكشفت أسئلة مثل كيف تواجه موت صديق، وكيف تحفِّز الشجاعة، وكيف تتصرّف تصرفًا حسنًا في مواقف صعبة أخلاقيًّا، وكيف تستفيد من الحياة إلى أبعد الحدود. كانت هذه هي الفلسفات التي تحوَّل لها مونتاني في أوقات الحزن أو الخوف، كما اتّجه لها لتقود خطاه في التعامل مع الكثير من المضايقات الصغيرة للحياة اليومية.

كانت أشهر ثلاثة نظم تفكير من هذه النظم، الرواقية، والأبيقورية وفلسفة الشكّ؛ وهي الفلسفات التي تعرف إجمالًا باسم الفلسفة الهيللينستية؛ لأنها نشأت في عصر كان فيه الفكر والثقافة الإغريقيان ينتشران إلى روما وغيرها من أقاليم البحر الأبيض المتوسط، منذ القرن الثالث قبل الميلاد وما بعده. اختلفت هذه الفلسفات في التفاصيل، لكنها كانت شديدة التقارب في الأساسيات حتى يصعب التفرقة بينها في كثير من الأوقات. وقد خلطها مونتاني وزاوج بينها وفقًا لاحتياجاته مثلما يفعل الجميع.

كان لجميع المدارس الهدف نفسه؛ ألا وهو إنجاز طريقة لعيش الحياة تُعرف في الإغريقية الأصلية باسم **يودايمونيا** Eudaimonia[1] كثيرًا ما تترجم إلى «السعادة»، أو «البهجة»، أو «الازدهار الإنساني». كان هذا يعني طيب العيش بكل معانيه: الازدهار، والحياة الممتعة، وأن يكون المرء شخصًا طيبًا. واتفقوا أيضًا على أن أفضل سبيل

(1) يودايمونيا Eudaimonia كلمة يونانية تُترجم عادة إلى السعادة أو الرخاء. اقترح المترجمون ترجمة أكثر دقة لها، هي «الازدهار الإنساني والرفاهية». تتكوَّن الكلمة من مقطعين: «يو eu» بمعنى طيب و«دايمون daimōn» بمعنى روح (المترجمة).

يودايمونيا هو الطمأنينة (الأتاراكسيا ataraxia)، التي يمكن ترجمتها إلى «رباطة الجأش» أو «الخلوّ من القلق». **الأتاراكسيا تعني الاتزان**؛ وهو فن الحفاظ على الاستقرار، وبذلك لا تفرح حين تسير الأمور على ما يرام، ولا تغرق في اليأس حين تتعسر أمورك جميعها، الحصول عليها يعني أن يكون لديك تحكّمٌ في انفعالاتك، بحيث لا تمزّقك وتجرّك مثل عظمة يتشاجر عليها قطيع من الكلاب.

بدأت الفلسفات تختلف حين طُرح سؤال كيف يكتسب المرء هذا الاتزان. كان لكل منها فكرة مختلفة، مثلًا، عن المدى الذي يمكن أن يصل إليه المرء في تسوية أموره مع العالم الواقعي.

طلبت الطائفة الأبيقورية الأصليّة التي تأسّست في القرن الرابع قبل الميلاد من أتباعها ترك عائلاتهم والعيش مثل أفراد طائفة دينية في «حديقة» خاصّة. وفضّل أتباع مدرسة الشكّ أن يظلّوا وسط العامّة في هرج ومَرج مثل الجميع، لكن مع اتجاه ذهني منتبه بشكل راديكالي. ووقع الرواقيون في موضع ما بين الاثنين. أشهر كاتبان رواقيان هما سينيكا وإبيكتيتوس، وقد كتبا لنخبة القراء الرومانيين الذين كانوا مشاركين بعمق في أمور زمانهم ولا وقت لديهم لارتياد الحدائق، لكنهم رغبوا في واحة من الطمأنينة والرصانة إذا أمكنهم أن يجداهما.

اشترك الرواقيون والأبيقوريون كثيرًا في نظريتَيْهما أيضًا. اعتقدا أن القدرة على الاستمتاع بالحياة تبطلها نقطتا ضعف كبيرتان؛ هما نقص القدرة على التحكّم في الانفعالات، والميل إلى إيلاء انتباه قليل جدًا للحاضر. فلو استطاع المرء فقط تعديل هاتين النقطتين - التحكّم والانتباه - فستعتني معظم المشكلات الأخرى بحل نفسها. تكمن الصعوبة في أن الاثنين يكاد يستحيل فعلهما. فهما من الصعوبة بحيث لا يمكن للمرء أن يقاربهما في مواجهة مباشرة. من الضروري أن يتسلّل من زوايا جانبية، وأن يحتال المرء على نفسه حتى ينجزهما.

بناء على ذلك، أنفق المفكرون الرواقيون والأبيقوريون كثيرًا من الوقت في تصميم التقنيات والتجارب الفكرية. فمثلًا، تخيل أن اليوم هو اليوم الأخير في حياتك. هل أنت مستعد لمواجهة الموت؟ بل تخيَّل أن هذه اللحظة نفسها - الآن! - هي آخر لحظة في وجودك. بم تشعر؟ هل لديك مشاعر ندم؟ هل في حياتك أشياء كنت تودّ أن تفعلها على نحو مختلف؟ هل أنت حيٌّ فعلًا في هذه اللحظة، أم هل يستنزفك الهلع، والإنكار، وتأنيب الضمير؟ هذه التجربة تفتح عينيك على ما هو مهمّ لك، وتذكِّرك بكيف يتسرّب الزمن باستمرار من بين أصابعك.

بل إن بعض الرواقيين مثَّل تجارب «اللحظات الأخيرة» هذه مع إكسسوارات وفريق من المساعدين. كتب سينيكا عن رجل ثري اسمه باكوفيوس، كان يخرج مشهد جنازة كاملًا لنفسه يوميًا، ينتهي بمأدبة يتمنّى بعدها أن يُحمل هو نفسه من المائدة إلى سريره في نعشٍ بينما جميع المدعوين والخدم يرتّلون قائلين: «لقد عاش حياته، لقد عاش حياته». يمكنك أن تصل للتأثير نفسه بطريقة أبسط وأقل كلفة بمجرّد اقتناعك بفكرة موتك في عقلك وإيلاء انتباهك التامّ لها. وقد اقترح الكاتب الأبيقوري لوكريتوس أن تصوِّر نفسك بالرسم في لحظة الموت، وأن تضع في اعتبارك احتمالين ممكنَيْن؛ إما أنك عشت حياة طيّبة، وفي هذه الحالة يمكن أن تمضي في طريقك راضيًا، مثل ضيف شبعان يغادر حفلًا؛ أو أنك لم تعش حياة طيبة، لكن حينئذ لا فرق وأنت تفقد حياتك، حيث إنك على ما يبدو لم تعرف ما تفعله بها على أية حال. قد يقدّم لك هذا شيئًا قليلًا من الراحة وأنت على فراش الموت، لكن لو فكّرت فيه وسط الحياة فسيساعدك على تغيير منظورك.

إن انتقال المواقف على هذا النحو هو غرض الكثير من تجارب الفكر. لو فقدت شخصًا أو شيئًا ثمينًا، يمكنك أن تثمّنهما بشكل مختلف، بأن تتخيّل أنك لم تعرف هذا الشخص أو لم تقتنِ هذا الشيء أبدًا. كيف تفتقد ما لم يكن لديك أبدًا؟ يُنتِج اختلاف زوايا النظر انفعالات مختلفة. اقترح بلوتارخ هذه الحيلة على زوجته في رسالة أرسلها إليها بعد وفاة ابنتهما ذات السنتين من العمر؛ فنصحها أن ترجع بفكرها للفترة التي سبقت ميلاد البنت، وتتظاهر بأنهما يعيشان في هذه الأيام الماضية مرة أخرى. لا نعرف ما إذا كان هذا منحها السلوان، لكنّه على الأقلّ أعطاها شيئًا تركّز عليه بدلًا من السباحة في محيط من الحزن المفتوح. كان كل من مونتاني ولا بويتي يعرفان هذه الرسالة جيدًا، لأن لا بويتي ترجمها للفرنسية، وراجع مونتاني ترجمته وحرّرها قبل النشر. وربما تذكّرها مونتاني في كل مرة ماتت له فيها طفلة، كما تذكّرها حين فقد لا بويتي. كانت صداقتهما قصيرة الأمد إلى حدٍّ أنه كان ينبغي ألّا يصعب تذكّر الوقت الذي سبقها وإعادة التقاط حالة اللامبالاة التي كانت لديه قبل تعرُّفه على لا بويتي.

يمكن استخدام حيل الخيال هذه في المواقف الطبيعية البسيطة كما في المواقف المتطرِّفة؛ فهي ذات تأثير حتى ضد الأحاسيس البسيطة كالملل أو الاكتئاب. يقترح بلوتارخ أنك إذا شعرت بالتعب من كل ما تمتلكه، تظاهر بأنك فقدت كل شيء وأنك تفتقد أشياءك للغاية. سواء كان الشيء صحنًا مفضَّلًا، أو صديقًا، أو عشيقة، أو الحظ السعيد للعيش في زمن السلام وبصحّة جيدة، هذا يجعل ذلك التدريب يبدو جديرًا

بامتلاكه - كما السحر - قبل كل شيء. المبدأ هو نفسه عند التأهب للموت؛ فحين تواجه فكرة فقدان شيء ما **الآن**، ستدرك قيمته.

الأهم هو صقل الانتباه مع **التأمّل الواعي** prosoche، وهو مصطلح إغريقي مهم آخر. الانتباه مع التأمل الواعي هو الحيلة التي تكمن خلف الكثير من الحيل الأخرى. إنه دعوة للانتباه للعالم الداخلي؛ وهكذا أيضًا للعالم الخارجي، لأن الانفعالات التي لا تخضع للتحكّم تلقي غشاوة على الحقيقة كما تلقي الدموع غشاوة على أي مشهد. يقول سينيكا إن أي شخصٍ يجلو رؤيته ويعيش وهو يعي العالم كما هو عليه وعيًا تامًّا لن يسأم من الحياة أبدًا.

كما أن الشخص الذي لا يسير نائمًا في العالم يصير حرًّا في الاستجابة للمواقف بالطريقة السليمة، من دون تردّد؛ كأنها أسئلة سئلت لتوّها على غفلة، كما يقول إبيكتيتوس. فالهجوم العنيف، والشجار، وفقدان صديق كلّها متطلبات تصرخ بها الحياة في وجهك، كما يفعل معلّم بالمدرسة يحاول ضبطك وأنت غير منتبه في صفه. حتى لحظة سأم هي مسألة من هذا القبيل. لكن أيّ شيء يحدث، مهما كان غير متوقّع، لا بد أن تقدر على الاستجابة له بطريقة مناسبة دقيقة. هذا يعني لدى مونتاني أنَّ تعلّم عيش الحياة «**بشكل ملائم**»à propos هو «التحفة النفيسة العظيمة والمجيدة» في حياة البشر.

تماثل الرواقيون والأبيقوريون في مقاربتهما لهذا الهدف أساسًا من خلال التدريبات والتأمّل؛ مثل لاعب تنس يتدرّب على ضربات الكرة وخبطاتها لساعات، استخدموا التدريبات لحفر قنوات للعادة، تجري فيها عقولهم بشكل طبيعي كما يجري الماء في مجرى النهر. هذا نوع من التنويم المغناطيسي الذاتي. كان لدى الرواقي العظيم الإمبراطور الروماني ماركوس أوريليوس كرّاسات يراجع فيها تغيرات وجهات النظر التي يأمل في حفرها في نفسه.

> **كم هو جيّد حين يكون لديك لحم مشوي، أو طعام يشبهه، أن ينطبع في عقلك أن هذه جثة سمكة ميتة، أو هذه جثة طائر ميت، أو خنزير ميت، وأن نبيذ مقاطعة فاليرنيوس الإيطالية مجرد عصير عنب، وأن معطفك ذا الطرف القرمزي مجرّد فراء خروف منقوع في دم المحار! ولا يوجد في الجماع إلا احتكاك الأعضاء وتدفّق قذفة من مخاط.**

وتخيَّل في أوقات أخرى الطيران حتى عنان السماء بحيث يتمكّن من التحديق في من هم أسفله ويرى من مثل هذه المسافة مدى تفاهة جميع الهموم البشرية. فعل

سينيكا هذا أيضًا: «ضع أمام عين عقلك الامتداد الشاسع لهاوية الزمن، وضع الكون في اعتبارك؛ ثم قارن ما يسمى بحياتنا البشرية بالـ ما لا نهاية».

من الممارسات الأخرى للرواقيين تحويل الزمن إلى صورة بصريّة تدور حول نفسها عبر العصور. وهكذا يولد سقراط مرة أخرى ويصل إلى أثينا بالضبط كما فعل في المرة الأولى؛ كل الفراشات ستحرّك أجنحتها بالطريقة نفسها؛ وكل السحب ستمر فوق الرؤوس بالسرعة نفسها. أنت نفسك ستعيش مرة أخرى، ويكون لديك جميع الأفكار والانفعالات كما كانت من ذي قبل، مرارًا وتكرارًا بلا نهاية. هذه الفكرة التي يتضح ما فيها من رعب جلبت السلوان - ومثل جميع الأفكار - أظهرت الصعوبات العابرة التي يواجهها المرء بحجم مصغَّر، وفي الوقت نفسه لأن كل ما فعلْتَه سيعود لملاحقتك، كل شيء يهم. لم يُمسح أي شيء؛ لا يمكن نسيان أي شيء. تأمّلك في هذا سيجبرك على إيلاء مزيد من الانتباه لكيف عشت حياتك اليومية. لقد وضع تحديًّا، لكنه أيضًا أدى إلى نوع من قبول ما سمّاه الرواقيون **آمور فاتي** amor fati، أو **حب القدر**. وكما كتب الرواقي ابكتيتوس:

> **لا تسْعَ للحصول على كلِّ شيءٍ تصادَفَ أنه حدث كما كنت تأمل، لكن فلتأمل في أن يحدث كلُّ شيء كما يحدث فعلًا، وستنعم حياتك بالسكينة.**

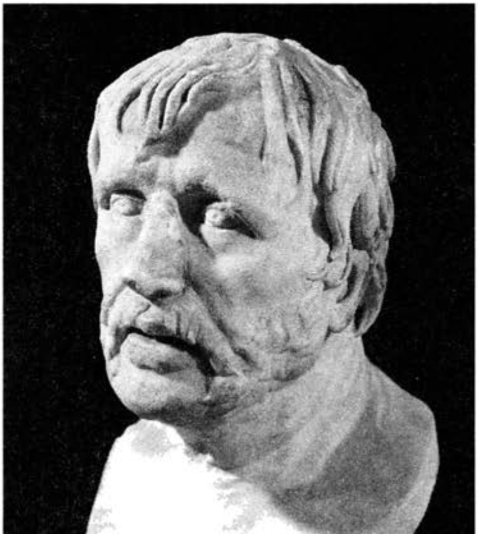

سينيكا. تمثال نصفي من الرخام. المتحف الأركيولوجي القومي، نابولي، إيطاليا/ذا بريدجمان آرت ليبراري.

لا بد أن يقدر المرء على قبول كلّ شيء على ما هو عليه، بترحاب، من دون الاستسلام للتشوّق العقيم لتغييره. بدا أن مونتاني يجد هذه الحيلة سهلة: لقد أتته بحكم الطبيعة. وقد كتب مبتهجًا: «لو قُدِّر لي أن أعيد عيش الحياة مرة أخرى، سأعيش كما عشت». لكنَّ معظم الناس عليهم التدرّب على ذلك، ومن هنا كانت تأتي التدريبات العقلية.

كان لدى سينيكا حيلة متطرِّفة لممارسة **آمور فاتي amor fati**، أو **حب القدر**. كان مصابًا بالربو الشّعَبي، والنوبات تكاد توصله لحافة الاختناق. وكثيرًا ما كان يشعر بأنه موشك على الموت، لكنّه تعلّم استغلال كل نوبة باعتبارها فرصة فلسفية. فبينما ينغلق حلقه وتكافح رئتاه من أجل التنفس، كان يحاول احتواء ما يحدث له ليقول له «نعم». ويفكر، أريد هذا؛ ولو لزم الأمر فسأريد أن أموت أنا نفسي منه. وحين تنحسر النوبة، يخرج منها شاعرًا بأنه أقوى، لأنه حارب الخوف وهزمه.

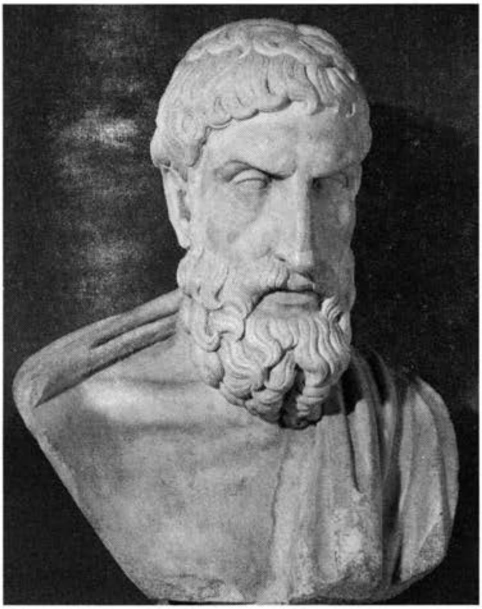

أبيقور. تمثال نصفي من الحجر. المتحف اليوناني بالعاصمة. روما، إيطاليا/جيرودون/ذا بريدجمان آرت ليبراري.

الرواقيون حريصون بشكلٍ خاصٍّ على إجراء تدريبات ذهنية قاسية على أكثر ما يرهبونه. أما الأبيقوريون فكانوا أكثر ميلًا لغضّ أبصارهم عن أي شيء مرعب، ليركِّزوا على الأشياء الإيجابية. الرواقي يتصرّف كرجل يشدّ عضلات بطنه ويدعو أحد معارضيه للكمها. الأبيقوريون يفضِّلون ألّا يستدعوا أي لكمات، وحين تحدث أشياء

سيئة، يخطون ببساطة بعيدًا عن طريقها. إذا كان الرواقيون ملاكمين، فالأبيقوريون أقرب ما يكونون لممارسي الرياضات القتالية الشرقية.

وجد مونتاني أن المدخل الأبيقوري أكثر ملاءمة في معظم الأحوال، بل مدَّ أفكار الأبيقوريين إلى أبعد مما وصلت إليه. زعم أنه يحسد المجانين، لأنهم كانوا دائمًا يعيشون بأذهانهم في مكان آخر؛ وهذا شكل متطرّف من الميل الأبيقوري. ماذا يهمّ لو أن فكرة رجل مجنون عن العالم ملتوية، ما دام سعيدًا؟ أعاد مونتاني حكي قصص كلاسيكية مثل قصة ليكاس، الذي عاش حياته اليومية وشغل وظيفة بنجاح بينما كان يعتقد أن كلّ ما يراه يحدث على خشبة المسرح، مثل عرض مسرحي. وحين عالجه طبيب من هذا الوهم، صار ليكاس شديد البؤس لدرجة أنه رفع قضيّة على الطبيب بحجة أنه جرّده من متعة الحياة. وبالمثل، اعتقد رجل اسمه ثراسيلاوس بأن كل سفينة تصل إلى ميناء بيريوس المحلّي أو تغادره تحمل شحنات بديعة مرسلة له خصيصًا. كان سعيدًا على الدوام، لأنه كان يبتهج كلّما وصلت سفينة بسلام إلى الميناء، ولا يبدو أنه قلق لأن الشحنات لم تتجسّد له أبدًا. وللأسف، عالجه شقيقه كريتو من وهمه وكان هذا نهاية الوهم.

لا يمكن لكل شخص أن يستفيد من كونه مجنونًا، لكن كل إنسان يمكنه أن يسهّل الحياة لنفسه بخفض ضوء شعاع عقله قليلًا. عرف مونتاني في حالة الحزن بالذات أنه لا يمكن أن يشفى منها ببساطة بإخراج نفسه من هذه الحالة. حاول بعض الحيل الرواقيّة، ولم يخشَ تركيز انتباهه على موت لا بويتي لمدة طويلة تكفي لكتابة تقريره عنه. لكنه وجد في معظم الأوقات أن تحويل انتباهه تمامًا إلى شيء آخر أمر مفيد:

> **حين تأخذ فكرة مؤلمة بخناقي؛ أجد أنّ من الأجدى أن أغيّرها لا أن أخضع لها، وأستبدل بها فكرة مضادّة لها، ولو لم أستطع، أستبدل بها في جميع الأحوال فكرة مختلفة. الاختلاف يجلب السلوان دائمًا، ويذيب الألم، ويجفّفه. إذا لم أستطع محاربة شيء ما، أهرب منه؛ وأراوغ أثناء الهرب. أنا صاحب حِيَل.**

واستخدم مونتاني التقنية نفسها لمساعدة الآخرين. كان ذات مرة يحاول تعزية امرأة (يشير ضمنًا إلى أنها كانت على غير عادة بعض الأرامل) تعاني الحزن على زوجها الراحل بصدقٍ أصيلٍ. فكّر أولًا في الطرق الفلسفية المعتادة أكثر من غيرها، مثل تذكيرها بأنها لن تكسبَ شيئًا من النحيب، أو استدراجها إلى فكرة أنها كان من الممكن ألّا تقابل زوجها. لكنه استقرّ على حيلة مختلفة: «تغيير موضوع حديثنا برفق

شديد وتحويله شيئًا فشيئًا إلى موضوعات قريبة، ثم إلى موضوعات أبعد قليلًا». بدا أن الأرملة لا تولي انتباهًا كبيرًا في البداية، لكن الموضوعات الأخرى جذبت اهتمامها في النهاية. وكتب مونتاني أنه هكذا، من دون أن تدرك المرأة ما الذي يحدث «سرقت منها هذه الفكرة المؤلمة بشكل غير محسوس، ورفعت روحها المعنوية، وسرَّت عنها تمامًا طوال وجودي معها». وقد اعترف أن هذا لم يصل إلى جذور حزنها، لكنه أخرجها من أزمة عاجلة، وزعم أنه أتاح للزمن أن يبدأ عمله الطبيعي.

أتى بعض هذا من قراءات مونتاني في الإبيقورية؛ والبعض الآخر من خبرته التي اكتسبها بشق الأنفس. وكتب: «ابتليت ذات مرة بحزنٍ طاغ يهدّ القوى»؛ ومن الواضح أنه كان يفكِّر في لا بويتي. ربما دمَّره موت لا بويتي إذ كان قد اعتمد فقط على قواه العقلية لإنقاذه. وحين فهم أنه يحتاج إلى «بعض الإلهاء القوي»، عمل على أن يقع في غرام شخص ما بدلًا من ذلك الحزن. لم يقل من هو، ويبدو أن هذا لم يكن له أهمية، لكنه أتاح لعواطفه مكانًا تتّجه إليه.

عملت حيل أخرى لحساب انفعال آخر غير مرحَّب به، ألا وهو الغضب؛ فقد عالج مونتاني ذات مرة بنجاح «أميرًا شابًا»، ربما كان هنري دي نافار (الذي سيصير في ما بعد هنري الرابع) من شغف خطير بالانتقام. لم يتكلّم مع الأمير ليخرجه من هذا الانفعال، أو ينصحه بإدارة خدِّه الآخر، ولا ذكَّره بالعواقب المأساوية التي قد تنتج عن الغضب. لم يذكر موضوعات الغضب أو الانتقام إطلاقًا:

> **تركت الشغف بالانتقام في حاله، واستخدمت نفسي لجعله يستمتع بجمال الصورة المضادّة، الشرف، والمعروف، والإرادة الخيّرة التي سيكتسبها بالصَّبر والطيبة. حوَّلته إلى الطموح. وهكذا فعلت ذلك.**

واستخدم مونتاني في فترة تالية من حياته حيلة تحويل مسار الانتباه ضد خوفه الشخصي من التقدُّم في السنِّ والموت. كانت السنوات تجرُّه نحو الموت؛ لم يستطع مقاومة هذا، لكنه لم يكن بحاجة إلى النظر إليه وجهًا لوجه. فبدلًا من ذلك، واجه الطريق الآخر، وهدَّأ نفسه بالتمتّع بالتفكير في ما مضى من شبابه وطفولته. وقال إنه بهذا تمكّن من «أخذ خطوة جانبية برفق وتحاشي النظر إلى سمائي العاصفة المليئة بالغمام التي أراها أمامي».

صار مونتاني عليمًا بتقنيات الخطو جانبًا حتى إنه وجد أن خفّة اليد السياسية جديرة بالإعجاب، ما لم تستخدم لدعم الطغيان. من الحكايات التي يستمتع بها كيف قلل

زيلايوكاس، أمير منطقة اللوكرين في اليونان القديمة، من الإنفاق الزائد في مملكته. أصدر زيلايوكاس أمرًا بأن أي امرأة يمكن أن تعتني بها عدة خادمات، عندما تكون في حالة سكر بيِّن، وأن بإمكانها أن ترتدي الكثير من المجوهرات الذهبية والفساتين المطرَّزة بقدر ما تحب، لو كانت تعمل مومسًا. ويمكن للرجل أن يداعب الخواتم الذهبية في أصابعه لو كان قوّادًا. ونفعت الحيلة: اختفت المجوهرات الذهبية والعدد المهول من الخدم والحشم بين يوم وليلة، لكن لم يتمرّد أحد، لأن لا أحد أحسَّ بأنه غُصب على عمل أي شيء.

تعلم مونتاني من خبرته الخاصّة حين أوشك على الموت أن أفضل ترياق للخوف هو الاعتماد على الطبيعة: «لا تتعب دماغك بالموضوع». اكتشف مونتاني بالفعل من خلال فقده للا بويتي أن هذه أفضل طريقة للتعامل مع الحزن. للطبيعة إيقاعاتها الخاصّة. تشتيت الانتباه يعمل جيِّدًا لأنه ينسجم مع ما جُبِل عليه البشر: «أفكارنا تهيم دائمًا في مكان آخر». الشيء الطبيعي فقط بالنسبة لنا أن نلجأ لعدم التركيز، والانزلاق بعيدًا عن الألم واللذَّة كليهما، و«بالكاد نلمس سطحهما الخارجي». كل ما نحتاج فعله هو ترك أنفسنا على سجيّتنا.

أخذ مونتاني من قراءاته الرواقية والإبيقورية ما ينفعه، كما سيأخذ قرّاؤه دائمًا ما يحتاجونه من كتاب **المقالات** من دون أن يحملوا هم بقيته. كان هذا يعني لمعاصريه التركيز على أكثر فقراته تأثرًا بالرواقية والإبيقورية. وفسَّروا كتابه على أنه دليل لعيش الحياة، ورحّبوا به باعتباره فيلسوفًا من الطراز القديم، يبلغ من العظمة حدًّا يضعه في مصاف الفلاسفة الأصليين. سمّاه صديقه إتيان باسكير «سينيكا آخر يكتب بلغتنا». وبجَّل صديق آخر من بوردو اسمه فلوريموند دي ريموند شجاعةَ مونتاني في وجه عذابات الحياة، ونصح القرّاء بالاتجاه إليه طلبًا للحكمة، خاصّة عن كيف يتصالح الإنسان مع الموت. وقد نُشِرَت مع طبعة العام 1595 من كتاب مونتاني سوناتا كتبها كلود إكسبيللي، تمدح مؤلِّف الكتاب باعتباره «رواقيًّا شجاعًا» وتتحدَث بدفء عن أسلوبه الرجولي في الكتابة، وشجاعته، وقدرته على تقوية أضعف النفوس. كتب إكسبيللي أن «المقالات الشجاعة» لمونتاني ستحظى بالمديح لمدة قرون قادمة- لأن مونتاني - مثل القدماء - يعلِّم الناس كيف يجيدون الكلام، وكيف يعيشون جيِّدًا، ويموتون جيِّدًا.

يقدِّم هذا أوّل إشارة إلى التحوّلات التي سيمرّ بها مونتاني في عقول قرّائه عبر القرون، حيث أخذ به كل جيل باعتباره مصدر التنوير والحكمة. كل موجة من القرّاء وجدت فيه

ما توقّعته تقريبًا، وفي الكثير من الحالات، وجدوا ما وضعوه هم أنفسهم فيه. كان أوّل جمهور لمونتاني أهل عصر النهضة المتأخّر المليء بالرواقيين والإبيقوريين الجدد المفتونين بسؤال كيف تُعاش الحياة جيِّدًا، وكيف يحقّق المرء **السعادة والازدهار البشري (اليودايمونيا)** في وجه المعاناة. وقد احتضنوه باعتباره واحدًا منهم، وجعلوا كتبه تحقق أعلى المبيعات. وهكذا أرسوا أسس شهرته المستقبلية بأكملها باعتباره فيلسوفًا براجماتيًّا، ومرشدًا لفنِّ عيش الحياة.

مونتاني في العبودية:

قد يبدو أن حيلة مونتاني في امتصاص لا بويتي في نفسه كشبح من نوع ما، أو مشارك سرّي له في جميع ما يفعل، حيلة تجري عكس خطته في تشتيت انتباهه عن الحزن. لكنّها كانت بطريقتها شكلًا من أشكال تحويل مسار الانتباه؛ فقد أبعدته عن أفكار الفقدان ووجَّهته إلى طريقة جديدة في التفكير في حياته الحالية. وانفتحت فتحة بين وجهة نظره ووجهة النظر التي تخيّل أن لا بويتي قد يأخذ بها، بحيث يتمكّن في أي لحظة من الولوج من واحدة إلى الأخرى. ربما كان هذا ما أوحى إليه بفكرة كتب عنها في مكان آخر تقول: «نحن مزدوجون داخل أنفسنا، لا أعرف كيف».

وقد علَّق مونتاني نفسه بأنه ربما لم يكن ليكتب كتاب **المقالات** ما لم تنفتح هذه المساحة في نفسه. فقد قال إنه لو كان لديه «أحد يتكلم معه» فلربما نشر رسائل، وهي قالب أدبي آخر أكثر تقليدية. كان عليه أن يعرض بدلًا من ذلك الحوار الذي يدور بينه وبين لا بويتي داخل نفسه. قارن الناقد الحديث آنتوني ويلدين هذه المناورة بجدل السيد/ العبد في فلسفة ج. و. ف. هيغل. صار لا بويتي السيد المتخيَّل لمونتاني، آمرًا إياه بأن يعمل، بينما صار مونتاني العبد الطائع الذي حافظ على بقائهما معًا من خلال العمل بالكتابة. كان ذلك نوعًا من «العبودية الطوعية»، التي خرج منها كتاب **المقالات**، تقريبًا كما لو كان ناتجًا جانبيًّا لحيلة مونتاني للتعامل مع الأسى والوحدة.

من المؤكد أن موت لا بويتي ترك في مونتاني شيئًا من العبوديّة الأدبيّة من النوع الأكثر قربًا من أرض الواقع، في شكل أكوام متراكمة من المخطوطات غير المنشورة التي لديه. لم يكن هذا غير معتادٍ أو أصيلٍ بشكلٍ خاصٍّ، باستثناء مقال **عن العبوديّة الطوعية** (بافتراض أن هذا كان بقلم لا بويتي حقًّا)، لكنها كانت تستحق ما هو أفضل من تركها لتتفتّت وتتحوّل إلى ترابٍ. وسواء كان السبب أن لا بويتي طلب منه، أو أنها كانت مبادرة خاصّة أتت منه، صار مونتاني الآن محررًا لأعمال صديقه بعد موته؛ وهو دور كثير المتطلِّبات، أعطى دفعةً لمستقبله الأدبي الخاصّ.

والمدهش أننا لو أخذنا في الاعتبار شخصيّة لا بويتي المنظّمة لبدا لنا أن مخطوطاتَه كانت في حالة فوضى عارمة. يتحدث مونتاني في أحد إهداءاته للعمل المنشور عن اضطراره «للمثابرة على جمع كل ما وجدتُه تامًّا وسط كراساته وأوراقه المتناثرة هنا وهناك.» كانت مهمةً جبّارةً، لكنّه وجد الكثير مما يستحق النشر، بما في ذلك سوناتات لا بويتي. وجد أيضًا ترجمات لنصوص كلاسيكية، مثل خطاب العزاء الذي أرسله بلوتارخ لزوجته عندما ماتت طفلتهما، وأول نسخة باللغة الفرنسية من رسالة **الاقتصاد** لزينوفون، وهي رسالة عن فن إجادة إدارة الممتلكات والأرض؛ وهو موضوع كان يهم مونتاني، الذي كان على وشك الاستقالة من منصبه في بوردو.

وحين فرز مونتاني المخطوطات، ارتأى إصدارها في طبعة مجمَّعة. فسافر إلى باريس ليكون همزة وصل مع الناشرين وليعزز النتيجة. تملّق مونتاني راعيًا ملائمًا من أجلِ كل مقطوعة من مقطوعات لا بويتي، فأنشأ إهداءات جميلة ومتملِّقة لأشخاصٍ مؤثِّرين يشملون ميشيل دي لوبيتال ومختلف المشاهير في بوردو؛ علاوة على إهدائه أحدها إلى زوجته، وهي خطاب بلوتارخ. وعلى الرغم من أن «الرسائل المهداة» كانت جنسًا أدبيًّا تقليديًّا، فقد كانت إهداءات مونتاني حيوية وشخصيّة. بل إنه ألحق بالكتاب مقطوعة مكتوبة فيها المزيد من الطابع الشخصي، ألا وهي تقريره عن موت لا بويتي. تؤكّد المهمّة بأكملها الإحساس بأن مونتاني كان وقتها في شراكة أدبية مع ذكرى لا بويتي، وأن الاثنين كانا يتوقَّعان مستقبلًا زاهرًا معًا. علَّم ذلك مونتاني الكثير عن عالم النشر وعن ما يحب أهل باريس العصريون أن يقرأوه، وهي معلومات ستكون مفيدة له.

ظهر التقريرِ عن موت لا بويتي في صورة خطاب إلى والد مونتاني، وهو اختيار غريب. ربما حثَّه بيير على كتابته. وقد فعل ذلك بالتأكيد مرّة قبل ذلك. فعند حوالى العام 1567 كلّف بيير ابنه بمهمّة أدبيّة صعبة حقًا، لعبت دورها أيضًا في تحويله إلى كاتبٍ.

يبدو أن هذا الطلب المبكر كان محاولة من بيير لنفض غبار استمرار ابنه في الميل إلى الكسل؛ كان «حيلة» أخرى من هذه الحيل التي تمارس على من يقع ضحية لها لكنها لمصلحته. فحتى حين كان مونتاني في منتصف ثلاثينيات العمر، كان لا يزال فيه شيء من المراهق المشاكس. لم يكن راضيًا عن وظيفة القاضي التي يشغلها، وغير ميّالٍ لحياة الخادم المتشامخ في بلاط القانون، وغير مهتمٍ ببناء الممتلكات وتطويرها. علاوة على أنه على الرّغم من اهتمامه بالأدب، لم تظهرً عليه أي علامة من علامات

الكتابة بكثرة. ربما كان بيير قد خمَّن وقتها أنه هو نفسه لن يعيش طويلًا بعد ذلك، وربما أحسَّ أن مونتاني يحتاج إعداده للمسؤوليات التي ستقع على كاهله سريعًا. كان يحتاج إلى تحدٍّ.

ميشو يريد أن يكتب؛ حسنًا جدًّا، دعه يكتب! أعطاه بيير مجلدًا من 500 صفحة كتبه رجل لاهوت قطالوني منذ حوالى قرنٍ سابقٍ، بلاتينية متكلِّفة، وقال له: «ترجم لي هذا إلى الفرنسية عندما تجد وقتًا، هل ستفعل ذلك يا ولدي؟».

هذه طريقة طيِّبة لإرجاء المساعي الأدبيّة لابنه مدى الحياة؛ ربما كان هذا ما يحاول بيير فعله. لكن لحسن الحظّ كان الكتاب أكثر من مجرّد نصٍّ طويلٍ وممل. لقد روّج أيضًا لنوع من اللاهوت وجده مونتاني بغيضًا. فأيقظه هذا من سباته العميق. أشعلت مهمّة الترجمة التي عهد له بها والده الشرارة التي توهّجت يومًا وتحوَّلت إلى كتاب **المقالات** أكثر مما أشعلها العمل على مخطوطات لا بويتي، بل وربما أكثر من إنشاء الخطاب الذي يصف لحظات موت صديقه.

كان الكتاب بعنوان **اللاهوت الطبيعي، أو كتاب المخلوقات**. كتبه مؤلفه ريموند سيبوند في العام 1436 لكنه لم ينشر حتى العام 1484، وهو زمن طويل أيضًا سابق لزمن مونتاني وبيير. أعطى هذا الكتاب لبيير أحد أصدقائه المولعين بالكتب الذين كان يحبّ مصادقتهم، لكن اللاتينية كانت صعبة جدًّا بالنسبة له، فوضعه جانبا مع كومة من الأوراق. وبعد ذلك بسنوات، تصفّح الكومة. وكان في الكتاب شيء ما ذكّره بابنه الضال، ربما غموضه الكثيف العنيد.

قد يكون قرار بيير بوضع الكتاب جانبًا، ثم إخراجه حين فعل ذلك مرتبطًا بأنه فقد الحظوة مع الكنيسة أولًا، ثم عاد إليها مرة أخرى. كان كتاب **اللاهوت الطبيعي** قد وُضع على **قائمة الكتب المحظورة** في 1564، لأنه كان يروِّج لأسلوب مميز من اللاهوت «العقلاني» ظلّت الكنيسة تغيّر رأيها فيه. ركّز الجدال على الزعم بأن حقائق الدين يمكن إثباتها من خلال حجج عقليّة، أو بفحص دلائل توجد في الطبيعة. اعتقد سيبوند أن هذه الحقائق الدينيّة ممكن أن تثبت بهذه الطريقة؛ مما جعل كلًّا من مونتاني والكنيسة (لفترة) يضعانه في أقصى الطرف المعارض. كان مونتاني أكثر ميلًا نحو موقف يسمى العقائدية Fidiesm[1]، يرفض تمامًا الاعتماد على العقل البشري أو

(1) Fideism لفظ مشتق من كلمة لاتينية تعني العقيدة، والعقائدية Fideism نظرية معرفية تقول إن العقيدة الدينية منفصلة عن العقل، وإنهما طرفا نقيض، والعقيدة تعلو على العقل في التوصل إلى الحقائق. (المترجمة).

مساعي البشر، وينكر أن بوسع البشر أن يعرفوا الحقائق الدينية إلا من خلال الإيمان. ربما لم يشعر مونتاني برغبة كبيرة في الإيمان، لكنه شعر بمقتٍ قويٍّ لجميع الادعاءات البشرية - وكانت النتيجة هي نفسها.

وهكذا وجد مونتاني نفسه مكلَّفًا بوظيفة ترجمة 500 صفحة من الجدال اللاهوتي المصمّم لإثبات زعم يستهجنه. كتب: «كانت وظيفة غريبة جدًّا وجديدة عليَّ». وحاول في كتاب **المقالات** أن يجعلها تبدو كما لو كان قد قاربها عرَضًا وكيفما اتفق. وقال: «لما كان لديَّ بالصدفة وقت فراغ حينئذٍ، ولأنّي لا أستطيع عصيان أيَّ طلبٍ من أحسن أبٍ في الدنيا على الإطلاق، فقدْ أنجزته بأفضل ما أمكنني». لكن لا بد من أنه كان مشروعًا هائلًا، اقتضى منه عامًا أو أكثر لإتمامه. وقد أدهش نفسه على الأرجح بكم استفاد منه. لقد حفَّزه وغاص فيه كما تغوص المحارة في الرمل. ولا بد من أنه كان يفكِّر طوال الوقت الذي كان يكتب فيه في: «لكن... لكن... »، بل حتى في: «لا!، لا!». لقد أرغمه هذا الكتاب على أن يحلِّل أفكاره الخاصَّة. حتى لو لم يناقش مونتاني النصَّ بعمقٍ في ذلك الوقت، فقد فعل ذلك بالتأكيد عندما كُلِّف بعد عدّة سنوات (ربما كلَّفته مارجريت دي فالويز، شقيقة الملك، وزوجة البروتستانتي هنري دي نافار) بكتابة مقال يدافع فيه عن الكتاب؛ أي يدافع عن شيء يعتبر أن من المستحيل الدفاع عنه.

سيصير هذا المقال الفصل الثاني عشر من الجزء الثاني من كتاب **المقالات** المعنون «اعتذار لريموند سيبوند»، وهو أطول مقطوعة بمراحل في الكتاب، بل يكاد يكون عبثيًّا في عدم تناسب حجمه مع بقية المقطوعات. ففي طبعة 1580 كان حجم الثلاثة والتسعين فصلًا الآخرين تسع صفحات ونصفًا في المتوسّط لكلٍّ منها، بينما استغرق مقال «الاعتذار» 248 صفحة. لكنه كان مناسبًا جدًا من جهة الأسلوب. إنه يسحر القارئ ويغزل نماذج مركَّبة من الاستطرادات مثل بقيّة المقالات تمامًا، ويعطي لكتاب **المقالات** وزنه بأكثر من معنى؛ فمن دونه، كان الكتاب سيكون أقلّ تأثيرًا في القرون القادمة. قد يكون سببًا في خفض عدد من يكرهونه، لكنّ عدد قرّائه كان سيقل أيضًا.

«الاعتذار» يعني «الدفاع»، وقد بدأ المقال حقًّا في شكل دفاع عن سيبوند. ويظلّ هكذا لنحو نصف صفحة. ثم يتحوّل إلى شيء شديد الاختلاف، شيء أكثر شبهًا بالهجوم. وكما كتب الناقد لويس كونز مرّةً، فهو يدعم سيبوند «كما يدعم الحبل الرجل المشنوق».

كيف إذن يمكن أن يسمّيه «اعتذارًا؟». حيلة مونتاني بسيطة. فهو يزعم أنه يدافع عن سيبوند باستخدام الحجج العقلانية ضد من حاولوا هدمه. وقد فعل ذلك بتوضيح

أن الحجج العقلانية عمومًا غير معصومة من الخطأ، لأن من المستحيل الاعتماد على العقل البشري نفسه. وبهذا يدافع عن شخص عقلاني ضد أشخاص عقلانيين آخرين بالذهاب إلى أن أي شيء يُبنى على العقل لا قيمة له. حسنًا، إن دفاع مونتاني يُبطل حجة أعداء سيبوند، لكنه يبطل أيضًا حجة سيبوند نفسه بطريقة قاتلة أكثر. ومن الواضح أنه كان واعيًا بهذا جيِّدًا.

وعلى الرغم من طول المقال وتعقيده، فهو ليس أقل من مسلٍّ. وذلك لأن مونتاني يستعير تقنية من بلوتارخ: فهو يبني حجّته عبر مراكمة دراسات الحالات. قصص وحقائق متناثرة في كل فقرة مثل الزهور في قرن الخصب[1]. كلُّ قصّةٍ تقريبًا تقدِّم مثالاً لكيف أن العقل البشري عديم الفائدة، وكيف أن قوى البشر ضعيفة، وكيف أن الجميع تقريبًا سخفاء أو واهمون، ولم يستثنِ مونتاني نفسه، كما يعترف بحبور.

كثيرٌ من الأمثلة نفسها تأتي من بلوتارخ أيضًا. لكن القوّة الدافعة لهذا «الاعتذار» الذي يرفض تقديم الاعتذار لم تأتِ من بلوتارخ، أو لم تأتِ منه وحده. لقد أتت هذه القوّة الدافعة من ثالث الفلسفات الهللينيستية العظيمة، وأغربها جميعًا: الشكّ البيرووي[2].

مكتبة
t.me/t_pdf

(1) قَرْن مُزَيَّن يُسْتَخْدَم فِي الْفَنّ مُكَلَّلاً بِالزُّهُور أَوْ الْفَوَاكِه (المترجمة).
(2) مذهب الشك البيرووي أسسه بيرّو، وهو فيلسوف يوناني توفى العام 275 ق. م. (المترجمة).

7. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟

ج: شكٌّ في كلِّ شيءٍ

كلُّ ما أعرف أني لا أعرف شيئًا، بل إني لست متأكدًا من ذلك.

يبدو الشكُّ غريبًا وخارجًا عن السِّياق عند وضع فلسفة الشكِّ بجوار الرواقية والإبيقورية. الآخران يبدوان طريقين واضحين للطمأنينة و«الازدهار الإنساني»؛ فهما يعلِّمانك كيف تعدّ نفسك لمواجهة صعوبات الحياة، وإيلاء الانتباه، واكتساب عادات فكريّة حميدة، وممارسة حِيَل علاجيّة على نفسك. يبدو الشكُّ أمرًا أكثر محدودية. الشكّاك يؤخذ على أنه شخص يريد دائمًا أن يرى برهانًا، ويشكّ في الأشياء التي يأخذها الآخرون على علّاتها. ويبدو كما لو كان الشكُّ يهمّ فقط مسائل المعرفة، لا مسألة كيف تُعاش الحياة. لكنّ الأمر كان مختلفًا في عصر النهضة، وفي العالم الكلاسيكي الذي ولدت فيه فلسفة الشكّ مع الفلسفات البراجماتية الأخرى.

كان الشكُّ - مثل الفلسفات الأخرى - يساوي شكلًا من العلاج. يصدق هذا بشكلٍ خاصٍّ على الشكِّ البيرّووي، النوع الذي أنشأه الفيلسوف الإغريقي بيرو Pyrrho، الذي مات في حوالى العام 275 ق.م.، ثم طوَّره سيكستوس إمبريكوس بعد ذلك بمزيد من الدقَّة في القرن الثاني الميلادي (الشكّ «الدوجمائي» أو «الأكاديمي»، النوع الثاني من الشكّ الأقل مدًى). تظهر فكرة التأثير الغريب للشكِّ البيرووي على الناس من قصّة عن هنري إيستين Henri Estienne، المعاصر القريب لمونتاني، وأول مترجم فرنسي لسيكستوس إمبريكوس، تحكي كيف تفاعل في لقائه مع كتاب سيكستوس المعنون **الخطوط العريضة** hypotyposes. كان يعمل في مكتبته يومًا لكنّه كان يشعر بشدّة المرض والتعب بحيث لا يمكنه القيام بعمله المعتاد، ووجد نسخة من هذا الكتاب وهو يقلِّب في صندوق قديم مليء بالمخطوطات. ما إن بدأ في القراءة حتى وجد نفسه يضحك بحماسة حتى إن الإجهاد غادره وعادت إليه طاقته الذهنية. من الأساتذة الآخرين لهذه الفترة جنشيان هيرفت، الذي مرّ بخبرة مماثلة. التقى هو أيضًا بسيكستوس مصادفةً في مكتبة صاحب العمل الذي يعمل لديه، وشعر بأن عالمًا

من النور والمتعة قد انفتح أمامه. لم يأمر الكتاب قرّاءه ولم يحاول إقناعهم كثيرًا بقدر ما حاول أن يجعلهم يقهقهون.

القارئ الحديث الذي يتابع كتاب **الخطوط العريضة** قد يتعجَّب، ما الذي كان مضحكًا إلى هذه الدرجة؟ الكتاب فيه بعض الأمثلة الحيوية، كما في غالبية كتب الفلسفة، لكنه لا يبدو كوميديًّا بشدَّة. لا يتّضح السبب الذي جعله يشفي إستين وهيرفت من الملل الذي انتابهما - أو السبب الذي جعل له كل هذا التأثير على مونتاني، الذي سيجد فيه الترياق المضبوط لريموند سيبوند وأفكاره الرصينة المتضخِّمة عن أهمّيّة البشر.

مفتاح الحيلة هو كشف أنه لا يلزم أخذ أي شيء في الحياة بجدية. البيرووية لا تأخذ حتى نفسها بجدِّية. يؤكّد الشك الدوجماطيقي العادي استحالة المعرفة؛ وهو يتلخّص في تعليق سقراط: «كل ما أعرفه أني لا أعرف شيئًا». يبدأ الشك البيرووي من هذه النقطة، لكنه يضيف بعد ذلك: «بل إني حتّى لست متأكدًا من ذلك». وبالتصريح بمبدئه الفلسفي، يستدير في دائرة ويقضي على نفسه، تاركًا مجرّد نفثة من العبثية.

وفقًا لذلك، يتعامل البيروويون مع جميع المشكلات التي قد تلقيها الحياة في طريقهم عن طريق كلمة واحدة تعمل بمثابة اختزال لهذه الحيلة، هي باللاتينية epokhe وتعني: «**تعليق الحكم**». أو في ترجمة أخرى إلى الفرنسية بقلم مونتاني نفسه: je soutiens، «**أنا أمتنع**». هذه العبارة تهزم جميع الأعداء؛ إنها تفكِّكهم، بحيث يتحلَّلون إلى ذرات أمام عينيك.

يبدو هذا أمرًا رافعًا للمعنويات بالقدر نفسه الذي ترفعها به فكرة «اللامبالاة الرواقية أو الإبيقورية» لكنها نافعة مثل جميع الأفكار الهيللينيستية الأخرى، وهذا ما يهم. تؤدِّي عبارة Epokhe «**تعليق الحكم**» وظيفتها تقريبًا مثل ألغاز الكوانز[1] في مذهب الزن البوذي؛ وهي أفكار أو أسئلة لا إجابات لها، موجزة ومبهمة، مثل «ما صوت التصفيق بيد واحدة؟» في البداية، لا تسبِّب هذه الأقوال إلا الارتباك. لكنها تفتح في ما بعد طريقًا إلى الحكمة الوفيرة. هذا التشابه العائلي بين البيرووية والزِن قد لا يكون صدفةً؛ فقد سافر بيرو إلى بلاد فارس والهند مع الإسكندر الأكبر، وخاض في الفلسفة الشرقية؛ وليس مذهب الزن البوذي، الذي لم يكن قد خرج بعد للوجود، لكنّها كانت بعض بشائره.

---

(1) هي ألغاز لتدريب أتباع مذهب الزن البوذي على التخلِّي عن الاعتماد المطلق على العقل وإجبارهم على اكتساب التنوير الفجائي عن طريق الحدس (المترجمة).

حيلة الـEpokhe **«أنا أعلّق الحكم»** تجعلك تضحك وتشعر بتحسّنٍ لأنها تحرّرك من الحاجة إلى العثور على إجابة محدّدة لأي شيء. ولنستعر مثالًا من آلان بايلي Alan Bailey، وهو مؤرِّخ لفلسفة الشكّ: إذا أعلن شخص أن عدد حبّات الرمل في الصحارى تقدر بعدد مزدوج، وطلب معرفة رأيك، قد يكون ردّك الطبيعي «لا رأي لي»، أو «كيف أعرف؟». أو لو أردت أن تبدو أكثر فلسفة، «أنا أعلّق حكمي» Epokhe. فإذا قال شخص آخر: «ترّهات! من الواضح أن عدد حبات الرمل في الصحارى يقدَّر برقم مفرد»، فستظلّ تقول أنا أعلّق الحكم، بالنغمة الثابتة نفسها. في الحقيقة، أنت تردّ بالتعبير الخالي من أي انفعال الذي استشهد به سيكستوس نفسه تعريفًا لمصطلح Epokhe.

> **لا أستطيع القول أيّ من الأشياء المقترحَة ينبغي أن أجده مقنعًا وأيها ينبغي ألا أجده مقنعًا.**

أو

> **أشعر الآن بطريقة ما بأني يجب ألّا أفترض افتراضًا دوجمائيًا ولا أرفض أيًّا من الاشياء التي تخضع لهذا الفحص.**

أو

> **كل تقرير فحصته بإمعانٍ يزعم إثبات شيء ما بطريقة دوجمائية، يبدو لي متعارضًا مع تقرير آخر يزعم أنه يثبت شيئا ما بطريقة دوجمائية تساويها في القدرة على الإقناع أو عدم القدرة على الإقناع.**

يمكن حفظ هذه الصياغة الأخيرة باعتبارها طريقة مفيدة لإخراس أي شخص يقول مزاعم غريبة عن الصحارى او أي شيء آخر. وعندما يتلوها المرء، يشعر بنوع من الانحدار الذهني الهادئ. لا يمكن للمرء ألّا يعرف الإجابة ويشعر بأن الموضوع لا يهم، فلا يشكّل عدم انشغال المرء بالأمر أي ضيق له.

يظلّ هذا صحيحًا بالنسبة للبيرووي، حتى حين تصير الأسئلة أكثر صعوبة. هل من حسن الأمور أن تكذب على شخص لتجعله يشعر بشعور أفضل؟ أنا أعلّق حكمي Epokhe. هل شكل قطتي أفضل من شكل قطتك؟ هل أنا أطيب منك؟ هل يجعل الحبّ الإنسان سعيدًا؟ هل يوجد ما يسمى حرب عادلة؟ أنا أعلّق حكمي Epokhe. ويمتد الأمر إلى مدى أبعد. البيرووي الحقيقي سيعلّق حكمه حتى ردًا على أسئلة قد

يعتقد العامة العاديون بأن لها إجابة واضحة. هل يبيض الدجاج؟ هل الناسُ الآخرون موجودون حقًّا؟ هل أنظر إلى فنجان من القهوة في هذه اللحظة؟ الإجابة على طول الخط: أنا أعلِّق حكمي Epokhe.

البيروويون يفعلون ذلك لا لكي يكدِّروا أنفسهم بعمقٍ ويلقوا بأنفسهم في دوّامة من الشكِّ المشوب بجنون العظمة، بل ليحصلوا على حالة من الاسترخاء في ما يخصُّ كلَّ شيء. كان هذا طريقهم للطمأنينة - وهو هدف مشترك لهم مع الرواقيين والأبيقوريين - ومن ثم إلى البهجة والازدهار الإنساني. أهم وأوضح ميزة أن البيرووبين لا يلزم أن يقلقوا أبدًا لأنهم أخطأوا في شيء. فلو ربحت حججهم، فسيعني ذلك أنهم على حق. وإذا خسروا، فهذا لا يثبت إلا أنهم كانوا على حقٍّ في شكّهم في معارفهم. هذا يجعلهم في الوقت نفسه مسالمين جدًا وأنّهم على طرف نقيضٍ. إنهم مغرمون بالجدال في وجهات نظر غير شائعة، لما يجلبه لهم ذلك من متعة. وكما كتب مونتاني:

> **إذا افترضت أن الثلج أسود، سيحاجّون نقيضًا لك أنه أبيض. فإذا قلت إنه لا هذا ولا ذاك، فالأمر متروك لهم للزعم بأنه يحتمل اللونين معًا. فإذا زعمت بشأن حكم معيَّن أنّك لا تعرف شيئًا عنه، سيزعمون أنّك تعرف. لكن لو أكّدت لهم ببديهية أنك تشكّ فيه، سيمضون في المحاجة بأنك لا تشكّ، أو أنك لا يمكنك أن تحكم بأنك تشكّ وتثبت ذلك.**

ربما يخرسون حينئذ بلكمة في الأنف. لكن حتى هذا لا يزعجهم، إذ لا تضايقهم فكرة أن يغضب منهم شخص ما، ولا يزعجهم الألم الجسدي بلا داع. من ذا الذي يقول إن الألم أسوأ من المتعة؟ ولو اخترقت كسرة من العظام مخّهم وقتلتهم، فماذا في هذا؟ هل من الأفضل أن تعيش بدل أن تموت؟

كتب الشاعر الإيرلندي توماس مور بعد حقبة طويلة من مونتاني، «حيّوا سهولة الشكّ!»:

> **حين تتكسّر أمواج الخطأ**
> **كم يحلو الوصول أخيرًا إلى شط الطمأنينة،**
> **وبينما تؤرجحك تموّجات الشك،**
> **ابتسم للرياح العاتية التي تحارب بلا شك!**

كانت هذه السهولة هائلة لدرجة أنها فصلت أتباع مذهب الشك تمامًا عن الناس العاديين؛ على الرغم من أنهم - على عكس الإبيقوريين وحديقتهم - فضّلوا أن يظلوا

منغمسين في العالم الواقعي. حكيت بعض القصص الغريبة عن بيرو نفسه. كان من المفترض أن يكون متحفِّظًا ويتمتّع بطمأنينة شديدة إلى حدٍّ أنه لن يتفاعل مع الأشياء إطلاقًا. حين يسير في مكان ما لن يغيِّر خط سيره حتى لو اعترضت طريقه منحدرات أو كادت العربات التي تسير في اتجاهه تدهسه، فكان على أصدقائه أن يستمرّوا في التدخّل لإنقاذه. وكما سجّل مونتاني: «لو كان قد بدأ في قول شيء، لم يفشل أبدًا في الانتهاء منه، حتى لو كان الرجل الذي يحدِّثه قد انصرف»؛ لأنه لم يكن يريد أن تبعده التغيُّرات الخارجية عن حقيقته الداخلية.

في غضون ذلك، لمَّحت قصص أخرى إلى أنه حتى بيرو لم يستطع الاستمرار في عدم الاكتراث التامّ طوال الوقت. ضبطه صديق له وهو «يتشاجر بحدّة شديدة» مع شقيقته، واتهمه بخيانة مبادئه. وردّ بيرو: «ماذا، هل لا بد من أن تكون هذه المرأة السخيفة شاهدة على قواعدي؟». وفي مرّة أخرى، ضُبط وهو يدافع عن نفسه ضد كلب مسعور، واعترف بأنه: «من الصعب تمامًا تجريد الرجل منه. [عدم الاكتراث]».

أحبَّ مونتاني نوعَيّ القصص كلَيهما: القصص التي أظهرت بيرو وهو يبعد كثيرًا عن السلوك العادي، والقصص التي تظهره مجرّد إنسان. وقد حاول مثل أيّ متّبع حقيقي لمذهب الشكّ تعليق الحكم عليها جميعًا. لكنه شعر بأن الأرجح أن بيرو كان رجلًا عاديًّا مثله هو نفسه، يناضل فقط ليملك جلاء البصيرة ولكي لا يأخذ أي شيء على علّاته.

> **لم يرد أن يجعل من نفسه كتلة خشب صمّاء أو صخرة؛ بل أراد جعل نفسه رجلًا حيًّا، يفكر ويعقل، يتمتّع بجميع المسرّات وسبل الراحة الطبيعية- ويوظّف جميع خصائصه الجسدية والروحية ويستخدمها.**

كان كل ما تخلى عنه بيرو وفقًا لمونتاني الادّعاء الذي يقع معظم الناس ضحيته؛ ألا وهو ادّعاء «تنظيم الحقيقة، وترتيبها وتعديلها». كان هذا أكثر ما أثار اهتمام مونتاني حقًّا في مذهب الشكّ، ولم يثِر المدخل المتطرِّف لأتباع مذهب الشك في درء الآلام والأحزان اهتمامه بقدر كبير، لكن ما جعله يهتمّ بهم رغبتهم في أخذ كلّ شيء بشكل مؤقتٍ وبشكٍّ (ولهذا، فضّل مونتاني الرواقيين والإبيقوريين، الذين بدوا أكثر انسجامًا مع الحياة الواقعية). كان هذا بالضبط ما حاول مونتاني أن يفعله هو نفسه دائمًا. أن يجعل هذا الهدف في مقدِّمة عقله، كانت لديه سلسلة من الميداليات التي صُكَّت في العام 1576، تصوِّر الكلمة السحرية لسيكستوس Epokhe (تظهر هنا في شكل

Epekho)، مع أسلحته ورمز الميزان. الميزان رمز بيرووي آخر، صّممه ليذكِّر نفسه بالحفاظ على الاتزان وبوزن الأشياء لا مجرد قبولها.

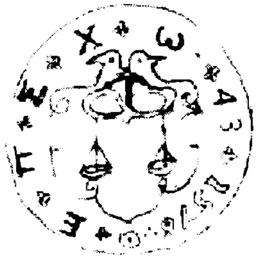

ميدالية مونتاني أو عملته الرمزية. النسخة الوحيدة منها في مجموعة خاصة.
رسم سارة بيكويل اعتمادًا على صورة فوتوغرافية في م. ل. ديمونيت متعة
(أورليانز: إيديشانز بارادايم، 2002).

كان الخيال الذي استخدمه مونتاني غير معتاد، لكنَّ فكرة نقش عبارات شخصية على الميداليات أو **العملات الرمزية** كانت معتادة: كانت موضة العصر وتعمل بمثابة **مذكِّرة** ورمز للانتماء أو الهوية. ولو كان مونتاني شابًّا في بدايات القرن الحادي والعشرين لا القرن السادس عشر، فمن المرجّح أن يطلب صنعها في صورة وشم.

لو كانت الميدالية قد صُمِّمت حقًّا لتذكّره بمبادئه، فقد نجحت؛ إذ قاد الشكّ خطواته في العمل، وفي حياته المنزلية، وفي كتاباته. كتاب المقالات مليء به؛ فقد ملأ صفحاته بكلمات مثل «ربما»، «إلى حدٍّ ما»، «أعتقد»، «يبدو لي»، وهكذا دواليك؛ كلمات - كما قال مونتاني نفسه - «تلطِّف رعونة عباراتنا وتجعلها معتدلة»، وتجسِّد ما سمَّى به الناقد هوجو فريدريك فلسفته، ألا وهو فلسفة «التواضع»، إنها ليست تهاويل أكثر من اللازم؛ بل هي فكر مونتاني في أنقى صوره. لم يتعب مونتاني أبدًا من هذا التفكير أو من تحيُّر عقله من تأمّله لملايين الحيوات التي عيشت عبر التاريخ واستحالة معرفة الحقيقة عنها. «حتى لو كان لا بد أن يكون جميع ما وصلنا عن طريق التقارير عن الماضي صحيحًا ومعروفًا لشخص ما، فسيكون أقلّ من لا شيء مقارنة بغير المعروف». وأنعم الفكر في مدى ضآلة ما يعرفه حتى أكثر الأشخاص فضولًا، وفي كم أن العالم مدهش مقارنة بمعارفه. ولنقتبس من هوجو فريدريك مرة أخرى، كانت لدى مونتاني «حاجة عميقة ليندهش بما هو فريد، وما لا يمكن تصنيفه في فئة، والغامض».

ومن بين جميع الأشياء الغامضة، لم يدهشه شيء أكثر من نفسه؛ الظاهرة الأكثر غموضًا من بين جميع الظواهر. لاحظ نفسه مرّات لا تُعد ولا تُحصى وهو يغيِّر رأيه من نقيضٍ إلى نقيضٍ، أو يتحوّل من انفعالٍ إلى انفعالٍ في بحر ثوانٍ.

خطواتي غير ثابتة وغير مستقرة. أجدها متذبذبة جدا وسهلة التعثّر، وبصري لا يُعتمد عليه، حتى إني أكون رجلًا مختلفًا عندما تكون معدتي خاوية عني عندما تكون ممتلئة، ولو ابتسمت لي صحتي، في بهاء يوم جميل، أكون رفيقًا حسنًا؛ أما لو كان لديَّ مسمار قدم يضايق إصبع قدمي، أكون بالتأكيد شخصًا بغيضًا، يستحيل الاقتراب منه.

حتى أبسط تصوّراته لا يمكن الاعتماد عليها. لو أصيب بالحمى أو تعاطى دواء سيختلف مذاقُ كل شيء أو يبدو ذا لونٍ مختلفٍ. نزلة البرد البسيطة تربك العقل؛ أما الخرف فسيسقطه بالضربة القاضية. سقراط نفسه يمكن أن تحوِّله جلطة أو تلف في المخ إلى أبله فارغ العقل، ولو عضّه كلب مسعور، فسينطق بالترّهات، لعاب الكلب يمكنه أن يجعل «كل الفلسفة، لو كانت متجسِّدة، تهذي كمجنون.» هذه هي الفكرة؛ فبالنسبة لمونتاني، الفلسفة متجسِّدة. وهي تعيش في أفراد البشر غير المعصومين من الخطأ؛ فالحيرة تحوِّلها إلى أمرٍ مشكوكٍ فيه. «يبدو لي أن الفلاسفة يكادون يكونون لم يمسّوا هذا الوتر».

وماذا عن تصوّرات الأنواع الأخرى من المخلوقات؟ يخمِّن مونتاني تخمينًا صحيحًا (كما فعل سيكستوس من قبله) أن الحيوانات الأخرى ترى الألوان بشكل مختلفٍ عما يراها به الآدميون. ربما كنا نحن لا هم الذين نراها «بشكلٍ خاطئٍ». لا سبيل لدينا لنعرف ما هي الألوان حقًا. الحيوانات لديها خصائص تنقصنا، أو لدينا منها بقدر ضعيف، وربما كان بعضها ضروريًا لنفهم العالم فهمًا تامًا. «لقد شكَّلنا حقيقة باستشارة حواسِّنا الخمس وبالاتفاق معها؛ لكن ربما نكون بحاجة لاتِّفاق وإسهام ثمان أو تسع حواس، لندرك الحقيقة بالتأكيد وفي جوهرها».

هذا التعليق الذي يبدو عرَضيًا يطرح فكرةً صادمةً؛ ألا وهي أن طبيعتنا نفسها يمكن أن تفصلنا عن رؤية الأشياء كما هي. قد لا يكون منظور الإنسان مجرّد عرضة للخطأ العارض، لكنّه محدود بحكم تعريفه، بالضبط بالطريقة نفسها التي نزعم بها بشكل طبيعي (وبغطرسة) ما يكون عليه ذكاء الكلب. الشخصُ ذو القدرة الاستثنائية على الهرب من وجهة نظره المباشرة هو القادر فقط على تقبّل مثل هذه الفكرة، وكانت هذه هي موهبة مونتاني: قدرته على أن يتسلّل من وراء عينيه لينظر إلى الخلف محدِّقًا في نفسه مع تعليق الحكم بحسب الشك البيرووي. حتى الشكّاكون الأصليون لم يذهبوا إلى هذا المدى البعيد. كانوا يشكُّون في كل ما يحيط بهم، لكنهم عادة لم يضعوا في الاعتبار أن أرواحهم الداخلية تقع ضمن الشكِّ العام. اما مونتاني فكان يفعل ذلك طوال الوقت.

نحن وأحكامنا، وجميع الأشياء الفانية، نظل نتدفّق ونتقلّب في حالةٍ من الشكّ. وهكذا، لا يمكن إثبات أيِّ شيء يقيني عن شيء بواسطة شيء آخر، فالحاكم والمحكوم عليه في حالتي تغيّر وحركة مستمرَّين.

قد يبدو هذا طريقًا مسدودًا، يغلق جميع إمكانات معرفة أي شيء؛ حيث يستحيل مقارنة أي شيء بأي شيء آخر، لكنه يمكن أن يفتح أيضًا طريقًا جديدًا لعيش الحياة. إنه يجعل كل شيء أكثر تعقيدًا وأكثر إثارة للاهتمام؛ فيصير العالم مشهدًا شاسعًا متعدد الأبعاد كل وجهة نظر فيه لا بد من أن تؤخذ في الاعتبار. كل ما نحتاجه أن نتذكّر هذا، حتى «نصير حكماء على حساب أنفسنا» بعبارة مونتاني.

تطلَّب ضبط الانتباه جهدًا دائمًا، حتى بالنسبة لمونتاني: «يجب أن نجهد روحنا حقًّا لنعي أننا غير معصومين من الخطأ». وساعده كتاب **المقالات**. بكتابته للمقالات هيَّأ نفسه ليكون مثل فأر تجارب؛ لقد وقف يراقب نفسه وفي يده كرّاسة. كل غرابة لاحظها جعلته يبتهج. بل استمتع بكبوات ذاكرته، لأنها ذكَّرته بفشله وأنقذته من خطأ الإصرار على أنه دائمًا على حقٍّ. كان يوجد استثناء وحيد لقاعدة «شكُّه في كلِّ شيء»؛ إذ كان حريصًا على أن يقرِّر أنه يعتبر إيمانه الديني متجاوزًا للشك. التزم بالعقيدة التي تلقّاها من الكنيسة الكاثوليكية، وقضي الأمر.

قد تكون هذه مفاجأة للقرّاء الحديثين. عادة ما يُعتقد اليوم بأن الشك والتديّن يحتلّان طرفَي نقيض من شطرين، حيث تمثِّل الأخيرة الإيمان والسلطة بينما يتحالف الأول مع العلم والعقل. رُسمت الخطوط بينهما بطريقة مختلفة في أيام مونتاني. لم يكن العلم بمعناه الحديث قد وُجد بعد، وكان من النادر اعتبار العقل البشري شيئًا يمكنه أن يصمد وحده، من دون أن يسانده الإله. فكرة أن العقل البشري يمكنه أن يدرك أشياء لنفسه كانت الشيء نفسه الذي يمكن أن يكون الشكّاكون أكثر شكًا بصدده. والكنيسة حاليًّا تحابي الإيمان على حساب «اللاهوت العقلاني»، فكان من الطبيعي أن تعتبر البيرووية حليفًا لها. وكان الشكّ البيرووي بمهاجمته للغطرسة الإنسانية كما فعل مفيدًا بشكلٍ خاصٍّ ضد «بدعة» البروتستانتية، التي أعطت الأولوية للتفكير العقلي الخاصّ والضمير على العقيدة.

وهكذا ولعدّة عقود، احتضنت الكاثوليكية البيرووية، ودعمت كتبًا مثل ترجمة هنري إيستيين لسيكستوس وكتاب **المقالات** لمونتاني باعتبارها ترياقًا قيِّما مضادًا للهرطقة. ساعدهم مونتاني بهجومه على العجرفة العقلانية، علاوة على الكثير من تصريحاته الخفية المتناثرة في عمله عن مبدأ اللجوء للإيمان بدلًا من العقل. كتب أن

الدين يجب أن يأتينا من الإله عن طريق «منقوع استثنائي»، وليس بجهودنا الخاصّة. الأله يقدّم كيس الشاي، ونحن نقدّم الماء والفنجان. ولو لم نتلقَ المنقوع مباشرة، يكفي أن نثق في الكنيسة، التي هي نوع من السماورالشرعي الضخم، مليء بالإيمان الذي سبق نقعه. وضَّح مونتاني أنه أدرك حقَّ الكنيسة في أن تحكمه في المسائل الدينية، حتى إلى درجة مراقبة أفكاره. كتب أنه في وقت كان فيه الناس يندفعون نحو البدع المستحدثة، أنقذه مبدأ عدم التشكُّك في الطاعة عدّة مرّات:

> **وإلا ما كنت أقدر على الحفاظ على نفسي من التقلّب باستمرار. وهكذا، حافظت بنعمة الإله على نفسي سليمًا من دون ارتباك أو اضطراب ضمير فيما يخص المعتقدات القديمة لديننا، في وسط الكثير من الطوائف والانقسامات التي أنتجها قرننا.**

يصعب أن نعرف إذا كان اضطرابه العقلي اضطرابًا روحيًا، أو إذا كان يفكِّر أكثر في الصعوبة التي يواجهها من يسمّى مهرطقًا وتُحرق كتبه. قد يكون الاعتماد على العقائدية لا على العقل ذريعة جاهزة للملحدين سرًّا. وحين يدفع الإنسان للإله ما يستحقه ويحصِّن نفسه ضد الاتهام باللاتديّن، يمكنه أن يمضي نظريًّا ليكون علمانيًّا بقدر ما يحب. ما الاتهام الممكن أن يوجَّه ضد شخص يدافع عن الخضوع للإله ولعقيدة الكنيسة في جميع التفاصيل؟ حقًّا، لقد لاحظت الكنيسة هذا الخطر في نهاية المطاف، وبحلول القرن التالي رُمي بالعار الاعتماد على الدين لا على العقل. لكن في هذه اللحظة، أيًا كان من يريد السير في هذا الطريق يمكنه فعل ذلك وله الحصانة. هل وقع مونتاني في هذه الفئة؟

لقد أظهر حقًّا علامة صغيرة على الاهتمام الحقيقي بالدين. لا يوجد في كتاب **المقالات** أي شيء عن معظم الأفكار المسيحية؛ ويبدو أن موضوعات التضحية، أو التوبة، أو الخلاص لم تحرِّك مشاعر مونتاني، ولم يظهر في كتاباته الخوف من الجحيم ولا الرغبة في الجنة. تُعامل فكرة نشاط الساحرات والشياطين في العالم بأسوأ ما تُعامل فكرة أن القطط تنوِّم الطيور مغناطيسيًّا لتسقط من على الأشجار. وحين يفكِّر مونتاني تفكيرًا شديدًا في الموت يبدو أنه نسي أن من المفترض أن يؤمن بالحياة الأخرى. يقول مونتاني أشياء مثل: «أنا أغطس بغباوة في الموت ورأسي إلى أسفل... كالسقوط في هوة ساكنة ومعتمة تبلعني في قفزة واحدة وتغمرني في لحظة في نوم عميقٍ خالٍ من الإحساس والألم». شعر رجال اللاهوت في القرن التالي بالرعب من هذا الوصف

الملحد. من الموضوعات الأخرى التي لم يهتم بها مونتاني يسوع المسيح. فهو يكتب عن الميتات النبيلة لسقراط وكاتو، لكنه لا يفكِّر في ذكر الصلب ضمن هذه الميتات. الغموض المقدّس للفداء يجعله باردًا. يهتم مونتاني أكثر بكثير بالأخلاقيات العلمانية؛ بمسائل الرحمة والقسوة. وقد لخّص الناقد الحديث ديفيد كوينت الموضوع في أن من المرجّح أن يفسر مونتاني الرسالة التي يحملها صَلب المسيح للإنسانية في أنها «لا تصلبوا الناس».

من جهة أخرى، يرجَّح أن مونتاني لم يكن ملحدًا إلحادًا تامًّا؛ ولم يكن أحد تقريبًا ملحدًا إلحادًا تامًّا في القرن السادس عشر. وسيكون أمرًا مدهشًا أن نراه وقد جذبه مذهب العقائدية حقًّا. لقد انسجم هذا المذهب جيِّدًا مع كل من فلسفة الشك التي يعتنقها ومع مزاجه الشخصي؛ لأنه رغم حبِّه للاستقلال كثيرًا ما كان يفضِّل التخلِّي عن التحكّم، خاصة التحكّم بأشياء لا يهتم بها كثيرًا. وعلاوة على ذلك، فمهما كانت أفكاره حقًّا عن إله السماوات العُلىَ العقائدية، فإن ما يظلّ تحت هنا جذبه على نحو أشدّ.

كانت النتيجة على أي حال أنه عاش حياته من دون أن يقابل أبدًا مشكلات خطيرة مع الكنيسة، وهو إنجاز لا بأس به لرجل كان يكتب بمثل هذه الحرّية، وعاش على الحدود بين الأراضي الكاثوليكية والبروتستانتية، وشغل وظيفة عامّة في زمن حرب دينية. حين كان مونتاني مسافرًا إلى إيطاليا في ثمانينات القرن السادس عشر، فحص موظفو محكمة التفتيش كتاب **المقالات** وكتبوا قائمة باعتراضات بسيطة. منها أنه استخدم كلمة «حظ» بدلًا من كلمة «العناية الإلهية» التي أقرّتها محاكم التفتيش. («العناية الإلهية» تأتي من الإله وتتيح مساحة للإرادة الحرّة؛ أما الحظ فهو مجرّد الطريقة التي تجري بها الأمور). من الاعتراضات الأخرى أنه استشهد بشعراء هراطقة، وأنه التمس الأعذار للإمبراطور الكافر جوليان، وأنه اعتقد بأن أي شيء يتجاوز الإعدام بطريقة بسيطة قسوة، وأنه أوصى بتنشئة الأطفال بطريقة طبيعية وحرّة. لكن محكمة التفتيش لم تهتم بآرائه عن الموت، وتحفّظاته على محاكمة الساحرات، ولا حتى بمذهب الشكّ الذي يعتنقه.

في الحقيقة أن الشكَّ الذي في كتاب **المقالات**، مع ما فيه من رواقية وإبيقورية هو الذي جعله كتابًا ناجحًا في طبعته الأولى. وقد راق للقراء المفكِّرين ذوي العقول المستقلة، لكنّه راق أيضًا لمعظم رجال الكنيسة المتمسِّكين بالدين القويم. أعجب الكتابَ أناسٌ مثل فلوريموند دي ريموند زميل مونتاني في بوردو، وهو كاثوليكي متعصِّب، موضوعه المفضّل في كتاباته اقتراب ظهور المسيح الدجّال ونهاية العالم الوشيكة. نصح ريموند الناس بقراءة مونتاني لتقوية أنفسهم ضد الهرطقة، ومدح على

وجه الخصوص «الاعتذار الجميل» لكثافة ما فيه من قصص توضح مدى ضآلة ما نعرفه عن العالم. واستعار عددًا من هذه القصص لفصل بقلمه بعنوان المسيح الدجّال، في كتاب يسمّى «أشياء غريبة لا نعرف لها سببًا». سأل: لماذا يهدأ فيل غاضب عندما يرى خروفًا؟ لماذا يصير الثور البرّي وديعًا إذا رُبط إلى شجرة تين؟ وكيف تغرس سمكة اللشكية[1] خطاطيفها الصغيرة بالضبط في هيكل السفينة لكي توقفها في البحر؟ يبدو ريموند لطيفًا جدًّا ويبدي اندهاشًا ذكيًّا من عجائب الطبيعة التي تضطرّ المرء لقرص نفسه ليتذكّر أنه يعتقد بأن نهاية العالم صارت قريبة. أنتج مذهب العقائدية رفاقًا يتميَّزون بالغرابة؛ فقد تجمّع المتطرفون والعلمانيون الوسطيون معًا بفضل رغبتهم المشتركة في الإعجاب بجهلهم.

وهكذا احتضن أتباع الدين القويم مونتاني الشابّ باعتباره من أتباع مذهب الشك الأتقياء الحصفاء، بيرو جديد وسينيكا جديد أيضًا؛ مؤلِّف كتاب يمنح الإنسان السلوى وفي الوقت نفسه يحسِّنه أخلاقيًّا. من ثم، من المفاجآت أن يُكتشَف أنّ الناس تجنّبوه بنهاية القرن التالي بفعل الرعب، وأن عنوان كتاب **المقالات** ورد في قائمة الكتب المحظورة، فلنقل لحوالى مئة وثمانين عامًا.

بدأت المشكلة بمناقشة موضوع قد يعتقد المرء أن أهمّيته قليلة؛ ألا وهو موضوع الحيوانات.

الحيوانات والشياطين:

كانت حيلة مونتاني المفضَّلة لتقويض تكبُّر الإنسان هي حكي قصص الحيوانات، مثل التي فتنت فلوريموند دي ريموند جدًّا، والكثير منها مأخوذ من بلوتارخ. أحبَّ فلوريموند دي ريموند هذه القصص لأنها كانت مسلية، لكنَّ لها هدفًا جادًّا. أظهرت حكايات عن مهارة الحيوانات وحساسيتها أن القدرات البشرية كانت أبعد ما تكون عن الروعة، وأن الحيوانات تفعل حقًّا الكثير من الأشياء بطريقة أفضل من التي نفعلها بها. يمكن أن تجيد الحيوانات العمل التعاوني مثلًا. تتجمّع الثيران، والخنازير البرّيّة ومخلوقات أخرى في جماعات للدفاع عن النفس. وإذا علِقت سمكة الببغاء[2] في

(1) اللشكية أو الراموراً: سمكة بحرية تنتشر في المياه البحرية المدارية والبحر الأسود. تتحوّل زعنفتها الظهرية الأولى التي تقع في مقدّمة الرأس إلى ممصّات تساعد على التصاق السمكة بأي جسم يصادفها (المترجمة).

(2) تعيش سمكة الببغاء حول الشعَب المرجانية في البحار الحارة وشبه الحارة، واتخذت اسمها من أسنانها الأمامية التي تشبه منقار الببغاء (المترجمة).

شص الصياد، يندفع رفاقها من أسماك الببغاء لمضغ حبل الشص وتحريرها. أو لو وقعت إحداها في شباك الصيد، يدفع الآخرون بذيولهم من خلال عيون الشبكة فيمكن للسمكة الأسيرة أن تمسك بذيل أحدها ويجذبها زميلها خارج الشبكة. حتى مختلف الأنواع يمكن أن تعمل معًا بهذه الطريقة، مثل سمكة الزامور[1] التي توجه الحوت، أو الطائر الذي ينظِّف أسنان التمساح.

وتُظهر سمكة التونة فهمًا محنكًا للفلك؛ فحين يصل الانقلاب الشمسي الشتائي، يتوقّف السرب تمامًا حيثما يكون في الماء، ويظلّ هناك حتى الاعتدال الربيعي التالي. إنهم يعرفون الهندسة والحساب أيضًا، إذ لوحظ أنهم يشكِّلون أنفسهم في هيئة مكعَّب مضبوط الشكل تتساوى جوانبه الستة.

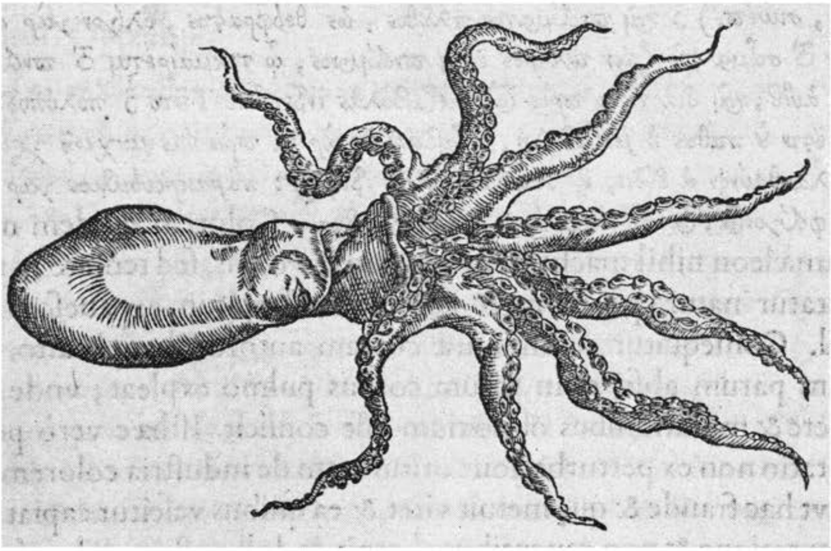

أخطبوط. من

G. Rondelet, Libri de piscibus marinis (Leyden, Bonhomme , 1555).

WellcomeLibrary , London.

وقد أثبتت الحيوانات أنها تضاهي على الأقل نبل الإنسان على المستوى الأخلاقي. فمن يتغلّب على الفيل في الندم، وهو الذي صعقه الحزن لأنه قتل حارسه في نوبة من نوبات الهياج، إلى حد أنه أضرب عن الطعام قصدًا حتى الموت؟ وماذا عن أُنثى

(1) أسماك بحرية من فصيلة شائكات الزعانف، منتشرة في جميع بحار البلاد الحارة والمعتدلة (المترجمة).

القاوند الأزرق[1] أو القرلي[2]، التي تحمل زميلًا جريحًا بولاء على أكتافها وتتجوّل به طوال بقية حياتها لو لزم الأمر؟ طيور القرلي المحبّة هذه تظهر ميلًا للتكنولوجيا؛ فهي تستخدم عظام الأسماك لبناء هيكل يعمل بمثابة عشٍّ وقارب في الوقت نفسه، وتختبره بمهارة لاكتشاف مواضع تسرّب الماء إليه، وتفعل ذلك بالقرب من الشاطئ أولًا قبل إنزاله إلى البحر المفتوح.

تتفوّق الحيوانات علينا في القدرات المختلفة بجميع أنواعها. يتغيّر لون البشر، لكن بطريقة لا يستطيعون التحكم فيها، فوجوهنا تحمرّ حين نُحرَج، وتشحب حين نخاف. هذا يضعنا في مصاف الحرباوات، اللاتي تغيِّر لونها أيضًا وفق الظروف، لكنّها أدنى من الأخطبوط بمراحل، فالأخطبوط يمكنه مزج ألوانه كيفما وأينما أراد. نحن والحرباوات لا نملك إلا أن نحدِّق بإعجاب في الأخطبوط الجبّار، وهذه صدمة لغرور البشر.

لكننا نحن البشر ما زلنا نصرُّ على التفكير في أنفسنا كأننا منفصلون عن جميع المخلوقات الأخرى، وأننا أقرب للآلهة لا للحرباوات أو أسماك الببغاء. لا يطرأ على ذهننا أبدًا أن نضع أنفسنا في مصاف الحيوانات، أو أن نضع عقلنا مكان عقولهم. نحن لا نكاد نتوقّف لنسأل إذا ما كان لديهم عقول أصلًا. لكن مونتاني كان يكفيه مراقبة كلب يحلم ليعرف أنه لا بد من أنَّ لديه عالمًا داخليًّا مثلنا. الشخص الذي يحلم بروما أو باريس يرسم في ذهنه صورة متخيّلة باهتة لروما أو باريس؛ وبالمثل، الكلب الذي يحلم بأرنب برّي يرى بالتأكيد أرنبًا بريًّا غير مجسّدٍ يجري في حلمه. نحسّ هذا من اختلاجات مخالبه الأمامية وهو يجري خلف الأرنب البري؛ يوجد أرنب في انتظاره في مكان ما، حتى ولو كان «أرنبًا برّيًّا من دون فراء أو عظام». الحيوانات تملأ عالمها الداخلي بأشباح من اختراعها، كما نفعل نحن بالضبط.

بدت قصص الحيوان التي كتبها مونتاني مبهجة وغير ضارة في عين قرّائه الأوائل. ولو كان لها أي فائدة، فهي فائدتها الأخلاقية، إذ توضح أن البشر كائنات متواضعة لا يمكن أن يتوقَّع منهم أحد الكثير من الإتقان أو الفهم على أرض الإله. لكن مع انسحاب القرن السادس عشر إلى ماضي التاريخ وظهور بشائر القرن السابع عشر ازداد اضطراب الناس بسبب هذه الصورة عن أنفسهم، التي تصوِّرهم أقلّ تقدمًا أو قدرة من الأخطبوط.

---

(1) قاوند أزرق او هالكيون، هو جنس من الطيور، من رتبة الشقراقيات ينتمي إلى رفراف الشجر (المترجمة).

(2) الرفراف أو القاوند أو القرلي أو صائد السمك: هو طائر متوسِّط الحجم من رتبة الزُرْزُوريات (المترجمة).

بدا ذلك مخزيًا لا مجرد دالٍّ على التواضع. وبدخول ستينيات القرن السابع عشر، لم يعد مقال «الاعتذار» الذي ظهرت فيه معظم قصص الحيوانات يبدو مثل صندوق كنز من الحكمة الدافعة للنهضة. لقد بدا مثل دراسة حالة لجميع ما جانبه الصواب بالنسبة للأخلاقيات في القرن السابق. قبول مونتاني السهل لقابلية البشر للخطأ وللجانب الحيواني فينا كان الآن شيئًا ينبغي محاربته - حيلة من الشيطان نفسه تقريبًا.

كان الموقف النموذجي للاتجاه الجديد الاستنكار الذي أعلنه القس جاك - بينين روسيه Jacques - Bénigne Bossuet من على منبر الوعظ في العام 1668، إذ قال إن مونتاني:

> **يفضِّل الحيوانات على البشر، ويفضِّل غريزتها على عقلنا، وطبيعتها البسيطة والبريئة والصافية... على ما فينا من دقّة في التّفكير ومن خبث. لكنْ قلْ لي، يا أيها الفيلسوف البارع، يا مَن يضحك بدهاء شديد على إنسان لأنه يتخيَّل نفسه شيئًا [أفضل من الحيوان]، هل تعتبر أن معرفة الإنسان بالإله لا تساوي شيئا؟**

كانت نغمة التحدّي جديدة، وكذلك الإحساس بأن الكرامة الإنسانية تحتاج إلى من يدافع عنها تجاه عدو «غامض». سيتوقَّف القرن السابع عشر عن اعتبار مونتاني حكيمًا وقبوله على هذا الأساس؛ بل سيبدأ في اعتباره مخادعًا وهدّامًا. سيثبت لاثنين على الأقل من أعظم كتاب العهد الجديد أن قصص الحيوانات التي كتبها مونتاني، وفضحه لادعاءات البشر ضارّ بشكلٍ خاصٍّ. هذان الكاتبان هما رينيه ديكارت وبليز باسكال؛ اللذان لم يكونا متعاطفين مع بعضهما البعض؛ مما جعل اجتماعهما على استنكار مونتاني جديرًا بالملاحظة.

كان رينيه ديكارت، أعظم فلاسفة بدايات العصر الحديث، مهتمًّا بالحيوانات أساسًا بصفتها على عكس البشر. للبشر عقل واعٍ غير ماديّ؛ إذ يمكنهم التفكير العميق في تجربتهم، ويقولون «أعتقد». الحيوانات لا يمكنها هذا. يعتبر ديكارت أن الحيوانات ليست أكثر من آلات، من ثم تنقصها الأرواح. فهم مبرمجون ليمشوا، ويجروا، ويناموا، ويتثاءبوا، ويعطسوا، ويصطادوا، ويزمجروا، ويهرشوا أجسادهم، ويبنوا أعشاشًا، ويربوا الصغار، ويأكلوا، ويتبرَّزوا، لكنّهم يفعلون ذلك مثلما تطنُّ تروس ماكينة آلية ذاتية التسيير وتجري على عجلاتها على الأرض. فالكلب في نظر ديكارت لا يملك وجهة نظر، ولا أي خبرة حقيقية. إنه لا يخلق أرنبًا بريًّا في عالمه الداخلي ويطارده عبر الحقول. يمكنه أن يشمشم وتختلج مخالبه كما يحلو له؛ لكن ديكارت لن يرى شيئًا إلا عضلات تتقلّص وأعصابًا ملتهبة تفجِّرها عمليات آلية تجري في المخ بالمثل.

حقًّا، إن ديكارت لا يمكنه تبادل نظرة مع حيوان. لكن مونتاني يمكنه ذلك، وقد فعل. وقد فكّر في نصٍّ شهيرٍ: «حين ألعب مع قطتي، من يعرف ما إذا كنت أداة تزجية وقت بالنسبة لها أكثر مما هي بالنسبة لي؟». وأضاف في قسم آخر من النصِّ: «نحن نسلّي بعضنا البعض بخدعٍ متبادلة مثل خدع القرود. فإذا كان لديَّ دَوْري لأبدأ أو أرفض، فهي أيضًا لديها دَورُها». إنه يستعير وجهة نظر قطّته في علاقتها به بالضبط كما يستخدم وجهة نظره في علاقته بها عن طيب خاطر.

أ. ديتشفيلد، مونتاني والقطة.

حفر مائي. حوالي 1867 Bibliothèque nationale de France.

إن التفاعل المتبادل الوجيز بين مونتاني وقطّته من أجمل اللحظات في كتاب **المقالات**، وهو موضوعٌ مهمٌ أيضًا. فهو يصف اعتقاده بأن جميع المخلوقات تتقاسم عالمًا مشتركًا، لكن لكلِّ مخلوقٍ طريقته في إدراك هذا العالم. علّق أحد النقاد بأن

«مونتاني بأكمله يوجد في هذه الجملة العرَضية». احتفى الناس بقطّة مونتاني إلى حد أنها ألهمت فيليب ديسان بكتابة مقال بحثي كامل عنها، ومدخل إليها في كتابه **معجم مونتاني**.

تحتلّ جميع مهارات مونتاني في التقافز بين وجهات النظر موقع المقدّمة حين يكتب عن الحيوانات. يقول إننا نجد صعوبة في فهم الحيوانات، لكن لا بد أنهم يجدون صعوبة مماثلة في فهمنا. «هذه النقيصة التي تعرقل التواصل بينهم وبيننا، لماذا لا تخصُّنا بقدر ما تخصهم؟».

> **لدينا فهم متوسِّط القيمة للمعاني التي يريدون إيصالها؛ وهم أيضًا كذلك في ما يخصنا، بالدرجة نفسها تقريبًا. إنهم يتملّقوننا، ويهدِّدوننا، ويستعطفوننا، ونحن نفعل ذلك معهم.**

لا يستطيع مونتاني النظر إلى قطَّته من دون أن يراها تبادله النظر، ويتخيّل نفسه وهو ينظر إليها. هذا هو نوع التفاعل المتبادل بين أفراد ناقصين من نوعين مختلفين، يتبادلون الوعي ببعضهم البعض، وهو الأمر الذي لا يمكن حدوثه لديكارت الذي كان مثل هذا التفاعل يثير اضطرابه، مثله مثل غيره في القرن الذي عاش فيه.

في حالة ديكارت، المشكلة أن هيكله الفلسفي بأكمله كان يتطلب وجهة نظر تتمتّع باليقين المطلق، ووجدها في فكرة الوعي الواضح المركَّز. لا مكان في هذه الفكرة لمواضع الغموض لدى مونتاني التي تشوِّش الحدود بين الأشياء؛ مثل تفكيره في سقراط مخبولًا أو مسعورًا، أو في الحواس الرفيعة للكلب. التعقيدات التي جلبت السرور لمونتاني أفزعت ديكارت. لكن من المفارقات أن رغبة ديكارت في وجهة النظر هذه المتمتِّعة بيقينٍ خالصٍ قد نشأت بشكل كبير استجابة لفهمه للشكِّ البيرووي، كما نقله مونتاني أساسًا، الذي كان أشهر البيروويين في العالم الحديث.

وجد ديكارت الحلَّ وهو ينتقل من خطوة إلى أخرى، فبعد فترة من الترحال وملاحظة اختلاف عادات البشر، أغلق على نفسه غرفة في ألمانيا يدفئها موقد يعمل بالحطب، وكرَّس يومًا كاملًا لا يقاطعه فيه شيء للتفكير. بدأ بادعاء مذهب الشك بأن لا شيء حقيقيًّا، وأن جميع معتقداته السابقة كانت خاطئة. ثم تقدّم ببطء، بخطوات حذرة، «كرجل يسير قدمًا وحده، وفي الظلام»، مستبدلًا بهذه المعتقدات الخاطئة معتقدات أخرى مبرَّرة منطقيًّا. كان هذا تقدُّمًا ذهنيًّا خالصًا. وبينما كان ينتقل من خطوة إلى أخرى، ظلَّ جسده بجوار المدفأة، حيث يتخيّله المرء وهو يحدِّق في الجمر

لساعات. إن صورة ديكارت أمام موقده، ربما مقوّسًا ظهره مثل «مفكر» رودان[1]، يعطي نقيضًا خالصًا لصورة مونتاني وهو يسير صعودًا وهبوطًا، يجذب كتبًا من على الرفوف، ويتشتّت انتباهه، ويذكر لخدمه أفكارًا غريبة ليساعدوه على تذكرها، ويتوصَّل لأفضل أفكاره في خضم نقاشات حارّة مع الجيران في مأدبة غداء، أو بينما يركب الخيل في الغابات. حتى في «التقاعد»، كان مونتاني يمارس التفكير في جو مليء بالأشياء، والكتب، والحيوانات، والناس. أما ديكارت فكان يحتاج إلى الانسحاب إلى حيث لا يتحرك شيء.

انتهى ديكارت تدريجيًّا من سلسلة من الاستدلالات العقلية وهو جالس بجوار موقده، كل وصلة من وصلات الاستدلال مركّبة بإحكام متين في الوصلة السابقة لها. كان أول اكتشافاته أنه هو نفسه موجود:

أنا أفكِّر، إذًا أنا موجود.

وتقدّم من هذه الفكرة الآمنة للبرهنة على أن الإله لا بد من أنه موجود، من دون استخدام أي أدوات إلا الاستنباط، وأن فكرته «الواضحة والمحدَّدة» عن وجود الإله لا بد أنها أتت من الإله نفسه، وهكذا، أي شيء آخر تكوَّن لديه عنه فكرة واضحة ومحدّدة لا بد أن يكون صحيحًا أيضًا. وقد وضع هذه الفكرة الأخيرة حتى بمزيد من الجرأة في عمل عنوانه **التأمّلات**[2]، كتب فيه: «كل ما أدركه حسّيًّا بوضوح وبشكل محدَّد لا يمكن إلا أن يكون صحيحًا»؛ وهذا بالتأكيد من أكثر التصريحات إثارة للدهشة في الفلسفة بأكملها، وهو أبعد عن طريقة مونتاني في فعل الأشياء بقدر ما يمكن أن يتصوَّر المرء. لكن كل هذا خرج من نوع الشكِّ المفضَّل لدى مونتاني؛ النوع الذي ألقى بكل شيء في الشك، حتى الشك نفسه، وبذا طرح علامة استفهام ضخمة في قلب الفلسفة الأوروبية.

يمكن أن تبدو سلسلة الأفكار المعصومة من الخطأ المفترضة لديكارت عبثية، لكنها تكون معقولة أكثر في سياق أفكار القرن السابق؛ أفكار أراد ديكارت الهروب منها. كان هذان - قبل أي شيء - التقليدين العظيمين اللذين نقلهما مونتاني لجيله:

---

(1) تمثال «المفكر» منحوتة من الرخام والبرونز للنحات الفرنسي رودان، أتمه في 1904. يصوِّر التمثال رجلًا متأمّلًا يتصارع في دخيلة نفسه مع أفكار عميقة. غالباً ما يمثِّل التمثال الفلسفة (المترجمة).

(2) هو كتاب تأملات في الفلسفة الأولى *Meditationes de Prima Philosophia* لرينيه ديكات René-Descartes، نُشر لأول مرة باللغة اللاتينية في العالم 1641.

مذهب الشكِّ، الذي مزَّق كلَّ شيء إربًا، ومذهب العقائدية الذي جمع شتات الأشياء مرة أخرى على أساس العقيدة الدينية. لم يرد ديكارت أن ينتهي عند هذه النقطة. كان أبعد ما يكون عن مذهب العقائدية. لكن هذا ما حدث بطريقة ما؛ كان تقليدًا يصعب الهروب منه.

كان التجديد الحقيقي لديكارت قوة رغبته في اليقين. وكان من الجديد الذي قدّمه أيضًا روح التطرّف العامّة لديه. ففي محاولته للهروب من مذهب الشك، مطَّه إلى طول يفوق أي خيال سبقه، كما قد يَمُطُّ شخصًا شريطًا من العلكة ملتصقًا بحذائه. قد لا توجد مسألة الطفو على وجه الشكِّ لأجلٍ غير مسمى، كما في «بحر من التأمّل». لم يكن عدم اليقين طريقة من طرق عيش الحياة، كما كان بالنسبة لمونتاني والبيروويين الأصليين. أما بالنسبة لديكارت، فكان مرحلة أزمة. يمكن أن يحسّ المرء بما كان فيه ديكارت من فقدان للاتجاه وهو يكتب كتاب **التأمّلات**.

> **ملأ تأمّل الأمس عقلي بشكوك كثيرة جدًّا حتى لم يعد في طاقتي أن أنساها...**
> **لا أستطيع وضع قدميَّ بثبات على القاع ولا العوم لأبقي نفسي على السطح.**

كان هذا حيث فَصَل القرن السابع عشر نفسه حقًّا عن عالم مونتاني، في اكتشافه للجانب الكابوسي لمذهب الشكِّ. كان ديكارت بارعًا دائمًا في استخدام الاستعارات الحيّة لإثبات فكرته، بل إنه في»**تأمّل الأمس**« أضفى صبغة شخصية على عدم يقينه في صورة رعب حقيقي:

> **من ثم، سأفترض أنه لا يوجد إله حقيقي، هو المصدر السيادي للحقيقة، بل الموجود شيطان شرير، لا يقلّ مكره وخداعه عن قوته، وقد استخدم كل ما لديه من دهاء ليخدعني. سأفترض أن السماوات، والهواء، والأرض، واللون، والأشكال، والأصوات، وجميع ما نراه من أشياء خارجية ليست إلا أوهامًا وصورًا من الخداع استخدمها ليغريني. سأعتبر أني ليس لديَّ يدان، ولا عينان، ولا لحم، ولا دم، ولا حواس، لكنّي أعتقد اعتقادًا مغلوطًا بأن لدي جميع هذه الأشياء.**

كانت الشياطين لا تزال تبدو حقيقية ومخيفة في أيام ديكارت، كما كانت في أيام مونتاني. اعتقد البعض أنهم يملأون العالم في السحاب، كما الكائنات الدقيقة في التلوّث؛ وأنهم هم وزعيمهم إبليس يمكنهم غزل الأوهام من الهواء، أو ربط شعاعات الضوء أو خيوط عقلك نفسها ليجعلوك ترى سِباعًا ووحوشًا. كانت مجرّد فكرة أن مثل هذه الروح قد تخدعنا بشكل ممنهج بشأن طبيعة العالم المادّي بأكمله - وبشأن

أنفسنا – تكفي لإصابة أي شخص بالجنون. الشيء الوحيد الأسوأ من ذلك هو إمكانية أن يكون الإله نفسه خَدّاعًا على هذا النحو، وهو شيء أشار إليه ديكارت في عجالة، ثم انسحب منه.

ربما كان من الغريب لشخص مثل ديكارت دافع عن العقل الخالص وأقسم على العداء لحيل الخيال أن يستخدم كل ما استطاع استخدامه من أدوات روائية للّعب على عواطف القارئ. لكن كان دافعه أساسًا محافظًا، مثل معظم كتّاب أدب الرعب. الشيطان يهدّد نظام الأشياء، لكنه يُهزَم وتستعاد الحالة الطبيعية على أساس أكثر أمنًا، ما عدا أن الأمر ليس كذلك. كثيرًا ما يهدِّد الوحش بالعودة في روايات الرعب في تذييل في نهاية الرواية؛ فهو لم يُهزم حقًّا على الإطلاق لكنّه ينتظر العاقبة ليس إلا. ديكارت لا يريد عواقب. لقد اعتقد أنه أغلق الهوَّة إلى الأبد، لكن هذا لم يحدث؛ لقد سقطت نهايته المطَمْئِنة للقارئ متكسِّرة إلى شظايا على الفور تقريبًا.

وُجِدَت أخيرًا طريقة عملية للخروج من الفوضى، ليس من خلال تحدي ديكارت المتطرِّف، لكن من خلال تسوية براجماتية تشترك في عوامل كثيرة جدًّا مع الروح المونتانيّة. فالعلم الحديث يسمح بعنصر من الشكِّ، نظريًّا، بدلًا من السعي إلى يقين تام، لكن الجميع يتّفقون عمليًّا على مهمّة معرفة العالم بمقارنة الملاحظات بالفرض النظري وفقًا لشفرات للممارسة متّفق عليها. نحن نعيش كما لو كانت لا توجد هوّة. فنحن مثل مونتاني الذي يكيِّف نفسه لقبول أنه غير معصوم من الخطأ، نقبل العالم كما يبدو عليه، مع مجرّد هزّة رأس رسمية لإمكانية أنه لا يوجد شيء ثابت على الإطلاق. الشيطان ينتظر في الكواليس، لكن الحياة تمضي. كانت قصّة الرعب التي ألّفها ديكارت هي ما نتج عن وصول بيرووية مونتاني إلى عقل أكثر قلقًا، منقسم على نفسه بأكثر مما يمكن للقرن السادس عشر أن ينتج. لم يكن مونتاني خاليًا من لحظات القلق الوجودي الخاصّ به؛ إذ استطاع أن يكتب سطورًا مثل: «نحن، لا أعرف كيف، مزدوجون داخل أنفسنا»، و«ليس لدينا أي اتصال بكينونتنا.» لكن إحساس ديكارت بالغرق في الشكِّ كان يمكن أن يجعله متحيِّرًا.

قد يجد الكثيرون من الناس اليوم رعب ديكارت أسهل فهمًا من الراحة الخاصّة التي استمدها مونتاني والبيروويون الأصليون من مذهب الشك الذي اعتنقوه. لم تعد فكرة أن الخواء يكمن خلف كل شيء نكتسب خبرة به تبدو مصدرًا واضحًا للسلوان كما كانت.

ورثنا إحساسنا بهذا الخواء إلى حد كبير من قراءة ديكارت المخالفة جدًّا لمونتاني.

وورثنا بعضه الآخر أيضًا من مريد عظيم آخر لمونتاني ومعارض له في القرن السابع عشر، وهو رجل كان أقل استقرارًا بسبب المعاني الضمنية للبيرووية. كان هذا الرجل هو بليز باسكال؛ وهو فيلسوف، وصوفي، وكاتب رعب عظيم آخر.

آلة غواية استثنائية:

لم يقصد باسكال أبدًا إخافة أحد إلا نفسه بأهمِّ أعماله التي يتذكّرها الناس، ألا وهو كتاب «**الخواطر**» Pensées. كان هذا الكتاب مجموعة من الملحوظات غير المرتبة لبحث لاهوتي أكثر تنظيمًا لم يتمكّن باسكال أبدًا من كتابته. فلو كان قد أتمَّ هذا البحث فلربما صار أقل إثارة للاهتمام. لكنه ترك لنا بدلًا من ذلك نصًّا من أكثر النصوص الأدبية غموضًا، عبارة عن تدفُّق حماسي حار للخواطر، كتبه إلى حد كبير في محاولة لدرأ ما رآه أخطر قوة في كتاب **المقالات** لمونتاني.

ولد بليز باسكال في كليمونت - فيرَّاند في العام 1623. ظهرت عليه في صباه علامات مواهب ثمينة في الرياضيات والاختراعات، بل صمَّم آلة حاسبة مبكرة. وفي سن الحادية والثلاثين، أثناء إقامته في دير بورت - رويال - دي - تشامبز، مر بخبرة حالمة حاول وصفها على قطعة من الورق بعنوان **حريق**:

اليقين، اليقين، الإحساس، البهجة، السلام
الرب يسوع المسيح
ترنيمة شكر أرفعها لك[1]
سلوان العالم وكل ما ومن يقبل الإله
لقد عرف بالطرق التي علَّمنا إياها الإنجيل وحدها
عظمة روح الإنسان
الأب العادل، العالم لا يعرفك، لكنِّي أعرفك.
بهجة، بهجة، بهجة، دموع البهجة.

غيَّرت لحظة التجلّي هذه حياته. خاط باسكال قطعة الورق في ملابسه حتى يتمكّن من حملها في كل مكان يقصده، ومنذئذ كرَّس وقته للكتابات اللاهوتية والملحوظات

(1) هذا السطر مكتوب في النص الأصلي باللغة اللاتينية Deum Meum et Deum vostrum (المترجمة).

التي صارت كتاب **الخواطر**. ولم يقضِ وقتًا طويلًا في هذا العمل، فقد وافته المنية وهو في التاسعة والثلاثين بسبب نزيف في المخ.

لا يكاد يوجد شيء مشترك بين باسكال وديكارت، اللهم إلا الهوَس بمذهب الشك. ولأن باسكال كان صوفيًّا بكل جوارحه، لم يحبّ ثقة ديكارت في العقل، واستهجن ما سمّاه «تملّك روح الرياضيات» للفلسفة. ولو كان نفوره من العقلانية قد أفاده في شيء فهو أنه لا بد قد وجَّهه نحو مونتاني بدلًا من ذلك؛ وقد فعل هذا، لأنه داوم على قراءة كتاب **المقالات**. لكنه اكتشف أيضًا التقليد البيرووي كما نقله مونتاني، وكان مثيرًا بشدّة لاضطرابه حتى إنه كاد لا يتمكّن من إتمام قراءة صفحة من مقال «الاعتذار» من دون أن يسرع إلى كراسته ليصبَّ فيها أفكارًا عنيفة عنه. باسكال نبذ مونتاني باعتباره «الخصم العظيم»، ونحن هنا نصف علاقتهما بهذه العبارة التي نستعيرها من الشاعر ت. س. إليوت. مثل هذه اللغة محجوزة لإبليس نفسه، لكن الإشارة صائبة، لأن مونتاني كان معذِّب باسكال، ومغريه، ومغويه.

ف. ديلبيتش، بليز باسكال، ق 19، المكتبة القومية باريس/ بريدجمان آرت ليبراري.

كان باسكال يخشى الشكَّ البيرووي، لأنه أحسَّ – على خلاف قرّاء القرن السادس عشر – أنه يهدِّد العقيدة الدينية بالتأكيد. بهذا الوقت، لم يعد الشكّ يعتبر صديقًا للكنيسة؛

بل صار ينتمي للشيطان، ولا بد من محاربته. وهنا تكمن المشكلة، لأن محاربة الشك البيرووي - كما رأى الجميع دائمًا - تكاد تكون مستحيلة. كل محاولات العراك معه لم تتمخّض إلا عن تقوية زعمه بأن كل شيء قابلٍ للجدال، بينما إذا ظللت محايدًا فسيؤكّد هذا وجهة النظر القائلة بأن تعليق الحكم أمر طيب.

يلخِّص باسكال حجة مونتاني البيرووية، أو عدمها، في مقطوعة قصيرة توجد عادة ضمن كتاب **الخواطر**، تستعيد حوارًا مع إيزاك لي مايتر دي ساسي Isaac Le Maître de Sacy، مدير دير بورت - رويال:

> **إنه يضع كلَّ شيءٍ في شكٍّ شامل، وهذا الشكُّ منتشر بشدة إلى حدٍّ أنه ينتقل عن طريق الشك نفسه؛ أي إنه يشكُّ في ما إذا كان يشكُّ، بل ويشكُّ في هذه المسألة الأخيرة، فيقينه يدور في دائرة لا نهائية ومضطربة. إنه يناقض من يقولون بأن كل شيء لا يقيني، ومن يقولون بأن لا شيء يقيني، لأنّه لم يكن يريد أن يقول بأيِّ شيءٍ أبدًا.**

تمتّع مونتاني بامتياز «الوقوع في موقع ملائم في هذا الشكّ العام، إلى حدٍّ أنه يقوى في حالتَيّ النجاح والفشل كلتيهما». يمكنك الشعور بالإحباط؛ فكيف يتسنّى لأي أحد أن يحارب مثل هذا الخصم؟ لكن لا بد أن يحاربه المرء. إنه واجب أخلاقي وإلا سيجرف الشك كل شيء مثل فيضان عارم: العالم كما نعرفه، والكرامة الإنسانية، وقوانا العقلية، وإحساسنا بالإله. وكما علّق ت. س. إليوت T. S. Eliot أيضًا:

> **من بين المؤلفين جميعًا فإن مونتاني هو أقلهم قابلية للتدمير. يمكنك تفتيت الضباب بأن ترمي عليه قنابل يدوية. مونتاني ضباب، غاز، سائل، عنصر ماكر. لا يجادل بالحجّة، هو يلمِّح، ويسحر، ويؤثّر، أو لو جادلك بالحجة فلا بد أن تكون مستعدًا لكونه يملك خطةً أخرى للتأثير عليك بدلا من إقناعك بحجته.**

لم يتمكَّن باسكال من التوقُّف عن قراءة مونتاني أو الكتابة عنه لأنه لم يتمكّن من خوض حرب ضدّه. لقد حارب ضدّ كتاب **المقالات** من اتجاهات قريبة جدًّا، حتى إنه لم يتمكّن من تحديد زاوية لتوجيه ضربة إليه منها. لو كانت روح لا بويتي حامت فوق صفحة مونتاني باعتباره صديقه الخفي، فقد حامت روح مونتاني فوق كتابات باسكال باعتباره عدوَّه الدائم وشريكه في التأليف. عرف باسكال في الوقت نفسه أن الدراما الحقيقية كانت تحدث في روحه. وقد اعترف: « ليس في مونتاني بل فيَّ أنني أجد كل شيء أراه عنده».

كان من الممكن أن ينظر أيضًا إلى كرّاسته ويقول: «لقد أخذت كل ما أراه هنا من مونتاني، فهو منه وليس مني»؛ لأنه كانت لديه عادة نسخ كميات من النصوص كلمة بكلمة تقريبًا.

مونتاني: كيف نبكي ونضحك من الشيء نفسه.
باسكال: من ثم نبكي ونضحك على الشيء نفسه.
مونتاني: إنهم يريدون الخروج من أنفسهم والهروب من الإنسان. هذا جنون، فهم يتحوَّلون إلى وحوش بدلًا من التحوُّل إلى ملائكة.
باسكال: الإنسان ليس ملاكًا وليس وحشًا، وهو، يا للأسى، يتصرف مثل الوحش كلما أراد أن يكون ملاكًا.
مونتاني: ضع فيلسوفًا في قفص من السلك الرفيع المنسوج في شبكة ذات فتحات واسعة، وعلِّقه بين قمتي برجَيْ نوتردام في باريس؛ سيرى بالحجّة العقلية الواضحة أنه يستحيل أن يسقط، ومع ذلك، (ما لم يكن معتادًا على مهنة عمّال البناء) لا يمكنه أن يمنع الخوف الناتج عن النظر من هذا الارتفاع الشاهق من إرعابه وشلِّه...
مرِّر جسرًا بين هذين البرجين بحيث يكون عرضه مناسبًا للمشي عليه: لا توجد حكمة فلسفية مهما كانت درجة صلابتها يمكنها أن تعطينا الشجاعة للمشي عليه كما لو كنا نسير على الأرض.
باسكال: لو وقف أعظم فلاسفة العالم على لوح من الخشب أعرض مما يحتاجه، لكنْ من تحته هوَّة، فإنه مهما كانت قوة إقناع عقله له بسلامته، مخيلته ستنتصر.

هارولد بلوم، في كتابه **القانون الغربي**، يسمِّي كتاب **الخواطر** «حالة سيئة من عُسر هضم في إشارة إلى مونتاني. لكن باسكال حين ينسخ من مونتاني، يغيِّره أيضًا. حتى حيث يستخدم كلمات مونتاني، يضعها في ضوء مختلف. مثل شخصية بيير مينارد، التي ألّفها خورخي لويس بورخيس في القرن العشرين، وهي شخصية رجل يكتب رواية يتصادف أنها تطابق رواية **دون كيشوت**، كتب باسكال الكلمات نفسها في عصرٍ مختلفٍ وبمزاج مختلفٍ، وهكذا ابتكر شيئًا جديدًا.

المهم هو الفرق في الانفعال. كان لمونتاني وباسكال بصيرتان متماثلتان في الجوانب الأقل إغراء من الطبيعة الإنسانية؛ في مملكة فيها «الإنسان، أكثر إنسانية مما نتوقّع»، حيث تتربّص بنا الأنانية، والكسل، والتفاهة، والتكبّر، وغيرها من مثل هذه

الأشكال من الفشل التي لا تُعَدّ ولا تُحصى. لكن مونتاني حدَّق فيها بتسامح وبروح فكاهة؛ أما باسكال، فقد ألهمته برعب أعظم حتى من كل ما تمكن ديكارت من حشده.

بالنسبة لباسكال، القابلية للخطأ غير محتمَلة في حد ذاتها: «لدينا فكرة عظيمة عن روح الإنسان حتى إننا لا يمكن أن نتحمَّل التفكير في أن هذه الفكرة خاطئة؛ من ثم نظلّ لا نقدرها حقّ قدرها. تكمن سعادة الإنسان برمّتها في هذا التقدير». أما مونتاني، فلا يقتصر الأمر لديه على إمكانية تحمّل أشكال الفشل الإنساني، بل تكاد هذه الأشكال من الفشل تكون سببًا للاحتفال. اعتقد باسكال أن أوجه القصور لا ينبغي قبولها؛ أما فلسفة مونتاني فتدور بأكملها حول وجهة النظر المخالفة لذلك. حتى حين يكتب مونتاني، «يبدو لي أننا لا يمكن أن نُزدَرى أبدًا بالقدر الذي نستحقه»، (وهو ما يقوله باسكال على الدوام)، يكتبه مونتاني بمزاج مبتهج، ويضيف أننا في غالب الأحوال سخفاء فقط ولسنا أشرارًا.

لا بد من أن يقع باسكال دائمًا عند طرف متطرِّف أو آخر. فهو إما غارق في اليأس أو يستخفّه المرح. يمكن أن تكون كتاباته مشوّقة بالقدر نفسه من التشويق الذي في مطاردة على الطريق السريع؛ فهو يطاردنا بأزيزه عبر مساحات شاسعة ومعايير متفاوتة. وهو يفكِّر في خواء الكون، أو عدم قيمة جسده، قائلًا: «أيما شخص ينظر لنفسه بهذه الطريقة سيشعر بالرعب من نفسه.» بالضبط كما رفع ديكارت غطاء الراحة العقلية للفلسفة البيرووية - الشكّ العامّ - ووجد تحته وحوشًا، فقد فعل باسكال الشيء نفسه مع إحدى الحيل المفضلة لدى الرواقيين والإبيقوريين؛ ألا وهي رحلة الفضاء المتخيّلة وفكرة ضآلة الإنسان. وهو يتبع هذه الفكرة دخولًا إلى مكان مرعب:

> **أصابُ بالرعب عند التفكير في عمانا وبؤسنا، وعند ملاحظة الكون الصامت بأكمله، والإنسانية وقد تُرِكَت لنفسها من دون ضوءٍ هادٍ، تائهة في هذا الركن المهجور من الكون، نجهل من وضعنا فيه، وما الذي أتينا لننجزه، وماذا سيحدث لنا حين نموت، عاجزين عن أي معرفة، حينئذ، أصابُ بالرعب، كمن أخذوه وهو نائم إلى جزيرة مهجورة مرعبة ليصحو وهو يجهل ماذا حدث، وما من سبيل للفرار.**

إنه يمكِّنُنا من قراءة شيّقة، لكن بعد بضع صفحات، يتعطّش المرء لجرعة من النزعة الإنسانية البسيطة لمونتاني. يريد باسكال من الناس أن يظلّوا واعين بأشياء مطلقة: الفضاءات الشاسعة الخالية، والإله، والموت. لكن قلائل منا يتمكّنون من الحفاظ

على مثل هذه الأفكار فترة طويلة. فانتباهنا يتشتّت؛ وينجرف العقل عائدًا إلى أمور ملموسة وشخصيّة. وجد باسكال أن هذا مثير للغضب: «في ماذا يفكّر العالم؟ ليس في هذا أبدًا! فهو يفكّر في الرقص، وعزف العود، والغناء، وكتابة الشعر، والتمايل في حلبة الرقص...». أحبَّ مونتاني أن يسأل أسئلة كبيرة أيضًا، لكنه كان يفضِّل استكشاف الحياة من خلال قراءاته، أو الحيوانات التي في منزل أسرته، أو الحوادث التي شهدها في ترحاله، أو مشكلات جارٍ له مع أطفاله. كتب باسكال: «حساسية الإنسانية نحو الأشياء الصغيرة وعدم حساسيتها نحو الأشياء الأعظم علامة على اضطراب من نوع غريب». أما مونتاني فكان ليضع الفكرة بطريقة عكسية تمامًا.

بعد قرن أو نحو ذلك، كتب فولتير - الذي كان يكره باسكال تمامًا -: «أنا أغامر من أجل الدفاع عن الإنسانية ضد هذا المتسامي الكاره للبشر». تصفّح فولتير سبعة وخمسين استشهادًا من كتاب **الخواطر**، مفكّكا كلًّا منها على التوالي. وعلّق: «أما بالنسبة لي»،

> **حين أنظر إلى باريس أو لندن لا أجد سببًا للوقوع في هذا اليأس الذي يتكلم عنه باسكال. فأنا أرى مدينة، على الأقل لا تشبه جزيرة قاحلة، بل مدينة مأهولة، ثرية، منظّمة بمعرفة السلطات، الرجال فيها سعداء بقدر ما تسمح الطبيعة الإنسانية. أيُّ رجلٍ عاقلٍ مستعدٍ لشنق نفسه لأنه لا يعرف كيف ينظر المرء للإله وجهًا لوجه؟... لماذا يجعلنا نشمئز من وجودنا؟ وجودنا ليس بائسًا جدًّا كما نوجَّه نحو الاعتقاد بهذا. إن النظر إلى العالم باعتباره زنزانة سجن وجميع الرجال مجرمين فكرة شخص متعصِّب.**

أدى هذا بفولتير إلى الاندفاع للدِّفاع عن «خصم باسكال العظيم»:

> **يا له من تصميم مبهج لدى مونتاني لتصوير نفسه مبرَّأً من الخداع كما فعل! لأنه صوّر الطبيعة الإنسانية نفسها. ويا له من مشروعٍ تافهٍ لدى... باسكال ليحطّ من شأن مونتاني!**

كان فولتير يشعر بالراحة أكثر بكثير مع مذهب مثل مذهب مونتاني، كما يظهر في الفصل الأخير من كتاب **المقالات**:

> **أقبل من كل قلبي وبامتنان ما فعلته لي الطبيعة، وأنا مسرور بنفسي وفخور بها لقبولي هذا. نحن نخطئ في حق هذه المانحة العظيمة القديرة برفض منحتها، وإلغائها، وتشويهها.**

قاد الارتياح لقبول الحياة على ما هي عليه باسكال إلى سخطٍ أكبر من الشكّ البيرووي نفسه. الاثنان يسيران معًا. وضع مونتاني كل شيء موضع الشكّ، لكنه أكد قصدًا كل شيء مألوف، وغير يقيني، وعادي - لأن هذا كل ما لدينا. جعله شكُّه يحتفي بعدم الكمال؛ وهو الشيء نفسه الذي أراد باسكال وديكارت الهروب منه لكنهما لم يتمكّنا من ذلك أبدًا. بالنسبة لمونتاني، يتضح لماذا يستحيل هذا الهروب. لا أحد يمكنه الارتفاع فوق الإنسانية؛ فمهما علَوْنا في صعودنا، نأخذ الإنسانية معنا. وكتب في نهاية الجزء الأخير من كتابه، في نسخته النهائية:

> **إن معرفة كيف نستمتع بوجودنا بحقّ، هو وصول مطلق إلى حد الكمال وهو روحاني فعليًّا. نحن نسعى نحو ظروف أخرى لأننا لا نفهم فائدة ما لدينا منها، ونخرج خارج أنفسنا لأننا لا نعرف ما في داخلها. لا فائدة إذًا من تركيب سيقان خشبية طويلة، لأننا ونحن على العصي الطويلة لا بد من أن نظلّ نسير على أرجلنا نحن. ولو جلسنا على أفخم عرش في العالم فسنظل جالسين على مقعدتنا ليس إلا.**

يستحيل الجدال ضد حجة «المقعدة» مثلما يستحيل الجدال ضد البيرووية، لكنها بدت أيضًا لباسكال حجّةً يلزم تفنيدها، لأنها مثَلت خطرًا أخلاقيًّا. كان مبدأ مونتاني الرئيسي على حد وصف باسكال له هو «اقتنع واهدأ»، وقد رآه باسكال خبيثًا؛ فأقلقه وسبّب له نوبة غضبٍ عارمةٍ لا حيلة له تجاهها، كما لو كان مونتاني يتمتّع بميزة ما لم يستطع باسكال الحصول عليها.

نرى مستوى شبيهًا من الغضب في رد فعل قارئ آخر من الفترة نفسها، ألا وهو الفيلسوف نيكولاس مالبرانش. كان عقلانيًّا، أقرب إلى ديكارت منه إلى باسكال، لكنه، مثل باسكال، استهجن مونتاني بالقدر نفسه بسبب موقفه العام من اللامبالاة في ما يتعلّق بقبوله للشك.

اعترف مالبرانش بأن كتاب مونتاني حقّق دائمًا أفضل المبيعات، وكتب بلهجة فيها مرارة أن هذا أمر متوقّع. يحكي مونتاني قصصًا جيّدة ويروق لخيال القراء؛ والناس يستمتعون بذلك. «أفكاره زائفة لكنّها جميلة، وتعبيراته غير معتادة أو جريئة لكنّها تلقى استحسانًا». لكن قراءة مونتاني من أجل المتعة أمر خطر بشكل خاص. فبينما أنت ترتاح مسترخيًا، يهدئ مونتاني عقلك لتنام ويملأك بسُمِّه. «لا يمكن أن يُسَرَّ العقل بقراءة كتابات مؤلّف من دون تبنّي آرائه، أو على الأقل من دون تلقّي بعض من

صبغتها، التي حين تُمزج بآرائه الخاصّة تجعلها مربكة وغامضة». أي إن متعة القراءة تفسد «الأفكار الواضحة والمميزة» لديكارت. مونتاني لا يجادل ولا يفحِم بالحجّة؛ فلا حاجة له بذلك، لأنه **يغوي**. يستدعي مالبرانش شكلًا يكاد يكون شيطانيًّا. مونتاني يخدعك، مثل شيطان ديكارت؛ إنه يستدرجك إلى الشكّ والتسيّب الروحي.

ستثبت هذه الصُّور الخبيثة أنها ستعيش طويلًا. ظلَّ الباحث الأدبي جيّوم جيزوت Guillaume Guizot في العام 1866 يسمّي مونتاني «المغوي» الكبير بين الكتّاب الفرنسيين. وكان هذا هو الرأي نفسه عنه لدى ت. س. إليوت. وتصف الناقدة جيزيل ماتيو كاستيلاني كتاب **المقالات** بأنه «آلة إغواء جبارة». يعمل سحر مونتاني من خلال لا مبالاته، وتسكّعه ونغمته العابرة، وتظاهره بعدم الاهتمام بالقارئ؛ وكلّها حيَل صُمِّمت لاجتذابك إليه وتملُّكك.

حين يتعرّض القراء الحديثون لهذه الآلة كثيرًا ما يسعدون بالاضطجاع مثل باربارِيللا[1] والاستمتاع بها. أما قراء القرن السابع عشر فشعروا بمزيد من التهديد، لأن المسائل الجادّة التي تتناول العقل والدين كانت على المحكّ.

لكن حتى أثناء هذه الفترة، أحبّ قراء آخرون مونتاني للمتعة التي يشعرون بها من قراءة كتاباته. ودافع عنه العديد منهم صراحة. لمَّح حاكي الأمثال جان دي لا برويير في كتابه **الشخصيات** إلى أن مالبرانش لم يفهم فكرة مونتاني لأنه كان مثقفًا جدًّا ولم يتمكّن من «تذوّق الأفكار التي تأتي بشكل طبيعي». هذا الطابع الطبيعي البسيط مع شكوك الشكاكين يجعل مونتاني بطلًا في نظر فصيلة جديدة من المفكّرين؛ أعضاء التحالف الغامض للأذكياء والمتمرّدين المعروفين باسم **الليبرتينيين**[2].

---

(1) باربارِيللا: شخصية لعبتها جين فوندا في فيلم خيالٍ علميٍّ عنوانه «باربارِيللا» من إخراج روجيه فاديم. باربارِيللا رحّالة فضائية تهبط سفينتها هبوطًا اضطراريًّا على أحد الكواكب ويهاجمها طفلان يعتديان عليها ويقيِّدانها في أطلال سفينة فضاء قديمة حيث تهاجمها دمى ذات أسنان حادّة، وينقذها مارك هاند، الحارس المنوط به اصطياد هذه الكائنات، ويخبرها بمكان العالم دوراند. تعبِّر عن امتنانها بقبول ممارسة الجنس معه (بعد أن صار أهل الأرض يمارسون الجنس عن طريق تعاطي أقراصٍ)، لكن المنقذ يعرض عليها ممارسته من دون أقراص وبالطريقة القديمة للبشر، تشك باربارِيللا في جدوى اقتراحه، لكنها تضطجع وتمارس معه الجنس وتستمتع به (المترجمة).

(2) **الليبرتينية**: مذهب فكري ظهر في القرن السابع عشر وحتى القرن التاسع عشر في فرنسا وبريطانيا. يرفض الليبرتينيون معظم المبادئ الأخلاقية التي يقدِّسها المجتمع، أو الإحساس بالمسؤولية، أو القيود الموضوعة على الجنس ويرونها غير ضرورية أو غير مرغوبة. من أبرز الليبرتينيين الماركيز دي ساد (المترجمة).

يستدعي مصطلح «الليبرتينية libertine» باللغة الإنجليزية للذهن شخصية سيئة السمعة شبيهة بكازانوفا، لكنهم يتميّزون بأكثر من هذا (كما كان يتميّز كازانوفا حقًّا). فعلى الرغم من أن بعض الليبرتينيين سعوا للحرية الجنسيّة، فقد أرادوا أيضًا الحرية الفلسفية؛ الحقّ في التفكير كما يحبّون، سياسيًّا، ودينيًّا، وبكل الطرق الأخرى. كان مذهب الشك طريقًا طبيعيًّا موصلًا لهذه الحرية الداخلية والخارجية.

كانوا مجموعة متنوعة، تتراوح ما بين الفيلسوف الكبير بيير جاسندي إلى باحثين من الوزن الخفيف مثل فرانسوا دي لا ماتي لو فاير، وكتَاب خياليين مثل سيرانو دي بيرجوراك، الذي كان معروفًا وقتئذ بسبب رواية الخيال العلمي التي ألّفها عن رحلة إلى القمر. (دوره في القصة الأكثر شهرة القائمة على أنفه الضخم كُتب بعد ذلك). وربما كانت المحرِّرة الأولى لمونتاني، ماري دي جورناي ليبرتينية سرّية، هي والكثير من أصدقائها. ليبرتيني آخر هو جان دي لا فونتين، مؤلّف القصص الخرافية التي كتبت على غرار أسلوب بلوتارخ عن مهارة الحيوانات وغبائها، وقد هرب بفعلته بتأليف هذه القصص بأن جعلها ذات نغمة رقيقة، لكنها تظلّ تشكّل تحدّيًا للكرامة الإنسانية. كان افتراضه هو افتراض مونتاني نفسه: الحيوانات والبشر مصنوعون من المادّة نفسها.

ظلت الليبرتينية مسعى أقليّة من الناس، لكنها أقليّة مؤثّرة بما لا يتناسب مع حجمها، لأن فلاسفة التنوير في القرن التالي سيخرجون من بين الليبرتينيين. لقد أعطوا مونتاني صورة جديدة خطرة لكنها إيجابية، وسوف تبقى هذه الصورة. وقد تولّدت عنهم أيضًا فصيلة أقل راديكالية من ذوي الميل لاجتماعات الصالونات؛ هي فصيلة حكّائي الأمثال مثل لا برويير، ولا روشفوكو الذي جمع في كتابه **الحكم والأمثال** ملحوظات موجزة لمونتاني عن الطبيعة الإنسانية:

> **نختلف أحيانًا عن أنفسنا كما نختلف عن غيرنا.**
>
> **الطريق الأكيد الذي ينبغي أن يتّخذه المرء هو التفكير في أنه أكثر احتيالًا من الآخرين.**
>
> **الصدفة والنزوات تحكم العالم.**

وبالصدفة، تقدّم إحدى حِكَم لا روشفوكو تعليقًا ألمعيًّا على مقولة لمونتاني من القرن السابع عشر:

> **كثيرا ما نستثير الآخرين حين نعتقد بأننا قد لا يمكننا فعل ذلك.**

وكما هو الحال مع مونتاني نفسه، يدور الكثير مما قاله **الليبرتينيون** وحكّاؤو

الأمثال حول سؤال كيف تُعاش الحياة الجيدة. كان **الليبرتينيون** يثمنّون خصائص مثل bel esprit، التي يمكن ترجمتها إلى «**الأرواح الطيبة**»، لكن أحد كتاب ذلك العصر أعطاها تعريفًا أفضل على أنها «مبهِجة، وحيوية، وملتهبة كالتي عرضها مونتاني في كتاب **المقالات**». وطمحوا أيضًا إلى honnêteté، bonnêteté,»**الأمانة**»، التي كانت تعني لديهم حياة تتبّع الأخلاق الحميدة، لكنها تعني أيضًا حياة من «الحوار الجيّد» و«الصحبة الطيبة»، وفقا لما ورد في طبعة العام 1694 من قاموس الأكاديمية الفرنسية.

لم يرِدْ شخصٌ مثل باسكال حتى أن يعيش على هذا النحو؛ فهذه الطريقة في العيش يستتبعها تشتيت انتباه الشخص بفعل الشؤون الدنيوية بدلًا من تثبيت بصره على أشياء مطلقة. يتخيّل المرء باسكال وهو يحدّق ببصره إلى أعلى في فضاءات الكون المفتوحة، في رعبٍ وغبطة صوفيَّين، كما حدَّق ديكارت بقوة مشابهة في الموقد المتأجِّج. يوجد صمت في الحالتين، كما توجد نظرة ثابتة: عينان مستديرتان بفعل المهابة، أو التفكير العميق، أو الذعر، أو الرعب.

لم يكن **الليبرتينيون**، وجميع صحبة **الأرواح الطيبة**، يحدِّقون. يا أعزائي! ما كانوا ليحلموا بتثبيت أي شيء في الكون - ما علا منه وما سفل - بعيني بومة محدِّقتين ببلاهة. بدلًا من ذلك، كانوا يراقبون البشر بمكرٍ، من تحت جفونٍ نصف مقفلةٍ، يرونهم كما هم، بادئين بأنفسهم. أدركت تلك العيون النعسانة أشياء عن الحياة أكثر مما أدركه ديكارت «بأفكاره الواضحة والمتمايزة»، أو باسكال بنشوته الروحية. وسيعلق فريدريك نيتشه بعد ذلك بقرون على أن معظم الملاحظات القيِّمة الأصيلة للسلوك والنفس البشريين - وهكذا الحال أيضًا بالنسبة للفلسفة - «كُشِف النقاب عنها وصُرِّح بها في تلك الدوائر الاجتماعية التي ستقدِّم جميع أنواع التضحيات، لا للمعرفة العلمية، بل للدلال الظريف».

استمتع نيتشه بالمفارقة الكامنة في هذا لأنه كان يمقت طبقة الفلاسفة المحترفين. لم تكن الأنساق التجريدية ذات فائدة بالنسبة له؛ فالمهم هو الوعي النقدي بالذات؛ قابلية الإنسان للتنقيب في دوافعه مع قبوله لنفسه كما هي عليه. لذلك أحبَّ نيتشه حكّائي الأمثال لا روشفوكو ولا برويير، كما أحب سلفهما السابق مونتاني. نيتشه أسمى مونتاني «صاحب الروح الأكثر تحررًا والأقوى بين الأرواح»، وأضاف: «ما كتبه هذا الرجل قوَّى حقًا بهجة العيش على كوكب الأرض». من الواضح أن مونتاني تمكّن من حيلة العيش كما تاق نيتشه إليه؛ من دون تفاهة، ولا سخط، ولا ندم، مستوعبًا كل ما حدث من دون رغبة في تغييره. جسَّد تعليقٍ عابرٍ ورد في كتاب **المقالات** كل

ما أنفق نيتشه حياته محاولًا الوصول إليه: «لو اضطررت للعيش مرة أخرى عودًا على بدء، سأعيش كما سبق أن عشت». أما مونتاني فلم ينجز ذلك فقط، بل إنه كتب عنه بنغمة مهملة، كما لو لم يكن شيئًا خاصًا.

تساءل نيتشه - مثلما فعل مونتاني - عن كل شيء في الوقت نفسه، وحاول قبول كل شيء. أكثر الأشياء التي أبعدت باسكال عن مونتاني شكّه العميق، و«ارتياحه للشك»، ورصانته، واستعداده لقبول القصور عن بلوغ الكمال، وهي نفسها الأشياء التي كانت ستروق دائمًا لهذا التقليد الآخر شديد الاختلاف، الذي يجري بدءًا من **الليبرتينيين**، عبر نيتشه ومن بعده، ووصولًا للكثيرين من أكبر أنصاره اليوم.

ولسوء الحظ، ثبت في القرن السابع عشر أن المستائين من مونتاني أقوى من المعجبين به، خاصّة منذ نظَّمَ الأوَّلون أنفسهم وأطلقوا حملة مباشرة لمنعه. وفي العام 1662، السنة التي أعقبت وفاة باسكال، أطلق زميلاه السابقان بيير نيكول وأنطوان آرنولد عنان البطش بمونتاني في كتابهما الذي حقّق أفضل مبيعات والمعنون **منطق بورت - رويال**. ودعت طبعته الثانية في العام 1666 صراحة إلى وضع كتاب **المقالات** في **قائمة الكتب المحظورة** التابعة للكنيسة الكاثوليكية، باعتباره نصًا لا دينيًا وخطرًا. وانتبه الناس لتلك الدعوة بعد ذلك بعشر سنوات؛ إذ ظهر عنوان كتاب **المقالات** في **القائمة** في 28 يناير 1676. أدين مونتاني بالتبعية بالقدر نفسه الذي يُدان به أي شيء آخر؛ لأنه كان بذلك الوقت مادة القراءة المفضَّلة لطاقم سيئ السمعة من المتأنّقين، والظرفاء، والملحدين، وأتباع مذهب الشك، والخليعين.

كان هذا علامة على بدء تدهور مفاجئ في ثروة مونتاني في فرنسا. فمنذ الطبعة الأولى لكتاب **المقالات** في العام 1580 حتى العام 1669، كانت تظهر طبعة جديدة منه كل سنتين أو ثلاث، مع تجديد شعبي بأقلام المحررين الذين كثيرًا ما جذبوا الانتباه إلى أكثر الفقرات بيرووية. تغيّر هذا الوضع بعد الحظر. لم يعد ممكنًا نشر الكتاب في شكله التام أو بيعه كاملًا في البلدان الكاثوليكية؛ فلن يمسَّه أيُّ ناشر فرنسي. وظلّ لسنوات متاحًا فقط في الطبعات المنقَّحة أو الأجنبية، والأخيرة تكون غالبًا بالفرنسية ومصمَّمة لتهريبها إلى الوطن للقراء المنشقّين.

أشار مونتاني ذات مرة إلى أن كتبًا معيَّنة «تصير بمنعها أكثر قابلية للتسويق وأكثر شيوعًا بين الجماهير عما ذي قبل». وقد حدث هذا له إلى حدٍّ ما؛ فقد أدى منع كتابه في فرنسا إلى إحاطته بهالة لا تقاوَم، وتعزيز جاذبيته - في القرن الذي سيعقب ذلك - لفلاسفة التنوير المتمرّدين بل حتى لثوريين سياسيين مزدهرين.

لكنَّ الرقابة أضرّت إجمالًا بمبيعات طبعات كتاب **المقالات** المنشورة بعد وفاة مؤلِّفه أكثر مما أفادتها. فقد قصرته على جمهور محدود في فرنسا، بينما استمرّ يروق في بعض البلدان الأخرى لنطاق أوسع من الأذواق، أذواق المتمرّدين وأعمدة المجتمع على حدٍّ سواء. والمدهش، أن كتاب المقالات سيظلّ على قائمة الحظر لحوالى مائتي عام، حتى 27 مايو 1854. كان نفيًا طويل الأمد، نفيًا بقي بعد **انتهاء موجة الذعر القصيرة** الأصلية التي أثارها في نهايات القرن السابع عشر.

يمكن لتعقيب باسكال: «إنه ليس في مونتاني بل فيَّ أنني أجد كلَّ شيء أراه عنده» أن يُتلى كتعويذة من خلال القصّة القادمة بأكملها. تمرّ القرون؛ وكلّ قارئ جديد يجد نفسه في كتاب **المقالات** ويضيف بذلك تراكمًا لمعانيه الممكنة. في حالة ديكارت، وجدَ شكلين كابوسيَّين من ذات نفسه: شيطان يقاوم المنطق، وحيوان يمكنه التفكير. وجفل من الاثنين. ورأى باسكال ومالبرانش بوادر إغوائهما على سرير شكٍّ مريحٍ، وفرَّ الاثنان أيضًا مذعورَيْن.

أما **الليبرتينيون**، فعندما رأوا الأشياء نفسها، استجابوا بابتسامة مستمتعة وبرفع الحواجب. لقد تعرّفوا هم أيضًا على أنفسهم في مونتاني. وسيفعل نيتشه، خَلَفهم الذي أعقبهم بعد وقت متأخّر الشيء نفسه، وسيعيد مونتاني أيضًا إلى وطنه الفلسفي؛ إلى قلب الفلسفات الهيللّينية الثلاث العظام، وفحصها لسؤال كيف تعاشُ الحياةُ.

مكتبة
t.me/t_pdf

8. س: كيف تعاشُ الحياة؟
ج: احتفظْ بغرفةٍ خاصَّةٍ بكَ خلفَ الدكَّان

الذهاب للموضوع بِردفٍ واحدٍ فقط:

ظلَّ مونتاني الإنسان من لحم ودم في ستينيات القرن السادس عشر منسجمًا مع هذا السؤال نفسه. استخدم تقاليد الفلسفات الهيللينية الثلاث جميعها لتدبير حياته ولمساعدة نفسه على الشفاء من فقد لا بويتي. نجح في مزج شكّه بالولاء للعقيدة الكاثوليكية؛ وهو مزيج لم يضعه أي أحد بعد موضع الشك. أنهى مونتاني مشروعه الأدبي الكبير الأول، ترجمة ريموند سيبوند، وعمل على كتابة الإهداءات لكتب لا بويتي وخطابه هو نفسه المنشور الذي يصف فيه موت صديقه. حدث تغير آخر أثناء هذه الفترة أيضًا؛ لقد تزوّج، وصار رب أسرة.

يبدو أن مونتاني عمومًا كان جذَّابًا للنساء. لا بد أن بعض الجاذبية على الأقل كانت جاذبيّة جسديّة، وقد أبدى ملحوظات ساخرة من النساء اللاتي يزعمن أنهنّ يحببن الرجال بسبب عقولهم فقط. «لم يحدث ذلك أبدًا لأجل جمال عقلنا، مهما كان هذا العقل حكيمًا وناضجًا، لقد كنّ على استعداد لإسداء معروف لجسد كان ينزلق على الأقل رويدًا رويدًا نحو التدهور». لكن ذكاءه، وروح الدعابة لديه، وشخصيته الدمثة، بل حتى ميله للانجراف مع تيار الأفكار والكلام بصوت مرتفع، يرجَّح أنها أسهمت جميعها في سحره. وربما أسهمت في ذلك أيضًا مسحة بعد المنال العاطفي التي خيَمت فوقه بعد موت لا بويتي، وجعلت من الوصول إليه تحدِّيًا. في الواقع، كان عندما يعجب بأحد، سرعان ما يختفي تحفظه: «أتودّد إليهنَّ، وألقي بنفسي عليهنّ بتوقٍ شديدٍ، حتى إني لا أكاد أفشل في ربط نفسي بمن أَهْبُطُ في أرضها لأترك انطباعًا لديها».

كان مونتاني يحب الجنس، وينخرط كثيرًا في ممارسته طوال حياته. ولم يتدهور كلٌّ من أدائه ورغبته الجنسيين إلا في أواخر منتصف العمر، كما قلّت جاذبيته، وقد تحسّر على كل هذا في المقالات الأخيرة من كتابه **المقالات**. وقال إن من بواعث

الاكتئاب أن يرفض الآخرون المرء، لكن الأسوأ أن يقبلوه من باب الشفقة. وكان يكره أن يثير مشكلات لأحد لا يريده. «أنا أبغض فكرة أن يكون جسدي هو الجسد الخالي من عاطفة الحب». سيكون هذا مثل ممارسة الجنس مع جثة، كما في قصة «المصري المتهيِّج الذي هيّجه بشدة جثمان امرأة كان يحنِّطها ويكفِّنها». لا بد من أن تكون العلاقة الجنسية متبادلة. «والحقيقة، أن المتعة التي أمنحها في هذه اللذة تدغدغ خيالي بأحلى مما أشعر به».

لكنّه كان واقعيًّا في ما يخصُّ مدى جعله الأرض تميد تحت أقدام محبوباته. أحيانًا لا تضع المرأة قلبها حقًّا في الموضوع: «يذهبن إليه أحيانًا بردف واحد فقط». أو ربما كانت تخيّلاتها تدور حول شخص آخر: «ماذا لو كانت تأكل خبزك مغمسًا بصلصة خيال ألذّ لها؟».

فهم مونتاني أن النساء يفهمن عن الجنس أكثر مما يعتقد الرجال عادة أنهنّ يفهمنه، وأن خيالهنّ يقودهنّ حقًّا إلى توقّع أفضل مما يحصلن عليه. «فبدلًا من الأعضاء الواقعية، ومن خلال الرغبة والأمل، يستبدلن بها أعضاء أخرى أكبر من الحجم الفعلي لها بثلاث مرات». وقد طقطق بشفتيه معترضًا على رسم حائطي غير مسؤول: «أي ضرر لا يحدث بسبب هذه الصور هائلة الحجم التي ينشرها الصبيان في الردهات وعلى جدران سلالم الأماكن! فمنها تكتسب النساء ازدراء قاسيًا لقدرتنا الطبيعية». هل يستنتج المرء أن قضيب مونتاني كان يميل للصغر؟ نعم، حقًّا، لأنه اعترف بعد ذلك في المقال نفسه بأن الطبيعة عاملته «بلا إنصاف وبقسوة»، وأضاف استشهادًا كلاسيكيًّا:

> **«حتّى الزوجات الكهلات - اللاتي يعرفن كلَّ شيءٍ جيِّدًا -**
> **ينظرن شزرًا إلى الرجل ذي العضو الصغير».**

لم يبدِ خجلًا لكشفه عن هذه الأمور: «حياتنا نصفها حماقة، ونصفها حكمة. من يكتب عنها باحترام فقط ووفقًا للقواعد يُهمل أكثر من نصفها.» وبدا له أيضًا أن من عدم الإنصاف إعطاء رخصة للشعراء أكثر من غيرهم لمجرّد أنهم يكتبون نظمًا. واستشهد بمثالين من معاصريه:

> **«هل يمكن أن أموت إذا كان شقك أكثر من خطٍ شاحبٍ».**
>
> - **تيودور دي بيزيه.** Théodore de Bèze
>
> **«الآلة الودودة تشبعها وتعاملها معاملة طيِّبة».**
>
> - **سانت جيليز.** Saint - Gelais

ولكن مونتاني فعل وسط المغامرات المتنوعة لآلته الودودة أيضًا كل ما ينبغي أن يفعله النبلاء الصالحون، خاصّة وَرَثة الضيعات الكبيرة: فقد اتخذ زوجة.

كان اسمها فرانسواز دي لا تشاسين، وقد انحدرت من عائلة تحظى باحترام كبير في بوردو. تم الزواج في 23 سبتمبر 1565، وقد اشتركت العائلتان في الترتيب له. كان هذا أمرًا تقليديًا، بل حتّى سنِّ الزوجين كان متّفقًا تقريبًا مع ما تقضي به الأعراف. كتب مونتاني ملحوظة عن أن سنّه (الذي قال إنه ثلاثة وثلاثون عامًا، على الرغم من انه كان اثنين وثلاثين عامًا). كان قريبًا من سن الزواج المثالي الذي أوصى به أرسطو، والذي اعتقد مونتاني أنه كان الخامسة والثلاثين (والحقيقة أنه السابعة والثلاثون). فإذا كان أصغر قليلًا من السنِّ المضبوط للزواج فقد كان سن زوجته أكبر قليلًا من المعتاد؛ فقد ولدت في 13 ديسمبر 1544، مما يجعلها أقل قليلا من الحادية والعشرين في يوم زفافها. يمكن في هذه السن أن تتوقّع أن يكون أمامها سنوات كثيرة تكون فيها في سن الإنجاب. ولسوء الحظ، جلبَ الأطفال للزوجين خيبة الأمل والأسف في معظم الأحوال. وعلى الرغم من أنه كان أكبر من زوجته بما يزيد على عِقد من الزمان، فيبدو أن مونتاني فعل بالتأكيد ما يفعله الكثير من الرجال؛ لقد تزوّج أمه. وهذا الاختيار لن يجعله سعيدًا بوجهٍ خاصٍّ.

لا يكثر مونتاني من ذكر فرانسواز في كتاب **المقالات**: وحين يذكرها، يجعلها تبدو مثل أنطوانيت، لكن على نحو أكثر صخبًا. كتب: «الزوجات لديهنّ دائمًا ميل للخلاف مع أزواجهن». «إنهن يقبضن بيدين اثنتين على كل حجة تخالفهنَّ». ربما كان يفكِّر في فرانسواز هنا وفي مقطوعة أخرى، حيث كتب أنه لا جدوى من الغضب العارم بلا فائدة مع الخدم:

> **أنا أنصح... عائلتي بألا يذهب غضبها أدراج الرياح، وتتأكّد من أن تعنيفها يصل إلى الشخص المُشتكى منه؛ لأنهم في المعتاد يصرخون قبل أن يظهر هذا الشخص في حضرتهم ويستمرّون في الصراخ لدهور بعد أن يذهب... لا أحد يُعاقب بصراخهم أو يتأثّر به، اللهم إلا شخص مضطر لقبول ما لا يرضيه من جعجعة صوته.**

يمكن أن يتخيّل المرء مونتاني واضعًا يديه على أذنيه، ومتّجهًا إلى برجه.

من بين الأشياء الكثيرة التي من أجلها أعجب مونتاني بالفيلسوف سقراط، أنه أتقن فن عيش الحياة مع زوجة عدوانية. قدّم مونتاني هذا باعتباره ابتلاء يكاد يكون في

عظمة ما عاناه سقراط على أيدي برلمان أثينا، حين حكم عليه بالموت بسم الشوكران. كان مونتاني يأمل في تقليد سياسة سقراط التي تتّسم بالصفح والفكاهة، وأحبّ ردّه حين سأله آلسيبياديس كيف تحمَّل تذمر زوجته. قال سقراط إن الإنسان يعتاده، كما يعتاد من يسكنون بجوار طاحونة صوت العجلة المائية وهي تدور. أحب مونتاني أيضًا الطريقة التي تأقلم بها سقراط مع هذه التجربة، فجعل منها «حيلة» فلسفية من أجل تحسين نفسه روحيًّا، مستخدمًا مزاج زوجته النكِد للتدرُّب على فنِّ تحمُّل النوائب.

كان لدى فرانسواز قدرة على المثابرة، إلى جانب عنفها. ستعيش بعد مونتاني حوالى خمسة وثلاثين عامًا، وتموت في 7 مارس 1627 عن اثنين وثمانين عامًا. وقد عاشت أيضًا بعد جميع أطفالها، بما في ذلك الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة بعد سن الرضاعة ووصلت إلى البلوغ. أما أم مونتاني فقد عاشت بعده أيضًا. يكاد المرء يأخذ انطباعًا بأنهما في ما بينهما قادتاه مبكرًا إلى القبر.

ترجع بعض أفضل المعلومات عن شخصية فرانسواز إلى كهولتها المتأخِّرة، بعد وفاة مونتاني بوقت طويل. كانت عندئذ قد صارت شديدة التقوى. يصفها تشارلز دي كاماشز، الزوج الثاني لابنتها، بأنها كانت تداوم على الصيام كل يوم جمعة ولنصف الصوم الكبير، حتى وهي في السابعة والسبعين من عمرها. وداومت على مراسلات مكثّفة مع المستشار الروحي دوم ماك أنطوان دي سان برنارد، وبقيت عدة من هذه الخطابات. كان يرسل لها هدايا من ثمار البرتقال والليمون؛ وكانت ترسل له مربى السفرجل ومكافآت مالية قليلة. كانت تكاتبه كثيرًا عن قلقها على أموالها وأمورها القانونية. ظهر في الخطاب الأخير أنها مرتاحة بخصوص صفقة تخصّ مشروعات عملها: «بهذا أعطاني الإله موردًا لأكفل منزل زوجي المرحوم وأطفالي». وأحيانًا تكون نغمة صوتها انفعالية: «أنا لا أعرف حقًّا ما إذا كان ينبغي عليَّ أن أختار الموت أم أعرف أنك ستذهب بعيدًا». من جهة أخرى، كانت تخشى على سلامة مستشارها إذا سافر ليأتي لزيارتها: «أفضّل الموت على تركك تسير في الطريق في هذا الجو الرديء». حين كانت شابّة، ربما كانت أقل مشاكسة، لكن انشغالها بالأمور المالية والقانونية ربما كان ثابتًا. على الأقل، يمكن للمرء أن يغامر بالتصريح بأنها كانت أكثر انتباهًا للاهتمامات العمليّة من مونتاني. لم يكن هذا صعبًا؛ فالجميع كانوا كذلك، إذا صدق تقريره.

عادة ما كانت فرانسواز وزوجها يقضيان أيامهما في أنحاء مختلفة من مجموعة أبنية القصر. كان مونتاني يذهب إلى برجه وتذهب هي إلى برجها الذي يقع على الطرف الآخر من جدار حدود المكان، المعروف باسم «برج السيدة». وقد تداعى البرج (بعد تحويله إلى برج حمام في القرن التاسع عشر، ولم يعد موجودًا اليوم). وبهذا

كان المبنى الرئيسي متروكًا لأم مونتاني، التي ظلّت فيه طوال معظم فترة زواج ابنها، حتى العام 1587 تقريبًا. يبدو البرجان كما لو أدخلت عليهما تعديلات ليكونا منتجعين صيفيين جزئيًا، بحيث يتمكّن الزوجان الشابان من الابتعاد عن بعضهما البعض وعنها. ظل مونتاني صامتًا في كتاباته عن وجود أمه في حياتهما؛ فحين ذكر لعب الكوتشينة مع عائلته في الأمسيات، لم يشر أدنى إشارة إلى أن الجدة كانت تلعب أيضًا.

هذه الصورة لعائلة متفرقة في أنحاء ممتلكاتها صورة حزينة. لكن لا بد من أن أيامًا مرت كانت فيها الأرواح أخف. وعلى أي حال، لم يكن في الضيعة مكان لشعور بالوحدة أو الخواء. كان الناس دائمًا في الأنحاء: خدم، وموظفون، وضيوف مع حاشيتهم، وأطفال في بعض الأحيان. مونتاني نفسه لم يقعد في برجه مثل إيرل جورمنجوست[1]: إذ كان يحب الخروج للتمشية. «أفكاري تنعس إذا جعلتها تجلس. لن يتحرك عقلي ما لم تحرِّكه ساقاي». وكان فصل نمطَي حياة الإناث والذكور عن بعضهما البعض أمرًا عاديًا. فكان من المتوقّع أن يكون للزوج والزوجة عالمان مختلفان؛ وكانت الممتلكات المعمارية الجديدة أو ذات الطابع الحديث تصمّم مع أخذ هذا في الحسبان. وفي العام 1452، أوصى ليون باتستا ألبيرتي في كتابه **عن المباني** بأنه «لا بد من أن يكون للزوج والزوجة غرفتا نوم منفصلتان، ليس فقط لضمان ألّا ينزعج الزوج من زوجته حين تكون على وشك وضع طفل أو حين تكون مريضة، بل لإتاحة نوم غير متقطِّع لهما، حتى في ليالي الصيف.» الفرق الوحيد في بيت مونتاني وجود قاعة مستطيلة الشكل تقع بأكملها خارج المنزل تفصل ما بين «غرفتَيْهما»، وأن برجه كان أيضًا الغرفة التي يعمل فيها.

هل كان هذا زواجًا ناجحا بمعايير زمنهما؟ رآه بعض المعلقين زواجًا كارثيًا؛ بينما رآه غيرهم زواجًا نموذجيًا بمعايير عصره، بل حتى زواجًا ناجحًا. والخلاصة أنه لا يبدو علاقة رهيبة، بل مجرَّد علاقة غير مُرْضية بشكل بسيط. ربما يمكن تلخيصها كما اقترح دونالد فريم، كاتب سيرة مونتاني، بالتعليق الذي ورد عنها في كتاب **المقالات**: «الغبي هو من يفترض حين يراني أبدو باردًا إزاء زوجتي أحيانًا ومحبًّا لها أحيانًا أخرى أن أيًّا من الهيئتين مصطنَع».

(1) إيرل جورمنجوست: هو إحدى شخصيات مسلسل خرافي تعيش في قلعة جورمنجوست. هو مثقف سوداوي المزاج، يتحرّك ويتصرف آليًا وهو شارد الذهن، ولا يهتم بعائلته، ويكرّس نفسه لحبِّه الوحيد: كتبه (المترجمة).

الحبُّ الأصيل متضمنٌ في قرار مونتاني بإهداء أحد كتبه المنشورة المبكرة لفرانسواز، ألا وهو ترجمة لا بويتي للخطاب الذي كتبه بلوتارخ لزوجته عقب موت طفلتهما. لم تكن الإهداءات المعبِّرة عن افتتان الزوج بزوجته مطابقة لذوق العصر؛ وقد يُنظر إليها على أنها عتيقة وريفية. وعلّق مونتاني بتحدٍّ، «فلندعهم يتكلّمون... أنت وأنا يا زوجتي، فلنعش بالطريقة الفرنسية القديمة». كان لإهدائه نغمة دافئة، بل قال: «لم يعد لي شخصٌ أكثر حميمية منكِ»، الأمر الذي يضعها في مستوى قريب من مستوى لا بويتي.

ربما يكون ما شعر به مونتاني من حب نحو فرانسواز قد تراكم بعد الزواج لا قبله. لقد دخل مونتاني قفص الزوجية مثل سجين عاجز عن المقاومة وُضعت القيود حول رسغيه. «لو ترك لي الاختيار، لاخترت أن أتجنب الزواج حتى من الحكمة نفسها، لو أرادت الزواج مني. لكن الأعراف وممارسات الحياة العادية تجرفنا في تيارها مهما كان ما نزعم أننا نريده». لم يهتم حقًّا بأن ترتَّب له هذه الزيجة: لقد شعر دائمًا بأن الآخرين يفهمون أفضل منه على أي حال. لكنّه ظلّ بحاجة للإقناع بالزواج، حيث كان في حالة ذهنية «غير مستعدّة للزواج ومعارِضة له»، فلو كان حرًّا في الاختيار، لكان من النوع الذي لا يناسبه الزواج إطلاقًا. «الرجال ذوو المزاج الجامح مثلي، الذين يكرهون جميع أنواع الارتباطات أو الواجبات المفروضة عليهم، ليسوا لائقين للزواج بدرجة كبيرة». وبعد ذلك، استغل الظروف بأفضل شكل ممكن، بل حاول حتى أن يظلَّ وفيًّا لزوجته، وقال إن ذلك حدث بنجاح أكثر مما توقّع. وصار راضيًا، بشكل ما، عندما اكتشف أن هذا هو الحال غالبًا مع التطورات التي كان يجدر بالمرء تجنّبها. «ليس فقط للأمور المزعجة، بل لجميع الأمور تقريبًا، فمهما كانت الأمور بغيضة، وشريرة ومنفّرة، يمكن أن تصير مقبولة ببعض الشروط أو في بعض الظروف».

ومن حسن الحظِّ أن فرانسواز في حدِّ ذاتها لم تكن دميمة ولا منفّرة. ويبدو أن مونتاني وجدها جذابة بما يكفي؛ أو هذا ما أكّده صديقه فلوريموند دي ريموند في ملحوظة هامشية في نسخة من كتاب **المقالات**. كانت المشكلة تكمن أكثر في مبدأ الإرغام على ممارسة الجنس بانتظام مع شخص ما، لأن مونتاني لم يحبّ أبدًا الإحساس بأنه مرغم على فعل شيء. كان يفي بواجباته الزوجية على مضض. «بردف واحد فقط» بحسب ما قد يقول، فكان يفعل اللازم للحمل بالأطفال. وأتت هذه المعلومة أيضًا من الملحوظة الهامشية التي دوَّنها فلوريموند دي ريموند، والتي تقول سطورها في نصِّها الكامل:

كثيرًا ما سمعت المؤلِّف يقول إنه بالرغم من زواجه من زوجته الحسناء التي يحبّها كثيرًا، وإنه مفعم بالحبِّ، والرغبة الملحَّة، والشباب، فإنه لم يلاعبها أبدًا، إلا في ما يخصُّ الشرف الذي يتطلّبه فراش الزوجية، ولم يرَ منها أبدًا جزءًا مكشوفًا من جسدها إلا يديها ووجهها، بل حتى لم ير ثدييها، بالرغم من أنه كان لعوبًا ومتهتّكًا إلى أقصى حدٍّ مع النساء الأخريات.

يبدو هذا مريعًا للقارئ الحديث، لكنه كان أمرًا مألوفًا جدًّا. ذلك أن تصرّف الزوج كعاشق ولهان مع زوجته كان خطأً أخلاقيًّا، لأنه يمكن أن يحوِّلها إلى امرأة شديدة الشبق بشكلٍ مَرَضي. كان الجماع في حدّه الأدنى، الخالي من المتعة، هو النوع القويم الملائم للزواج. في مقالٍ خصّصه بأكمله تقريبًا للجنس يستشهد مونتاني بحكمة أرسطو: «الرجل... يجب أن يمس زوجته بتعقّل واتّزان، وإلا فإنه لو احتضنها بشهوانية شديدة فاسقة ستخرجها المتعة عن حدود العقل».

وحذَّر الأطباء أيضًا من أن فرط المتعة يمكن أن يجعل الحيوانات المنوية تتخثر داخل جسم المرأة، مما يجعلها عاجزة عن الحمل. كان من الأفضل أن يمنح الزوج النشوة في مكان آخر، حيث لا يهم نوع الأذى الذي سيسببه. ويحكي مونتاني أن «ملوك فارس اعتادوا على دعوة زوجاتهم لمصاحبتهم في أعيادهم، لكن حين يبدأ النبيذ في تسخينهم بجد ويضطرّون إلى إطلاق العنان للسيطرة التامة للحسّية، كانوا يرسلونهن إلى غرفهنّ الخاصّة». ثم يجلبون مجموعة أخرى من النساء المناسبات.

اتفقت الكنيسة مع أرسطو، والأطباء، وملوك فارس في هذا الموضوع. كانت كتيّبات الاعتراف في ذلك الوقت توضح أن الزوج الذي ينخرط في ممارسات تتّسم بالخطيئة مع زوجته يستحق تكفيرًا أشد عن ذنبه مما لو كان فعل الشيء نفسه مع أحد آخر. فهو حين يفسد حواسَّ زوجته يخاطر بتدمير روحها الخالدة؛ وفي هذا خيانة لمسؤوليته نحوها. فإذا كان لا بد لامرأة متزوجة من أن تلتقط عادات إباحية، من الأفضل أن تلتقطها من أحد لا يحمل تجاهها هذا الواجب. وكما لاحظ مونتاني، كانت معظم النساء يفضِّلن هذا الخيار على أي حال.

مونتاني ملتوٍ بشكلٍ مسلٍ في ما يخص موضوع النساء، ويمكن أن يبدو تقليديًّا أيضًا. لكنّه على عكس بعضٍ معاصريه، لا يبدو أنه اعتبر الزوجات مجرّد أبقار للإنجاب. كان الزواج المثالي لديه عبارة عن التقاء حقيقي بين العقول والأجساد؛ بل أكثر اكتمالًا من الصداقة النموذجية. كانت الصعوبة أنه ليس مثل الصداقة، فالزواج لا يأتي باختيارٍ حرٍّ، فيظلّ بذلك في إطار القيود والواجبات. كما كان من الصعب العثور على امرأة قادرة

على علاقة سامية، لأن معظمهنّ تنقصهنّ القدرات العقلية وخاصّية سمّاها مونتاني «الرسوخ».

إن رأي مونتاني عن الترهّل الروحي للنساء يمكن أن يكون مثبطًا بما يكفي لإصابة المرء نفسه بالترهّل التام. اعترفت جورج صاند بأن هذا الرأي «جرحها حتى أعماق القلب»، ويرجع هذا إلى حدٍّ بعيدٍ إلى أنها وجدت مونتاني ملهِمًا في جوانب أخرى. لكن لا بد من أن يتذكّر المرء ما كانت عليه معظم النساء في القرن السادس عشر. كنَّ للأسف غير متعلِّمات، وغالبًا أميَّات، وكانت خبرتهنّ بالعالم قليلة. استأجرت قليل من العائلات النبيلة معلِّمين خصوصيين للبنات، لكن معظمهم درَّس للبنات أمورًا غير ذات قيمة كبيرة. كما حدث في العصر الفيكتوري: اللغة الإيطالية، والموسيقى، وشيء من الحساب للمساعدة على تدبير المنزل. كان النوع الوحيد من التعليم الذي يستحق أن يتلقاه الإنسان هو التعليم الكلاسيكي، الذي كاد يغيب دائمًا عن تعليم البنات. النساء القليلات المتعلمات حقًّا في القرن السادس عشر كنّ استثناءات نادرة تكاد تنعدم، مثل مارجريت دي نافار، مؤلِّفة المجموعة القصصية المعنونة **هيبتاميرون (الأيام السبعة)**، أو الشاعرة لويز لابّيه، التي (بزعم وجودها حقًّا، وأنها لم تكن اسمًا مستعارًا لمجموعة من الشعراء الذكور كما تلمِّح نظرية حديثة) حثّت النساء الأخريات على «رفع عقولهن قليلًا فوق مغازِلهن وبكرات الغزل».

كانت في فرنسا حركة نسوية في القرن السادس عشر. وقد تكوَنت جنبًا إلى جنبٍ مع «**المعركة حول النساء**»، وهي معركة ملائمة لذوق العصر دارت بين الرجال المثقَّفين الذين صاغوا حججًا مع النساء والذين صاغوا حججًا ضدهنّ: هل كنّ عمومًا شيئًا جيِّدًا؟ بدا أن المؤيدين أحرزوا نجاحًا أكثر من المعارضين، لكن هذا الجدال الخبيث لم يؤثّر كثيرًا بالنسبة لحياة النساء.

غالبًا ما اعتُبر مونتاني مضادًّا للنسوية، لكنه لو كان شارك في هذه **المعركة**، فلربما أخذ صف مؤيدي النساء. كتب مونتاني: «النساء لسن على خطأ أبدًا حين يرفضن قواعد الحياة التي أُدخِلَت على العالم، طالما أن الرجال هم من صنعوها دون مشاركتهنّ». وقد اعتقد مونتاني أن «الذكور والإناث صُبّوا في القالب نفسه» بحكم الطبيعة. وكان واعيًا تمامًا للمعيار المزدوج المستخدم للحكم على السلوك الجنسي للذكور والإناث. شك مونتاني - رغمًا عن أرسطو - في أن النساء لهنّ الشغف نفسه والاحتياجات نفسها التي للرجال، لكنهنّ كن يتعرّضن للإدانة بشكل أشدّ بكثير من الرجال حين ينخرطن فيها. كما أن عاداته المعتادة في التنقّل بين وجهات النظر

وضحت له أن رأيه في النساء يجب أن يكون جزئيًّا ولا يعوَّل عليه كرأي النساء في الرجال. تتلخَّص مشاعره حيال الموضوع بأكمله في ملاحظته: «نحن تقريبًا قضاة غير عدول في الحكم على تصرفاتهنّ في جميع الأشياء، كما هنّ بالنسبة لتصرفاتنا».

على ضوء هذا الظلم، لا يدهشنا أن مونتاني قرّر أن أفضل سياسة يتّبعها في البيت هي أن يغيِّب نفسه عن عالم النساء بقدر الإمكان. تركهنّ يستمتعن بنوع الحياة العائلية الذي يروق لهنّ، بينما استمتع هو بالنوع الذي يعجبه منها. وكتب في مقال عن الوحدة:

> **يجب أن يكون لدينا زوجة، وأطفال، وبضائع، وقبل كل شيء صحّة، إذا أمكننا ذلك؛ لكن ينبغي ألا نربط أنفسنا بهم بشدّة بحيث تتوقّف سعادتنا عليهم. ينبغي أن نحتفظ بغرفة خلف الدكّان تكون ملكنا وحدنا، نكون فيها أحرارًا تمامًا في إقامة حرّيتنا الحقيقية والمكان الأساسي الذي ننفرد فيه بأنفسنا ونمارس وحدتنا. هنا يجب أن يكون حوارنا العادي بيننا وبين أنفسنا، ويكون شديد الخصوصية إلى درجة أنه لا يمكن أن يوجد فيه مكان لمشاركة أو اتصال خارجيين؛ هنا يجب أن نتكلّم ونضحك كما لو لم تكن لدينا زوجة، ولا أطفال، ولا متعلّقات، ونكون بدون حاشية ولا خدم، بحيث إنه حينما يحين فقدهم، لن يكون جديدًا علينا أن نعيش من دونهم.**

العبارة التي تتحدّث عن «غرفة في ظهر الدكان»، أو «الغرفة التي خلف الدكان» كما قد تترجم أحيانًا عن أصلها الفرنسي - boutique arriére - تظهر مرارًا وتكرارًا في الكتب التي عن مونتاني، لكنها نادرًا ما تظل في سياقها. إنه لا يكتب عن انسحاب أناني انطوائي من حياة العائلة بقدر ما يكتب عن الحاجة لحماية النفس من الألم الذي قد ينتاب المرء لو فقد عائلته. سعى مونتاني إلى الانفصال والانفراد بالنفس حتى يمكنه أن يتجنّب حدوث أذًى شديدٍ له، لكنه وهو يفعل ذلك اكتشف أيضًا أن حيازته لهذا المكان الذي ينفرد فيه بنفسه ساعده على إقامة «حرّيته الحقيقية»، الحيّز الذي يحتاجه ليفكّر ويتأمّل في داخل نفسه.

كان لديه بالتأكيد سبب ليعمل في انفصال رواقي. ولما كان مونتاني قد فقد صديقه وأخاه خلال فترة قصيرة، أتى الدور الآن على فقده لجميع أطفاله، وكلّهنّ بنات. أشار إلى التتابع الحزين لولادتهنّ وموتهنّ في يومياته، الدفتر المعروف باسم تقويم اليوميات:

28 يونيو 1570: كتب مونتاني عن ابنته ثوينيتي «هذه أول طفلة يثمرها زواجي»، لكنه أضاف فيما بعد، «وماتت بعد شهرين من ولادتها».

9 سبتمبر 1571: ولدت ليونور - الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة.
5 يوليو 1573: ابنة لم تمنح اسمًا. «عاشت سبعة أسابيع فقط».
27 ديسمبر 1574: ابنة لم تمنح اسمًا. «ماتت بعد حوالى ثلاثة شهور من ولادتها، وعُمّدت على عجل تحت ضغط الضرورة».
16 مايو 1577: ابنة لم تمنح اسمًا؛ ماتت بعد شهر.
21 فبراير 1583: «رزقنا بابنة أخرى سميت ماري وعمّدها السيد دي جوريللاك مستشار
البرلمان، وخالها، وابنتي ليونور. ماتت بعد بضعة أيام من ذلك.

كتب مونتاني أنه فقد معظم الأطفال «من دون حزن، أو على الأقل من دون استياء»، لأنهنَّ كن صغيرات جدًّا. الناس عمومًا يحاولون ألّا يتعلّقوا جدًّا بالأطفال الرضَّع في شهور عمرهم الأولى، لأن احتمال موتهم كبير، لكن مونتاني على ما يبدو أجاد أخذ حذره بشكل استثنائي. وقد اعترف بأن موت بناته كان ابتلاء لم يشعر به بعمق. بل كتب في منتصف سبعينيات القرن السادس عشر عن أنه فقد «طفلتين أو ثلاثًا»، كما لو كان غير متأكّد من العدد، لكن ربما كانت هذه عادته المعتادة في غموض الأرقام عليه. إنها تشبه كثيرًا طريقته في تأريخ حادث ركوب الخيل الذي تعرّض له، الذي قال إنه حدث «أثناء حربنا الأهلية الثالثة، أو الثانية (لا أتذكّر بالضبط أيهما)». وفي إهدائه ترجمته لبلوتارخ إلى زوجته، أورد التفاصيل بشكل خاطئ على نحو أكثر إثارة للذهول، فكتب أن ابنتهما الأولى ماتت «في السنة الثانية من عمرها»، على الرغم من أنها ماتت في الشهر الثاني من عمرها. ربما كانت هذه سقطة قلم أكثر منها زلة عقل. أم هل كانت زلة عقل؟ يشعر المرء أن كل شيءٍ ممكنٍ بالنسبة لمونتاني.

وحدثت نوائب أخرى في الحياة عرف مونتاني أنها لن تضايقه بقدر ما كان ينبغي لها:

> **أشهد الكثير من المصائب التي نادرا ما تأثرت بحصولها، ترفعت عن بعضها عندما حصلت لي، مصائبٌ صوَّرها العالم وكأنها وحش بشع فظيع، فلم أجرؤ على التبجح بلا مبالاتي بها أمام الناس من دون أن يحمرَّ وجهي.**

يتساءل المرء عما إذا كان يفكِّر هنا في إمكان موت زوجته، أو ربما موت أمّه. إذا كان الأمر كذلك، لم يحالفه الحظ في الحالتين. أم ربما كان يفكّر في موت والده، أو يتساءل ماذا كان سيصير إليه الحال إذا كانت قلعته قد نُهبت أثناء الحروب، أو حُرقت

أراضيه. يبدو أنه وجد أنه يمكن تدبر أمر أي شيء إلا موت لا بويتي: كان هذا هو الشيء الذي أصابه بالضربة القاضية التي أفقدته توازنه وجعلته غير مرحّب بأن يتعلّق بأحد إلى هذا الحدّ مرة أخرى.

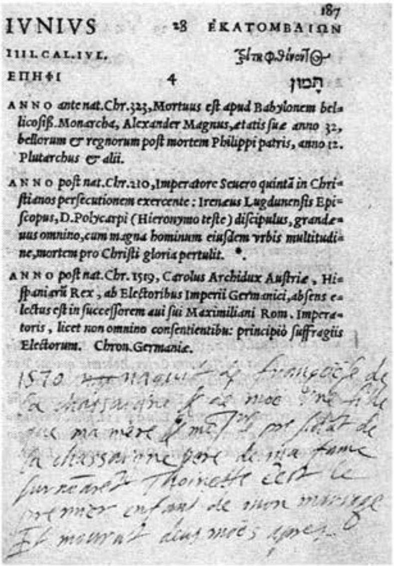
187

IVNIVS 28 ἙΚΑΤΟΜΒΑΙΩΝ

IIII. CAL. IVL.

ΕΠΗΦΙ 4 תָּמוּז

ANNO ante nat. Chr. 323, Mortuus est apud Babylonem bellicosiß. Monarcha, Alexander Magnus, ætatis suæ anno 32, bellorum & regnorum post mortem Philippi patris, anno 12. Plutarchus & alii.

ANNO post nat. Chr. 210, Imperatore Seuero quintã in Christianos persecutionem exercente: Ireneus Lugdunensis Episcopus, D. Polycarpi (Hieronymo teste) discipulus, grandæuus omnino, cum magna hominum eiusdem vrbis multitudine, mortem pro Christi gloria pertulit.

ANNO post nat. Chr. 1519, Carolus Archidux Austriæ, Hispaniarũ Rex, ab Electoribus Imperii Germanici, absens electus est in successorem aui sui Maximiliani Rom. Imperatoris, licet non omnino consentientibu: principiò suffragiis Electorum. Chron. Germaniæ.

بند يسجل موت ثوينيتي ابنة مونتاني، من تقويم يوميات مونتاني
M. Beuther Ephemeris Historica (Paris: Fezandat,1551.
نسخة مونتاني، ص 28 يونيو من اليوميات. Bibliothèque municipal de
.Bordeaux

يرجَّح في الواقع أن يكون انفصاله عن الناس أقلّ تطرفًا مما ادّعى. ملحوظاته المكتوبة عن موت أطفاله عاديّة لكنها لاذعة. كان يمكن لمونتاني أن يتحدّث بفصاحة عن الحزن الأبوي في كتاب **المقالات**؛ وليس مجرّد حزنه الخاص. تسهب مقالته عن الحزن، التي كتبت في منتصف سبعينيات القرن السادس عشر حين كان قد فقد عدة أطفال بالفعل، في ذكر قصص الفواجع التي تحلّ بالآباء في الأدب. وكتب بشكل مفعم بالإحساس أيضًا عن القصة القديمة عن نيوب، التي بكت بحرقة بعد فقدها لسبعة أبناء وبعدهم سبع بنات، إلى أن تحوَّلت لشلّال صخريٍّ «لتمثيل هذا الذهول الكئيب، والأبكم، والأصم الذي يخدِّرنا حين تحلّ بنا حوادث تتجاوز قدرتنا على التحمّل. سواء كان مونتاني قد فقد أطفاله أم لا فقد أعطاه هذا ذلك الإحساس، فهو بالتأكيد يعرف ما هو ذلك الإحساس.

فشل مونتاني في المسؤولية الأساسية للرجل النبيل، ألا وهي أن يكون له وريثٌ ذكرٌ لضمان نقل الإرث إليه. لكن كانت له طفلة واحدة بصحّة جيدة، هي ليونور Léonor، وصار مغرمًا بها كلّما نمت وتجاوزت فترة الرضاع. ولدت ليونور في 1571، فلا بد من أن أمَّها حملت بها بعد فترة قصيرة من تقاعده الرسمي في 1570. بذلك أضحت ليونور طفلة أزمة منتصف العمر التي مرّ بها مونتاني، وطفلة ميلاده الروحي الثاني؛ وربما أعطاها هذا جرعة إضافية من قوة الحياة. ليونور الوحيدة التي عاشت من بنات مونتاني حتى العام 1616، وتزوجت مرتين وأنجبت ابنتين.

وبينما كانت ليونور تنمو وتكبر سلَّمها والدها في معظم الأحوال إلى مجال النساء، كما كان ينبغي له أن يفعل. كتب مونتاني بنغمة توحي بأن أحدهم يتسلّل على أطراف أصابعه مبتعدًا عن مكان غير مرغوب في وجوده به «لحكومة النساء طريقة غامضة في تسيير الأمور؛ لا بد من أن نتركها لهنَّ». حقًّا، عندما سمع مرة عرضًا شيئًا اعتقد أنه ضار بليونور، لم يتدخّل، لأنه كان يعرف أن رأيه سيحظى بالتجاهل والسخرية. كانت ليونور تقرأ لمربّيتها كتابًا بصوت مرتفع؛ وكان بالنصِّ كلمة fouteau، بمعنى خشب الزان، لكنها تذَكِّر بكلمة foutre التي تعني يمارس الجماع. لم تفكِّر الطفلة البريئة في أن في الأمر شيئًا، لكن مربّيتها ارتبكت وأسكتتها. شعر مونتاني بأن هذه غلطة: «لم تكن صحبة عشرين خادمةً قادرةً على أن تطبع في خيالها في ستة شهور فهم هذه المقاطع الشريرة واستخدامها وجميع عواقبها كما فعلت هذه المرأة العجوز الطيّبة بتوبيخها للبنت وإحراجها لها». لكنه سكت.

وصف مونتاني ليونور بأنها كانت تبدو أصغر من سنِّها، حتى حين بلغت سن الزواج. كانت «ذات بنية جسدية متأخِّرة، فشبّت رقيقة وناعمة». واعتقد مونتاني أن هذا من فعل زوجته: لقد عزلت البنت بأكثر مما يجب. لكن مونتاني وافق أيضًا على أن يمنح ليونور تنشئة سهلة سارّة كتنشئته؛ كتب أنهما قررا معًا أنها يجب ألّا تعاقب بما يزيد عن الكلمات الحازمة، وحتى حينئذ لا بد من أن يكون العقاب «بكلمات شديدة الرقة».

وعلى الرغم من تأكيده على أن علاقته بحياة غرفة الأطفال كانت ضئيلة، فقد أعطتنا مقاطع أخرى من كتاب **المقالات** صورة ساحرة لمونتاني في نطاق العائلة. يصف مونتاني لعبه مع ابنته، بما في ذلك ألعاب الحظ التي يلعبانها بمبالغ قليلة: «أوزّع ورق الكوتشينة وأسجِّل النتائج مقابل ملِّيمات قليلة مثل قطعتين من العملة فقط». وكانا يتسلّيان بألغاز الكلمات، «كنا الآن في منزلنا نلعب لعبة لنرى من سيمكنه

ذكر أكثر الأشياء التي تتقابل عند أقصى طرفيها»، مثل كلمة «مَوْلَى» التي تصلح لقبًا للملك وطريقة لمخاطبة الحرفيين البؤساء، أو «سيدة» التي تُقال للنساء ذوات المنزلة العليا وذوات المنزلة الأدنى. هذا ليس مونتاني البارد، المنفصل عن الناس، محتقر النساء، ومتجاهل الأطفال، لكنه رجل عائلة، يبذل أقصى ما في وسعه للعب دور الأب اللطيف في بيت مليء بالنساء اللاتي ينظرن إليه في معظم الأوقات بنظرة تزيد قليلًا عن نظرة السخط.

المسؤوليات العملية:

استحق مونتاني بعضًا من هذا. كان، كما اعترف، بلا فائدة في المنزل. فضّل ترك تدبير المنزل لزوجته، التي كانت ماهرة مثل أمّه في مثل هذه الشؤون. أحب ترحيب فرانسواز بتحمّل هذه المسؤوليات حين كان يبتعد عن البيت في رحلاته أو للعمل، وكان على الأرجح يشعر بالشعور نفسه حين يكون في البيت أيضًا. من أهم أسباب فرحه عمومًا بمغادرة المنزل أنه لم يكن يجيد إدارته. وكتب: «من المؤسف أن تكون في مكان كل ما تراه فيه واجب عليك ويهمّك».

لا بد من أن رعاية الضيعة كان لها جانبها المزعج. اشتكى مونتاني قائلًا: «يوجد دائمًا شيء يجري بشكل خاطئ». كان العمل الأساسي الذي يحتاج لإدارة هو إنتاج النبيذ، الذي كان يمكن أن تنتج منه الضيعة عشرات الآلاف من الليترات سنويًا في العام الذي يطيب فيه الإنتاج. ولم يكن الإنتاج يطيب في جميع الأعوام. فقد دمّر الجو العاصف المحاصيل في العام 1572 والعام 1573 والعام 1574، وهي السنوات التي كتب فيها مونتاني مقالاته الأولى. وجاءت فترة سيئة أخرى في العام 1586، حين طاف الجنود بالأرياف القريبة، متسبّبين بالدمار. تمكّن مونتاني من تعويض بعض الخسائر باستخدام نفوذه في البرلمان في بوردو لبيع القليل الذي تبقّى من نبيذه، مما يوضح أنه تمكّن من معالجة المصاعب حين أراد ذلك. يمكن قياس مجمل تمكّنه من القبض على زمام إدارة أعماله، لكنه باعترافه لم يكن يعرف معنى «تخمير النبيذ» حتى فترة متأخّرة من عمره.

فعل مونتاني ما كان عليه فعله، لكنه اعترف بأنه لم يستمتع به، وأنه فعله بأدنى قدر ممكن من الجهد. كان هذا هو السبب في أنه لم يحاول التوسّع أو البناء على أرض الضيعة. تولى بيير مشروعات مثل هذه لأنها كانت أعمال تجلب له المتعة وتشكّل له تحدّيًا، لكن هذا كان بيير. كان من نوع الرجال الذين سيشغلون أنفسهم اليوم بعمل أشياء بطريقة اصنعها بنفسك، وربما يتركون نصف ما يصنعونه دون إتمام. فإذا كان

نوع بيير يبدو مألوفًا، فكذلك حال نوع مونتاني، الذي لا بد أن يكون شعاراه: «أدفع أي شيء مقابل حياة هادئة»، و«إذا لم ينكسر الشيء لا تصلحه».

فإذا ألحّت عليه الرغبة في فعل شيء، يمكن أن يكرّس نفسه لإتمامه بكامل طاقته. «أنا أجيد التصدي للعمل تحت ضغط العمل الشاق؛ لكنّي أفعل هذا فقط لو ذهبت له بدافع من إرادتي الشخصّية، وبقدر ما تقودني رغبتي إليه». كان يكره إرهاق نفسه في عمل أشياء تسبِّب له الملل. كتب أنه خلال ثمانية عشر عامًا من إدارة الضيعة لم يحدث أبدًا أنه تمكّن من دراسة سند ملكية أو فحص عقد بشكل مضبوط. كان كتلة من انعدام القدرات في العمل:

> **لا يمكنني الإحصاء، لا باستعمال العدادات ولا القلم والورق: لا أعرف معظم عملاتنا؛ كما لا أعرف الفرق بين حبّة من النباتات وأخرى، سواء أكانت مزروعة في الأرض أم موجودة في المخزن، إلا لو كانت شديدة الوضوح، ولا أكاد أتمكّن من تمييز الفرق بين الكرنب والخس في حديقتي. بل إني أعجز عن فهم أسماء الأدوات المنزلية الأساسية ولا أبسط مبادئ الزراعة، التي يعرفها الأطفال. بل إني أعرف أقلّ من هذا عن فنون الميكانيكا، والتجارة، وتسويق البضائع، وعن تنوّع الفواكه، وأصناف النبيذ، والأطعمة وطبيعتها، وعن كيفية تدريب طائر، أو عن تطبيب حصان أو كلب. وحتى يكون عاري مكتملا، لم يمضِ شهرٌ بعد منذ ضبطوني متلبِّسا بالجهل بأن الخميرة تُستخدم لصناعة الخبز.**

كان مونتاني يراجع تعليقاته السلبية على جوانب فشله بالطريقة نفسها التي راجع بها قائمة الأشياء التي لا توجد في حياة «آكلي لحوم البشر» في البرازيل. كانت جوانب فشله تتلخّص في التعامل مع الخدم، والموظفين العموميين، والعقود، والأملاك الخاصّة، لكن للأسباب نفسها، كان يراجع أيضًا الكذب، والفقر، والغدر، والحسد، والجشع؛ وهي أمور قد يكون غيابها من حياة المرء نعمة.

لم يكن الأمر أن مونتاني لا يريد التعلّم. فقد أقرّ مبدئيًّا تعلُّم كيفية عمل الأشياء بطريقة عمليّة، فكان معجبًا بكل ما هو ملموس ومحدَّد بشكلٍ خاصٍّ. لكنّه لم يتمكّن من مقاومة عدم اهتمامه، وأي إحساس بالقهر كان يجعله أكثر مقاومة. يرجع بعض هذا إلى سماعه لنغمات العود الرقيقة في طفولته: «لم يُفرَض عليّ حتى اليوم أي حاكم ولا سيد بالغصب. كنت أذهب إلى حيث يروق لي، وبسرعتي الخاصة؛ مما جعلني

رقيقًا ولا جدوى مني في خدمة الآخرين، ولا نفع لي لأي شخص إلا لنفسي». تكشف هذه الفقرة بعضًا من دوافعه الحقيقية؛ كان يريد أن يعيش حياته هو. لم يكن عمليًا، وقد جعله هذا حرًّا. ولخَّص شخصيته بقوله إنه كان «شديد الكسل، شديد الاستقلال، سواء بحكم طبيعتي أم بحكم الصنعة». كان ما يحكمه «الحرية والكسل».

كان يعرف أنه يجب أن يدفع ثمن هذا، وبغض النظر عن أن زوجته كانت توبّخه، كان الناس دائمًا يستغلُون جهله. لكن بدا له أن من الأفضل أن يخسر مالًا من وقت لآخر عن أن يهدر وقته في تتبّع كلِّ مليم ومراقبة أضأل نأْمة تصدر عن خَدَمه. وعلى أي حال، كان الآخرون يتعرّضون للخداع أيضًا، مهما حاولوا منع ذلك. كان مثاله المفضَّل للحماقة جارٌ له، هو الألماني القوي جاستون دي فويكس، ماركيز دي ترانس، الذي تحوَّل إلى بخيل وطاغية في بيته حين تقدَّمت به السنّ. تركته أسرته وخدمه يتشدّق بلومهم، وقبلوا على مضض تضييقه عليهم في توزيع حصص الطعام، بينما كانوا يأكلون دائمًا من وراء ظهره. «كان الجميع يرتعون في رغد العيش في بيته، يقامرون، وينفقون، ويتبادلون الحكايات عن غضبه وبصيرته اللذَيْن بلا طائل». ويضيف مونتاني أنه عند إعادة التفكير في الأمور، لم يكن الموضوع يهم، حيث إن الرجل العجوز كان مقتنعًا أنه أحكم قبضة نفوذه المطلق على البيت، ومن ثم كان سعيدًا كأسعد ما ينبغي لشخص مثله.

كتب مونتاني: «لم يكلفني شيء قدر ما كلّفني الاهتمام والمشكلات، كل ما أسعى إليه أن أنمو لا مباليًا ومتراخيًا». يمكن للمرء أن يتخيَّل باسكال وضغط دمه يرتفع عند قراءته لهذا السطر. زعم مونتاني أن أعز ما يرغب فيه عند تقدّمه في السن زوج ابنة يحمل عنه جميع مسؤولياته. وفي الواقع، كان الذي عاون مونتاني ولبى رغباته شخصٌ غريبٌ، ربما اندفع حبّه للاستقلال في شكل احتجاج. وأتبع هذا التعليق عن زوج الابنة بموجة من تصريحات مخالفة له:

> **أتجنّب تعريض نفسي لأي نوعٍ من الإكراه.**
> **أحاول ألا يكون عندي احتياجٌ صريح لأي شخص... فمن المثير للشفقة والخطير أن تعتمد على شخص آخر.**
> **لقد حملت كراهية أخلاقية لأن يُكرهني أحد على شيء، سواء كان الإكراه لعمل شيء لصالح شخص آخر أو وقع عليَّ بفعل شخص آخر غيري.**

لم يكن مونتاني يفكِّر في تدبير المنزل حين كتب هذا؛ بل كان الموضوع يتعلّق

بالتزامه في فترة متأخرة من حياته بتأييد ملك فرنسا الجديد، هنري الرابع، الذي بدا أنه يريد مونتاني رهن إشارته وطوع بنانه. سيقاوم مونتاني هذا بعزم يقترب من العجرفة، وهو ما كان إلى حد بعيد اتجاهه نحو متطلّبات أكثر ارتباطًا بالبيت. كان الكسل مجرّد نصف الوصف الشخصي لنفسه، والحرية النصف الآخر. بل تخيّل أن يصير مثلًا هيبياس الإليسي، وهو فيلسوف إغريقي محبًا للحكمة من القرن الخامس قبل الميلاد، تعلّم أن يكون مكتفيًا بذاته، فعلَّم نفسه الطهو، وصناعة ملابسه وأحذيته بنفسه، وكل ما يحتاجه. كانت فكرة طيبة. ومع ذلك، هل كان مونتاني مكتفيًا بذاته، يُصلح سترته بالإبرة والخيط، ويعزق حديقته، ويخبز الخبز، ويدبغ الجلد ليصنع منه أحذيته؟ حتى مونتاني نفسه لا بد من أنه رأى أن هذا شيء صعب تصوره.

وكعادته، ترك الموضوع بأسره يقبع وسط تناقض وأجواء تسوية. فإذا فشلت احتجاجاته بعدم الكفاية في إنقاذه من مسؤولية معينة، فسوف يشمِّر عن ساعد الجد ويؤدي العمل على أي حال، وربما أدّاه بضمير أكثر مما يرغب في الاعتراف به.

كتب نيتشه عن «ناس معينين ذوي أرواح حرّة» يكتفون تمامًا «بمنصب صغير أو ثروة ضئيلة تكفي احتياجاتهم فقط؛ لأنهم سيكرِّسون أنفسهم للعيش بطريقة يعجز حيالها التغيير الهائل في الأحوال الاقتصادية، بل الثورة في الهياكل السياسية عن قلب حياتهم رأسًا على عقب». ويضيف أن مثل هذا الشخص يميل إلى أن يكون «حذرًا ومختصِرًا إلى حدٍّ ما» في علاقاته بمن حوله. يبدو هذا شبيهًا بترتيب بيت مونتاني إلى حد بعيد حتى إنك قد تتساءل متعجّبًا عما إذا كان نيتشه يفكِّر في مونتاني، خاصّة حين يضيف أن هذا الشخص «لا بد من أن يثق في أن روح العدالة ستقول شيئًا في صالح مريدها المنضوي تحت حمايتها إذا علا صوت من يتهمونه بأنه فقير في الحب».

في حالة مونتاني، كان صوته أول صوت علا ناطقًا بهذا الاتهام الفظيع. اعتبر الآخرون هذا تشجيعًا لهم عليهم أن يكرِّروه منذئذ، بصوتٍ خشنٍ، ومن دون الحسِّ الساحر الذي لدى مونتاني ونيتشه كليهما. لكن كتابة مونتاني وشخصيته لم يكن فيهما أبدًا أيُّ شيءٍ مستقيم. فمهما حاول إقناعنا بأنه باردٌ ومستقلٌ عن ما حوله، تنهض صور أخرى أمام عين العقل: مونتاني وهو يهبُّ واقفًا في البرلمان لينهمك في جدال ساخن، مونتاني وهو يحاور لا بويتي محاورات متّقدة بالحماسة، بل مونتاني وهو يلعب ألعابًا مقابل مليمات مع زوجته وابنته بجوار المدفأة. بعض إجاباته عن سؤال كيف تعاش الحياة كانت باردة حقًّا: لا دخل لك، حافظ على إحساسك بنفسك، ابتعد عن المشاكل وحافظ على غرفتك التي خلف الدكان. لكن توجد إجابة أخرى هي على العكس تمامًا من ذلك. إنها...

9. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟

ج: كنْ سهْلَ المعْشرِ: عشْ مع الآخرينَ

حكمة بهيجة ودودة:

يكتب مونتاني: «توجد طبائع خاصّة، وخجولة، ومنطوية». وطبعه ليس واحدًا منها:

> **نمطي الجوهريّ يناسبه التواصل والإفضاء. أنا أعيش في مكانٍ مفتوحٍ تمامًا وأنا مرئي تمامًا، وُلِدْتُ للصُّحبة والصّداقة.**

كان مونتاني يحب الاختلاط. وكان يستمتع بالحوار أكثر من أي متعة أخرى. وكان يعتمد عليه جدًّا إلى درجة أنه يفضّل أن يفقد بصره عن أن يفقد سمعه أو قدرته على الكلام، لأن الكلام أفضل من الكتب. لم يكن بحاجة إلى أن تكون له طبيعة جادّة؛ «أكثر ما يحبّه حضور البديهة الحادة السريعة التي تقدِّمها المعنويات الجيّدة والألفة للأصدقاء، فيتبادلون الدعابات والمزاح مع بعضهم البعض بمهارة وحماسة». أيُّ حوار شيء جيّد، طالما كان رفيقًا وودودًا. لا بد من تشجيع الأطفال على هذا النوع من النِّعَم الاجتماعية في سنٍّ مبكرة، لإخراجهم من عوالمهم الخاصّة. «يمكن أن يكتسب الناس ألمعية رائعة في الحكم البشري على الأشياء عن طريق معرفتهم بالرجال. جميعنا متعجِّلون ومركَّزون في أنفسنا، ورؤيتنا مختزلة إلى حدود طول أنوفنا».

كان مونتاني يحبُّ الجدال المفتوح. «لا يدهشني أي رأي، ولا يسيئني أي اعتقاد، مهما تعارض مع اعتقادي». كان يحبُّ أن يعارضه الآخرون، حيث إن هذا يفتح حوارات أكثر أهمية ويساعده على التفكير - وهو شيء كان يحبُّ عمله عن طريق التفاعل المتبادل لا عن طريق التحديق في لهب المدفأة مثل ديكارت -. وصف صديقه فلوريموند دي ريموند حواره بأنه «الأحلى والأغنى باللطافة». لكن حينما لا يشعر مونتاني بأنه حلو، أو حين يجرفه موضوع حوار، يمكنه أن يصير جعجاعًا تقوده حماسته إلى قول أشياء طائشة، وكان يشجع الآخرين على فعل الشيء نفسه. كان قانون بيته حريّة التعبير. قال مونتاني إن ضيعته لم يوجد فيها أبدًا أي «تخديم على

الناس ولا مرافقين لهم عند حضورهم وانصرافهم، وغير ذلك من الالتزامات المتعبة بقواعد السلوك (أوه! يا لها من ممارسة عبودية وشاقّة!).» كان الجميع يتصرّفون كما يحلو لهم، وأي ضيف يتوق للوحدة يمكنه أن يذهب أيضًا ويفعل ما يريده بقدر ما يحب، من دون أن يسبب هذا إحساسًا بالإساءة للآخرين.

وعلاوة على تخلّص مونتاني من الإتيكيت الرسمي، لم يكن يشجّع الحديث الصغير المملّ. كانت التصرفات المنفردة الخجولة تسبّب له الملل أيضًا. كان يمكن لبعض أصدقائه أن يسعدوا المجموع لعدة ساعات عن طريق حكي روايات، لكن مونتاني كان يفضِّل الأخذ والعطاء بطريقة طبيعية. وعندما يكون في دعوة غداء خارج البيت، حين يكون الكلام مجرّد حديث تقليدي، يتشتت انتباهه؛ فإذا وجّه له أحدهم الكلام فجأة، فكثيرًا ما كان يردّ بردود غير ملائمة «لا تليق بطفل». وكان يندم على ذلك، لأن الحوار السهل في أوضاع عادية كان قيِّمًا؛ فقد كان يفتح الطريق لعلاقات أعمق، ولأمسيات أكثر بهجة حيث يمكن للمرء أن يمزح ويضحك براحته.

لم يكن «الاسترخاء وحسن المعشر» بالنسبة لمونتاني، مجرّد مواهب نافعة؛ بل كانا مهمّين للعيش الرغد. حاول تنمية ما سمّاه «حكمة بهيجة ودودة» - وهي عبارة تستدعي للذهن تعريفًا شهيرًا للفلسفة قال به نيتشه، إذ وصفها بأنها علم «مبهج» أو «مفرح». كان نيتشه - مثل الليبرتينيين - يتّفق مع مونتاني في أن المهم هو الفهم الإنساني الودود، على الرغم من أن نيتشه نفسه وجده صعبًا. كانت علاقاته غالبًا عسرة. لكنه كتب في مقطوعة تمسّ شغاف القلب من كتابه المبكر إنسان مفرط في إنسانيته Human All Too Human:

> **المَوَدَّة Wohlwollen من الأشياء الصغيرة لكنها ذات كثافة لا نهائية؛ ومن ثم فهي شديدة الفعالية، ويجب على العلم أن يفطن إليها أكثر مما يفطن إلى الأشياء العظيمة النادرة، أعني تلك التعبيرات ذات الاتجاه الودود في التّعامل مع الناس: ابتسامة العين، وتشابك الأيدي، والسهولة التي عادة ما تغلّف جميع المعاملات بين البشر تقريبًا. كلّ معلِّم وكلّ موظّف يضع هذه المفردات ضمن ما يعتبره واجبه. إنه المظهر المستمر لإنسانيتنا، شعاع ضوئها، إذا جاز القول، الذي ينمو فيه كل شيء... الطبيعة الطيبة، والود، والكياسة... أسهموا بشكل أعظم في الثقافة، أكثر مما أسهمت به ما أسموه التعبيرات الأكثر شهرة لهذا الدافع: الشفقة، والأعمال الخيرية، والتضحية بالنفس.**

كانت المودّة التي يأنس إليها الإنسان تأتي بسهولة في معظم الأوقات لمونتاني. وكان هذا من حسن الحظ، لأنه كان في حاجة شديدة إليها في البيت وفي الحياة المهنيّة كليهما. كان عليه أن ينسجم جيّدًا مع الزملاء في بوردو؛ وبعد ذلك، تطلَّب منه عمله أن يوسّع نطاق معاملاته بأن يستميل الدبلوماسيين، والملوك وجنرالات الحرب المرعبين. كان كثيرًا ما يضطر لإنشاء علاقة مع معارضين أعماهم التعصّب الديني. وكان من المهمّ أيضًا أن يتواصل اجتماعيًّا مع الجيران في محيط الضيعة، ولم يكن هذا شيئًا سهلًا دائمًا. وهم يَظهرون من حين إلى آخر في كتاب **المقالات**، وقد ألحق بهم مونتاني غالبًا قصصًا نابضة بالحياة، مثل الماركيز دي ترانس البخيل، الذي كانت عائلة فويكس التي ينتمي لها ذات سطوة شديدة في المنطقة؛ وجان دي لويزيان، الذي أرهق نفسه بتنظيم الكثير من الحفلات لأولاده الكبار؛ وفرانسواز دي لا روشفوكو، التي كانت تعتقد بأن نفض المرء لمخاط أنفه في المنديل تصرّف مقزِّز وأنه من الألطف استخدام الأصابع فقط لذلك الغرض. وكرَّس مونتاني فصولًا فردية لبعض نبيلات المنطقة: ديان دي فويكس، كونتيسة دي جارسون؛ ومارجريت دي جراموند؛ ومدام ديستيساك، التي صحب ابنها في ما بعد مونتاني إلى إيطاليا. وعقد مونتاني قبل أي شيء صداقة مع المرأة التي صارت عشيقة هنري دي نافار (الذي سيصير في ما بعد هنري الرابع)؛ وهي ديان داندوينز، كونتيسة دي جيش إي دي جرامونت، والتي تُعرف عادة باسم «كوريساند» تيمّنًا بشخصية في إحدى روايات الفروسية المفضَّلة لديها.

كان على مونتاني أن يشارك في الكثير من أنواع التسلية المناسبة لذوق عصره والتي كان يكرهها بشكلٍ خاصٍّ؛ لكي يساير هؤلاء الأصدقاء. فحين يكون لديه ضيوف، قد يجعل غزالًا من غابته يبرز لهم من مكمنه، بقدر ما كان يحجم هو عن الصيد. وأحرز مزيدًا من النجاح في تجنّب المبارزة، التي اعتقد أنها قتل بلا طائل. وحاول أيضًا التملّص من أنواع التسلية التي كانت تمارس في البيت في هذه الفترة، وتشمل ألعاب الشعر، وألعاب الورق وألغاز الرسوم والرموز، ربما لأنه، باعترافه، لم يكن بارعًا فيها.

وكثيرًا ما كان المؤدّون المتجوّلون يزورون بيته؛ لاعبو الأكروبات، والراقصون، ومدربو الكلاب التي تؤدّي ألعابًا، و«الوحوش» الآدميّة. وكلهم يستميتون لكسب العيش بالتجول في البلد. كان مونتاني يتحمّلهم، لكنه لم يتأثّر بعروض ذوي البراعات الغريبة مثل العرض الذي يلقي فيه رجل بحبات من الدخن من خلال عين إبرة من على بعد مسافة. كان أكثر اهتمامًا بالبدع الجديدة التي تحمل معنًى، مثل جماعة التوبينامبا

Tupinambá[1] التي قابلها في روين. وكان يسافر لمسافات طويلة ليفحص تقارير المواليد ذوي العيوب الخلقية، مثل تقرير عن طفل ولد وقد التصق بجذعه طفل آخر بلا رأس. وزار راعي غنم خنثى في ميدوك، والتقى برجلٍ بلا ذراعين يمكنه استخدام قدميه لتعبئة مسدس وإطلاق النار منه، ولضمّ خيطٍ فيٍ إبرة، والخياطة، والكتابة، وتمشيط شعره، ولعب الورق، وعاش بعرض نفسه، مثلما يعرض رامي حبّات الدخن مهارته، لكن مونتاني وجده أكثر إثارة للاهتمام من رامي حبّات الدخن. كتب مونتاني أن الناس يتحدّثون عن «الوحوش» الآدمية، لكن هؤلاء الأفراد لا يناقضون الطبيعة، بل يناقضون العادات. وحين يتعلّق الأمر بشيء غريب حقًّا، لا شكَّ في أن مونتاني يعتقد بأنه يستحقّ الفوز بالجائزة:

> **لم أرَ في العالم معجزة وحش آدمي واضحة مثلي. نحن نعتاد أيَّ شيء غريب بالاستخدام وبالوقت؛ لكن كلّما ازداد رجوعي إلى نفسي ومعرفتي بنفسي، أزدادُ دهشةً بتشوّهي، ويقل فهمي لنفسي.**

هكذا كانت الضيعة مفارق طرق مزدحمة، تخترقها تيارات من الناس في جميع الاتجاهات. كان الجو أشبه بجو قرية منه بجو بيتٍ خاصٍّ. حتى حين كان مونتاني يذهب إلى برجه ليكتب، نادرًا ما كان يعمل وحده في صمت؛ إذ كان الناس يتكلّمون ويعملون حوله؛ وكان السيّاس خارج نافذته يقودون الجياد جيئة وذهابًا من الاصطبل وإليه، بينما كانت الدجاجات تقوقئ والكلاب تنبح. وفي موسم صناعة النبيذ، كان الهواء يمتلئ بأصوات قعقعة المعاصر. وحتى في أوج الحرب، زاد مونتاني من فتحه لممتلكاته للعالم أكثر مما فعل غيره، وهو قرار نادر في مثل هذه الأوقات الخطرة.

صار عالَم مونتاني بطريقة ما عالمًا خاصًّا في حدٍّ ذاته. له قيَمه ويتمتّع بجو من الحرّية. لكنه لم يجعله حصنًا أبدًا. فقد أصرّ على الترحيب بكلّ من يصل إلى البوابة، على الرغم من أنه كان يعرف ما ينطوي عليه ذلك من مخاطر، واعترف بأنه يعني أن تذهب للفراش وأنت لا تعرف هل سيقتلك جندي متجوّل أو متشرّد أثناء نومك. لكن المبدأ كان شديد الأهمية عنده. حين كتب مونتاني: «أنا أعيش في مكانٍ مفتوحٍ تماماً وأنا مرئي تمامًا»، لم يكن يشير فقط إلى الثرثرة الاجتماعية؛ بل عنى أنه يريد أن يظلَّ في تواصلٍ حرٍ أمينٍ مع البشر الآخرين، حتى من يبدو منهم مصمِّمًا على قتله.

---

(1) هي واحدة من الجماعات العديدة التي تألفت منها مجموعة التوبي العرقية والتي سكنت البرازيل قبل الاحتلال البرتغالي لتلك لمنطقة.

الانفتاحُ والرحمةُ والقسوةُ:

نقلا عن جيوفاني بوتيرو، وهو كاتب سياسي إيطالي عاش في فرنسا في ثمانينيات القرن السادس عشر، كان الريف الفرنسي في ذلك العِقد حافلًا باللصوص والقتلة؛ حتى إن جميع البيوت كانت ملزمة «باستخدام الترابيس والأقفال وكلاب حراسة من فصيلة الماستيف لحراسة كروم العنب والبساتين؛ والبوابات». الظاهر أن بوتيرو لم يزر ضيعة مونتاني؛ فالوحيد المعيَّن للدفاع عنها شخص يصفه مونتاني بأنه «بواب ذو طباع عتيقة وسلوك مهذّب متمسِّك بالشكليات، لا يخدم للدفاع عن بابي بقدر ما يضيف إليه المزيد من التهذيب والرونق».

عاش مونتاني على هذا النحو لأنه كان مصمِّمًا على مقاومة التخويف، ولم يرد أن يصبح سجّانًا لنفسه. لكنه - للمفارقة - كان مقتنعًا أيضًا أن انفتاحه جعله أكثر أمنًا. عانت البيوت ذات الحراسة المشدّدة في المنطقة من الهجمات أكثر بكثير مما عانى بيته. واستشهد مونتاني بسينيكا على سبيل تفسير هذا الأمر: «الأماكن المغلقة تدعو إليها اللصّ، السّارق يمر بجوار المكان المفتوح مرور الكرام». الأقفال تجعل المكان يبدو قيِّمًا، وقد لا يوجد أي نوع من المجد في سرقة بيت يستقبلك فيه بواب مسنٌّ. كما أن القواعد المعتادة للتحصينات لا تنفع في الحرب الأهلية: «قد يكون خادمك من الطرف الذي تخشاه». لا يمكنك إغلاق البوابات لصَدِّ تهديد يوجد داخلها بالفعل؛ من الأفضل بمراحل أن تكسب العدو بالتصرّف معه بكرم وشرف.

وبدا أن الحوادث تثبت أن مونتاني على حقّ؛ إذ دعا مرةً فرقة من الجنود إلى بيته، فاكتشف أنهم كانوا يدبرون لاستغلال كرم ضيافته والاستيلاء على المكان. لكنهم تخلّوا عن خطتهم وأخبر قائدهم مونتاني بالسبب، فقال إن مرأى «وجه مضيفه وصدقه نزعا سلاحه».

كما أن انفتاح مونتاني حماه أيضًا من العنف في العالم الخارجي. كان مرة مسافرًا عبر غابة في منطقة ريفية خطرة، وهاجمه رجال ملثّمون يبلغ عددهم ما بين خمسة عشر وعشرين رجلًا، تلتهم موجة من قاذفي السهام الذين يمتطون الخيل، وهذا اعتداء مهول، من الواضح أن مرتكبيه خطَّطوا له مسبقًا. اقتادوه إلى جزء كثيف الأشجار من الغابة، وسلبوا متعلِّقاته، وأخذوا حقائب سفره وصندوق نقوده، وناقشوا كيف يقسمون خيوله وغيرها من المعدّات على أنفسهم. والأسوأ أنهم عنَّت لهم فكرة أخذه رهينة ليحصلوا على مزيد من المكاسب، لكنهم لم يتمكّنوا من تقرير مبلغ الفدية الذي سيطالبون به. سمعهم مونتاني عرضًا يتجادلون في الأمر، وأدرك أن من المرجَّح أن

يطلبوا مبلغًا كبيرًا، مما يعني موته إذ لن يستطع أحد أن يدبّره ويدفعه لهم. لم يستطع تحمّل الأمر أكثر من ذلك، ونادى بصوت عالٍ ليقاطعهم. أعلن لهم أنهم أخذوا بالفعل كل شيء كانوا سيحصلون عليه. ومهما كان ارتفاع قيمة الفدية، فلا فرق؛ لن يروا منها مليِّمًا. كانت طريقة كلامه فيها مخاطرة، لكن بعد كلامه حدث لقطاع الطرق تغيّر فجائي كبير. فقد اجتمعوا لبرهة وانخرطوا في نقاشٍ جديدٍ، ثم سار قائدهم متّجهًا نحو مونتاني بشكلٍ يكاد ينمُّ عن الودِّ. خلع قناعه - حركة مهمة، حيث إن الرجلين يمكنهما الآن أن يتواجها مثل البشر - وقال إنهم قرَّروا أن يطلقوا سراحه. بل أعادوا له بعض متعلِّقاته، بما في ذلك صندوق النقود. فسَّر القائد ذلك بقوله: «لقد أنقذه مظهره الطبيعي الأمين، مقترنًا بشجاعته في التصدّي للعدوان». كما كتب مونتاني في ما بعد: «أدين بإنقاذي لوجهي ولحرية كلامي وحزمه».

كان هذا نوعًا من المواجهة يمكن أن يحدث في أي وقت، لأي شخص، وكثيرًا ما تساءل مونتاني عن أفضل الطرق للتعامل معه. هل من الأحكم أن تتصدّى مباشرة لعدوك وتتحدّاه، أم ينبغي عليك أن تداهنه بإظهار الاستسلام له؟ هل ينبغي أن تلقي بنفسك لتكون تحت رحمة المعتدي وتأمل أن يجعله حسّه الإنساني يُبقي على حياتك؟ أم إن هذا تهوّرٌ؟

المشكلة أن كل رد فعلٍ له أخطاره. قد يؤثِّر التحدّي في الآخر، لكنه يمكن أن يثير حفيظته أيضًا. قد يحثّ الاستسلام على الشفقة، لكنه يمكن بقدرٍ مساوٍ أن يثير ازدراء عدوك لك، فيزيلك من على وجه الأرض بلا تفكير يزيد عن تفكيره حين يسحق حشرة. أما من حيث استعطاف حسِّه الإنساني، فكيف تتأكّد أن لديه هذا الحسَّ؟

لم تكن الإجابة على هذه الأسئلة أسهل في القرن السادس عشر العنيف منها في ساحة قتال في منطقة البحر الأبيض المتوسط قديمًا، أو مواجهة لصٍّ في حارة في مدينة حديثة. إنها مستمرّة، ولم يجد مونتاني أي إجابة تصلح لها. لكنه لم يتعب أبدًا من استكشاف السؤال. يرسم مونتاني مرارًا وتكرارًا في كتاب **المقالات** مشاهد تصوِّر شخصين في حالة مواجهة، أحدهما مهزوم وهو إما أن يضطر لاستجداء خصمه للإبقاء على حياته أو يُظهر التحدي، والآخر مطلوب منه إما أن يُظهر الرحمة به أو يُنكرها عليه.

في حادث من هذه الحوادث وصفه مونتاني في المقال الأول في الكتاب، كاد البطل الحربي الألباني سكاندربيرج الذي عاش في القرن الخامس عشر أن يقتل أحد جنوده في سَوْرة غضب. استعطفه الرجل طلبًا للرحمة، لكن سكاندربيرج ظلَّ جامدًا

لم تتحرّك عواطفه. وفي غمرة يأسه، أمسك الجندي بسيفه ودافع عن نفسه؛ الأمر الذي أثر جدًّا في سكاندربيرج حتى إن غضبه تبخَّر وأطلق سراح الرجل. ويحكي قصة أخرى عن إدوارد أمير ويلز، الذي امتطى جواده وسار به عبر بلدة فرنسية مهزومة آمرًا بقتل جماعي لمواطنيها يمنة ويسرى. ولم يتوقّف إلا عندما وصل إلى ثلاثة رجال، محاصرين لكنهم ما زالوا يحاربون. إعجابًا بهم، أبقى على حياتهم، وأضاف على سبيل الفكرة المتأخِّرة أنه يمكن الإبقاء على حياة جميع من في البلدة أيضًا.

تعني هذه القصص ضمنًا أن التحدّي سياسة أفضل. لكن المقال نفسه ينظر في حوادث انتهت نهاية مختلفة. حين هاجم الإسكندر الأكبر مدينة غزة، وجد بيتيس قائد الأعداء «وحيدًا، هجره رجاله، وسلاحه ممزّق إربًا، وجسده مغطّى بالدماء والجروح، لكنه ما زال يحارب». وأعجب الإسكندر بهذا، كما حدث مع إدوارد، لكن لبرهة فقط. فمع استمرار بيتيس في تحدي الإسكندر، وتحديقه في وجهه بعجرفة، فقد الإسكندر صبره، فأمر بثقب عقبي بيتيس وسحله خلف عربة حتى مات. لقد ذهب القائد المهزوم بعيدًا، ومع المعارض الخطأ.

تُظهرُ قصصٌ أخرى مخاطر الاستسلام بالوضوح نفسه. يتذكّر مونتاني بوضوح حالة تريستان دي مونينز، الضابط برتبة فريق الذي أُعدم في شارع في بوردو بعد أن قدّم نفسه بتواضع شديد لمثيري الشغب بسبب ضريبة الملح في 1548. ما إن يُظهر المرء الضعف ويثير في الآخر نوعًا من غريزة الصيد، يضيع كل شيء. وإذا واجه المرء صيادًا فعلًا، فنادرًا ما يوجد أمل. كانت صورة غزال محاصر مكروب بعد ساعات من المطاردة تلازم مونتاني: مرهقًا ومحاصرًا، لا خيار لديه إلا أن يسلِّم نفسه للصيادين، «طالبًا رحمتنا بدموعه». لن تمنح مثل هذه الرحمة أبدًا.

لكن مونتاني يعيد عرض الكثير من المواجهات في عين عقله. بدا أنّ كلَّها توحي بتفسيرات مختلفة وإجابات مختلفة. لهذا فَتَنَتْهُ. في كلِّ حالة كان لا بد للطرف المهزوم من أن يأخذ قرارًا، لكن كان لا بد أن يفعل المنتصر هذا أيضًا، لأن الأمور يمكن أن تسوء بالنسبة له إذا لم يحسن الحكم على الموقف. فإذا أبقى على حياة شخص يفسِّر كرمه على أنه ضعف، فقد يُقتَل بدوره. وإذا كان شديد الخشونة فسيجلب التمرّد والانتقام.

يبدو أن المسيحية تقدّم إجابة بسيطة: لا بد أن يُظهِر المنتصر الرحمة دائمًا، ولا بد من أن يدير الضحية دائمًا خده الأيمن. لكن لا يمكن الاعتماد على أن تسير أمور العالم الواقعي بهذه الطريقة، ولا يمكن لمعظم المسيحيين في هذا العصر المليء بالحروب الدينية العنيفة أن يفعلوا هذا. لم يولِ مونتاني اهتمامًا كبيرًا للاهوت؛ فقد كان غارقًا

في قراءاته الكلاسيكية، وكالمعتاد، بدا أنه نسي الزاوية المسيحية. بالنسبة له، في أيِّ حالة، الصعوبات الحقيقية نفسية أكثر منها أخلاقية. أو لو كانت أخلاقية، فهي كذلك بالمعنى الأوسع للمصطلح المستخدم في الفلسفة الكلاسيكية، حيث لم يكن يعني اتباع الوصايا لكن معرفة كيفية اتخاذ قرارات عادلة وذكية في الحياة الواقعية.

حصيلة رأي مونتاني أن الضحيّة والمنتصر كليهما ينبغي أن يتّخذا المسار الذي يوجب وضع أقصى قدر من الثقة في الآخر. بمعنى، أنهما كمسيحيَّيْن صالحَيْن لا بد من أن يسعى الطرف المهزوم لطلب الرحمة، ولا بد للطرف المنتصر من أن يمنحها له. لكن لا بد لكليهما من أن يفعلا ذلك بجرأة، «بأسارير منبسطة»، خالية من التذلّل وحالة الاستسلام. لا بد من أن تميِّز «الثقة الخالصة والنظيفة» موقف الطرفين. كان مونتاني سيجد لقاءه النموذجي في المشهد الذي حدث في ميدان تيانانمن ببكين في العام 1989، حين دخلته الدبابات لقمع التظاهرات. وقف رجل معارضٌ وهو يحمل حقيبة تسوُّق عادية، وكان هادئًا وساكنًا أمام الدبابات؛ وكان رد فعل سائق أول دبابة أنه توقف. فلو جبُن الرجل أو حاول الهرب، أو على العكس، لو صرخ ولوّح بقبضتيه، لكان من السهل على سائق الدبابة قتله. لكن بدلًا من ذلك، فإن «الثقة الخالصة والنظيفة» أتت بقرار مماثل من جانب الطرف المهاجم.

لن ينفع هذا مع الغزال، حيث تحول علاقة الصيد دون الإحساس بالرُفقة، وربما لن ينفع بين امرأة متّهمة بأنها ساحرة وبين من يعذِّبها، حيث التعصّب وامتثال الأدوار ستكون عائقًا. والحرب تخلّ بالحالة النفسية العادية أيضًا، كما تفعل هيستيريا الغوغاء. وعلى الرغم من أن مشهد ميدان تيانانمن كان عنيفًا، فقد حدث في وقت سلم من الجانب التقني، بينما يخلق القتال حالة عقلية معدَّلة. ففي العالم الكلاسيكي، وإلى حد ما في زمن مونتاني، كان الشيء الصحيح الوحيد أن يعتبر الجندي في ميدان القتال غير قادر على كبح جماح نفسه. لا بد أن يكون في حالة **هياج**؛ حالة نشوة مسعورة خالية من الخوف، لا يمكن ولا ينبغي فيها توقّع أي اعتدال أو رحمة.

وجد مونتاني أن الهياج مرعبٌ، مثله مثل معظم الحالات المتطرِّفة. كره طريقة يوليوس قيصر الذي قيلإنه انهال على جنوده بأحاديث مثل هذه إلى درجة وحشية قبل إحدى المعارك:

حين تومض الأسلحة، لا مكان لعواطف التقوى.
على الرغم من أنكم تواجهون آباءكم، فهل تتأثرون؛
لا، شقّوا وجوههم المبجَّلة بالحديد.

كان أكثر من أُعجب به مونتاني من بين جميع المحاربين المشهورين، الجنرال الطيبي إيبامينونداس، الذي اشتُهِر بقدرته على الحفاظ على التحكّم في الهياج؛ ففي ذات مرة، وفي وسط المعركة - وكان إيبامينونداس «رهيبًا بالدم والحديد» - وجد إيبامينونداس نفسه وجهًا لوجه مع أحد المعارف الذي أقام في منزله، فاستدار جانبًا ولم يقتله. قد يبدو هذا عاديًا، لكن نظريًا، يجب ألّا يعود الجندي قادرًا على مثل هذه الكبح الواعي للنفس أكثر مما يقدر سمك القرش على كبح نفسه أثناء جنون الجوع. أثبت إيبامينونداس نفسه «في إجادة الحرب نفسها»، حيث كتب مونتاني، أنه جعل الحرب «تتحمّل كبح الطيبة» في أوج الشعور بالانتشاء.

شكَّ مونتاني في أن الهياج من التقاليد التي كثيرًا ما كانت تستخدم على سبيل العذر المحض. «دعونا ننزع عن الطبائع الشريرة، والدموية، والغادرة هذا التحجّج بالعقل». كانت الوحشية سيِّئة جدًّا في حدِّ ذاتها؛ أما الوحشية كعذر لحالة عقلية نشاز فهي أسوأ. فوق كل شيء، استهجن مونتاني الحميّة المقدّسة للمتعصبين دينيًّا، الذين كانوا يعتقدون بأن الإله يطلب هذا العنف المتطرِّف غير العقلاني إثباتًا للطاعة.

كانت القسوة تصيب مونتاني بالغثيان، ولم يستطع التغلّب على ذلك الشعور. كره القسوة بقسوة، كما كتب، مصرًّا على المفارقة. كان اشمئزازه غريزيًّا، بقدر ما هو جزء من نفسه مثل الانفتاح الذي يظهر على جميع أساريره. كان هذا هو السبب في أنه لم يكن يتحمّل الصيد. بل حتى كانت رؤية دجاجة تذبح، أو أرنب تصطاده الكلاب ترعبه. المنظور سريع التغيّر نفسه الذي مكّنه من استعارة وجهة نظر قطته جعل من المستحيل عليه أن يرى أرنبًا يمزَّق إربًا من دون أن يشعر بألم يلوي أحشاءه.

إذًا كان مونتاني عاجزًا عن رؤية أرنب يتألّم، ناهيك عن استساغة تعذيب البشر والقتل القانوني اللذين كانا شائعين في أيامه. «لا يمكنني أن أشهد الإعدام بحكم القانون بنظرة ثابتة، حتى لو كان لأسباب معقولة». كان من المتوقّع منه في وظيفته أن يأمر بمثل هذه العقوبات، لكنه رفض أن يفعل ذلك. «أنا مدقِّق جدًّا بشأن إيقاع الأذى، إلى حد أني لا يمكنني فعل ذلك لخدمة العقل نفسه. وحين كانت الظروف تستدعي مني الحكم على الجناة، كنت أميل إلى ألّا أصل بالعدالة إلى أقصى حدودها».

لم يكن مونتاني الكاتب الوحيد في عصره الذي يعارض الصيد أو التعذيب. أما غير المعتاد في مونتاني فكانت أسبابه لتلك المعارضة؛ ألا وهي علاقته العميقة بالآخرين. حين تحدّث مونتاني مع الهنود البرازيليين في روين، أذهله كلامهم عن الرجال باعتبارهم أنصافًا لبعضهم البعض، وتعجّبهم من الفرنسيين الأثرياء الذين يأكلون

بشراهة بينما «أنصافهم الأخرى» تتضوَّر جوعًا على عتبات أبوابهم. بالنسبة لمونتاني، يشترك جميع البشر في عنصر من عناصر وجودهم وكذلك جميع الكائنات الحيّة. «إنها الطبيعة الواحدة نفسها تأخذ مجراها». فحتى لو كانت الحيوانات أقل شبهًا بنا، ما زلنا ندين لهم بواجب الشعور بالرُفقة، ببساطة لأنهم أحياء.

> **يوجد احترام معيَّن، وواجب عام على الإنسانية، يربطنا، ليس فقط بالحيوانات الذين يملكون حياة وأحاسيس، بل حتى بالأشجار والنباتات. نحن ندين بالعدالة للرجال، وبالرحمة والعطف لبقية المخلوقات التي قد تكون قادرة على تلقّيها. توجد بيننا وبينهم علاقة، وبعض الواجبات المتبادلة.**

تنطبق هذه الواجبات على اللقاءات البسيطة كما تنطبق على اللقاءات التي تعني الحياة أو الموت. نحن ندين للكائنات الأخرى بأفعال الحنوّ والتعاطف الصغيرة التي لا تعَدّ ولا تُحصى التي سيصفها نيتشه بأنها «المَوَدَّة». يضيف مونتاني هذا التعليق عن كلبه بعد الفقرة التي استشهدنا بها لتوِّنا:

> **لا أخاف من الاعتراف بأن طبيعتي شديدة الرقة، وشديدة الطفولية، حتى إنني لا أقدر أن أرفض اللعب الذي يقدِّمه لي كلبي أو يطلبه مني في أوقات غير ملائمة.**

إنه يدلِّل كلبه لأنه يمكنه على سبيل التخيّل أن يشارك الحيوان وجهة نظره؛ يمكنه الشعور كم يتوق الكلب لطرد الملل وجذب انتباه أصدقائه من البشر. سخر باسكال من مونتاني لهذا، قائلًا إن مونتاني يمتطي جواده كشخص لا يعتقد أن من حقِّه أن يفعل ذلك، ويتساءل متعجّبًا عما إذا كنا «على العكس، ينبغي حقًا أن نستفيد من الحيوان». هذا صحيح بالضبط، وبقدر ما ضايق باسكال فمن شأنه أن يسرَّ نيتشه، الذي جاء في التقرير (الذي لا يعوّل عليه) عن انهياره العقلي الأخير أنه بدأ بأن أخذ يعانق حصانًا في أحد شوارع تورين وينخرط في البكاء.

كان زوج فيرجينيا وولف، ليونارد وولف من قرّاء مونتاني ذوي الانفعالات الأقل تشكّلًا، وقد تأثّر تأثّرًا شديدًا بتعليقات مونتاني على القسوة. يكتب ليونارد وولف في مذكّراته عن مقال «عن القسوة» لمونتاني باعتباره مثالًا يُحتذى ومقالًا أكثر أهمية مما أدركه الناس. كتب أن مونتاني كان «أول شخص في العالم يعبِّر بهذه القوة عن الرعب الشخصي من القسوة. كما كان أول رجل حديث مكتمل المعاني». كان الاثنان مرتبطَيْن؛ فقد كمنت حداثة مونتاني بالضبط في «وعيه الشديد بالاهتمام الشغوف بفرديته وفردية جميع البشر الآخرين»، والكائنات غير البشرية أيضًا.

وعلى حدٍّ تعبير وولف، حتّى الخنزير أو الفأر يشعر في دخيلة نفسه أنه «أنا». وهذا هو الادعاء نفسه الذي أنكره ديكارت بشدّة، لكن وولف توصّل إليه من خلال التجربة الشخصية لا من خلال التبرير العقلي الديكارتي. يتذكّر أنه حين كان صبيًّا صغيرًا طُلب منه أن يُغرق جِراءً غير مرغوب فيها عمرها بضعة أيام؛ وهي مهمّة قد يندهش المرء لتكليف طفل بها. وفعل ما طُلب منه، لكنه انزعج منه أكثر مما توقّع. وبعد سنوات كتب:

> **عند النظر عرَضًا إلى الجِراء التي يبلغ عمرها أيامًا، يراها المرء أغراضًا أو أشياء صغيرة، عمياء، متلوّية، وغير متميّزة. وضعت أحدها في دلو الماء، وحدث فورًا شيء رهيب فائق للمعتاد. هذا الشيء الأعمى غير المتشكِّل بدأ يستميت في النضال من أجل حياته، فكان يكافح، ويضرب الماء ببراثنه. ورأيت فجأة أنه فرد، وأنه كان «أنا» مثلي أنا ـ بمعنى أنه كان يعاني في دلو الماء ما قد كنت سأعانيه لو كنت مكانه، ويحارب الموت كما قد أحاربه لو كنت أغرق في البحر العميق. شعرت، وما زلت أشعر، بقأن إغراق هذا «الأنا» في دلو ماء شيء مرعب ومنافٍ للتحضر.**

قراءة مونتاني هي التي أعادت هذا الحادث إلى ذاكرة وولف وهو رجل راشد. ومضى ليطبّق هذه النظرة الحصيفة على السياسة، متأمِّلًا بشكلٍ خاصٍّ ما يتذكّره عن ثلاثينيات القرن العشرين، عندما بدا العالم على وشك الغرق في حالة بربرية لم تدع مجالًا لهذه الذات الصغيرة الفردية. وكتب أنه على المستوى الكوكبي، لا يمكن أن يكون مخلوق واحد ذا أهمية أكثر من غيره، لكن بطريقة أخرى، هذه «الأنوات» هي الوحيدة ذات الأهمية. والسياسة التي تعترف بها هي الوحيدة التي يمكن أن تقدّم أملًا في المستقبل.

وكتب عالم النفس وليام جيمس عن الوعي ببداهة مماثلة. نحن لا نفهم شيئًا عن خبرة الكلاب من «الاستمتاع بالعظام تحت السياج، أو روائح الأشجار وعواميد المصابيح». وهي لا تفهم شيئًا عن خبراتنا، حين تراقبنا مثلًا ونحن نحدِّق بلا توقف في صفحات كتاب. لكن توجد خاصّية معيّنة مشتركة بين حالتي الوعي هاتين: «المتعة» أو «الخدر» الذي يأتي حين يستغرق الفرد في ما يفعله. هذا الخدَر ينبغي أن يمكِّننا من إدراك التماثل بيننا حتى لو كانت موضوعات اهتمامنا مختلفة. وبدوره، ينبغي أن يؤدّي الإدراك إلى الرأفة. إن نسيان هذا التماثل هو أسوأ خطأ سياسي، كما انه أسوأ خطأ شخصي وأخلاقي.

في رأي ويليام جيمس، كما في رأي ليونارد وولف ومونتاني، نحن لا نعيش محصورين في زوايا نظرنا المنفصلة، مثل ديكارت في غرفته. نحن نعيش بشكلٍ يمكن اختراقه وعلى نحو اجتماعي. يمكننا أن ننزلق خروجًا من عقولنا، ولو للحظاتٍ قليلة، لكي نتخذ وجهة نظر كائن حي آخر. هذه القدرة هي المعنى الحقيقي لعبارة «كن سهل المعشر»، وهي إجابة هذا الفصل على سؤال كيف تعاش الحياة، وهي أفضل أمل للحضارة.

مكتبة
t.me/t_pdf

10. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟

ج: استيقظْ من سَباتِ العادةِ

كلُّ شيءٍ يعتمدُ على وُجهة نظرِك:

قد يكونُ فنُّ رؤية الأشياء من منظور شخصٍ آخر أو حيوان، موجودًا لدى البعض بالفطرة، لكنَّ هذا الفنَّ يمكن غرسُه أيضًا، الروائيون يفعلون ذلك طوال الوقت. فبينما كان ليونارد وولف يفكِّر من خلال فلسفته السياسية، كانت زوجته فرجينيا تكتب في يومياتها:

> **أتذكّر أني كنت أتمدد بجانب حفرةٍ، منتظرة قدوم ل [ليونارد]؛ أجمع الفطر، وأرى أرنبًا برّيًّا أحمر يتواثب صاعدًا إلى جانب الحفرة وأفكِّر فجأة «هذه حياة الأرض.» بدا لي أني رأيت كم كان كلُّ شيء مرتبط بالأرض، وأني أنا نفسي نوعٌ متطوِّر من الأرانب البريّة؛ كما لو كان زائرٌ من القمر رآني.**

هذه اللحظة الغريبة التي تكاد تكون لحظةَ هلوَسةٍ أعطت وولف إحساسًا بكيف ستبدو بها هي والأرنب البرّيِّ لشخصٍ لم يرهما بعينينِ أصابتهما العادة بالتبلُّد. لقد ساعدتها على نزع طابع الألفة عن المألوف؛ وهي حيلةٌ ذهنيةٌ، تكاد تشبه الحيل التي يستخدمها الفلاسفة الهيللينيون حين تخيَّلوا النظر إلى الحياة البشرية من علٍ من فوق النجوم. ونفعت هذه الحيلة مثل الكثير من شبيهاتها، التي تفعل فعلها بمساعدة المرء على إيلاء الانتباه بشكلٍ مضبوطٍ. العادة تجعل كلَّ شيءٍ يبدو مبتذلًا؛ إنها جالبةٌ للنوم. والقفز إلى منظور مختلِف طريقة لكي يوقظ الإنسان نفسه مرة أخرى. أحبَّ مونتاني هذه الحيلة، واستخدمها دائمًا في كتاباته.

كانت أداته المفضَّلة أن يراجع قوائم العادات شديدة الاختلاف من جميع أنحاء العالم، متعجِّبًا من عشوائيتها وغرابتها. يصف مقالاه، «عن العادات» و«عن العادات القديمة»، بلدانًا تتبوَّل فيها النساء وهن واقفات، ويتبوَّل الرجال وهم جالسون القرفصاء، وأخرى يرضع فيها الأطفال حتى يبلغوا الثانية عشرة من عمرهم، وشعوبًا

يعتبر فيها إرضاع الوليد في أيامه الأولى مميتًا، وبلادًا يدع أهلها الشعر ينمو على الجانب الأيمن من الجسم بينما يحلقون الجانب الأيسر تمامًا، وجماعات يفترض فيها أن يقتل المرء والده عند وصوله لسنٍّ معيَّنةٍ، وأماكن يمسح فيها الناس مؤخراتهم بإسفنجة ملتصقة بعصا، وأماكن يطيل أهلها شعرهم من الأمام ويقصِّرونه من الخلف بدلًا من فعل العكس. توجد قوائم مشابهة في مقال «الاعتذار» تتراوح ما بين أهل بيرو الذين يطيلون آذانهم إلى الشرقيين الذين يصبغون أسنانهم بالسواد لأنهم يعتقدون بأن الأسنان البيضاء غير أنيقة.

كل ثقافة، وهي تفعل هذه الأشياء، تعتبر نفسها المعيار. إذا كنت تعيش في بلد تُصبغ فيها الأسنان بالسواد يبدو من الواضح أن المصنوعات العاجية السوداء هي الوحيدة الجميلة. تكرار سرد الاختلافات يساعدنا على التحرُّر من هذه الاعتبارات حتى ولو للحظات قصيرة فقط من التنوير. يكتب مونتاني: «هذا العالم العظيم هو المرآة التي ينبغي أن ننظر فيها لنتعرف على أنفسنا من الزاوية المناسبة». بعد مراجعة هذه القوائم، نعيد النظر في وجودنا نحن بطريقة مختلفة. تتفتَّح أعيننا على حقيقة أن عاداتنا ليست أقل غرابة من عادات أي أحد آخر.

بعض اهتمامات مونتاني المبكرة بهذه القفزة في وجهة النظر تعود إلى ملاحظته لدهشة الزوّار من أهل توبينامبا في روين. إن الفرجة عليهم وهم يتفرَّجون على الفرنسيين كانت باعثة علي اليقظة، مثل يقظة فرجينيا وولف وهي على جانب التل. حين التقى بهم مونتاني حفَّزه ذلك على الاهتمام طوال حياته بالعالم الجديد؛ نصف الكرة الأرضية الذي ظل مجهولًا للأوروبيين بأكمله حتى بضعة عقود قبل ميلاد مونتاني، وما زال مثيرًا جدًّا للدهشة حتى إنه يكاد لا يبدو واقعيًّا.

في وقت ميلاد مونتاني، غيَّر معظم الأوروبيين رأيهم وقبلوا أن أمريكا موجودة فعلًا وليست خيالًا. شرع بعض الناس في أكل الفلفل الحار والشوكولاتة، والقلائل دخّنوا التبغ. صارت زراعة البطاطس تجري على قدمٍ وساقٍ، على الرغم من أن شكلها الغامض الذي يشبه الخصيتين كان لا يزال يجعل الناس يعتقدون بأنها لا تصلح إلا كمنشِّط للشهوة الجنسية. ونقل الرحّالة العائدون قصصًا عن أكل لحوم البشر والأضحيات البشرية، أو الثروات الرائعة من الذهب والفضة. وحيث إن الحياة في أوروبا صارت أكثر صعوبة، فكَّر الكثيرون في الهجرة، ونمت المستعمرات مثل جراثيم العفن على طول السواحل الشرقية. كان معظمهم من الإسبانيين، لكنَّ الفرنسيين جرّبوا حظهم أيضًا. كانت فرنسا في شباب مونتاني، تبدو في موقع جيِّد

للازدهار في المغامرة الاستعمارية الجديدة. كان لها أسطول قوي، وموانئ دولية جيِّدة التجهيز يمكن الإبحار منها، وبوردو في طليعتها.

انطلقت عدة إرساليات فرنسية في منتصف القرن، لكنها واجهت المشكلات تباعًا. كان لدى المستعمرين الفرنسيين ميل خاصٌّ للتراجع عن مشروعاتهم بسبب الصراع الديني، الذي استوردوه معهم. المستوطنة الفرنسية الأولى في البرازيل، التي أنشأها نيكولاس دوراند دي فيليانون بجوار الموقع الحالي لريو دي جانيرو في خمسينيات القرن السادس عشر، أضعفتها الانقسامات الكاثوليكية - البروتستانتية حتى استسلمت لغزو البرتغاليين. وفي ستينيات القرن السادس عشر، وقعت مستعمرة في فلوريدا (هي أساسًا مستعمرة فرنسية بروتستانتية) ضحية للإسبانيين. وفي هذا الوقت، نشبت حرب أهلية في الوطن الفرنسي، وكان يصعب العثور على المال والتنظيم المدني الخالص للرِّحلات الكبرى. وافتقدت فرنسا مكانها في الصفقة الرابحة العظيمة الأولى عبر البحار، التي صنعت ثروات إنجلترا وإسبانيا. وعندما شُفيت وحاولت مرة أخرى في ما بعد، كان الوقت متأخرًا جدًّا لاستعادة ميزتها كاملة.

كان مونتاني - ككثيرين من أبناء جيله - مولعًا بكل ما هو أمريكي، ولعًا ممزوجًا بتهكُّم على الغزو الاستعماري. وقد ثمَّن ما يتذكَّره من حواره مع جماعة التوبينامبا - الذين سافروا إلى فرنسا في واحدة من سفن فيليانون العائدة - وجمعوا مخلَّفات تذكارية من أمريكا الجنوبية لمقصورة تُحَفِه التي في البرج: «عيِّنات من أسرَّتهم، وحبالهم، وسيوفهم الخشبية، والأساور التي يغطون بها رسغهم في المعارك، وعصي الخيزران الكبيرة المفتوحة عند أحد طرفيها التي يستخدمونها لضبط توقيت الإيقاع على صوتها في رقصاتهم.» يرجَّح أن الكثير من هذه الأشياء أتى من أحد خدم المنازل الذي عاش لفترة في مستعمرة فيليانون. قدَّم الرجل مونتاني للبحَّارة والتّجّار الذين تمكّنوا من تغذية فضوله بالمزيد. كان هو نفسه «رفيقًا بسيطًا خامًا»، لكن مونتاني كان يعتقد بأن هذا يجعله شاهدًا ممتازًا، لأنه لم يتعرَّض للإغراء لتجميل ما ذكره أو حتى للإفراط في تفسيره.

وإلى جانب الحوار مع جماعة التوبينامبا، قرأ مونتاني أيضًا كل شيء أمكنه الحصول عليه عن الموضوع. شملت مكتبته ترجمات فرنسية لكتابَيْ **تاريخ جزر الهند** للوبيز دي جوميرا و**تقرير موجز عن تدمير جزر الهند** لبارتولومي دي لاس كاساس، علاوة على كتب فرنسيّة أصليّة أكثر حداثة، خصوصًا تقريرين عظيمين متنافسين عن مستعمرة فيليانون بقلم البروتستانتي جان دي لِيرِي والكاثوليكي آندريه ثيفيت. وكان مونتاني

يفضِّل كثيرًا عليهما كتاب **تاريخ رحلة إلى أرض البرازيل** لِيِري (1578)، الذي لاحظ مجتمع التوبينامبا بتعاطفٍ ودقةٍ. وكما يناسب بروتوستانتي بيوريتاني، أُعجب لِيِري بتفضيل التوبينامبا للسير عُراة بدلًا من تزيين أنفسهم بالأطواق والكشكشات مثلما يفعل الفرنسيون. لاحظ أن قلّةً قليلةً من كبار السن منهم لديهم شعر أبيض، واعتقد بأن السبب أنهم لا يستهلكون أنفسهم في «عدم الثقة، والشحّ والجشع، والخصومات، والمشاجرات.» واحترم شجاعتهم في الحرب. خاض التوبينامبا حروبًا دموية بسيوف رائعة، لكن في سبيل الشرف فقط، وليس أبدًا في سبيل الغزو أو الجشع. كانت هذه اللقاءات تنتهي عادة بوليمة، الطبق الرئيسي فيها من لحم أسرى الحرب. حضر لِيِري نفسه مناسبة من هذه المناسبات: في تلك الليلة استيقظ في فراشه المعلّق المجدول من الحبال (الهاموك) ليجد رجلًا يحوم حوله وهو يلوِّح بقدمٍ آدمية مشويّة في ما بدا أنه سلوك تهديد. قفز في رعب، إلى حيث يعربد الحشد ويقصّفون. وشرحوا له في ما بعد أن الرجل لم يكن إلا مضيفًا كريمًا يقدم له طعامًا لذيذًا ليتذوَّقه. واستعاد لِيِري ثقته في أصدقائه. وقال إنه شعر بمزيد من الأمان وسطهم، أكثر ممايشعر به في الوطن «وسط الفرنسيين الغدارين المنحلّين.» كان مقدَّرًا له حقًّا أن يشهد مشاهد لا تقل عن ذلك شناعة في الحروب الأهلية الفرنسية، حين حوصر في بلدة سانسير التي تقع على قمة تل أثناء حصار شتوي في نهاية عام 1572 ورأى أهل البلدة يأكلون لحمًا بشريًّا ليبقوا على قيد الحياة.

قرأ مونتاني كتاب لِيِري بنهم، وعندما كتب عن لقائه هو نفسه بجماعة التوبينامبا في مقال «عن آكلي لحوم البشر»، اتّبع سلوك لِيِري في رسم التباين بينهم وبين الفرنسيين، والآثار الضمنية للمزاعم الأوروبية بالسمو. وفي فصل متأخِّرٍ بعنوان «عن مدرِّبي الرياضة»، أشار أيضًا إلى كيف أن حدائق الأنكا والإزتيك وأماكنها الموشّاة بالذهب كُلِّلت نظائرها الأوروبية بالعار. لكن التوبينامبا البسطاء راقوا لمونتاني أكثر بكثير. ووصفهم بقائمة من الصفات السلبية المستحبة:

> **هذه أمة... لا يوجد فيها أي وسائل مواصلات، ولا يعرفون الخطابات، ولا يعرفون القضاة، أو التميّز السياسي، ولا عادة العبوديّة. لا يوجد عندهم ثراء ولا فقر، ولا عقود، ولا مواريث، ولا حواجز، ولا وظائف إلا وظائف وقت الفراغ، لا قلق على أي أحدٍ إلا الأقارب المشتركين، لا ملابس، ولا زراعة، ولا معادن، لا يشربون النبيذ ولا يأكلون القمح. ولم يسمعوا عن كلمات تعني الكذب، والغدر، والنفاق، والشّحّ، والجشع، والحسد، والحطِّ من الشأن، والاعتذار.**

كان هذا «التعديد السلبي» أداةً بلاغيّةً متفق عليها في الأدب الكلاسيكي، الذي سبق اللقاء بالعالم الجديد بوقت طويل. بل تظهر في نصوص سومرية مكتوبة بالخط المسماري عمرها أربعة آلاف عام:

كان يا ما كان، لم يكن في العالم ثعابين، ولم يكن فيه عقارب.
لم يكن فيه ضباع، ولم يكن فيه أسود.
لم يوجد خوف، ولا رعب.
لم يكن للإنسان خصم.

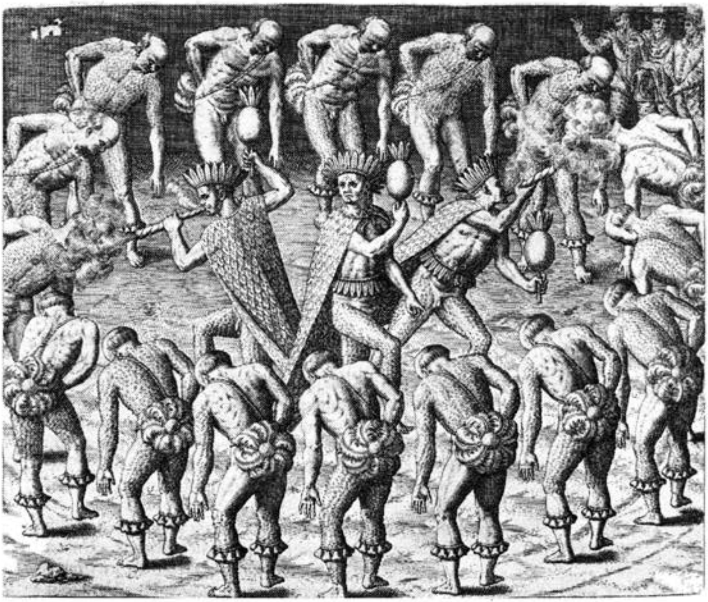

هنود التوبينامبا في 1552، بريشة ت. دي بري، من
J. L. Gottfried New Welt und Americanische Historien (Frankfurt: M.
.Merian, 1631)
مجموعة خاصة/ مجموعة ستابلتون/ذا بريدجمان آرت ليبراري.

كان طبيعيًّا فقط أن تعاود الظهور في كتابات عصر النهضة عن العالم الجديد. ويستمر التقليد؛ ففي القرن التاسع عشر، وصف هيرمان ميلفيل وادي تايبي السعيد في جزر الماركيساس كمكان لا يوجد فيه «أي نزع ملكية للعقارات المرهونة، ولا مذكّرات احتجاج، ولا فواتير واجبة السداد، ولا ديون شرف... ولا علاقات ضعيفة... ولا أرامل معدَمات... ولا شحاذين، ولا سجون للمدينين، لا يوجد في تايبي أثرياء متكبِّرون وقساة القلوب، أو فلنلخِّص الأمر في كلمة واحدة - لا توجد نقود!».

كانت الفكرة أن الناس يكونون أسعد حين يعيشون حياة غير مزدحمة بالقرب من الطبيعة، مثل آدم وحواء في جنّة عدن. كان لدى الرواقيون الكثير من هذه الخيالات عن «العصر الذهبي»؛ فقد تخيّل سينيكا عالمًا لا تكون فيه الملكية اكتنازًا، ولا تُستخدم فيه الأسلحة من أجل العنف، ولا تلوِّث مواسير الصرف الصحي مجاري الأنهار. فالناس ينامون أفضل بلا منازل، لعدم وجود أصوات صرير صادرة عن الأخشاب لتوقظهم مرتعدين في منتصف الليل.

سجين شجاع وسط التوبينامبا متحديًا إياهم. من
M. LéryK Histoire d'une voyage (Paris: A. chuppin,1580).

فهم مونتاني جاذبيّة الخيال، وشارك فيه. كتب أن الناس المتوحّشين يشبهون الفاكهة البرِّيَّة إذ يحتفظون بكامل نكهتهم الطبيعية. ولهذا السبب كانوا قادرين على مثل هذه الشجاعة، لأن سلوكهم في الحرب لم يلوِّثه الجشع. حتى طقوس أكل لحوم البشر لدى التوبينامبا، أبعد ما تكون عن الإهانة، وقد أظهرت الحرب الناس البدائيين في أفضل صورة لهم. كان الضحايا يُظهِرون شجاعة مذهلة وهم ينتظرون مصيرهم؛ بل يتحدُّون آسريهم باختراعهم لأقوال تتهكّم عليهم. كان مونتاني متأثرًا بأغنية عن سجين صدر حكم ضده يتحدّى أعداءه أن يمضوا قدمًا ويأكلوا حتى يشبعوا. يغنِّي السجين قائلًا، بينما تفعل ذلك تذكَّر أنك تأكل آباءك وأجدادك. لقد أكلتهم في الماضي، فسيكون **لحمك** إذًا هو الذي سوف تتلذَّذ به! وهذا مشهد آخر من مشاهد اللقاءات النموذجية. الرجل المهزوم محكوم عليه، لكنّه يُظهر صلابة رواقية في وجه عدوه. يعني هذا ضمنًا ما ينبغي أن يكون البشر دائمًا قادرين عليه إذا ما تبعوا طبيعتهم فقط.

أغنية السجين إحدى أغنيتين من «أغاني أكل لحوم البشر» تظهران في كتاب

المقالات لمونتاني. الأخرى مأخوذة أيضًا عن التوبينامبا، وهي أغنية حب قد يكون سمعهم يؤدُّونها في روين في العام 1562؛ لأنه يمدح جرسها؛ وهو يصف لغة التوبينامبا بأنها «لغة رقيقةٌ، ذات جرْسٍ مقبولٍ، تشبه إلى حد ما اليونانية في قفلاتها.» تقول الأغنية في ترجمته النثرية لها:

> **آدار، ابق يا آدار، فلربما استمدت أختي التصميم من نقوش ألوانك، للحزام الفخم المصنوعُ بمهارة والذي سأعطيه لمحبوبتي، فليدم إذًا جمالك ونقشك إلى الأبد، مفضَّلًا على جميع الأفاعي الأخرى.**

أحب مونتاني أناقة هذا الشعر وبساطته، التي تتباين مع غيرها من النظم الأوروبي المنمّق في أيامه. وكتب في مقال آخر أن هذا هو «الشعرُ الطبيعيُّ النقيُّ» - الذي تحسب في عداده قصائد الفيلانيلا[1] التقليدية في مقاطعة جويين الفرنسية علاوة على الأغاني المجلوبة من العالم الجديد - والذي ينافس أجمل ما في الكتب. حتى الشعراء الكلاسيكيون لم يتمكّنوا من منافسته.

مضى مقال مونتاني المعنون «أغنية حب لآكلي لحوم البشر» لتكون له حياة آخرة مؤثِّرة خاصَة به، مستقلة عن بقية ما في كتاب **المقالات**. واستعارها شاتوبريان لكتابه **ذكريات من وراء القبر**، حيث جعل فتاة جذّابة من أمريكا الشمالية تغنّي شيئًا شبيهًا بذلك. ثم هاجرت هذه الأغنية إلى ألمانيا، حيث ازدهرت في شكل أغاني الليد الفنيّة[2] طوال القرن الثامن عشر؛ حدث هذا في بلد لم يهتم قبل ذلك كثيرًا بمونتاني. أغنيتا آكلي لحوم البشر مع بعض التعليقات المجاملة عن المواقد الألمانية كانتا الشذرات الوحيدة من كتابات مونتاني التي أثَّرت تأثيرًا كبيرًا في ذلك الجزء من العالم حتى زمن نيتشه. ترجم بعض من أفضل الشعراء الرومانسيين الألمان «ابق يا آدار»، وهم: إيوالد كريستيان فون كليست Ewald Christian von Kleist، ويوهان جوتفريد هيردر Johann Gottfried

---

(1) الفيلانيلا: أغنية ريفية إيطالية استمدّت اسمها من كلمة فيلانو التي تعني فلاح، واستُخدم هذا الاسم في فرنسا لوصف قصيدة قصيرة شعبية كان الشعراء يفضِّلونها في نهايات القرن السادس عشر. تتكوَّن الفيلانيلا من سبعة أبيات تستخدم قافيتين وتتوزع على خمسة مقاطع شعرية وتنتهي برباعية ختامية (المترجمة).

(2) ليد: كلمة ألمانية معناها أغنية، والأغاني التي يكتبها الشعراء الرومانسيون توصف بأنها أغانٍ فنية. أغنية الليد الفنية تكتب للصوت البشري بمصاحبة البيانو، وقد انتشرت في العصر الموسيقي الرومانسي في أوروبا في القرن التاسع عشر، ومن أشهر من ألفوا في هذا القالب فرانز شوبرت، وروبرت شومان، ويوهان برامز، وريتشارد شتروس (المترجمة).

Herder، والشاعر العظيم يوهان فولفجانج فون جوته نفسه Johann Wolfgang von Goethe، الذي كتب كلًا من («أغنية حب لأمريكي متوحش») و(«أغنية موت لسجين»). كان الرومانسيون الألمان يفضِّلون على وجه الخصوص الأغنيات التي تدور حول الحبِّ والموت، فلا يدهشنا أنهم أحبّوا بحماسة كتابات مونتاني التي نُقلت إلى لغتهم. أما المذهل فهو أنهم لم يهتموا سوى بها من النصِّ مع تجاهل كل شيء آخر تقريبًا - لكن هذا ما يفعله جميع القراء، إلى حد كبير أو قليل.

يمكن اتهام مونتاني، مثلما يمكن اتهام لِيرِي، بأنه يضفي الصبغة الرومانسية على شعوب العالم الجديد. لكنه فهم الكثير أيضًا عن تعقيد النفس البشرية إلى حد أنه أراد فعلًا محو نصفها ليعيش مثل فاكهة برِّية. وأدرك أيضًا أن الثقافات الأمريكية يمكن أن تكون سخيفة وقاسية مثل الثقافات الأوروبية. وحيث إن القسوة هي الرذيلة التي استهجنها أكثر من غيرها، فمن المهم أنه لم يبذل أي جهد لكي يغطي على دورها في ديانات العالم الجديد، التي كان بعضها متعطِّشًا للدماء حقًّا. «إنهم يحرقون الضحايا أحياء، ويخرجونهم من وسط اللهب وهم مشويين نصف شواء لكي يُخرِجوا أحشاءهم. وكانوا يسلخون غيرهم أحياء، حتى النساء، ثم يرتدون الجلود المدماة لضحاياهم ليتخفّوا فيها كي يقتلوا ضحايا آخرين.»

وصف مونتاني هذه الفظائع، لكنه أشار بعد ذلك إلى أنها تبدو فظيعة لأن الأوروبيين لم يكونوا يألفونها. وتوجد ممارسات رهيبة مقبولة في أماكن أقرب إلى الوطن، بسبب قوة العادة. كتب مونتاني عن أضحيات العالم الجديد: «لست آسفًا لأننا نلاحظ الفظائع البربرية لمثل هذه الأفعال، لكنّي آسف من قلبي على أننا نحكم على أخطائهم، ونغمض أعيننا عن أخطائنا.» أراد مونتاني من قرّائه أن يفتحوا عيونهم ويروا. لم تكن شعوب جنوب أمريكا فاتنة في حدِّ ذاتها. لقد كانوا مرآة نموذجية يمكن أن «يتعرّف» فيها مونتاني ومواطنوه «على أنفسهم من الزاوية المناسبة»، وهي التي أيقظتهم من حلم الرضا عن أنفسهم.

المتوحِّشون النبلاء:

ربما لم يولِ القراء الألمان في القرن الثامن عشر اهتمامًا كبيرًا لمونتاني ما عدا أغانيه الشعبية، لكنَّ جيلًا جديدًا من القرّاء الفرنسيين أعادوا اكتشافه في الفترة نفسها واستغلوا أغنيتي آكلي لحوم البشر والمرايا ربما حتى أكثر مما كان يمكن لمونتاني نفسه أن يتوقّع.

شجَّعتهم على ذلك طبعة حديثة مصقولة صدرت في العام 1724. كان كتاب

المقالات لا يزال محظورًا في فرنسا - كان قد مرَّ على الحظر خمسون عامًا - لكن البلد أصبحت تتلقّى الآن تيارًا من نصوص مونتاني المهرَّبة من إنجلترا، حيث جمع الفرنسي البروتستانتي بيير كوست، الذي يعيش في المنفى، طبعة للقرن الجديد. أبرز كوست قصدًا الجانب الهدّام في مونتاني، ليس بالتدخّل في النصِّ، بل بإضافة أدوات إضافية، أكثرها درامية مقال لا بويتي **عن العبودية الطوعية**، الذي وضعه كاملًا ضمن طبعة العام 1727. كانت تلك هي المرّة الأولى التي يُنشر فيها مقال **عن العبودية الطّوعية** منذ نُشر في المنشورات البروتستانتية في القرن السادس عشر، وبالتأكيد المرّة الأولى التي ظهر فيها مرتبطًا بكتاب **المقالات**. غيَّر هذا الارتباط صورة مونتاني، وأحاطه بهالة المتمرِّد السياسي والشخصي، فجعله في صورة كاتب من النوع الذي قد تخفي فلسفته الهادئة معاني أكثر شغبًا. ساعد كوست على خلق صورة من مونتاني ما زالت رائجة حتى الآن؛ صورة شخص راديكالي سرِّي، يخفي نفسه تحت قناع من التعقّل. وبشكلٍ خاصٍّ، جعلت طبعة كوست مونتاني يبدو مثل فيلسوف تنوير مفكّرٍ حرٍّ ولد قبل ميعاده بقرنين. تعرَّف قراء القرن الثامن عشر على أنفسهم فيه، كما فعل الكثيرون، وشعروا بالدهشة لاحتياجه إلى الانتظار هذه الفترة الطويلة قبل أن يلتقي بالجيل القادر حقًّا على فهمه.

استجابت هذه الفصيلة الجديدة من القراء «المستنيرين» بشغف للصورة التي رسمها مونتاني للشَّخص الشجاع من جماعة التوبينامبا. تناسب آكلو لحوم البشر الرواقيون لدى مونتاني تمامًا مع شخصيّة خياليّة جديدة، ألا وهي شخصيّة المتوحِّش النبيل، وهو كائن كامل المعاني بشكل غير ممكن، جمع ما بين البساطة البدائيّة والبطولة الكلاسيكيّة، والذي صار الآن موضوعًا لطقس عقائدي. حافظ الملتزمون بالطقس العقائدي على المعنى الذي أورده مونتاني من أن آكلي لحوم البشر كان لديهم فهمهم الخاصّ للشرف، وأنهم أظهروا الحضارة الأوروبية على حقيقتها أمام نفسها. أما ما فقدوه فهو فهم مونتاني لأن «المتوحِّشين» كانوا ناقصين، وقساة، وبرابرة مثل أي أحد آخر.

من بين الكتاب الذين تهافتوا على ما كتبه مونتاني عن التوبينامبا بسرور دنيس ديدرو، الفيلسوف الذي اشتهر بتجميعه التذكاري لمعارف عصره في كتابه **الموسوعة**، وبرواياته وحواراته الفلسفية التي لا تُعَدّ ولا تُحصى. قرأ ديدرو مونتاني في فترة مبكرة من فترات عمله الوظيفي، وأحبّه، وجامله بالاستشهاد بمقتطفات من كتاب **المقالات** في كتاباته، مقرونة عادة - لكن ليس دائمًا - بالذكر المستحقِّ لمؤلِّفها. كتب ديدرو في عمله الموجز **ملحق عن رحلة بوجنفيل** الصادر في العام 1769 بحماسة عن شعوب جنوب المحيط الهادئ الذين قابلهم الأوروبيون حديثًا، فهم بذلك المعادل في قرنه

لسكان أمريكا الأصليين في زمن مونتاني. ويبدو أن سكان جزر المحيط الهادئ يعيشون، مثل التوبينامبا، حياة بسيطة، تكاد تغمرهم النعمة. كان من السهل تجاهل الجوانب الأقل قبولًا في ثقافتهم لذائقة الأوروبيين، لأن أوروبا لم تعرف عنهم إلا القليل. وأتاح هذا مساحة كبيرة لاختراع أشياء عنهم، خصوصًا فكرة أن سكان هذه الجزر يستغرقون في متعة ممارسة الجنس مع أي أحد يحبّونه في أي وقت. في كتاب **الملحق**، جعل ديدرو إحدى شخصياته، وهي لشخص تاهيتي، ينصح الأوروبيين بأنهم لا يحتاجون إلا إلى اتباع الطبيعة ليكونوا سعداء، حيث لا ينطبق أي قانون آخر. وهذا ما كان مواطنوه يريدون سماعه.

جانْ جاكْ روسُّو كاتب آخر تأثر بمونتاني. رفع جان جاك روسّو المتوحِّش النبيل إلى مستوى يحظى بمزيد من الارتياح؛ وعاشت نسخته المشروحة من كتاب **المقالات**. وعلى عكس ديدرو، اعتبر روسّو المجتمع البدائي مكتملًا إلى حدٍّ أنه لا يمكن أن يوجد فعلًا في أي جزء واقعي من العالم، ولا حتى في المحيط الهادئ. وظيفته فقط أنه نقيض نموذجي للفوضى التي صارت إليها المجتمعات الواقعية. وجميع الحضارات الموجودة فاسدة بحكم التعريف.

يتخيّل روسو في كتابه **خطاب في أصل التفاوت بين البشر** Discourse on the Origin of Inequality, ما يمكن أن يكون عليه الإنسان من دون سلاسل الحضارة. «أرى حيوانًا... يأكل حتى يشبع تحت شجرة بلوط، ويطفئ ظمأه بالشرب من أقرب مجرى مائي، ويتّخذ من قاعدة الشجرة نفسها التي زوّدته بوجبته فراشًا.» الأرض تعطي هذا الرجل الطبيعي كل ما يحتاجه. إنها لا تدلِّله، وهو لا يحتاج إلى تدليل. لقد جعلته الظروف الخشنة منذ طفولته يقاوم المرض، ولديه ما يكفي من القوّة ليحارب الحيوانات البرّية بلا سلاح. لا يملك بلطة، لكنه يستخدم عضلاته ليكسر الأغصان السميكة بلا عون. ليس لديه مقلاع ولا بنادق، لكن يمكنه أن يلقي صخرة بقوة تكفي لصرع أي فريسة. لا يحتاج إلى خيول، لأن بمقدوره الجري بسرعة تضاهي سرعة الحصان. يفقد الإنسان رجولته فقط حين تجعله الحضارة «مستأنسًا وعبدًا»، ويتعلّم أن يصير ضعيفًا ويخاف من كل شيء حوله. ويتعلم اليأس أيضًا؛ يقول روسّو أن أحدًا لم يسمع عن «متوحشٍ حرٍّ» يقتل نفسه. بل يفقد ميله الطبيعي إلى الرحمة. لو قطع أحد حلق أحد آخر تحت نافذة فيلسوف، يرجّح أن يضع الفيلسوف يديه على أذنيه ويتظاهر بأنه لا يسمع؛ أما المتوحِّش فلن يفعل ذلك أبدًا. الرجل الطبيعي لا يمكن ألّا يكترث بالصوت الداخلي الذي يجعله يتماهى مع رفاقه؛ وهو صوت يشبه كثيرًا الصوت الذي ينادي مونتاني لأن يشعر بالتعاطف مع جميع الرفاق من الكائنات التي تعاني.

فإذا عكسنا اتّجاه الزمن وتخيّلنا مونتاني مستقرًّا في مقعده ذي المسندين ليقرأ روسّو، سيكون من المثير للاهتمام أن نتعجّب إلى أي مدى قد يتبع مونتاني هذا قبل أن يرمي الكتاب بعيدًا عنه. في المراحل الأولى من هذه الفقرة، قد يشعر بأنه مسحور؛ فهذا كاتب يتآلف معه تآلفًا تامًّا. وبعد عدّة فقرات أخرى يتخيّله المرء يتردّد ويعبس. وقد يتمتم بينما تظلّ موجة بلاغة روسّو تتضخّم قائلًا: «على الرغم من أني لا أعرف...». قد يريد مونتاني أن يتوقّف ويفحص الموضوع برمّته من زوايا بديلة، وقد يسأل نفسه: هل يجعلنا المجتمع فعلًا متبلّدي الأحاسيس؟ ألسنا أفضل حين نكون في جماعة؟ هل يولد الإنسان حرًّا حقًّا؟ أليس مليئًا بنقاط الضعف والنواقص منذ البداية؟ هل يتماشى حُسن المعشر بين الجماعة مع العبودية؟ وعلى فكرة، هل يمكن لأي شخص حقًّا أن يقذف حجرًا بقوة تكفي لقتل شيء من على مبعدة من دون أن يكون لديه مقلاع؟

لم يتوقّف روسو أبدًا ولا عكس اتجاه الزمن. إنه ينجرف في طريقه طوال الوقت ويجرف معه الكثير من القراء أيضًا؛ فقد صار أشهر مؤلّفي عصره. إن قراءة بضع صفحات من روسّو تجعل المرء يدرك كيف يختلف عن مونتاني، حتى لو بدا الأخير مصدرًا لأفكاره. نجا مونتاني من شرود الخيال البدائي بمَيله للابتعاد جانبًا عن أيِّ ما يقوله، حتى أثناء قوله له. دائمًا ما يتدخّل قوله «على الرغم من أني لا أعرف». كما أن هدفه إجمالًا يختلف عن هدف روسُّو. إنه لا يريد أن يُظهر الحضارة الحديثة بمظهر الحضارة الفاسدة، بل يريد أن يظهر أن جميع وجهات النظر البشرية عن العالم فاسدة ومنحازة بحكم طبيعتها. ينطبق هذا على الزوّار من جماعة التوبينامبا، وهم يحدِّقون في الفرنسيين في روين، بقدر ما كانوا يحدِّقون في لِيري أو ثيفيت في البرازيل. الأمل الوحيد للخروج من ضباب التأويل أن يظلَّ الإنسان منتبهًا لوجوده؛ أي أن يصير حكيمًا على حساب نفسه. لكن حتى ذلك لا يقدّم إلا حلًّا ناقصًا. لا يمكننا أبدًا الهروب هروبًا تامًّا من نواقصنا.

انجذب كتّاب، مثل ديدرو وروسو، إلى «آكلي لحوم البشر» كما كتب عنهم مونتاني، وأيضًا إلى جميع الفقرات التي كتب فيها عن الطرق الطبيعية والبسيطة لعيش الحياة. الكتاب الذي ألّفه روسّو ويبدو أنه استعار معظمه من كتاب **المقالات هو إيميل**، وهو رواية تربوية حازت نجاحًا ساحقًا وغيّرت حياة جيل بأكمله من الأطفال الذين تعلّموا بحسب ذائقة وقته بالدعوة إلى التنشئة «الطبيعية». اقترح أن ينشِّئَ الآباء والأمّهات والمعلّمون الأطفال برفق، ويدعونهم يتعلّمون معلومات عن العالم باتباع فضولهم، مع إحاطتهم بفرص السفر، والحوار، واكتساب الخبرات. وفي الوقت نفسه، لا بد

أن يخشوشنوا، مثل الرواقيين الصغار، ويتمرّنوا على التعامل مع الظروف الطبيعية الصعبة. يرجع هذا بوضوح إلى مقال مونتاني عن التعليم، على الرغم من أن روسو لا يذكر مونتاني إلا عَرَضًا في الكتاب، ليهاجمه عادةً.

ويعود روُسو إلى إهانة مونتاني مرة أخرى في استهلال سيرته الذاتية، المعنونة **الاعترافات**؛ وهي عمل يمكن أن نعتقد بأنه يدين بشيء لمشروع مونتاني عن رسم صورة ذاتية لنفسه. في استهلاله الأصلي (غالبًا ما أزيل في الطبعات التالية)، يدرأ روسُّو هذه الاتهامات بأن يكتب: «أنا أضع مونتاني أساسًا وسط هؤلاء المدَّعين الذي يقصدون الخداع عن طريق ذكر الحقيقة. إنه يرسم صورة لنفسه بنقائصه، لكنه لا يمنح نفسه إلا نقائص يمكن أن يحبّها القارئ.» إذا كان مونتاني يضلِّل القارئ، فليس هو الذي يفعل ذلك، لكنه روسُّو، أول شخص في التاريخ يكتب تقريرًا أمينًا وكاملًا عن نفسه. مما يحرِّر روسُّو ليقول عن كتابه: «هذه هي الصورة الشخصية الوحيدة لرجل، رُسمت بالضبط وفقًا للطبيعة وبكل ما فيها من حقيقة، وهي موجودة، ويرجَّح أن تظلّ موجودة للأبد.»

تختلف أعمال الكاتبين، ليس لمجرد أن **الاعترافات** رواية تتبع حياة شخص منذ الطفولة وما بعدها ولا تلتقط جميع الأمور في وقت واحد كما يفعل كتاب **المقالات**. يختلف الغرض أيضًا. كتب روسُّو كتابه لأنه اعتبر نفسه شخصًا استثنائيًّا إلى حدٍّ بعيدٍ، في الألمعية وأحيانًا في الشرّ، حتى إنه أراد أن يلتقط نفسَه قبل أن يضيع هذا المزيج الفريد على العالم.

> **أعرف الرجال. وأنا لم أُصنع مثل أيِّ واحدٍ رأيته؛ أنا أغامر لأعتقد بأني لم أُصنع مثل أيِّ أحدٍ آخر موجود... أما عما إذا كانت الطبيعة قد أصابت أم أخطأت حين كسرت القالب الذي صُببت فيه، فهذا أمر لا يمكن لأحدٍ أن يحكم عليه إلا بعد أن يقرأ ما كتبته.**

أما مونتاني، فهو على العكس، رأى نفسه باعتباره رجلًا عاديًّا دقيقًا في كل شيء، ما عدا عادته غير المعتادة في تدوين الأشياء. إنه «يحمل قالب الحالة الإنسانية بأكمله»، كما يفعل كل إنسان آخر، وهو من ثم سعيد بأن يضع نفسه موضع المرآة للآخرين، وهو الدور نفسه الذي يضفيه على التوبينامبا. هذا هو معنى كتاب **المقالات** بأكمله. لو لم يرَ أحد نفسه فيه، فلماذا يقرأه أي أحدٍ؟

لاحظ بعض المعاصرين تشابهات مريبة بين روسُّو ومونتاني. اتُهم روسُّو صراحة

بالسرقة: فقد عبَّر منشور معنون بصراحة **سرقات روسُّو في ما كتبه عن التعليم**، أصدره دوم جوزيف كاجوت، عن أن الفرق الوحيد هو أن مونتاني اندفع أقل من روسو وكان أكثر إيجازًا؛ وكان ذلك بالتأكيد الوقت الوحيد التي عُزِيت فيه خصائص الأخير إلى مونتاني. ناقد آخر، هو نيكولاس بريكير دي لا ديسكميري، اخترع حوارًا يعترف فيه روسُّو أنه نسخ أفكارًا من مونتاني، لكنّه يذهب إلى أنها لا تشاركه في أي شيء لأنه يكتب «بحسب الإلهام» بينما مونتاني يكتب «ببرود.»

عاش روسّو في عصر كان فيه الاندفاع، والإلهام، والحرارة يحظون بالإعجاب. وكانوا يعنون بالضبط أنك على صلة «بالطبيعة»، لا عبدًا للمتطلّبات الباردة للحضارة. أنت متوحشٌ وصادقٌ؛ تتمتَّع بأناقة آكلي لحوم البشر.

كان قرّاء القرن الثامن عشر الذين التفوا حول مونتاني بسبب مدحه للتوبينامبا، وبسبب جميع كتاباته عن الطبيعة يزدهرون بالتدريج متحوِّلين إلى رومانسيين بالكامل؛ وهي فصيلة ستسود السنوات الأخيرة من ذلك القرن والسنوات الأولى من القرن الذي يليه. ولن يصبح مونتاني نفسه بالضبط بعد ذلك ما إن تنتهي العلاقات ما بين الرومانسيين وبين مونتاني.

تحوَّرت عبارة «استيقظ من سبات العادة» تدريجيًّا منذ أن بدأت في شكل إجابة متفتِّحة العقل، متمرِّدة قليلًا لسؤال كيف تعاش الحياة جيِّدًا، لتصير شيئًا أكثر إثارة للغوغاء بكثير، بل وثورية. لم يعد من السهل بعد المذهب الرومانسي رؤية مونتاني باعتباره مصدرًا منعشًا لطيفًا للحكمة الهيللينية. فمنذ الآن فصاعدًا، سيصرُّ القراءُ على محاولة رفع درجة حرارته. وسيكون له جانبٌ برّيٌّ، أكثر مما كان له من قبل.

11. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟

ج: عِشْ باعتدال

رفعُ الحرارة وخفضُها:

وجد قراء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أن من السهل عليهم أن يحبّوا مونتاني الذي صنعوه لأنفسهم بعدة طرق. فعلاوة على تقديرهم لمدحه للأمريكيين، استجابوا لانفتاحه بشأن نفسه، وبترحابه باستكشاف التناقضات التي في شخصيته، وعدم اهتمامه بالتقاليد، ورغبته في القطيعة مع العادات المتحجِّرة. أحبوا اهتمامه بعلم النفس، خاصّة فهمه للطريقة التي يمكن أن توجد بها الدوافع معًا في عقل واحد. واستمتعوا أيضًا بأسلوبه في الكتابة، وكانوا أول جيل من القراء يشعرون هكذا نحوه بأعداد كبيرة، مع كل ما فيه من الكثير من الفوضى. أحبوا الطريقة التي بدا أنه يبوح بها من دون تفكير بأي شيء يطرأ على عقله في أي لحظة، من دون أن يتوقّف ليرتِّبه ترتيبًا منسّقًا.

ل. لي كويتر، مونتاني، 1789. ألوان مائية. مأخوذة من

Galerie universelle des bommes qui se sont illustrès dans l'Empire des letters, depuis le siècle de Léon X Jusqu'á nos jours (Paris: Bailly, 1787 - 1789).

مونتاني باعتباره رومانسيًّا في مهبِّ الرياح.

كان القراء الرومانسيون مأخوذين بشكلٍ خاصٍّ بمشاعر مونتاني القويّة نحو لا بويتي، لأن ذلك كان الموضوع الوحيد الذي أظهر فيه انفعالًا قويًّا. النهاية المأساوية لقصّة الحبِّ، مع موت لا بويتي، جعلها أجمل. الإجابة البسيطة التي قدَّمها مونتاني لسؤال لماذا أحبا بعضهما البعض - »لأنه كان هو، ولأني كنت أنا» - صارت عبارة تلفت النظر، وتشير إلى الغموض المتعالي الكامن في كل جاذبية بشريّة. وروت الكاتبة الرومانسية جورج صاند في سيرتها الذاتية عن كيف صارت مهووسة بمونتاني ولا بويتي في شبابها، باعتبارهما نموذجًا أوليًّا للصداقة الروحية التي تتوق هي نفسها لأن تجدها، ووجدتها في سنوات حياتها المتأخِّرة مع أصدقاء من الكتّاب، مثل فلوبير وبلزاك. وشعر الشاعر ألفونس دي لا مارتين بالشعور نفسه؛ وكتب في خطاب عن مونتاني: «كل ما أعجب به صداقته مع لا بويتي.» وقد استعار فعلًا صيغة مونتاني لوصف مشاعره هو نفسه في خطابٍ سابقٍ للصديق نفسه: «لأنك أنت أنت، ولأني أنا أنا.» وقد احتضن لا مارتين مونتاني نفسه باعتباره رفيقًا من هذا القبيل، فيكتب عن «الصديق مونتاني، نعم: صديق».

لردود الفعل هذه خاصّية جديدة ذات شحنة عالية أو مرتفعة الحرارة، وعند قياسها بعدد زوار برج مونتاني أثناء هذا العصر نجدها في زيادة. الزوار المدعوون لضيعة مونتاني يجذبهم الفضول، لكن ما إن يصلوا إلى هناك حتى يطير صوابهم؛ فكانوا يقفون في حالة تأمّل وقد أسكرهم الانتشاء، يشعرون بروح مونتاني تحوم حولهم كوجود حيٍّ. وكثيرًا ما كادوا يشعرون كما لو كانوا قد **صاروا** هو، لبضع لحظات.

كان القليلُ من هذا موجودًا في القرون السابقة. عاشت ذريّة مونتاني في الضيعة حتى العام 1811، ولم يتدخّل أحد في تصرّفاتهم حين حولوا الدَّوْر الأرضي للبرج إلى مخزن للبطاطس، وحوّلوا غرفة النوم التي في الدور الأول إلى حظيرة كلاب أحيانًا وخُمّ دجاج أحيانًا أخرى. لم يتغيّر هذا إلا بعد أن تحول وفود قلة من الزوار الرومانسيين الأوائل إلى تدفق منتظم للزوار، حتى انتهى الأمر بإخلاء المكان من البطاطس والدجاج وتنظيم إعادة خلق بيئة العمل التي عاش فيها مونتاني.

بدا كل هذا شارحًا نفسه بالنسبة للرومانسيين. من الطبيعي أنك لو استجبت لكتابات مونتاني، لا بد أن تريد أن تذهب إلى هناك بشخصك؛ لتحدِّق من نافذته إلى المنظر الذي كان يراه يوميًّا، أو لتحوم خلف المكان الذي ربما جلس فيه ليكتب، وبذلك يمكنك أن تنظر إلى أسفل وتكاد ترى كلماته الشبحية تظهر أمام عينيك. ولأنك لا تأخذ في اعتبارك الصخَب الذي يمكن أن يحدث فعلًا في الفناء الذي في الأسفل،

وربما في غرفته أيضًا فأنت حرٌّ في تخيل البرج كصومعة راهب، سكنها مونتاني مثل ناسك. وقد كتب أحد الزوار الأوائل، ألا وهو تشارلز كومبان، عن مكتبة البرج: «دعنا نسرع بعبور العتبة»، وأضاف:

إذا دقَّ قلبك كقلبي بعاطفة عصيّة على الوصف؛ إذا ألهمتك ذكرى رجلٍ عظيم بالوقار العميق الذي يميِّز المحسنين للإنسانية، والذي لا يمكن أن يرفضه المرء؛ فادخل.

عاش تقليد الزيارة بعد انتهاء العصر الرومانسي الأصلي. وحين كتب الماركيز دي جيلون عن زيارته للبرج في العام 1862، تذكّر ألم المغادرة بعبارات شخصٍ محبٍّ:

لكن على المرء أن يغادر هذه المكتبة أخيرًا، وهذه الغرفة، وهذا البرج العزيز.
وداعًا يا مونتاني! لأن مغادرة هذا المكان تعني الانفصال عنك.

كان مونتاني نفسه هو المشكلة دائمًا في كل هذا الانتشاء الحار في أحضانه. فتخيّل مونتاني على هذا النحو يعني أن يضع المرء نفسه في صراع مع طريقة مونتاني الخاصّة في فعل الأشياء. إن تجاهل المرء لأجزاء كتاب **المقالات** التي تتدخّل مع التفسيرات التي يختارها نشاط لا يبلى مع الأيام، لكن الرومانسيين ذوي الدم الحارّ كانت مهمتهم أصعب من مهمة معظم الآخرين. فقد كانوا يُنَشَّأُون باستمرار ضد أشياء كهذه:

لا خبرة كبيرة لديَّ بهذا الاضطراب العنيف، حيث إن طبعي متثاقل وبطيء.
أحب الطبائع المعتدلة والوسطية.
تجاوزاتي لا تجعلني أشطح بعيدًا. لا يوجد فيها شيء متطرِّف ولا غريب.
أجمل أشكال الحياة، بالنسبة لعقلي، هي التي تساير النمط الإنساني العام، بنظام، لكن من دون معجزة ومن دون غرابة أطوار.

كان الشاعر ألفونس دو لامارتين أحد هؤلاء القراء المحبَطين. حين صادف مونتاني للمرة الأولى عبَده كبطل، واحتفظ دائمًا بنسخة من كتاب **المقالات** في جيبه أو على منضدته حتى يتمكَّن من قراءته حين يشعر برغبة ملحّة في ذلك. لكنه انقلب على معبوده في ما بعد بعنفٍ مساوٍ. وقرّر الآن أن مونتاني لا يعرف شيئًا عن بؤس الحياة الحقيقي. وشرح لمراسل صحافي أنه تمكّن من أن يحب كتاب المقالات فقط حين كان حديث السن؛ وكان هذا قد حدث منذ تسعة شهور سابقة، حين بدأ يتحمّس للكتاب في خطاباته. والآن، وقد بلغ الحادية والعشرين، فقد أمضّه الألم، ووجد مونتاني شديد

البرود ورتيبًا. ربما تساءل عما إذا كان قد يعود إلى مونتاني بعد عدة سنوات في ما بعد، حين يكبر في السن، حين يجفّ قلبه بفعل المزيد من المعاناة. أما الآن، فإن معنى الاعتدال عند صاحب كتاب **المقالات** جعله يشعر شعورًا أكيدًا بالمرض.

كتبت جورج صاند أيضًا أنها «لم تكن من مريدي مونتاني» حين يأتي الأمر إلى «لا مبالاته» الرواقيّة أو الشكيّة - فتوازنه أو راحة باله هدفٌ عفا عليه الزمن الآن. لقد أحبّت صداقته مع لا بويتي، باعتبارها العلامة الوحيدة على الدفء، لكنها لم تكن كافية، وتعبت منه.

أسوأ نقطة شائكة بالنسبة للقراء الرومانسيين فقرة يصف فيها مونتاني زيارته للشاعر الشهير تركواتو تاسو في فيرّارا، في رحلاته إلى إيطاليا في العام 1580. حقَّقت أكثر أعمال تاسو شهرة، **ملحمة تحرير أورشليم**، نجاحًا باهرًا عند صدورها في العام نفسه، لكن الشاعر نفسه فقد عقله واحتُجز في مستشفى المجانين، حيث عاش في حالة شنيعة، محاطًا بالمجانين المكروبين. زاره مونتاني عند مروره بفيرّارا، وشعر بالرعب عند لقائه. شعر بالتعاطف معه، لكنه شكَّ أن تاسو أوقع بنفسه في هذه الحالة بقضائه لوقت أطول من اللازم في حالة نشوة شعرية. لقد أدّى به التألق أو الإلهام إلى فقدان العقل؛ لقد ترك نفسه لكي «يعميه الضوء». أحزن مونتاني أن يرى عبقريًا يهبط إلى البلاهة. والأسوأ أنه انزعج من هذا. يا للخسارة، أن يحطِّم المرء نفسه على هذا النحو! كان يعي أن كتابة الشعر تتطلّب قدرًا من «الجنون»، لكن ما جدوى أن يصير الإنسان مجنونًا بهذا الشكل إلى حدٍّ أنه لن يكتب بعد ذلك أبدًا؟ «رامي السهام الذي يتجاوز سهمه الهدف يخسر بقدر خسارة الشخص الذي لا يصل سهمه إلى الهدف».

حين أعاد الرومانسيون النظر إلى هذين الكاتبين المختلفين مونتاني وتاسو، وأعجبوا بالاثنين، كانوا على استعداد لمجاراة اعتقاد مونتاني بأن تاسو قد فجّر عقله بنفسه بالشِّعر. وتمكّنوا من فهم حزن مونتاني لذلك. لكنهم لم يفهموا انزعاجه ولا غفروه له. فالرومانسيون جرّبوا فعل التألّق المؤدّي للعمى، والاكتئاب السوداوي، والتماهي الخيالي القوي، لكنهم لم يجربوا فعل الانزعاج.

من الواضح أن مونتاني «ليس شاعرًا»، قال هذه العبارة قارئ هو فيليب تشاسلز على سبيل الشجار. أما جول ليفيفر - ديومير فقد تحسّر على ما رأى أنه «اللامبالاة الرواقية» لمونتاني نحو معاناة رجل آخر؛ وهو ما يبدو قراءة خاطئة لفقرة مونتاني عن تاسو. كانت المشكلة الحقيقية أن الرومانسيين انحازوا إلى جانب دون آخر، لقد تماهوا مع تاسو في هذا اللقاء، لا مع مونتاني، الذي كان يمثِّل العالم غير المتفهِّم الذي شعروا أنه يعارضهم هم أيضًا دائمًا. وكان نيتشه سيحذر مونتاني:

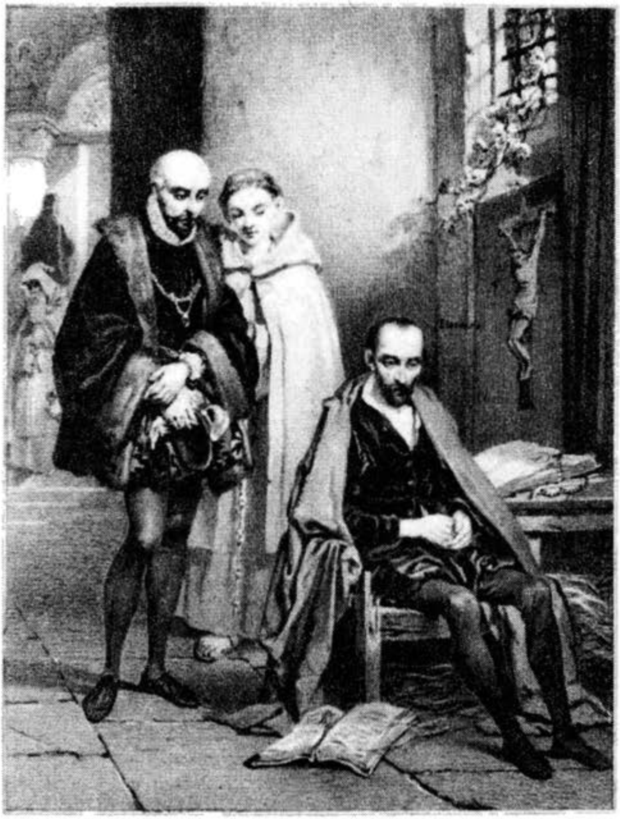

زيارة مونتاني لتاسو في فيرّارا. طباعة على الحجر من رسم پ. چ. شاللاميل، نقلًا عن لوحة بريشة لويس جاليت، زيارة مونتاني لتاسو في السجن (1836)، في Revue des peintres (1837)K no. 208.

الاعتدال يرى نفسه جميلًا؛ ولا يعي أنه يبدو في عين الشخص المعتدل بلون أسود وباهت، وبناء على ذلك يبدو دميمًا.

والحقيقة، أن مونتاني هو الذي كان يلعب دور المتمرِّد في هذه الحالة. كان مونتاني يترنّم بمديح الاعتدال والرصانة، ويشكّ في قيمة التجاوز الشعري، وبذلك كان يسبح ضد تيار زمنه بقدر سباحته ضد تيار زمن الرومانسيين. كان قرّاء عصر النهضة مولعين بشدّة بالحالات المتطرِّفة، وكانت النشوة هي الحالة الوحيدة التي يكتب فيها الشعراء الشعر، كما كانت السبيل الوحيد لخوض القتال والسبيل الوحيد للوقوع في الحب. في

المساعي الثلاثة، يبدو أن مونتاني كان لديه منظِّم حراريٌّ داخليٌّ يفصله عن الحالة فور ارتفاع درجة الحرارة متجاوزة نقطة معينة. وكان هذا سبب إعجابه الشديد بإبامينونداس Epaminondas، المحارب الكلاسيكي الوحيد الذي حافظ على رباطة جأشه حين صلصل صوت السيوف المتقارعة، كما كان السبب في تثمينه للصداقة أكثر من الغرام. وقال، «تخيفني الأمزجة المتسامية». أما القيم التي كان يثمِّنها فهي: الفضول، والألفة الاجتماعية، وطيبة القلب، والشعور بمشاعر الرفاق، والقدرة على التأقلم، والتأملات الذكية، والقدرة على رؤية الأمور من وجهة نظر شخص آخر، و«المودة»؛ ولا يوجد بينها ما يتوافق مع التهاب فرن الإلهام.

بل إن مونتاني ذهب بعيدًا حين زعم أن عظمة الروح الحقيقية توجد في «التوسط»، وهو تعليق صادم، بل حتى - للمفارقة - متطرّف. معظم الحديثين تدرّبوا على اعتبار توسّط الجودة حالة ضعيفة محدودة أي يصعب أن تعرف فيم تعتقد حين يقول هذا. هل يلعب مونتاني ألعابًا مع القارئ مرة أخرى، كما شكك البعض حين كتب أن لديه ذاكرة ضعيفة وذكاء بطيئًا؟ ربما كان كذلك، إلى حدٍّ ما، لكن يبدو أنه يعني ما يقوله أيضًا. كان مونتاني لا يثق في الطموحات الشبيهة بطموحات الآلهة، فهو يرى أن الناس الذين يحاولون الارتفاع فوق الإنسان لا يفعلون إلا الرسوب إلى ما تحت الإنسان. وهم، مثل تاسو، يسعون إلى تجاوز الحدود، وبدلًا من ذلك يفقدون خواصّهم الإنسانية العادية. أن يكون المرء إنسانًا حقًّا يعني أن يتصرّف بطريقة ليست عادية فحسب، بل منظَّمة[1]، وهي كلمة يعرّفها قاموس أكسفورد للغة الإنجليزية بأنها «منظم، تنظيمي، بنظام، معتاد، معتدل». إنها تعني الحياة على نحو ملائم، أو à propos، بحيث يقدّر الإنسان الأشياء بقيمتها الصحيحة ويتصرّف بالطريقة التي تناسب كل مناسبة بشكل صحيح. وهذا هو السبب - على حد قول مونتاني - في أن الحياة بشكل ملائم «هي تحفتنا العظيمة والمجيدة». هذه لغة فيها عظمة، لكنها تُستخدم لوصف خاصّية يمكن أن تكون أي شيء إلا عظيمة. التوسّط في مفهوم مونتاني لا يعني البلادة التي تأتي حين لا يتعب المرء نفسه في التفكير جيِّدًا في الأشياء، أو لفقر الخيال الذي يحجب رؤية ما يتجاوز وجهة نظر المرء نفسه. إنها تعني قبول أن أي سخص مثل أي شخص آخر، وأن الواحد يحمل الشكل الكامل للحالة الإنسانية. لا يمكن إبعاد هذا أكثر من ذلك عن روسّو وشعوره بأنه متميّز عن الإنسانية جمعاء. بالنسبة لمونتاني:

---

(1) في النص الإنجليزي مكتوبة ordinate يليها شرح قاموس اكسفورد لها (المترجمة).

لا يوجد شيء بهذا الجمال والمشروعية أكثر من إجادة لعب دور الإنسان بشكل صحيح، ولا توجد معرفة يصعب اكتسابها مثل معرفة كيف تُعاش هذه الحياة جيِّدًا وبشكل طبيعي؛ وأكثر أمراضنا توحُّشًا هو ازدراء وجودنا.

كان مونتاني يعرف، على الرغم من ذلك، أن الطبيعة الإنسانية لا تتماشى دائمًا مع هذه الحكمة. فمع تمنِّي السعادة، وهدوء البال أنفعاليًّا، وتملّك المرء لجميع مَلَكاته، يوجد شيء آخر يدفع الناس بشكل دوري إلى سحق إنجازاتهم وتمزيقها إربًا. هذا ما سمّاه فرويد مبدأ **غريزة الموت**؛ الدافع نحو الموت والفوضى. وقد وصفته ربيكا ويست، وهي مؤلفة من القرن العشرين، كما يلي:

جزء منا فقط هو العاقل: جزء منا فقط يحب اللذة واليوم الأطول للسعادة، يريد العيش حتى التسعينيات من العمر ويموت في سلام، في بيت بنيناه، سيأوي من يأتون بعدنا. النصف الآخر منا مجنون تقريبًا، فهو يفضِّل الخلافي على المتَّفَق عليه، ويحب الألم وليل يأسه الأحلك سوادًا، ويريد أن يموت في كارثة تعيد الحياة إلى بدايتها الأولى ولا تبقي أي أثر لبيتنا ما عدا أسسه المسودة.

عاش كل من ويست وفرويد تجربة الحرب، وكذلك مونتاني؛ ومن الصعب أن يفشل مونتاني في ملاحظة هذا الجانب من الإنسانية. لا بد من قراءة مقطوعاته عن الاعتدال والتوسّط بعين ترى دائمًا الحروب الأهلية الفرنسية، التي جلب فيها التطرّف المتزايد نطاقًا واسعًا من أنواع القسوة الأدنى من مستوى الإنسانية. انتهت الموجة الثالثة من «القلاقل» في أغسطس 1570، وأعقبها سنتان من السلام في الفترة التي كان مونتاني يعيش فيها في ضيعته وبدأ في تأليف كتاب **المقالات**. لكن قبل أن ينهي هذا الكتاب بوقتٍ طويلٍ، انتهت فترة السلم نهاية مفاجئة وصادمة، بحدث لم يدع لدى أحد مجالًا للشك بوجود جانب مظلم في الطبيعة الإنسانية.

12. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟

ج: احرُسْ إنسانيتَك

الرُّعب:

أغضبت اتفاقية سان جيرمان التي عُقدت في سبعينيات القرن السادس عشر الجميع، مثلها مثل اتفاقيات السلام التي سبقتها. اعتقد البروتستانت الذين يريدون المزيد دائمًا أن شروطها لم تحقِّق أهدافهم المرجوّة بشكلٍ كافٍ، لأنها منحتهم حريّة عبادة محدودة. أما الكاثوليك فاعتبروا أنّها تجاوزت أهدافهم المرجوَّة؛ إذ كانوا قلقين من أن يأخذ البروتستانت أي تنازلات مهما كانت لأنها ستكون تشجيعًا لهم. وخشوا أن يضغط البروتستانت من أجل ثورة شعواء ضد الملك الكاثوليكي الشرعي، وتبدأ حرب أخرى. كانوا محقِّين بشأن وجود حربٍ أخرى لكنهم أخطأوا في تقدير من الذي سيكون مسؤولًا عنها.

استمرّت الضغوط في التزايد، ووصلت إلى الذروة في أثناء الاحتفالات التي أقيمت في باريس في أغسطس 1572 احتفالًا بالزفاف الملكي بين الكاثوليكية مارجريت دي فالويز والبروتستانتي هنري دي نافار. حضر الاحتفال قادة الطوائف الثلاث الرئيسية في مزاج متجهّم: الملك الكاثوليكي المعتدل تشارلز الرابع، والقائد البروتستانتي الراديكالي الأدميرال جاسبارد دي كوليجني، والدوق الكاثوليكي المتطرِّف دوق دي جويز. كل قائد طائفة كان يطارده الخوف من الآخرين. وزاد الوعّاظ، ملهبي إثارة الشغب، الحرارة الانفعالية اشتعالًا بين أهل باريس العاديين، إذ حثّوهم على الانتفاض لمنع الزفاف وإزالة القادة المهرطقين من على وجه الأرض والفرصة في أيديهم.

ومضى الزفاف في طريقه المرسوم في 18 أغسطس، وتبعته احتفالات رسمية لمدة أربعة أيام. لا شك أن الكثيرين تنفّسوا الصعداء حين انتهت هذه الاحتفالات. لكن في ساعة متأخِّرة من الليلة الأخيرة، 22 أغسطس 1572، أطلق أحدهم النار على القائد البروتستانتي كوليجني بينما كان عائدًا من قصر اللوفر إلى بيته سيرًا على الأقدام. لم تقتله الإصابة، بل كسرت ذراعه.

انتشرت أخبار الحادث في أنحاء المدينة. وفي الصباح التالي، تدفّقت موجات من الهوغونوت أتوا ليروا كوليجني، وهم يقسمون بالانتقام. اعتقد الكثيرون منهم (كما لا يزال معظم المؤرخين يعتقدون) أن الملك نفسه كان وراء محاولة الاغتيال، هو وأمه كاثرين دي ميدتشي، والفكرة كبح أي تمرّد بروتستانتي محتمل في مهده بإزاحة قائده من الطريق. إذا صدق ذلك، يكون سوء تقدير من جهة تشارلز. أغضب الهجوم على كوليجني البروتستانت. لكن الأخطر أنه أرعب الكاثوليك، الذين تجمّعوا حول المدينة وأعدوا العدّة للدفاع عن أنفسهم؛ إذ توقعوا أن يثور البروتستانت ردًّا على ما حدث. ربما كان الملك مستثار الأعصاب أيضًا، وربما فكر في أن قائد متمرِّد ميت أقل خطرًا من قائد متمرِّد جريح. ومن الواضح أن بعض أفراد الحرس الملكي اقتحموا منزل كوليجني بناء على أوامره وأكملوا العمل الدموي بقتل الرجل الجريح في فراشه. حدث ذلك في الصباح المبكر من يوم السبت 24 أغسطس، يوم عيد القديس بارتيلوميو.

قطع القتلة رأس كوليجني وأرسلوه إلى القصر الملكي؛ حيث سيحنّط في نهاية المطاف ويُرسل إلى روما ليفرح به البابا. وفي تلك الأثناء، قُذف ببقية الجسد من النافذة إلى الشارع، حيث أشعل فيه حشد من الكاثوليك النار وسحلوه في أنحاء المنطقة. تحطم الجسد المحترق إلى شذرات، لكن الناس حملوا أجزاء منه وساروا بها في مسيرات في أنحاء المدينة وظلوا يوقعون بها مزيدًا من التشويه لعدة أيام.

ف. دوبويز، مذبحة عيد القديس بارتيلوميو، 24 أغسطس 1572. زيت على خشب. المتحف الأركيولوجي والتاريخي، لوزان، سويسرا/ جيرودون/ ذا بريدجمان آرت ليبراري.

سبَّب الشغب حول منزل كوليجني المزيد من الهلع بين أهل باريس من الكاثوليك والبروتستانت. اندفعت عصابات كاثوليكية إلى الطرق؛ تقبض على أيّ بروتستانتي وتقتله، وتقتحم البيوت التي تعرف أن البروتستانت يعيشون فيها، حيث كان الكثيرون ينامون فيها مطمئنين، ليست لديهم أي فكرة عما يحدث في المدينة. جرّهم الغوغاء خارج البيوت، وذبحوهم أو قطّعوهم إربًا، ثم أشعلوا النيران في أجسادهم أو ألقوهم في النهر. اجتذب الاضطراب حشودًا أكبر فأكبر، وغذَّى نيران المزيد من الفظائع. ولنذكر حادثًا واحدًا وردت عنه تقارير، حيث قتل رجل اسمه ماثورين لوسولت حين ارتكب خطأ فتح باب بيته لمن قرعه؛ نزل ابنه ليرى سبب الضجة فطعنوه أيضاً. حاولت فرانسواز، زوجة لاسولت الهرب بالقفز من نافذة الطابق العلوي إلى فناء الجيران؛ فانكسرت ساقاها. ساعدها الجيران، لكن المهاجمين اقتحموا المكان وجرّوها من شعرها إلى الشارع. وقطعوا يديها ليحصلوا على أساورها الذهبية، ثم خوزقوها على سيخ؛ وبعد ذلك ألقوا بجسدها في النهر. وظلت اليدان موجودتين خارج المبنى لعدّة أيام، وقد نهشتها الكلاب. وحدثت مشاهد مماثلة في جميع أنحاء المدينة، وألقيت عدة أجساد في نهر السين، حتى قيل إنه تحوّل إلى اللون الأحمر بفعل الدماء التي جرت في مجراه.

أيًا كان قصد تشارلز من الاغتيال الأول - إذا كان مسؤولا عنه حقًا - يكاد من المستحيل أن يكون قد قصد هذه المذابح. لقد أمر جنوده الآن بقمع العنف، لكن الوقت كان قد تأخَّر. استمر القتل لحوالى أسبوع عبر أحياء باريس، ثم انتشر في بقية أنحاء البلاد. خلّفت المذبحة التي عُرفت أكثر ما عُرفت باسم مذبحة عيد القديس بارتيلوميو ما يزيد على خمسة آلاف قتيل في باريس وحدها. وبنهاية الأحداث، قتل حوالى عشرة آلاف شخص في فرنسا. كما يمتصّ إعصارٌ سفن الصّيد امتصّ العنف المدن: أورليانز، وليون، وروين، وتولوز، وبوردو وبلدات صغيرة أخرى لا تعد ولا تحصى.

كان نوعًا من الشغب الذي يستنكره مونتاني حتى في ساحة قتال تقليدية، كيف وأن الضحايا هنا مدنيين. وإجمالًا، كان القتلة مدنيين كذلك؛ لم يتورّط جنود أو موظفون رسميون في القتل إلا في أماكن قليلة. كانت بوردو إحدى هذه الأماكن القليلة. لم يحدث فيها شيء حتى 3 أكتوبر، لكن حين حدث، كان من الواضح أن من نظَّمه وأقرَّه هو العمدة الكاثوليكي المتعصِّب في ذلك الوقت، تشارلز دي مونتيفيراند؛ الذي أصدر قائمة رسمية بالأهداف المطلوب مهاجمتها. كان سفك الدماء يحدث في معظم الأماكن بشكل فوضوي وبيد أناس كان يمكن أن يكونوا عاقلين في بقية الوقت. ونقلًا عن أحد

المؤرخين، توقّف الغوغاء في أورليانز في الحانات بين نوبات القتل للاحتفال بما أنجزوه، «مصحوبين بالغناء، وعزف العود والجيتار». تكوَّنت بعض الجماعات أساسًا من نساء أو أطفال. فسَّر الكاثوليك وجود هذه الجماعات الأخيرة بأن الإله نفسه كان مؤيِّدًا للمذابح، لأنه جعل حتى الأبرياء يشاركون فيها. وعمومًا، اعتقد الكثيرون بأنه حيث إن عمليات القتل لم تكن على نطاق إنساني عادي، فلا بد أن الإله أقرَّها. فهي لم تكن نتيجة قرارات بشرٍ، بل كانت رسائل من الإله إلى البشرية، بشائر اضطراب ورعب كوني بقدر ما هي حصادٌ فاسد أو نجم مذنّب في السماء. صُنعت ميدالية في روما لإحياء ذكرى المذابح، صوَّرت الهيهوغونوت وهم يُصرَعون، لا بيد رفاق فانين، بل بيد ملاك مسلح تلألأ بالغضب المقدّس. عمومًا، يبدو أن البابا الجديد، جريجوري الثالث عشر، سرَّ بحوادث فرنسا. فعدا الميدالية، عهد البابا لجورجيو ڤاساري بمهمّة رسم لوحات فريسكو احتفالية في البهو الملكي في الفاتيكان. وشارك الملك الفرنسي بالمثل في مواكب عيد الشكر، وصُكَّت له ميداليتان، واحدة تمثِّله في صورة هرقل يحارب الهيدرا، والأخرى تصوِّره على عرشه محاطًا بجثث عارية وهو يمسك بسعفة نخيل ليمثِّل النصر.

ميدالية تشارلز التاسع التي تصوِّر مذابح عيد القديس بارتيلوميو في شكل هزيمة الهيدرا.

N. Favyer, Figure et expoxition des pourtraictzet dictons contenuz es medaillesde la conspiration des rebelles en France (Paris: J. Dallier, 1572).

ما إن جمع الهوغونوت شتات شملهم وجمعوا جيوشًا ليحاربوا ردًّا على ذلك، حتى نشبت حرب شاملة مرة أخرى. استمرّت هذه الحرب طوال سبعينيات القرن السادس عشر، مع فترات توقّف عرَضية فقط. شكّلت حوادث عيد القديس بارتيلوميو خطًّا فاصلًا؛ فبعدها، صارت الحروب أكثر فوضوية، وازداد حدوثها بدافع التعصّب.

وإلى جوار المعارك العادية، سبّبت الآن عصابات الجنود، المتهيّجة المنفلتة من أي تحكّم، الكثير من البؤس، حتى أثناء فواصل السلم المفترضة، حيث لم يكن لهم رؤساء ولا مرتّبات. هرب الفلاحون أحيانًا وعاشوا حياة بريّة في الغابات بدلًا من الانتظار في البلدة ليتعرّضوا للهجوم وللتعذيب أحيانًا من باب التسلية ليس إلا. كانت هذه حالة طبيعة انتقامية. كتب محامٍ قروي، هو جان لا روفيير في العام 1579 إلى الملك يستجدي عونه لفقراء المزارعِين في منطقته: «رجال بؤساء، عرضة للاستشهاد، ومهجورون» يعيشون من الأرض بقدر ما يمكنهم، وقد فقدوا كل ما لديهم. كانت حكايات الناس من بين أصناف الرعب التي شهدها أو سمع بها:

> **يُدفنون أحياء في أكوام السماد، ويُلقى بهم في الآبار والمصارف ويتركون ليموتوا، وهم يعوون كالكلاب؛ وقد وُضعوا في صناديق أغلقت بالمسامير لا ينفذ إليها الهواء، وحُبسوا بين جدران أبراج بلا طعام، وشُنقوا على الأشجار في أعماق الجبال والغابات؛ ومُدِّدت أجسادهم أمام النيران، وأقدامهم تقلى بالشحم؛ اغتُصبت نساؤهم، وأُجهضت الحبالى منهن؛ خُطف أطفالهم لطلب فدية، أو حتى شُووا أحياء أمام والديهم.**

غذّت الحماسة الدينيّة الحروب، لكن المعاناة الناتجة عن الحرب ولَّدت بدورها مزيدًا من التخيّلات المنذرة بالشؤم. اعتقد الكاثوليك والبروتستانت كلاهما أن الحوادث تقترب من نقطة لا يمكن أن يأتي بعدها أي تاريخ بشكل طبيعي، لأن ما تبقّى هو الصراع بين الإله والشيطان. وهذا هو السبب الذي جعل الكاثوليك يحتفلون بمذابح عيد القديس بارتيلوميو ببهجة شديدة؛ فقد رأوها نصرًا أصيلًا على الشرِّ، وسبيلًا لإعادة الأفراد المضَلَّلين، الذين لا يُعدُّون ولا يُحصَون، إلى الكنيسة الحقيقية قبل أن يتأخّر الوقت على إنقاذ أرواحهم.

كان كلُّ هذا مهمّا جدًّا، لأن الزمن كان قصيرًا. سيعود المسيح في الأيام الأخيرة، وسيندثر العالم، ويكون على كل فردٍ، ذكرًا كان أم أنثى، أن يبرِّر تصرّفاته في حضرة الإله. يستحيل وجود حلول وسط في هذا الموقف، ولا رؤية لوجهة نظر الآخر، وبالتأكيد لا يوجد فهم متبادل بين المعتقدات المتنافسة. كان مونتاني، بمدحه للحياة العادية وللتوسط، يبيع شيئًا لا سوق له في عالم منكوب.

كانت علامات نذير الشؤم الوشيك هذا كثيرة: سلسلة من المجاعات، وتدمير المحاصيل، وفصول شتاء قارصة البرد في سبعينيات القرن السادس عشر، أشارت

إلى أن الإله نفسه كان يسحب دفأه من كوكب الأرض. اجتاح الجدري، والتيفوس، والسعال الديكي البلد، علاوة على أسوأ الأمراض، ألا وهو الطاعون. بدا أن فرسان الشؤم الأربعة قد انطلقوا من عقالهم: الوباء، والحرب، والمجاعة، والموت. تجوَّل مذؤوب في البلد، وولد في باريس توأمان ملتصقان، وانفجر نجم جديد في السماء من النوع المستعر، الذي يتألّق ضوؤه فجأة ثم يخبو تدريجيًا. حتى الذين لم يكونوا من المتطرفين دينيًا عادةً شعروا بأن كل شيء يسرع نحو نهاية غامضة ما. وتذكّرت محرّرة مونتاني، ماري دي جورناي، في ما بعد، فرنسا التي عاشت فيها شبابها كمكان تخلى عنه أهله وتركوه للفوضى «وهكذا يُقاد المرء ليتوقّع انتهاء الدولة إلى الخراب لا الإصلاح». واعتقد البعض أن النهاية صارت وشيكة جدًّا حقًّا. كتب عالم اللغة واللاهوت جيّوم بوستيل Guillaume Postel في خطاب حرَّره في العام 1573 أن «البشر سيفنون في بحر ثمانية أيام».

كان الشيطان الوسواس الخنَّاس أيضًا يعرف أن زمن تأثيره على الأرض يقترب من نهايته، فأرسل جيوشًا من العفاريت الدواهي لكسب النفوس القليلة الضعيفة الأخيرة. كانوا جيوشًا حقًّا؛ قدر جان وير في كتابه **عن حيل العفاريت الدواهي** (1564) عددهم بـ7409127 عفريتًا داهية كانوا يعملون لحساب إبليس، تحت إدارة مكوَّنة من تسعة وسبعين أميرًا من أمراء العفاريت الدواهي. وكانت معهم الساحرات؛ فقد حدث ارتفاع كبير مفاجئ ومثير في حالات السحر بعد أن قدّمت ستينيات القرن السادس عشر المزيد من البراهين على أن يوم القيامة قادم. وحكمت عليهن المحاكم بالحرق بأسرع ما يمكن بعد اكتشافهن، لكن الشيطان الوسواس الخنَّاس كان يأتي ببديلات لهنَّ بوتيرة أسرع.

ذهب عالِم علم الشياطين المعاصر جان بودين إلى أنه في حالات الأزمات مثل تلك، لا بد من خفض مستوى البراهين. كان السحر شديد الخطورة، ويصعب جدًّا اكتشافه باستخدام وسائل الإثبات العادية، إلى حدٍّ أن المجتمع لا يتمكَّن من تحمَّل تكلفة التمسَّك الزائد «بالترتيب القانوني والإجراءات العادية.» يمكن اعتبار الشائعات العامّة «معصومة من الخطأ تقريبًا»؛ فلو قال جميع أهل قرية إن امرأة معيّنة ساحرة، كان هذا كافيًا لتبرير تعذيبها. أعيد إحياء تقنيّات العصور الوسطى خصّيصًا لهذه الحالات. تشمل هذه التقنيات «تعويم» المشتبه فيهم ليروا ما إذا كانوا سيطفون أم يغرقون، وإحراقهم بقطع من الحديد المحمَّى. استمرَّت أعداد الساحرات المحكوم عليهن في التزايد بينما انخفضت مستويات البراهين، وتصاعدت الزيادة لتعطي مزيدًا من الإثبات أن الأزمة حقيقية، وأن من الضروري إدخال المزيد من التعديلات على القانون. وكما

ألمح التاريخ مرارًا وتكرارًا، لا شيء أكثر فعالية في هدم وسائل الحماية القانونية التقليديّة أكثر من الادعاء المزدوج بأن الجريمة خطيرة على نحو فريد من نوعه، وأن مَنْ وراءَها لديهم قوة مقاومة استثنائية. قبل الناس كل هذا حتى لم يكد أحد ينبس بكلمة اعتراضًا عليه، ما عدا قلّة من الكتَّاب مثل مونتاني، الذي أشار إلى أن التعذيب كان بلا جدوى للوصول إلى الحقيقة، فالمرء سيقول أي شيء لإيقاف الألم الذي ينزل به - وعلاوة على ذلك، كان «الثمن المفروض باهظًا على تخمينات الشخص»؛ فقد يُشوى وهو حيٌّ بناء على هذه التخمينات.

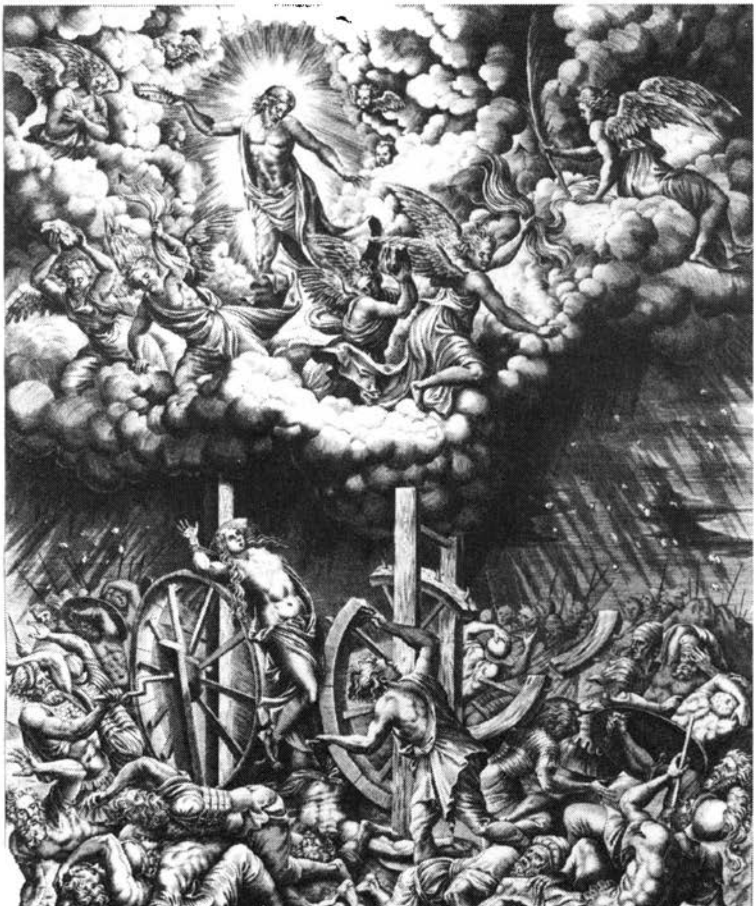

الجنة والجحيم، حفر هـ. كوك، نقلا عن ج. دي مانننتوا 1565.
مجموعة خاصة/ ذا بريدجمان آرت ليبراري.

من التطوّرات الكبرى التي حذّر منها علماء اللاهوت الوصول الوشيك للمسيح الدجال. سيكثر ظهور العلامات في السنوات القادمة؛ ففي العام 1583 أنجبت امرأة مسنّة في بلد أفريقي طفلًا له أسنان قِطٍّ، أعلن بصوت كصوت البالغين أنه المسيح. وتزامن مع ذلك في بابليون انفجار جبل وانفتاح جوفه ليظهر فيه عمود مدفون مكتوب عليه باللغة العبرية: «حانت ساعة مولدي». كان الخبير الفرنسي الأساسي في هذه الحكايات عن المسيح الدجال هو الرجل الذي أعقب مونتاني في برلمان بوردو، فلوريموند دي ريموند، الذي كان أيضًا حارقًا متحمِّسًا للساحرات. حلّل كتاب ريموند **المسيح الدجال** نُذُرًا لاحت في الأفق؛ مثل ذبول النباتات والمحاصيل، وحركات السكان، وحالات الفظائع الوحشية وأكل لحوم البشر في الحروب، مُظهِرًا كيف أثبتت جميعها أن الشيطان كان على وشك الوصول.

كانت المشاركة في العنف الجماعي في هذه الظروف تعني أن تجعل الإله يعرف أنك تقف معه. صنع كل من المتعصِّبين البروتستانت والكاثوليك طقسًا من الحماسة المقدَّسة، ارتفع حتى بلغ حد أن تعطي نفسك تمامًا للإله وترفض أمور هذا العالم. أي شخص ما زال يهتم بأمور الحياة اليومية في مثل هذا الوقت قد يُشَكُّ في ضعفه الأخلاقي في أفضل الأحوال، والتحالف مع الشيطان في أسوأها.

وفي الواقع، استمرّ الكثير من الناس في حياتهم وابتعدوا عن المشاكل بقدر إمكانهم، وظلّوا أوفياء للحالة العادية التي اعتقد مونتاني أنها جوهر الحكمة. حتى لو آمنوا بالمواجهة القادمة بين الشيطان والإله، لم يكن اهتمامهم يزيد على اهتمامهم بفضائح البلاط الملكي ودبلوماسيته. وقد تخلّى الكثيرون من البروتستانت عن عقيدتهم بعد العام 1572، أو أخفوها على الأقل، وهو اعتراف ضمني بأنهم اعتبروا الحياة الدنيا أهم من الاعتقاد بتلك التي تنتظرهم في الآخرة. لكن أقلية ذهبت في اتّجاه الطرف المضاد. كانت راديكاليتهم قد تجاوزت جميع المقاييس، فنادوا بحرب شاملة ضد الكاثوليكية وبموت الملك؛ «الطاغية» المسؤول عن موت كوليجني وغيره من الضحايا. وفي هذا السياق اهتم الراديكاليون الهوغونوت فجأة ببحث لا بويتي **عن العبودية الطوعية** ونشروه، وهم الذين أعادوا اختراعه على سبيل الدعاية لقضية ما كان لا بويتي نفسه لينحاز إليها.

لم يكن قتل الملك ضروريًا، كما اتضح. مات تشارلز التاسع لأسباب طبيعية بعد سنة ونصف، في 30 مايو 1574. وانتقل العرش إلى ابن آخر من أبناء كاثرين دي ميديتشي، هو هنري الثالث، الذي ثبت أنه كان أقلّ شعبية حتى من سابقه. بل

لم يكن الكثير من الكاثوليك يحبّونه. وتنامى خلال سبعينيات القرن السادس عشر التأييد للمتطرفين الكاثوليك المعروفين باسم **الليجيين (أعضاء الجمعية)**، الذين سيسبِّبون للملكية مشكلات تضارع على الأقل المشكلات التي سيسبِّبها الهوغونوت في السنوات القادمة تحت قيادة دوق دي جويز القوي والطموح. ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا، ستكون الحروب في فرنسا ذات ثلاث شعب، مع وقوع الملكيَّة غالبًا في أضعف الأوضاع. حاول هنري عرَضًا أن يأخذ زمام قيادة أعضاء الجمعية بنفسه، ليحيِّد تهديدهم، لكنهم رفضوه، بل صوّروه في هيئة وكيل متخفٍ للشيطان.

هنري الثالث. صورة بالمواجهة إلى أ. ثيفيت،
les vrais pourtraits et vies des homes illustres (Paris: La veuve I. Kervert & Chaudière 1584).
ماري إيفانز بيكتشار ليبراري.

ربما يكون هنري الثالث شديد الاعتدال بالنسبة لأعضاء الجمعية، لكنّه كان متطرفًا بطرق أخرى، ولم يظهر أي فهم لمعنى الاعتدال لدى مونتاني، الذي قابله عدة مرات، ولم يحبّه كثيرًا. فمن جهة، ملأ هنري بلاطه بالمتأنِّقين، وحوَّله إلى مملكة من الفساد، والترف، ومظاهر الإتيكيت العبثية. كان يخرج للرقص كل ليلة، وفي شبابه كان يرتدي معاطف وسترات من الحرير الطبيعي، مع أساور من مرجان وعباءات ممزّقة إلى شرائط. وأدخل موضة القمصان ذات الأكمام الأربعة، اثنان للاستخدام واثنان يتدلَّيان خلف الظهر كالأجنحة. بل إن بعض حذلقاته الأخرى كانت تعتبر غريبة؛ إذ

كان يستخدم الشوك على المائدة بدلًا من السكاكين والأصابع، وكان يرتدي منامات للنوم، ويغسل شعره من حين إلى آخر. ومن جهة أخرى، نظّم هنري أيضًا عروضًا مبالغًا فيها من ممارسات الصوفية والتّوبة. وكلما ازداد ارتباكًا بفعل المشكلات التي تواجهها المملكة، تزداد وتيرة اشتراكه في مسيرات من يجلدون أنفسهم بالسياط، يسير معهم مجهَدًا حافيًا في الشوارع المرصوفة بالأحجار، ينشد المزامير ويجلد نفسه.

لم يكن مونتاني يجد أي معنى لفكرة أن يكمن حلّ الأزمة السياسية في الصلاة والتدريبات الروحية المتطرفة. أحجم مونتاني عن هذه الممارسات، ولم يجعل للمذنَّبات أي اعتبار، ولم تثرِ العواصفُ الثلجيّة أعصابه، ولا ميلاد أطفال بملامح وحوش، ولا أي من علامات القيامة الأخرى. ولاحظ أن الذين استمدّوا توقّعات قدوم القيامة من هذه الظواهر جعلوها غامضة عادة، بحيث يمكنهم الزعم بالنجاح في ما بعد مهما حدث. رأى مونتاني أن معظم تقارير السحر من تأثيرات الخيال البشري، لا النشاط الشيطاني. وفضَّل عمومًا أن يلتزم بشعاره: «أنا أعلِّق حكمي.»

جلب له شكّه بعض النقد البسيط؛ إذ حذّره اثنان من معاصريه في بوردو، مارتين – أنطوان ديل ريو وبيير دي لانسر، من أن من الخطر لاهوتيًّا شرح حوادث يوم القيامة بلغة الخيال البشري، لأن ذلك يشتِّت الانتباه عن التهديد الحقيقي. وتمكّن مونتاني إجمالًا من تجنّب الشكوك الخطرة، لكنه خاطر بسمعته بالجهر بمعارضة التعذيب ومحاكمة الساحرات. كان مرتبطًا بالفعل في أذهان الكثيرين بفئة من المفكِّرين يعرفها أعداؤها باسم **السياسيين** politiques، تميَّزوا باعتقادهم بأن مشكلات المملكة لا علاقة لها بالمسيح الدجَّال أو نهاية الزمان، لكنهم كانوا مجرّد سياسيين. واستخلصوا أن الحل يجب أن يكون سياسيًّا أيضًا؛ من ثم اكتسبوا اسم شهرتهم هذا. كانوا يساندون الملك نظريًّا، معتقدين أن الأمل الوحيد لفرنسا هو الاتحاد تحت راية ملك شرعي، على الرغم من أن معظمهم أملوا سرًّا في أن يأتي في يوم ما ملك أكثر إلهامًا وأكثر قدرة على توحيد البلاد من هنري الثالث. وقد ظلّوا مخلصين للملك، لكنهم بذلوا جهدًا ليجدوا نقاط التقاء مشتركة بين الأحزاب الأخرى، بأمل إيقاف الحروب وإرساء أسس مستقبل فرنسا.

من سوء الحظ، أن كراهية **السياسيين** كانت الأرضية الوحيدة المشتركة التي قرّبت فعلًا بين الكاثوليك المتطرّفين والبروتستانت المتطرّفين. كانت الكلمة نفسها اتهامًا بالإلحاد، إذ كانوا أناسًا لا يهتمّون إلا بالحلول السياسية، لا بحالة أرواحهم. كانوا رجالًا ذوي أقنعة؛ خدّاعين كالشيطان نفسه. كتب أحد المعاصرين عن **سياسي** نموذجي «أنه يرتدي جلد حَمَل، لكنه رغم ذلك ذئب هائج». **السياسيون**، على عكس

البروتستانت الحقيقيين، حاولوا أن يقدّموا أنفسهم على غير حقيقتهم ولأنهم كانوا أذكياء ومثقفين، لم يكن لديهم عذر في أنهم ضحايا أبرياء لخداع الشيطان. إن ارتباط مونتاني **بالسياسيين** أعطاه سببًا وجيهًا لتأكيد انفتاحه وأمانته، علاوة على تمسّكه بالكاثوليكية القويمة (على الرغم من أنه كان يزعم أن الأمانة هي بالضبط ما يفعله الذئب حين يرتدي ثوب الحَمَل).

فريق ممن يجلدون انفسهم بالسياط، من
The Chronicles of Chivalry, 1583.
حفر.. بيبليوتيك ناشونال باريس/ ذا بريدجمان آرت ليبراري.

اتهم أعضاء الجمعية (الليجيون) **السياسيين** بأنهم لا يستحقّون الثقة، لكن **السياسيين** بدورهم اتّهموا أعضاء الجمعية (الليجيين) بأنهم تركوا أنفسهم فريسة لعواطفهم وفقدوا القدرة على الحكم السليم على الأمور. وأنعم مونتاني التفكير متعجبًا من أن المسيحية كثيرًا ما تؤدي إلى تجاوز عنيف، ومن ثم إلى دمار وآلام.

> **تعصبنا يفعل العجائب حين يحبِّذ ميلنا نحو الكراهية، والقسوة، والطموح، والشحّ، والانتقاص من المبدأ، والتمرّد، ولكن التحرك ضد الاتجاه الفطري، إلى الطيبة، والرحمة، والاعتدال، ما لم يكن مدعّمًا بمعجزة نادرة أنتجتها طبيعة ما فلن نقوى لا على المشي ولا حتى على الطيران.**

وكتب في أحد الموضوعات: «لا توجد عداوة تزيد على العداوة المسيحية». لقد فضّل التفكير في صورة المسيح الرواقي بدلًا من صورة المسيحي الغيور الذي تتّقد عيناه شررًا؛ فالشخص الذي يتصرّف تصرفًا أخلاقيًا، ويجعل انفعالاته معتدلة، ويعطي أحكامًا جيِّدة، يعرف كيف تُعاش الحياة.

كان لدى **السياسيين** حقًّا الكثير من الفلسفة الرواقية. لم يحثّوا على الثورة أو قتل الملك، بل أوصوا بقبول الحياة كما هي عليه، على أساس المبدأ الرواقي القائل **بحب القدر (آمور فاتي)**. كما روَّجوا أيضًا للمعنى الرواقي للاستمرار؛ ألا وهو الاعتقاد بأن العالم يرجح أن يستمر في الدروان عبر فصول من التفسّخ والإحياء، لا باستعجاله على الاندفاع في اتّجاه واحد نحو النهاية. وبينما تخيّلت الأحزاب الدينية أن نُذُر أهداف معركة الأرمجدّون الفاصلة تتجمّع في السماء، شكك **السياسيون** في أن كل شيء سيهدأ عاجلًا أم آجلًا ويعود الناس إلى صوابهم. كانوا هم الوحيدون الذين يحولون منظورهم بشكل منهجي في الأزمنة الألفية، ويفكِّرون في زمن تصير فيه «المتاعب» تاريخًا ماضيًا، ويخطِّطون لكيفيّة بناء هذا العالم المستقبلي.

أدى الجانب الرواقي لمونتاني إلى تقليله من قيمة الحروب في كتاباته إلى حدٍّ مذهل. استنبط كُتَّاب سيرته الذاتية الكثير دائمًا من خبرته مع الحرب، وكان لديهم سببٌ قويٌّ لهذا؛ إذ أثّرت الحرب بعمق في حياته. رأى بعض النقاد أن الحرب أساس جميع قراءات مونتاني، لكن بعد دراسة كتاب كهذا، قد تكون مفاجأة أن نرجع إلى كتاب **المقالات** ونجد مونتاني يقول أشياء مثل: «أنا مندهش من رؤية حروبنا لطيفة وبسيطة إلى هذا الحد»، و«سيكون كثيرًا لو أن الناس تذكّروا بعد مائة عام من الآن بشكل عام أن فرنسا كان فيها حرب أهلية في زمننا». ويقول إن من يعيشون في الحاضر يزعمون أن الأشياء أسوأ مما هي عليه، لأنهم لا يستطيعون الهرب من نظرتهم المحلية:

> **كل من يولي اعتبارًا للصّورة العظيمة لأمنا الطبيعة في كامل جلالها كما لو كانت في لوحة فنّية؛ كل من يقرأ هذا التنوّع الكوني والثابت في وجهها؛ كل من يجد نفسه هناك، وليس نفسه فقط، بل مملكة كاملة، كنقطة رسمتها فرشاة شديدة الدقة؛ هذا الإنسان وحده يقدِّر الأشياء وفقًا لخواصِّها الحقيقية.**

ذكَّر مونتاني معاصريه بالدروس الرواقية القديمة: تجنَّب الشعور بأن أي موقف صعب يغرقك، حاول تخيّل عالمك من زوايا مختلفة أو على مستويات مختلفة من الأهمية. هذا هو ما فعله القدماء حين نظروا إلى متاعبهم من أعلى كما لو كانوا ينظرون

إلى حركة مضطربة في مستعمرة نمل. يكتب مونتاني أن المنجمين يحذِّرون الآن من «تغيُّرات وتحولات هائلة ووشيكة»، لكنّهم ينسون حقيقة بسيطة، ألا وهي أنه مهما حدثت أمور سيئة، ستستمر الحياة في معظمها من دون اضطراب. وأضاف بمرح: «أنا لا أيأس منها.»

لا يمكن إنكار أن مونتاني كان محظوظًا. لقد دمَّرت الحروب محاصيله، وجعلته يخشى أن يُقتل في فراشه، وأرغمته على المشاركة في الأنشطة السياسية التي يفضِّل تجنّبها. بل سوف تورِّطه في متاعب أفدح في ثمانينيات القرن السادس عشر، حين دخلت الحرب مرحلتها الأخيرة وكثر الموت. لكن لا يمكن لأحد أن يزعم أن هذه الخبرات قد جرحته جروحًا خطيرة، ولو حدث أنه استعمل السلاح هو نفسه، لقال شيئًا عن ذلك في كتاب **المقالات**. باختصار، مرَّ مونتاني بخبرة جيدة مع الحرب. لكن هذا ما كان ليوقف معظم الناس عن الانخراط في الرثاء.

كان مونتاني على حق. استمرّت الحياة في أخذ مجراها. أخلت مذابح سان بارتيلوميو الرهيبة السبيل لسنوات من المعاناة الفردية الغامضة، لا إلى التبشير بنهاية العالم. لم يأتِ المسيح الدجَّال. وتتالت الأجيال حتى أتى زمن - كما توقّع مونتاني - لم يكن لدى الكثيرين من الناس فيه إلا فكرة غامضة عن أن بلاده شهدت حربًا على الإطلاق. حدث هذا جزئيًّا بفضل عمله وعمل زملائه **السياسيين** على استعادة الحالة العاقلة. أسهم مونتاني، الذي نزع إلى السّهولة والراحة، في إنقاذ بلده أكثر من معاصريه المتعصِّبين المتحمِّسين. كان بعض عمله سياسيًّا بشكل مباشر، لكن أعظم إسهاماته كان مجرد ابتعاده عن السياسة وتأليف كتاب **المقالات**. وجعله هذا بطلًا في أعين الكثيرين.

البطل:

إن من قبلوا مونتاني في هذا الدور وضعوه عادة في قالب بطل من النوع غير المعتاد؛ النوع الذي يقاوم جميع مزاعم البطولة. يجلّه القليلون لأعماله العامة العظيمة على الرغم من أنه أنجز بعض الأشياء الجديرة بالذكر في حياته في ما بعد. وكان أكثر سبب للإعجاب به إصراره العنيد على الحفاظ على الحالة العادية في ظروف استثنائية، ورفضه التنازل عن استقلاله.

يراه الكثيرون من المعاصرين في هذا الضوء؛ فقد أخبره المفكر السياسي الرواقي العظيم جاستوس ليبسيوس أن يستمرَّ في الكتابة لأن الناس بحاجة له كقدوة تُحتذى. وبعد زمن طويل من القرن السادس عشر، نسي الناس مونتاني الرواقي، واستمر القراء

يفكِّرون فيه في أوقات المتاعب كقدوة تُحتَذى. قدّم كتابه **المقالات** حكمة عملية في مسائل مثل كيف يواجه الإنسان التخويف، وكيف يصالح بين المتطلبات المتعارضة للانفتاح والأمن. وقدَّم أيضًا شيئًا أكثر غموضًا، ألا وهو معنى كيف يمكن للإنسان أن ينجو من الكوارث العامة من دون أن يفقد احترامه. وبالضبط، كما يمكنك أن تطلب الرحمة من عدو بصراحة، من دون أن تفضح نفسك أو تدافع عن ممتلكاتك بأنِ تختار تركها بلا دفاع، يمكنك أيضًا أن تجتاز حربًا لا إنسانية بأن تظلَّ إنسانًا. قد تكون لهذه الرسالة لدى مونتاني جاذبية خاصّة لقراء القرن العشرين الذين عاشوا بعد انتهاء الحروب، والديكتاتوريات الفاشية، والشيوعية. في مثل هذه الأوقات، قد يبدو أن هيكل المجتمع المتمدِّن قد تداعى وأن لا شيء أبدًا سيعود مرّة أخرى كما كان. كان مونتاني في قمّة اطمئنانه حين أبدى أقلّ قدر من التعاطف مع هذا الشعور؛ حين ذكَّر القارئ بأن الحالة العادية تعود في نهاية المطاف، وتتغير وجهات النظر مرة أخرى.

من بين القراء الكثيرين الذين استجابوا لهذا الجانب من كتاب **المقالات**، واحد يمكن أن يمَثِّل الجميع؛ ألا وهو الكاتب اليهودي النمساوي ستيفان زفايج، الذي عاش في منفى إجباري في أمريكا الجنوبية خلال الحرب العالمية الثانية، وكان يهدّئ نفسه ويبعدها عن المتاعب بكتابة مقالٍ شخصيٍّ طويلٍ عن مونتاني؛ بطله الخالي من البطولة.

اعترف زفايج أن كتاب **المقالات** لم يؤثِّر فيه كثيرًا حين صادفه للمرة الأولى عندما كان شابًا يعيش في فيينا عند مطلع القرن. ووجده فاترًا أكثر من اللازم، مثلما وجده لامارتين وجورج صاند قبله، «تنقصه قفزة شرارة الكهرباء من روح إلى أخرى»؛ فلم يرَ فيه أي علاقة بحياته. «أي جاذبية يمكن أن يجدها شاب في العشرين من عمره في الملحق ذي الأفكار المشتتة الذي كتبه السيد دي مونتاني بعنوان «مراسم إجراء الحوار مع الملوك»، أو في مقالة «اعتبارات عن شيشرون»؟» حتى حين تحوَّل مونتاني إلى موضوعات كان يجب أن تكون أكثر جاذبية، مثل الجنس والسياسة، فإن «حكمته البسيطة المعتدلة» وشعوره بأن من الأحكم ألا يورّط الإنسان نفسه كثيرًا في العالم نفَّرا زفايج منه. «من طبيعة الشباب أنه لا يريد ان توجّه له نصائح بأن يكون بسيطًا أو شكّاكًا. كل شكٍّ يبدو له تقييدا». الشباب يتوقون للمعتقدات؛ يريدون ما يثيرهم.

كما كانت حرية الفرد تكاد لا تحتاج إلى دفاع في العام 1900. «ألم يصرْ كلُّ ذلك منذ زمن بعيد أمرًا واضحًا بذات نفسه، يضمنه القانون والعرف للإنسانية منذ تحرَّرت من الطغيان والرِّق؟». ولد زفايج في العام 1881، وكان جيله يزعم أن الرخاء والحرّية الشخصيّة سيستمرّان في النمو. لماذا ينبغي أن تتراجع الأشياء؟ لم يشعر أحد بأن

الحضارة في خطر؛ لم يضطر أحد إلى التقوقع داخل ذاته للحفاظ على حريته الروحية. «بدت صلصلة مونتاني بالسلاسل التي اعتبرناها كُسرت منذ زمن بعيد أمرًا عقيمًا».

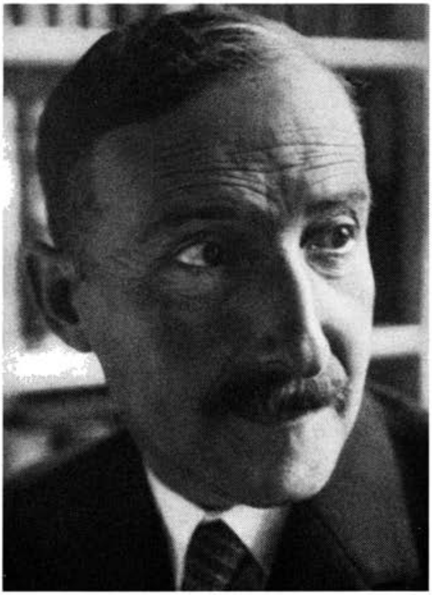

ستيفان زفايج، حوالى 1925. صورة فوتوغرافية بكاميرا ترود فليشمان.
المعهد الدولي للتاريخ الاجتماعي. أمستردام.

أثبت التاريخ طبعًا أن جيل زفايج كان على خطأ. فبالضبط كما ترعرع مونتاني نفسه في عالم مليء بالأمل، فوجده يتفسَّخ، ولد زفايج أيضًا في أسعد البلدان والقرون حظًّا، ثم تداعى جميع هذا وتناثرت أنقاضه حوله. وأعيدت صناعة السلاسل، أقوى وأثقل مما كانت يومًا.

نجا زفايج من الحرب العالمية الأولى، لكن تبعها صعود هتلر. فرَّ زفايج من النمسا وأرغم على التنقّل لسنوات باعتباره لاجئًا، أولًا في بريطانيا، ثم في الولايات المتحدة الأمريكية، وأخيرًا في البرازيل. جعله المنفى «لا حول له ولا قوة، مثل بزّاقة»، بتعبيره في سيرته الذاتية. شعر بأنه رجل مُدان، يقيم في زنزانته في انتظار تنفيذ الإعدام، وبأنه أقل قدرة دائمًا على التعامل مع عالم مضيفيه المحيط به. ظلّ محافظًا على قواه العقليّة بأن أغرق نفسه في العمل. أنتج في منفاه سيرة بلزاك الذاتية، وسلسلة من الروايات القصيرة (النوفيللا) والقصص القصيرة، وسيرته الذاتية، وأخيرًا المقال الذي يتناول مونتاني؛ كلّ ذلك من دون مصادر ولا مذكّرات مضبوطة؛ حيث إنه كان منقطعًا عن ممتلكاته. لم يصل زفايج أبدًا إلى لا مبالاة مونتاني، لكن وضعه عندئذ كان أسوأ بكثير من وضع مونتاني:

لا أنتمي لأي مكان، وأنا غريب في كل مكان، ضيف في أفضل الأحوال. أوروبا، الوطن الذي اختاره قلبي، ضاعت بالنسبة لي؛ حيث إنها مزّقت نفسها إربًا بطريقة انتحارية للمرة الثانية في حربٍ شنَّها الأخ ضد أخيه. شهدت ضد إرادتي أسوأ هزيمة للعقل وأكثر انتصارات الوحشية شراسة في تاريخ العصور.

حين وصل زفايج إلى البرازيل في العام 1941، كان قد تعرّض عدة مرات لمحو أي معنى للوطن، وعلى الرغم من امتنانه للبلد على قبوله فيه، وجد صعوبة في الحفاظ على الأمل. وجد زفايج نسخةً من كتاب **المقالات** في المنزل الذي سكنه، فأعاد قراءته، واكتشف أنه تحوَّل بعيدًا عن كلّ ما يعرفه عنه. فالكتاب الذي بدا ذات مرّة مملًا ولا أهمية له يحدّثه الآن بشكل مباشر وبحميمية، كما لو كان قد كُتب له وحده، أو ربما لجميع أبناء جيله. فكَّر فورًا في الكتابة عن مونتاني. كتب في خطاب أرسله إلى صديق له: «إن تشابه عصره ووضعه بعصرنا ووضعنا مذهلٌ. أنا لا أكتب سيرة حياة؛ فأنا أقترح ببساطة أن أقدّم نضاله من أجل الحرية الداخلية مثالًا». وفي المقال نفسه، اعترف زفايج بأن: «في هذه الأخوية في القدَر، صار مونتاني بالنسبة لي المساعد، وكاتم السرِّ، والصديق الذي لا يمكن الاستغناء عنه.»

لم يكن مقاله عن مونتاني من نوع مقالات السيرة، بل كان مقالًا شخصيًا جدًّا، يبرز أوجه التشابه بين خبرة مونتاني وخبرته هو من دون اعتذار. يكتب زفايج أنه في وقت مثل وقت الحرب العالمية الثانية، أو وقت الحرب الأهلية في فرنسا، يُضَحَّى بحياة الناس العاديين على مذبح وساوس المتعصّبين، فالسؤال الذي يطرحه أيُّ شخصٍ نزيهٍ ليس من نوع «كيف أبقى على قيد الحياة؟»، بل «كيف أظلّ إنسانًا بالكامل؟». يأتي السؤال في تنويعات كثيرة: كيف أحافظ على نفسي الحقيقية؟ كيف أضمن ألا أتجاوز في كلامي أو تصرّفاتي ما أعتقد أنه صحيح؟ كيف أتجنّب فقدان روحي؟ وقبل كلّ شيء؛ كيف أظلّ حرًّا؟ يعترف زفايج بأن مونتاني لم يكن محاربًا من أجل الحرية بالمعنى المعتاد. «ليس لديه أي خطب طويلة ملتهبة تلفّ من مكان لآخر، ولا الحيوية الجميلة التي لشيللر أو لورد بايرون، ولا عدوانية فولتير». جعلته تأكيداته المستمرّة بأنه كسول، وضعيف، وغير متحمِّل للمسؤولية يبدو بطلًا ضعيفًا، لكن هذه ليست نقاط فشل حقيقية على الإطلاق. إنها ضرورية لمعركته ليحافظ على خصوصية نفسه كما هي.

كان زفايج يعرف أن مونتاني يكره الوعظ، لكنه تمكّن من استخراج سلسلة من القواعد العامّة من كتاب **المقالات**. لم يضع بها قائمة كما هي، بل أعاد صياغتها بطريقة تفرقها إلى ثماني وصايا منفصلة؛ يمكن أن تسمّى أيضًا الحريات الثماني:

تحرّر من الزهو والتكبّر.

تحرّر من الإيمان، والكفر، والقناعات والأحزاب.

تحرّر من العادة.

تحرّر من الطموح والجشع.

تحرّر من العائلة ومما يحيط بك.

تحرّر من التعصّب.

تحرّر من القدر؛ وكن سيِّد حياتك.

تحرّر من الموت؛ فالحياة تعتمد على إرادة الآخرين، لكن الموت يعتمد على إرادتنا نحن.

اختار زفايج الجانب الرواقي جدًّا من مونتاني، فعاد بذلك إلى طريقة قراءة القرن السادس عشر له. وفي النهاية، كانت أكثر حريّة أخذها زفايج بجدية وتأثّر بها هي الحرية الأخيرة في القائمة، التي أتت مباشرة من سينيكا. وحيث إن زفايج أصيب بالاكتئاب، فقد اختار الشكل النهائي للهجرة الداخلية. لقد قتل نفسه بعقار الفيرونال في 23 فبراير 1942؛ واختارت زوجته أن تموت معه. عبَّر زفايج في رسالة الوداع التي كتبها عن عرفانه بالجميل للبرازيل، «هذا البلد الجميل» الذي أواه بكرم شديد، وخلص إلى ما يلي: «أحيي جميع أصدقائي! أتمنّى أن ينعموا برؤية الفجر بعد الليل الطويل! أنا، لا صبر لديَّ أبدًا، سأذهب قبل ذلك.»

يبدو أن القيمة الحقيقية لمونتاني لا يمكن رؤيتها إلا عندما يُدفع المرء إلى قرب هذه النقطة المتطرِّفة؛ وهكذا رآها زفايج. يجب أن يصل المرء إلى حالة لا يكون لديه فيها أي شيء يدافع عنه إلا «أناه» العارية؛ مجرّد وجوده.

الشخص الذي عاش في زمنٍ هدّد حياته، وحرّيته الفرديّة - تلك المادّة الثمينة - بالحرب، والقوة، وأيديولوجيات الطغيان، هو فقط الذي يعرف كم يلزم من الشجاعة والأمانة والإصرار للحفاظ على الذّات الداخليّة في مثل هذا الزمن الذي يسوده جنون القطيع.

وربما قد يتّفق مع قول ليونارد وولف أن رؤية مونتاني للـ«أنوات» المترابطة هي جوهر الحضارة. إنها الأساس الذي يمكن بناء مستقبل عليه ما إن ينتهي الرعب وتضع الحرب أوزارها؛ لكن زفايج لم يستطع الانتظار كل هذا الوقت الطويل.

هل لرؤية مونتاني للنزاهة الشخصية والأمل السياسي الحجّة الأخلاقية نفسها

اليوم؟ البعض يعتقدون ذلك بالتأكيد. أُلِّفَت كتبٌ تروِّج لمونتاني باعتباره بطلًا للقرن الحادي والعشرين؛ إذ يذهب الصحافي الفرنسي جوزيف ماسيه - سكارون بشكل خاص إلى أنه يجب قبول مونتاني باعتباره ترياقًا للحروب الدينية الجديدة، وقد يشعر آخرون بأن آخر ما يلزمنا اليوم شخص يشجِّعنا على الاسترخاء والانسحاب إلى عالمنا الخاص. الناس يقضون وقتا كافيا في عزلة إذا جاز لنا القول، على حساب المسؤوليات المدنيّة.

أما من يعتبرون مونتاني بطلًا، أو رفيقًا مساندًا، فسيذهبون إلى أنه لم يدْعُ إلى مدخل للواجب الاجتماعي شعاره «افعل ما تريده»؛ بل اعتقد بأن الحلّ بالنسبة لعالم متفسِّخ أن يعيد كل شخص رأب صدع نفسه ليتعلّم «كيف تُعاش الحياة»، بدءًا بفنِّ الحفاظ على استمرار مسِّ قدميك للأرض. قد تجد لدى مونتاني حقًّا رسالة تدعو للامتناع عن النشاط، والكسل، والتحلل من الارتباطات، ويرجَّح أن تجد أيضًا تبريرًا لعدم عمل أي شيء حين يسود الطغيان، بدلًا من مقاومته. لكن الكثير من المقطوعات في كتاب **المقالات** تبدو أنها تقترح أن ينشغل المرء بالمستقبل؛ وأنك ينبغي على وجه الخصوص ألّا تدير ظهرك للعالم التاريخي الحقيقي لكي تحلم بالفردوس والتسامي الديني. يقدم مونتاني كلَّ التشجيع اللازم لأي شخص ليحترم الآخرين، ويمتنع عن القتل بحجة إرضاء الإله، ويقاوم الدافع الملحِّ الذي يجعل الناس يدمِّرون ما حولهم دوريًّا و«يعيدون الحياة إلى نقطة بدايتها». وقد أخبر فلوبير أصدقاءه بما يلي: «اقرأ مونتاني... سيهدّئك.» لكنه أضاف أيضًا: «اقرأه كي تعيش».

مكتبة
t.me/t_pdf

13. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟

ج: افعلْ شيئًا لم يفعلْه أحدٌ قبْلَك

ما حقَّق أفضل مبيعات في عصر الباروك:

تعاقبت فصول السلام والحرب في سبعينيات القرن السادس عشر، وانسجم مونتاني خلالها مع الحياة ومع كتابه. وقضى معظم العقد في كتابة المجموعة الأولى من مقالاته وتصحيحها، ثم نشرها في العام 1580 في دار نشر سيمون ميلانجز، الناشر المحلّي في بوردو، الذي طبعها في مطبعته.

كان ميلانجز اختيارًا مدهشًا. كان قد أنشأ دار نشره في المدينة منذ بضع سنوات لا غير، حوالى عدد السنوات التي استغرقها مونتاني في الكتابة. لم يكن مونتاني ليجد صعوبة في العثور على ناشر باريسي؛ فقد سبق له العمل معهم، ولن تفوتهم قيمة عمل مثل كتاب **المقالات**. كان كتاب **المقالات** حتى في طبعته الأولى، فريدًا من نوعه، لكنه دخل بدقّة بين أجناس كتب المنوّعات الكلاسيكية والكتب متوسطة القيمة المتّفق عليها تسويقيًّا. كان يتمتّع بتركيبة تجارية مضبوطة؛ الطرافة المذهلة والتبويب السهل. لكن مونتاني أصرَّ على العمل مع رجل محلّيٍّ، إما بسبب علاقات شخصية أو من باب مبدأ العمل مع أهل جاسكونيا.

تختلف هذه الطبعة الأولى من كتاب مونتاني اختلافًا كليًّا عن الطبعة التي بين يدي القراء الآن. كانت مكوَّنة من جزأين صغيرين نوعًا ما، وعلى الرغم من أن فصل «الاعتذار» كان حجمه أكبر من اللازم فعلًا، فقد ظلت معظم الفصول بسيطة نسبيًّا. تراوحت الفصول غالبًا بين وجهات نظر متنافسة، لكنها لم تجرف ما اعترض طريقها مثل معظم الأنهار المتدفِّقة ولا هي تفرَّعت إلى دلتا، كما حدث مع المقالات المتأخِّرة. بل إن بعضها التزم بنقاطها المفترضة. لكنها كانت مصطبغة بالفعل بشخصية مونتاني الفضولية، المتسائلة، القلقة، وكثيرًا ما فتحت ألغازًا أو مراوغات بشأن السلوك الإنساني. كان القراء المعاصرون يجيدون الحكم على جَوْدة العمل؛ ووجد العمل فورًا جمهورًا متحمسًا.

يرجّح أن الطبعة الأولى الصادرة عن دار ميلانجز للنشر طُبع منها عدد قليل من النسخ، ربما حوالى خمسمائة أو ستمائة نسخة، وسرعان ما بيعت كلها. وأصدرت هذه الدار بعد سنتين طبعة أخرى فيها تغييرات قليلة. وبعد خمس سنوات، في العام 1587، رُوجعت هذه الطبعة مرة أخرى، وأعيد نشرها في باريس عن دار نشر جان ريشر. كانت قد صارت بهذا الوقت مادة القراءة المناسبة لذوق العصر للنبلاء الفرنسيين في بدايات ثمانينيات القرن السادس عشر. وفي العام 1584، اعتبر المراجع لاكروا دو مين أن مونتاني هو المؤلِّف المعاصر الوحيد الذي يستحق الوضع في الرتبة نفسها مع القدماء؛ بعد مضي أربع سنوات فقط على نشر كتابه عن دار نشر متواضعة في بوردو. وكتب مونتاني نفسه أن كتاب **المقالات** أبلى بلاءً حسنًا أكثر مما توقعه له، وأنه صار كتابًا من القطع الكبير له غلاف سميك، واشتهر وسط السيدات «مقال عام عن الأثاث، مقال للصالون».

كان هنري الثالث نفسه من بين المعجبين بمونتاني. حين سافر مونتاني إلى باريس في نهايات العام 1580، أهدى الملك نسخةً، كما كانت تقضي التقاليد. أخبره هنري أنه أحبَّ الكتاب، ويقال إن مونتاني ردّ على ذلك بقوله: «سيدي، حيث إن الأمر كذلك، فلا بد أن جلالتكم تحبّني»؛ لأنه، كما أصرّ دائمًا، كان هو وكتابه شيئًا واحدًا.

لا بد أن هذا كان في الحقيقة عقبة في طريق نجاحه. فبكتابة مونتاني بكل هذه الصراحة عن ملاحظاته للحياة اليومية والحياة الداخلية، كان يكسر أحد المحرمات. لم يكن من المفترض أن يسجل المرء نفسه في كتاب، بل كان المسموح تسجيل الأفعال العظيمة فقط، إذا وُجدت. السِّير الذاتية القليلة التي كتبت في عصر النهضة حتى حينه، مثل **سيرة حياة بينيفينوتو سيلليني** لبينفينوتو سيلليني، و**كتاب حياتي** لجيرولامو كاردانو، ظلّت من دون نشر لهذا السبب إلى حدٍّ بعيدٍ. وقد كتب سان أوجستين عن نفسه، لكن من باب التدريب الروحي وليوثّق بحثه عن الإله، لا ليحتفي بنفسه باعتباره معجزة.

أما مونتاني فاحتفى بنفسه. وأصاب هذا بعض القراء بالاضطراب. وقد تضايق الأستاذ الكلاسيكي جوزيف جاستوس سكاليجر على وجه الخصوص بشأن كشف مونتاني في الطبعة التالية من كتابه التي صدرت في العام 1588 عن تفضيله للنبيذ الأبيض على النبيذ الأحمر. (كان سكاليجر يفرط حقًّا في التبسيط؛ إذ يخبرنا مونتاني أنه غيَّر ذوقه من الأحمر إلى الأبيض، ثم عاد إلى الأحمر، ثم إلى الأبيض كرة أخرى). وبيير دوبوي أستاذ آخر سأل: «من بحق الجحيم يريد أن يعرف ما الذي يحبه مونتاني؟». وضايق هذا باسكال وماليبرانش أيضًا بالطبع؛ فسمَّاه ماليبرانش «صفاقة»، واعتقد باسكال أن أحدًا كان يجب أن يطلب من مونتاني أن يتوقّف.

ولم يحظَ انفتاح مونتاني في ما يخصّ نفسه بالتقدير إلا مع قدوم المذهب الرومانسي، بل حظي بالحبِّ أيضًا. لقد سحر مونتاني القرّاء على وجه الخصوص على الجانب الآخر من القناة[1]. كتب الناقد الإنجليزي مارك باتيسون في 1856 أن الذاتية المفترضة في مونتاني جعلته يظهر على الصفحة بحيوية مثل شخصية في رواية. ولاحظ بايل سان جون أن جميع «متذوقي مونتاني» الحقيقيين أحبّوا «ثرثرته» غير ذات الأهمية، لأنها جعلت شخصيته حقيقية، ومكّنت القراء من أن يجدوا أنفسهم فيه. وقارن الناقد الاسكتلندي جون ستيرلينج طريقة مونتاني في الكتابة عن نفسه بالتقليد الأكثر قبولًا اجتماعيًّا، ألا وهو اقتصار اهتمام الشخصيات العامة عند كتابة ذكرياتها على الحوادث الخارجية بما فيها من «جعجعة ولف ودوران» مملِّين. أعطانا مونتاني «الرجل نفسه»؛ «جوهر» نفسه. فالأوضح في كتاب **المقالات** أناه «الداخلي».

كان مونتاني مفتونًا بعالمه الداخلي حتى في طبعة العام 1580؛ فلم يظهر في الفصول الأخيرة المتّسمة بالمغامرة، بل كتب في طبعته الأولى:

> **إني أوجّه نظرتي إلى الداخل، وأثبتها هناك وأجعلها مشغولة. الجميع ينظرون أمامهم: أما أنا، فأنظر داخل نفسي؛ لا عمل لديَّ إلا نفسي؛ أنا ألاحظ نفسي باستمرار، أنا أجْرُد مخزون نفسي. أنا أتذوّق نفسي... أنا أتقلّب داخل نفسي.**

الصورة مادّية بقوّة؛ فالمرء يرى مونتاني يتقلّب داخل نفسه مثلما يتقلّب جرو وسط حشائش طويلة. وحين لا يكون يتقلّب، ينطوي. «أنا أعيد طي نظرتي إلى الداخل» فالطيّ ترجمة حرفية للجملة الأولى من هذه الفقرة je replie ma veue au dedans. يبدو أنه ينثني باستمرار على نفسه، فيغلظ ويزداد عمقًا، طيَّة فوق طيّة. والنتيجة نوع من الستائر الباروكية ذات الطيّات، مليئة بالانتفاخات والتشوّش. لا عجب أن مونتاني كان يوصف أحيانًا بأنه أول كاتب لعصر الباروك، على الرغم من أنه عاش قبله؛ أما ما يقلّ عن ذلك مناسبة للعصر فهو تسميته بأنه كاتب أسلوبي تكلُّفي[2]. ازدهر الفن الأسلوبي التكلُّفي قبيل عصر الباروك، وكان أكثر إسهابًا في التفاصيل وأشد فوضى، يصوِّر أوهامًا بصريّة، ومسوخًا، وزوايا مختلّة وغريبة من جميع الأنواع، في رفض عنيف للمُثُل الكلاسيكية للتوازن والاتساق التي سادت عصر النهضة. مونتاني الذي وصف كتابه

(1) قناة المانش الفاصلة بين إنجلترا وفرنسا (المترجمة).

(2) النهجية أو الأسلوبية أو التكلفية Mannerism: حركة فنية أثرت في فن عصر النهضة الإيطالي في مرحلته الأخيرة، وشملت التصوير الزيتي والجداريات والنحت والعمارة، والفنون الصغرى (المترجمة).

المقالات بأنه 'جروتيسك'[1] وبأنه «أجساد وحوش... ليس لها شكل محدّد، وليس لها نظام، ولا تَدَرُّج، ولا اتّساق إلا عرضًا»، يبدو أنه من نوع الفنّ الأسلوبي التكلّفي نفسه. وفقًا للمبادئ الكلاسيكية التي وضعها هوراش، ينبغي على المرء ألا يذكر حتى الوحوش في فنِّه، لأنها رديئة الصنع، لكن مونتاني يقارن كتابه بأكمله بوحش.

مخلوق خرافي أو شخصية وحش. حفر من القرن الثامن عشر.
مجموعة خاصة/ أرشيف شارميت/ ذا بريدجمان آرت ليبراري.

أثبت مونتاني، السياسي المحافظ، نفسه باعتباره أديبًا ثوريًا منذ البداية، يكتب كما لم يكتب أحد من قبله أبدًا، ويدع قلمه يفعل ما لم يفعله أحد من قبله باتباع الإيقاعات الطبيعية للحوار بدلًا من الخطوط الرسمية لبنية النص. تخلّى عن الروابط، وتخطّى خطوات الاستدلال العقلي، وترك مادّته ترقد في كتل صلبة، **قطع** أو «مقطّعة» مثل شرائح اللحم المقطّعة حديثًا. وكتب: «أنا لا أرى الشكل الكامل لأي شيء»:

> **من بين المائة عضو ووجه التي لأي شيء، آخذ واحدًا، أحيانًا لألعقه ليس إلا، وأحيانًا لأمسح سطحه بالفرشاة، وأحيانًا لأضغط عليه بشكل موجع حتى أصل إلى العظام. أنا أطعنه، ليست طعنة نجلاء كما أعرف الطعن. وفي الغالب الأعم، أحب أخذه من وجهة نظر غير معتادة.**

---

(1) الجروتيسك: فن زخرفي خيالي؛ غريب؛ غير متجانس؛ متنافر؛ مشوّه، يتميّز بأشكال بشرية وحيوانية غريبة أو خيالية تتداخل عادة مع رسوم أوراق نباتية أو نحوها، بشكل يجعل كل ما هو طبيعي بشعًا أو مضحكًا (المترجمة).

الجزء الأخير حقيقي لا شك. فهو ينزلق بالفعل داخلًا إلى فصوله الأولى من اتجاهات مائلة، ويزداد هذا الاتجاه حدة مع مقالات أعوام ثمانينيات القرن السادس عشر. فمقال «عن مدرِّبي الرياضة» يبدأ بالحديث عن المؤلفين، ويمضي إلى شذرة عن العطس، ويصل إلى موضوعه المفترض عن مدرِّبي الرياضة بعد صفحتين؛ ليسرع مرة أخرى مبتعدًا عنه بشكل يكاد يكون فوريًّا، وينفق بقية وقته في مناقشة العالم الجديد. أما مقال «عن سحنة الوجه» فيدخل إلى موضوع السحنة في شكل ملاحظة فجائيّة عن دمامة سقراط تستغرق اثنتين وعشرين صفحة في مقال يبلغ مجمل طوله (في الترجمة الإنجليزية لدونالد فريم) ثمانية وعشرين صفحة فقط. وأطلق الكاتب الإنجليزي ثاكري نكتة عن أن مونتاني كان يمكن أن يعطي كلّ مقال من مقالاته عنوان المقال الآخر، أو كان يمكن أن يسمّي أحدها «عن القمر» والآخر «عن الجبن الطازج»؛ فلن يوجد فارق كبير. اعترف مونتاني بأن علاقة عناوينه بمحتواها قليلة وغير واضحة؛ «فهي غالبًا ما تشير إلى المقال بعلامة ما». لكنه قال أيضًا إن العنوان إذا بدا عشوائيا، أو بدا أنه فقد خيط منطقه، «فستوجد بعض الكلمات عنه في أحد الأركان، لن تفشل في أن تكون كافية». كثيرًا ما تخفي «الكلمات التي في الركن» أكثر موضوعاته إثارة للاهتمام. فهو يدسّها بالضبط في الأجزاء التي يبدو أنها تعترض تدفّق النصّ بشكل هدّام، وتعكّر مياه مجراه، وتجعل من المستحيل متابعة حججه.

قدم كتاب **المقالات** لمونتاني نفسه في البداية باعتباره عملًا تقليديًّا إلى حد ما؛ باقة من البراعم قُطفت من حديقة المؤلّفين الكلاسيكيين العظام، مع اعتبارات جديدة عن أخلاقيات الدبلوماسية وساحة القتال. لكن ما إن فتحت صفحاته، حتى تحوَّرت مثل أحد مخلوقات أوفيد إلى شطحات غريبة الشكل لا يجمعها إلا شيء واحد؛ ألا وهو شخصية مونتاني. لا يمكن لأي امرئ أن يتحدّى التقاليد بشكل شامل أكثر من هذا. لم يكن الكتاب ذا صبغة وحشيّة فقط، بل كانت النقطة الوحيدة التي توحِّد شتاته هي الشيء الذي ينبغي أن يختفي بتواضع ويرجع إلى الخلفية. مونتاني هو القلب الجاذب الضخم للكتاب؛ وهذا القلب يصير أقوى كلّما مضى الكتاب قدمًا خلال تنويعاته التالية، حتى لو صار مشحونًا بمزيد من الأطراف، والحلي، والأمتعة الزائدة، وأجزاء الجسم المبعثرة.

كانت سبعينيات القرن السادس عشر أول عقد كتابة عظيم لمونتاني، لكن ثمانينيات القرن السادس عشر ستصير عقده الكبير باعتباره مؤلفًا. ضاعفت السنوات العشر القادمة حجم كتاب **المقالات**، وحوَّلت مونتاني من نكرة إلى نجم. وفي الوقت نفسه،

أبعدته ثمانينيات القرن السادس عشر عن منصبه الهادئ في منطقة جويين الريفية، وأرسلته في رحلة طويلة حول سويسرا، وألمانيا، وإيطاليا باعتباره شخصًا مشهورًا يحظى بالتكريم، وجعلت منه عمدة لبوردو. لقد عزّزت هذه السنوات حيثية مونتاني باعتباره شخصيّة عامّة علاوة على كونه شخصيّة أدبيّة. ودمَّرت صحته، وأرهقته، وجعلت منه رجلًا لن تُمحى ذكراه.

14. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟

ج: شاهدِ العالم

رِحلات السَّفَرِ:

لا بد من أن نجاح الطبعة الأولى لكتاب **المقالات** لمونتاني في 1580 قد غيّر طريقة تفكيره في الحياة. وجّه الاستحسانُ الذي لاقاه الكتاب ضربة قاضية لروتين مونتاني، وربما أعطاه الإحساس بأن الوقت قد حان للانشغال بالعالم مرّة أخرى. وعلى الرغم من أنه قال القليل عن هذا في كتاب **المقالات**، فربّما طرأ على فكره الآن أن وظيفة دبلوماسية مثيرة للاهتمام تغريه، وأن أفضل سبيل لدخولها جولة لنسج شبكات التواصل على المستوى الدولي. وكان حريصًا أيضًا على الابتعاد عن القيود المنزلية للضيعة، التي يمكن تركها في أيدي زوجته القادرة على تدبير أمورها. أراد مونتاني دائمًا أن يسافر، حتى يكتشف «التنوّع الدائم لأشكال الطبيعة المحيطة بنا». فحتّى في صباه، شعر «بفضولٍ صادقٍ» عظيمٍ بشأن العالم، بشأن «مبنى، أو نافورة، أو رجل، أو ساحة حرب قديمة، أو المكان الذي مرَّ به قيصر أو شارلمان»؛ كلّ شيء. لقد تخيّل الآن السير على خطا أبطاله الكلاسيكيين، بينما يستكشف في الوقت نفسه تنوُّع العالم الحالي، حيث يمكنه أن «يجلو» مخّه و«يلمّعه» بالاتصال بالغرباء.

وجد مونتاني سببًا آخر أيضًا للسّفر أقلّ جاذبيّة. فقد ورث عن والده الاستعداد لنوبات من آلام حصوات الكلى. لقد رأى بيير يفقد وعيه حرفيًّا من الألم، لذلك كان أكثر رعبًا من هذا المرض عنه من أيِّ مرضٍ آخر. أما الآن، وهو في منتصف أربعينيات عمره، فقد عرف بنفسه كيف يكون هذا النّوع من التعذيب.

تتكوّن حصوات الكلى حين يتراكم الكالسيوم أو غيره من المعادن في الجهاز البولي، وتنشأ عنه كتلٌ وبلّلورات تسد تدفّق البول. وكثيرًا ما تتفتّت الحصوات مخلِّفة قطعًا مسنَّنة. ولا بد من أن تمرَّ عبر المسالك البولية، كاملةً أو مفتّتةً، وفي أثناء مرورها تؤدِّي إلى إحساسٍ بأن الشخصَ يُشَقُّ من الداخل. وتسبِّب الحصوات أيضًا عدم ارتياح عمومي حول الكلى، وألمًا وَخْزِيًّا في البطن والظهر، وأحيانًا غثيانًا وحمّى.

وحتى حين تمرّ خارجة من الجسم، فليس هذا نهاية المطاف، لأنها غالبًا ما تعود مرة أخرى طوال حياة المرء. في أيام مونتاني، كانت حصوات الكلى تهدِّد في الواقع بخطر الموت كلَّ مرّةٍ، إما من مجرّد سد المسالك البولية أو من حدوث عدوى.

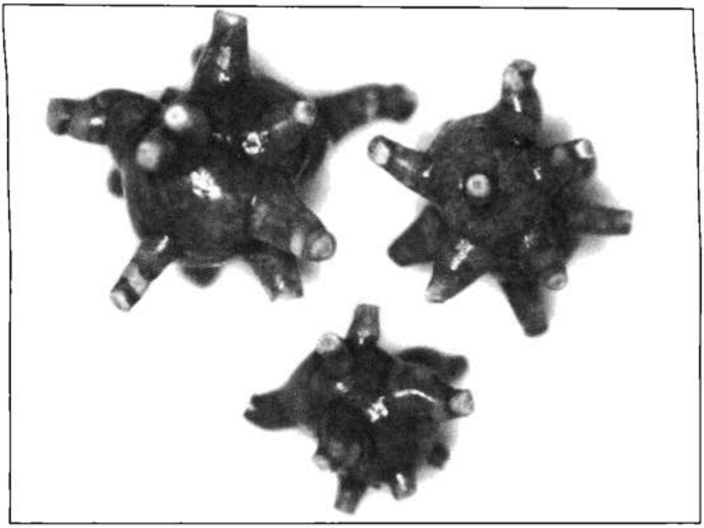

فتات من حصوة كلى. تصوير بكاميرا هيرينجلاه.

أما الآن، فيمكن تفتيت الحصوات باستخدام الموجات الصوتيّة لتسهيل خروجها من الجسم، لكن في أيام مونتاني، لم يكن المرء يملك إلا أن يأمل في أن تجد الدوائر، والأشواك، والإبر والحصوات ذات الشّكل غير المنتظم طريقها إلى الخارج. كان يحاول تصريفها خارج جسمه بالامتناع عن التبوّل لأطول وقتٍ ممكنٍ، ليزيد الضغط داخل المثانة البولية؛ وكان هذا مؤلمًا وخطيرًا في حدِّ ذاتِه، لكنّه كان ينفع أحيانًا. وجرَّب مونتاني أنواعًا أخرى من العلاج، على الرغم من أنه كان لا يثق عادة في أي نوعٍ من الأدوية. تعاطى ذات مرة «التربنتين الفينيسي، الذي يقال إنه يأتي من جبال التيرول، جرعتان كبيرتان ملفوفتان في بسكويتة رقيقة على ملعقة فضّية، مرشوشة بنقطة أو نقطتين من شراب لذيذ الطعم». وكان من المفترض أن لحم التّيس الذي تغذَّى على أعشابٍ مخصوصةٍ ونبيذٍ علاجٌ فعّالٌ. جرّب مونتاني هذا، فربّى التيوس في ضيعته، لكنه تخلّى عن الفكرة حين لاحظ في أحشاء تيس بعد ذبحه حصوات تشبه ما عنده. لم يفهم كيف يشفي جهازٌ بوليٌّ به مشكلات جهازًا بوليًّا آخر.

كان أكثر علاجات حصوات الكلى شيوعًا استخدام المسابح والحمامات الساخنة. وساير مونتاني هذا أيضًا؛ فهي على الأقل طريقة طبيعية، لا يرجّح أن تؤذِي. كانت

المسابح توجد عادة في بيئة جذّابة، وكانت الصحبة مثيرة للاهتمام. جرَّب مونتاني مسبحَين في فرنسا في نهايات سبعينيات القرن السادس عشر؛ وعاوده المرض بعد كل زيارة، لكنه كان مرحِّبًا بأن يجرِّب أكثر. من ثم صار هذا سببًا آخر للسفر، لأن منتجعات سويسرا وإيطاليا كانت ذائعة الصيت. ولهذا السبب ميزة فضلى، لأنه من الأسباب التي يمكن ذكرها بسهولة لزوجته وأصدقائه.

وهكذ، غادر الكاتب المشهور البالغ من العمر سبعة وأربعين عامًا كرومه في صيف العام 1580 وارتحل ليعالج مرضه ويرى العالم، أو على الأقل مناطق مختارة من العالم الأوروبي. امتدّت الرحلة حتى نوفمبر 1581؛ سبعة عشر شهرًا وهو بعيد عن وطنه. بدأ برحلات إلى أجزاء من فرنسا، الظاهر أنها للعمل وربما لجمع تعليمات للمهمات السياسيّة عن الرحلة. وفي ذلك الحين صار هنري الثالث من قرّائه، وأهداه مونتاني كتابه **المقالات**. وبعد هذا اتجه شرقًا وعبر إلى الأراضي الألمانية، ثم اتّجه نحو جبال الألب وسويسرا، وأخيرًا إلى إيطاليا. لو كان قد مضى في طريقه فلربما كانت الرحلة ستطول عن ذلك، وقد ينتهي به الأمر في أيّ مكان. استهواه في مرحلة ما الذهاب إلى بولندا، وجادل نفسه بشأن الهدف الأكثر عمومية؛ ألا وهو روما؛ موقع الزيارات العظيم لكلِّ كاثوليكي صالح وكل مثقَّفٍ من عصر النهضة.

حمامات في ليوك بسويسرا، من

S. Münster & F. Belle - forest, Cosmographie universelle (Paris: N. Chesneau, 1575). Wellcome Library, London.

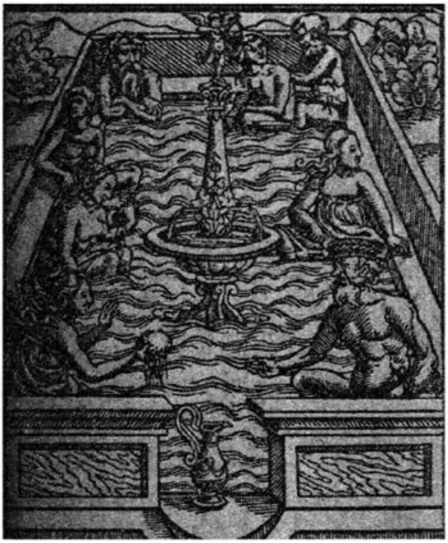

حمامات في بلومبيرييه، فرنسا، نسخة القرن 19 من مقطع من خشب من
J. J. Huggelin. Von Heilsamen Bäderndes teütschelands (Strasbourg, 1559).
Wellcome Library, London.

لم يكن لدى مونتاني ترفُ السّفر بمفرده، متبّعًا أهواءه الشخصيّة وحدها. كان رجلًا نبيلًا ثريًّا، وكان من المتوقّع منه أن يعيل حاشية صعبة القياد من الخدم، والمعارف، والمتطفّلين، الذين حاول أن يفرّ منهم بقدر ما أمكنه. شملت المجموعة أربعة من الشبان أتوا من أجل التعليم. أحدهم كان شقيقه الأصغر، بيرتراند دي ماتيكولون، الذي كان لا يزال في العشرين من عمره فقط؛ وكان الآخرون الزوج الشاب لإحدى شقيقاته، وابن جيران مراهق مع صديق له. ومع مضي الرحلة في طريقها، سينسلخ عنها كل واحد من هؤلاء سعيًا نحو مساعٍ متنوعة. كان ماتيكولون أكثرهم نحسًا، فقد بقي في روما ليدرس رياضة المبارزة، وقتلَ هناك رجلًا في مبارزة؛ وكان على مونتاني أن ينقذه من السجن.

كان السفر نفسه في ذلك الوقت نوعًا من الرياضات الشاقّة، لا يقل خطرًا عن المبارزة. قد تكون الطرق في مسارات الحج إلى الأماكن المتّفق عليها جيّدة، لكن بقية الطرق كانت وعرة. عليك أن تكون مستعدًا دائمًا لتغيير خططك عند سماعك تقارير عن الطاعون في بلدة أمامك، أو عن عصابات قطع طرق السفر. غيَّر مونتاني ذات مرة طريقه إلى روما بسبب تحذير من لصوص مسلّحين على الطريق الذي نوى أن يسلكه. استأجر بعض الناس دليلًا، أو سافروا في قافلة. كان مونتاني بصحبة مجموعة كبيرة من الناس بالفعل، مما ساعده، لكن هذا قد يجلب انتباه ناسٍ غير مرحَّبٍ بهم أيضًا.

وُجدت مضايقات أخرى. كان لا بد من رشوة الموظّفين الرسميين، خاصّة في

إيطاليا، التي عرفت بالفساد والتجاوز البيروقراطي. كانت البوابات المؤدّية للمدن في جميع أنحاء أوروبا مشدّدة الحراسة؛ يجب أن تصل إليها ومعك جواز سفر صحيح، وإذنٍ بالسفر واصطحاب الحقائب، علاوة على خطابات موثّقة بشكل مضبوط تنصّ على أنك لم تكن قريبًا في منطقة فيها طاعون. غالبًا ما كانت محطات التفتيش في المدن تصدر جواز مرور يسمح لك بالبقاء في فندق معيّن، وعلى مالك الفندق أن يشارك في توقيعه. لا بد أن السفر في أيام مونتاني كان يشبه السفر في المعسكر الشيوعي في أوج الحرب الباردة، لكن مع مزيد من النقص القانوني والخطر.

ثم وُجدت مضايقات الرِّحلة نفسها. كان السّفر في معظم الأحيان على صهوات الجياد. يمكنك السفر بعربة، لكن المقاعد كانت عادة أكثر صلابة على الأرداف من السروج. فضّل مونتاني بالتأكيد ركوب الخيل؛ وكان يبيع الجياد ويشتريها طوال الطريق، أو يستأجرها لمسافات قصيرة. وكان الانتقال عن طريق الملاحة النهريّة اختيارًا آخر، لكن مونتاني كان يعاني من دوار البحر، وتجنَّبَ هذه الطريقة في السّفر. وعمومًا، أعطاه امتطاء الخيل الحريّة التي كان يتوق إليها؛ ومن المثير للدهشة، أنه وجد أيضًا أن السرج أريح مكان للإنسان أثناء إصابته بنوبة من آلام حصوات الكلى.

أما أكثر ما أحبّه مونتاني في سفره فكان الشعور بالتحرّك مع التيار، وقد تجنّب جميع الخطط المسبقة. «إذا بدا المشهد قبيحًا على اليمين فسأسلك طريق اليسار؛ وإذا وجدت نفسي غير ملائم لامتطاء حصاني، أتوقّف». سافر، كما قرأ وكتب، باتباع طرق تحفيز المتعة. جاب ليونارد وولف أوروبا مع زوجته بعد ذلك بما يزيد على ثلاثة قرون، ويصف كيف انطلقت هي أيضًا تجوب الآفاق مثل حوت يغربل المحيط بحثًا عن الكائنات الدقيقة العالقة في الماء، ونما لديها شيء من «اليقظة السلبية» مما جلب لها مزيجًا غريبًا من «الابتهاج والاسترخاء». كان مونتاني مثلها. عبَّر بعبارة دالة على الرفاهية عن أن ذلك كان امتدادًا لمباهج حياته اليومية حين يترك نفسه «يتقلّب مسترخيًا مع تقلّب السماوات»، مضافًا إلى ذلك البهجة التي أتت من رؤية جميع الأشياء بشكلٍ جديدٍ وبانتباه تام مثل طفل.

لم يكن يحب التخطيط، لكنه لم يحبّ أيضًا أن يفوته شيء. كان سكرتيره يصاحبه، وظلَّ (لفترة) يشرف على جريدته، وعلّق بأن أفراد الجماعة المصاحبة لمونتاني اشتكوا من عادة مونتاني في التجوّل بعيدًا عن الطريق ما إن يسمع عن أشياء يودّ رؤيتها. لكن مونتاني قد يقول إن من المستحيل الانحراف عن المسار؛ إذ لم يوجد مسار. الخطة الوحيدة التي ألزم بها نفسه دائمًا هي السفر إلى أماكن مجهولة. وكان يتبع هذه الخطة حرفيًّا طالمًا لم يكرّر السير في طريق.

خريطة سفريات مونتياني في 1580 - 1581، رسمت الخريطة ساندرا أوكينز.

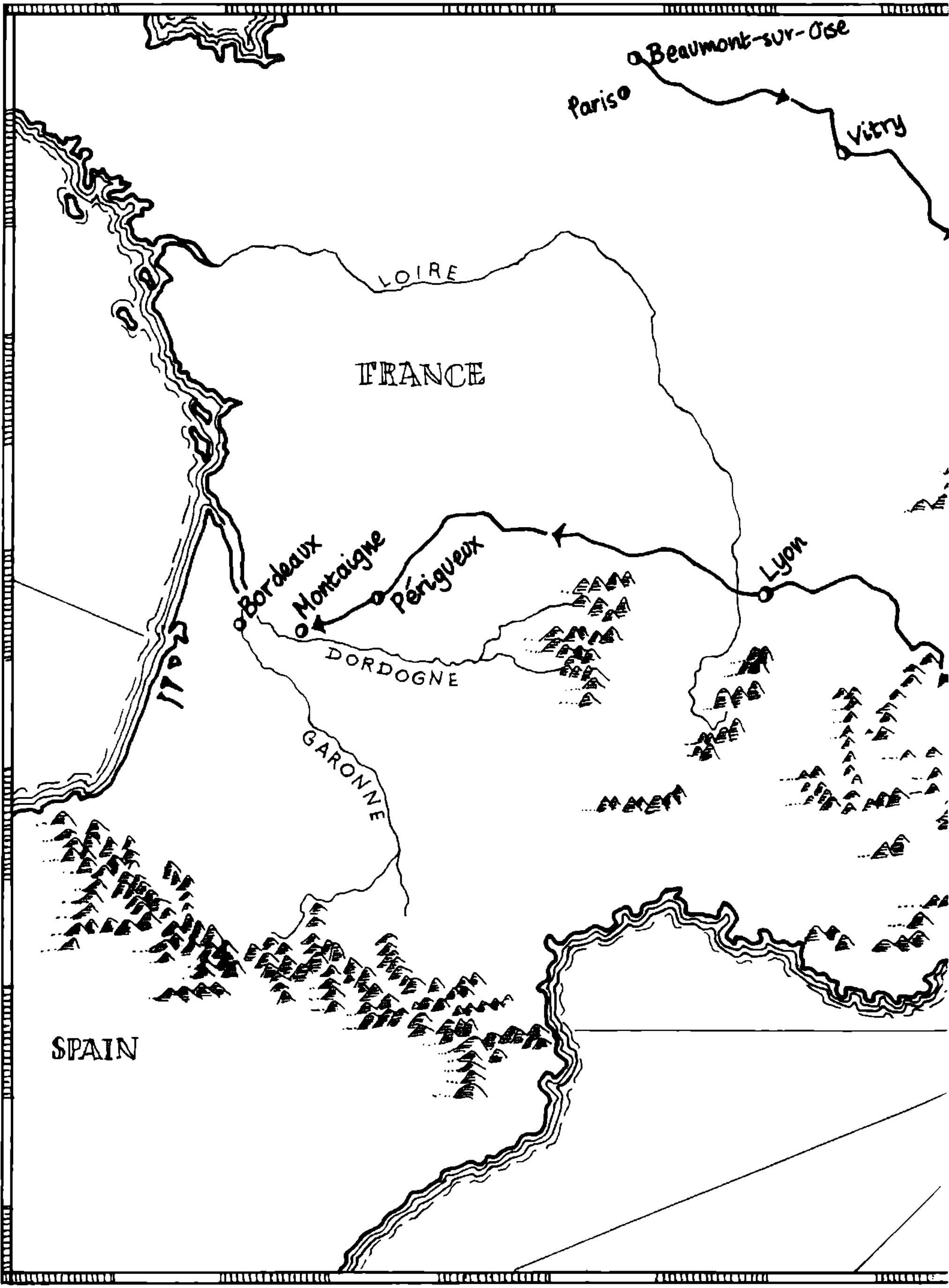
Beaumont-sur-Oise
Paris
Vitry
LOIRE
FRANCE
Bordeaux
Montaigne
Périgueux
Lyon
DORDOGNE
GARONNE
SPAIN

كان الحدّ الوحيد لطاقته أنه لم يحبّ أبدًا أن يبدأ يومه مبكرًا جدًّا. «كسلي في النهوض يعطى لمن يعتنون بي وقتًا ليأكلوا براحتهم قبل البدء في العمل». انسجم هذا مع عادته المعتادة، لأنه كان يجد دائمًا مشكلة في الانطلاق في الحركة صباحًا. لكنه عمومًا كان يحرص على تغيير عاداته تغييرًا جذريًّا حين يسافر. فعلى عكس المسافرين الآخرين لم يكن يأكل إلا الطعام المحلّي، ويجعل الخدمة على المائدة وفقًا للأسلوب المحلّي. ندم في لحظة ما من الرحلة لأنه لم يأت معه بطاهيه؛ ليس لأنه افتقد طهو المنزل، بل لأنه أراد أن يتعلّم الطاهي وصفات أطباق أجنبية.

كان وجهه يحمرّ خجلًا حين يرى فرنسيين آخرين تستخفّهم البهجة حين يقابلون أحد مواطنيهم بالخارج. فهم ينهالون على بعضهم البعض بالأحضان، ويتجمّعون في جماعة صاخبة، ويمضون أمسيات كاملة في الشكوى من بربرية المحليين. كان هؤلاء هم القلّة الذين لاحظوا فعلًا أن المحليين يفعلون الأشياء بأسلوب مختلف. وتمكّن آخرون من السفر «مغطّين وملتفّين في حذر وحيطة مانعَيْن للتواصل، ليحموا أنفسهم من تأثير جوّ مجهول»، حتى إنهم لم يلاحظوا شيئًا على الإطلاق. وقد لاحظ السكرتير في الجريدة مدى الخطأ الذي قد يذهب إليه مونتاني نفسه في الاتجاه الآخر، إذ ينهال بوابل من المديح المبالغ فيه على أي بلد يكونان فيها، ولا يقول كلمة واحدة طيّبة عن بلده. كتب السكرتير: «الحقيقة أنه أدخل في حكمه على الأشياء قليلًا من الانفعال، نوعًا من الإهانة لبلده»، وأضاف ما خمَّنه من أن اشمئزاز مونتاني من كل ما هو فرنسي أتى من «اعتبارات أخرى»؛ ربما كان هذا إشارة للحروب.

امتدّت قدرته على التكيّف إلى اللغة. فكان يتكلّم الإيطالية في إيطاليا، بل حتى كان يقرأ جريدته بهذه اللغة، متوليًا أمرها بدلًا من سكرتيره. كان يحاكي الحرباء، أو الأخطبوط، وحاول المرور متخفّيًا – أو ما اعتقد أنه تخفٍّ – كلّما أمكنه ذلك. وكتب السكرتير أنه في أوجسبيرج «أراد السيد دي مونتاني لسبب ما أن تتخفّى جماعتنا، وألّا يفصح أعضاؤها عن رتبهم؛ وسار عبر البلدة بلا صحبة طوال اليوم». ولم ينفع هذا. وبينما كان مونتاني يجلس على أريكة في الهواء الذي وصلت حرارته إلى درجة التجمّد في كنيسة أوجسبيرج، وجد أنفه يسيل، وبلا تفكير، أخرج منديلًا. لكن هذه المنطقة لم تكن تستخدم المناديل، فغطّى أنفه وهو يتمخّط في المنديل. وتعجّب الناس المحلّيون، هل في المكان رائحة كريهة؟ أم هل كان خائفًا من الإصابة بشيء؟ على أيِّ حالٍ، خمَّنوا فعلًا أنه شخص غريب؛ فقد كشفه طراز ملابسه. ضايق هذا مونتاني، ومن الصدف النادرة أن «يقع مونتاني في الخطأ الذي يتجنَّبه أكثر من أي شيء، خطأ أن يجعل نفسه لافتًا للنظر بإتيانه نمطًا من السلوك المتكلِّف الذي يختلف مع ذوق من شاهدوه».

لعبت الكنائس دورًا مهمًّا في رحلة مونتاني، لا لأنه كان مدمنًا على الصّلاة، بل لأنه كان شديد الفضول لمعرفة الممارسات التي تجري فيها. لاحظ الكنائس البروتستانتية في ألمانيا باهتمامٍ يضارع اهتمامه بالكنائس الكاثوليكية في إيطاليا. وشهد في أوجسبيرج تعميد طفل. وفي طريقه إلى خارج الكنيسة (وكان بالفعل غير مرتدٍ للثّام باعتباره غريبًا) سأل عدّة أسئلة عن عملية التعميد. وزار معبدًا يهوديًّا في إيطاليا، و«دار حديث طويل بينه وبين رواد المعبد حول طقوسهم الدينية». وحضر أيضًا ختانًا يهوديًّا، في بيتٍ خاصٍّ.

كانت تروق له المناسبات الغريبة والروايات الإنسانية من كافة الأنواع. في المراحل الأولى من الرحلة، في بلومبيرييه - لي - باينز في إقليم اللورين، قابل جنديًّا له لحية نصفها أبيض مع حاجب واحد أبيض، وأخبر الرجل مونتاني أن الاثنين تغير لونهما في يوم واحد عندما مات شقيقه، لأنه بكى بالساعات مع تغطية جانب وجهه بيده. وفي مكان قريب من ذلك المكان، في فيتري - لي - فرانسوا، تمتّع بقصصٍ عن سبع أو ثماني بنات في المنطقة «تواطأن» على أن يرتدين ملابس الرجال ويعشن حياة الرجال. وتزوجت إحداهن من امرأة وعاشت معها لعدة شهور - »يقال إنها تزوّجتها حتى شبعت» - حتى أبلغ شخص السلطات بأمرها وشُنقت. وسمع قصة أخرى من المنطقة نفسها عن رجل اسمه جيرمين، كان بنتًا حتى سن الثانية والعشرين، حين بدأت «أعضاء ذكرية» في البروز لديه ذات يوم بينما كان يثب فوق حاجز. وظهرت أغنية شعبية في البلدة، تحذِّر الفتيات من فتح سيقانهن واسعًا لو قفزن في حالة مصادفتهن لشيء مماثل.

وكان مونتاني مفتتنًا بالفوارق في عادات الأكل؛ وهي دائمًا نقطة واضحة للمقارنة الثقافية لأي رحالة. ففي سويسرا يعاد ملء الكؤوس بالنبيذ من على بعد مسافة باستخدام وعاء له أنبوب طويل، وبعد تقديم صحن اللحم، يلقي الجميع بأطباقهم إلى سلّة في منتصف المائدة. كان الناس يأكلون بالسكين، «لا يكادون يضعون أيديهم في الصحن أبدًا»، ولديهم فوط صغيرة الحجم، مربّعات طول ضلعها ست بوصات فقط، على الرغم من حبهم لأنواع الصلصة والحساء التي قد تلطِّخهم. وانتظرته المزيد من الغرائب في غرف النوم السويسرية: «يرتفع السرير لديهم عاليًا جدًّا إلى درجة أنك تصعد إليه باستخدام درجات سلَّم؛ ولديهم في كل مكان تقريبًا أسِرَّة صغيرة تحت الكبيرة».

لفت كلّ شيءٍ انتباه مونتاني، أو انتباه سكرتيره، الذي كان يكتب بحسب توجيهاته. كان في إحدى غرف خان في ليندوا قفص مليء بالطيور، يحاذي جدارًا بأكمله في

غرفة المائدة فيه ممرّات ضيّقة وأسلاك نحاسية؛ بحيث تتمكّن الطيور من القفز من أحد جوانب الغرفة إلى جانبها الآخر. وفي أوجسبيرج، قابلا جماعة تأخذ نعامتين مربوطتين بمقود على سبيل الهدية لدوق ساكسونيا. ولاحظ مونتاني أيضًا أن الناس في المدينة، «يزيلون الأتربة عن أوانيهم الزجاجية بمنفضة مصنوعة من الشعر مربوطة في طرف عصا». وكان مفتونًا بالبوابات العديدة التي في المدينة والتي تعمل بأداة تحكّم عن بعد، تقفل الغرف تباعًا مثل أقفال بوابات القنوات، بحيث لا يتمكّن المعتدون من اقتحامها.

وحيثما ذهبوا كانوا يزورون النافورات وحدائق المياه المتماشية مع ذوق العصر، والتي تصلح لقضاء ساعات من الترفيه السادي؛ ففي حدائق عائلة فوجر بألمانيا، ممر خشبي يوصل ما بين بركتي أسماك يخفي صنابير بخاخة نحاسية معبأة لرشّ المياه على المارة من سيدات وسادة يمرّون بها غير متشكّكين. وفي أماكن أخرى في الحديقة نفسها يمكنك الضغط على زر لتقذف برشّاش من الماء على وجه أيٍّ أحد ينظر إلى نافورة معيّنة. وتوجد بالحديقة علامة باللغة اللاتينية تقول: «كنت تبحث عن وسائل ترفيهٍ تافهةٍ؛ ها هي ذي؛ استمتع بها». ومن الواضح أن الجماعة المصاحبة لمونتاني استمتعت بذلك فعلًا.

وبدا أن الفنَّ العظيم يترك أثرًا قليلًا لدى مونتاني، أو على الأقل لم يكن يتكلّم عنه كثيرًا، ولا يعلّق إلا عَرَضًا على أعمال مثل «التماثيل شديدة الجمال والممتازة التي نحتها مايكل آنجلو» في فلورنسا. كما يحتوي كتاب **المقالات** على القليل عن الفنون البصريّة. وقد ملأ مونتاني برجه بلوحات الفريسكو، فلا بد من أن لديه شيئًا من تذوق اللوحات، لكن يبدو أن رغبته في الكتابة عنها كانت قليلة؛ على الرغم من أن الأصباغ لم تكد تجفّ فعلًا على الكثير من لوحات عصر النهضة عبر جميع أنحاء إيطاليا.

أخذ عليه بعض قراء الجريدة المتأخِّرين استبعاده لها، خاصّة الرومانسيين منهم، الذين صاروا أوائل جمهورها، لأن المخطوط لم يظهر في حقيبة في القصر إلا في العام 1772. انقضَّ القراء على الاكتشاف باهتمام، لكنهم خرجوا بخيبة أمل في ما وجدوه هناك. لقد تحسّن تذوّق الناس للفن في القرن الثامن عشر، ثم ربما أحبّ قراء هذا القرن قراءة تعليقات متسامية غزيرة عن جمال جِبال الألب، والتأمُّلات الاكتئابية على أطلال روما. لكنهم وجدوا بدلًا من ذلك تقريرًا عن انسداد مجرى البول لدى مونتاني، تتخلّله ملاحظات لاذعة عن كثب، لكن من دون تفاصيل تصف الفنادق، والطعام، والتكنولوجيا، والسلوكيات، والممارسات الاجتماعية في كلِّ مكانٍ توقّف

فيه. كان الناس أقل افتتانا بمونتاني من أن يعرفوا من السكرتير أن «الماء الذي شربه السيد دي مونتاني يوم الثلاثاء جعله يتبرّز ثلاث مرات»، وأنه بعد يومين كانت جرعة أخرى من مياه المسابح فعّالة له «سواء من الأمام أم من الخلف». ولم يتحسّن الأمر حين تولى مونتاني كتابة يوميّاته بنفسه، وأخبرهم أنه أنزل حصوة مع البول «في حجم وطول حبة الصنوبر، لكن أحد طرفيها في سمك حبة الفول، والحقّ أن لها شكل الشوكة بالضبط». الشيء الوحيد الذي تمكّن القراء السويسريون والألمان (على الأقل) من الاستمتاع به أن الجريدة كانت مليئة أيضًا بالمجاملات عن بلادهم، وبالذات عن المواقد السويسرية جيّدة التصميم.

يبدو أن رد الفعل الصامت لأوائل جمهور الجريدة قد ضبط النغمة على الموجة التي ستستقبل عليها منذئذ؛ لقد اعتبرت دائمًا ابن عم فقير لكتاب **المقالات**. لكنّها تعتبر مادّة قراءة أفضل من أيِّ عددٍ من قصص الرحلات الرومانسية المبالغ فيها، بالضبط لأنها ظلّت مرتبطة إلى حدٍّ بعيدٍ بالتفاصيل. ففيها أسِرَّة صغيرة تحت الأسِرَّة الكبيرة، وصلصات سويسرية قد تلطّخ الآكلين، وأقفاص طيور بحجم الغرفة، وعمليات ختان، وتغيير جنس، ونعامات: ما الذي يمكن ألا يحبه القارئ من بين هذا؟

من السمات ذات الجاذبية في الجريدة أيضًا أنها تسمح للسكرتير أن يرسم لنا صورة لمونتاني من الجانب؛ صورة جانبية (بورتريه) تتحوّل لتكون متّسقة بشكل لافت للنظر مع مونتاني الذي في كتاب **المقالات**، صاحب التأمّل الذاتي. يرى القراء مونتاني يجهد نفسه ليتخلّص من جميع أشكال التعصّب القومي، كما يتوقّع منه المرء. يبدو متحمِّسًا ومليئًا بالفضول، لكنه أحيانًا أخرى يكون أيضًا أنانيًّا، يجرّ حشمه المتأفِّفين إلى أماكن لا يستطيعون أن يجدوا سببًا لزيارتها. ويوجد أيضًا التلميح الغريب إلى أنه أسرف في الهراء في الخطابة الرسمية، على الرغم من (أو ربما بسبب) ضعف انتباهه فيها. يكتب السكرتير أن مونتاني بعد أن تعرّض إلى «حديث استقبال طويل» في بازل على الغداء، ألقى «ردًّا طويلًا» عليه يساويه طولًا. وفي شافهاوزن، أهديت إلى مونتاني هديّة من النبيذ؛ «ليس من دون العديد من الخطب الاحتفالية من الجانبين».

قلَّ الطلب على قدرات مونتاني الخطابيّة فور وصولهم إلى إيطاليا، في 28 أكتوبر 1580. لكن كلّما اقتربوا منها، ازداد تساؤله حول كم يرغب حقًّا في الذهاب إلى هناك. كان هذا هو نهاية **المطاف** العظيم، مركز ثقافة أوروبا. استدعت فينيسيا وروما لذاكرته حياته بأكملها. لكن هاهو يكتشف الآن أنه يفضِّل أماكن أقلّ شهرة. علّق السكرتير مع وصولهما إلى جبال الألب أنه لو كان مونتاني قد مضى في طريقه، فلربما حوَّل وجهته

نحو بولندا أو اليونان، ربما لمجرَّد إطالة الرحلة بأكملها. لكنه قوبل بالمعارضة، ووافق على اتّباع طريق إيطاليا مثل الجميع. وسرعان ما شفي. كتب السكرتير الآن: «لم أره أبدًا أقلّ تعبًا أو أقل شكوى من آلامه، لأن عقله كان عاقدًا العزم جدًّا على التعامل مع ما يقابله، سواء في الطريق أو في النُزُل التي أقام بها، وكان شديد التوق للكلام مع الغرباء في جميع المناسبات، بحيث أعتقد بأن هذا حوَّل عقلَه عن أمراضه».

كانت فينيسيا إحدى أكبر محطات توقّفهم الأولى في إيطاليا، وقد أكّدت مخاوفه عن الأماكن ذات الشهرة الفائقة التي يقصدها السياح. وبعبارة السكرتير، وجدها أقلّ روعة بقليلٍ مما قاله عنها الناس. لكنه استكشفها من دون أن يقل استمتاعه بها، فاستأجر جندولًا، وقابل جميع الناس المثيرين للاهتمام الذين استطاع أن يجدهم. واستهوته جغرافية فينيسيا الغريبة، وكذلك حكومتها باعتبارها جمهورية مستقلة. بدا أن في فينيسيا شيئًا من السحر السياسي ينقص الأماكن الأخرى، فهي لا تشارك في الصراعات إلا لو كانت ستكسب شيئًا، وتحافظ على حكومة عادلة داخل حدودها. تأثّر مونتاني أيضًا بطريقة عيش محظيات المدينة بكرامة وفي رفاهية، يحافظ عليهنّ النبلاء صراحة ويحترمهنَّ الجميع. وقابل إحدى أشهرهن، فيرونيكا فرانكو، التي نجت حديثًا من محكمة التفتيش ونشرت كتابًا مكوّنًا من الرسائل، ألا وهو كتاب **رسائل حميمة متنوّعة**، وأهدت نسخة منه بنفسها إلى مونتاني.

وسافروا بعد فينسيا عبر فيرّارا، حيث قابل مونتاني تاسو؛ ثم بولونيا، حيث شاهدوا استعراض مبارزة؛ وفلورنسا، حيث زاروا حدائق الخدع، بمقاعدها التي ترش الماء على مقعدتك عندما تجلس. وفي حديقة أخرى مرَّت المجموعة «بخبرة مسلّية جدًّا» حين تعرَّضوا لزخّات من المياه من «عددٍ لا نهائيّ من الفتحات الدقيقة»، بحيث تكون دشًّا رقيقًا جدًّا حتى كاد يكون غيمة غبشاء.

واستمروا في طريقهم، بل ازدادوا اقترابًا من روما. وفي اليوم الأخير قبل الوصول إلى المدينة، يوم 3 نوفمبر 1580، كان مونتاني مستثارًا إلى درجة أنه أيقظ الجميع هذه المرة بشكل استثنائي قبل الفجر بثلاث ساعات ليسافروا الأميال القليلة الأخيرة. لم يكن الطريق عبر الضواحي مشجِّعًا، فكلّه حدبات مرتفعة وتصدّعات وحفر، لكنّهم لمحوا في طريقهم الأطلال الأولى القليلة، ثم أخيرًا، المدينة العظيمة نفسها.

خفت التشوّق قليلًا بينما كانوا ينتظرون المرور عبر الإجراءات البيروقراطية على البوابات؛ إذ فُتشت حقائبهم «حتى أصغر الأشياء». استغرق الموظفون وقتًا أطول من اللازم في فحص كتب مونتاني. كانت روما مقرّ البابا نفسه، وكانت جرائم الأفكار

تؤخذ بجدّية هنا. صادروا كتابًا للصلوات في مختلف ساعات اليوم، لمجرّد أنه نُشر في باريس لا في روما، وبعض الكتابات اللاهوتية الكاثوليكية التي التقطها مونتاني من ألمانيا. واعتبر مونتاني نفسه محظوظًا لأنه لم يكن يحمل أي شيء أكثر تجريمًا. وحيث إنه لم يكن مستعدًّا لمثل هذا التفتيش الصارم، فلربما كان لديه كتب فيها هرطقة حقًّا ضمن متاعه، حيث إنه - كما علّق السكرتير - كانت لديه «طبيعة متسائلة».

وأخذوا أيضًا نسخة من كتابه **المقالات** لفحصها. ولم يعيدوها إليه حتى مارس، بعد أربعة شهور، وعادت وقد كُتب عليها اقتراحات بإدخال تعديلات. وضعت علامة على كلمة «حظ» في عدة مواقع، مع غيرها من المتفرّقات. لكنَّ موظفًا في الكنيسة أخبره في ما بعد أن الاعتراضات لم تكن خطيرة، وأن الراهب الفرنسي الذي أبداها لم يكن حتى كفؤًا بشكلٍ خاصٍّ. وكتب مونتاني في الجريدة، «يبدو لي أنهم سرُّوا منّي جدًّا». وتجاهل عن حقّ جميع الاقتراحات. أولَى بعضُ الكتّابِ اهتمامًا كبيرًا لتحدِّي مونتاني للتفتيش، لكنه لم يكن مضطرًا لأن يكون مثل جاليليو حتى لا يتراجع أمام محكمة التفتيش.

بدأ مونتاني رحلته إلى روما بداية سيئة بفعل هذه اللقاءات، فقد وجد جوّها خاليًا من التسامح. لكنها كانت أيضًا مدينة كوزموبوليتانية. فأن يكون الشخص من مواطني روما يعني أنه مواطن عالمي، وهو ما أراد مونتاني أن يكونه. بناء على ذلك، سعى للحصول على المواطنة التابعة لروما، وهو شرف ناله قرب نهاية فترة إقامته فيها التي بلغت أربعة أشهر ونصفًا. سرّه ذلك جدا، حتى إنه نسخ الوثيقة بأكملها في فصل عن الزهو الأجوف في كتاب **المقالات**. أدرك أن «الزهو الأجوف» هو فئة التصنيف الصحيحة، لكنه لم يهتم. «تمتّعت كثيرًا بحصولي عليها في جميع المناسبات».

كانت روما شاسعة المساحة وشديدة التنوّع حتى بدا أنه لا حدَّ لما يمكن أن تفعله هناك. تمكّن مونتاني من سماع المواعظ أو المناقشات اللاهوتية. وتمكّن من زيارة مكتبة الفاتيكان ومنح سبيلًا للوصول إلى مناطق أغلقت حتى أمام السفير الفرنسي، ورؤية نسخ مخطوطة ثمينة لكتابات أبطاله سينيكا وبلوتارخ. وتمكّن من مشاهدة عملية ختان، ومن زيارة الحدائق ومزارع العنب، والحديث مع العاهرات، وحاول تعلّم جميع أسرار مهنتهنَّ، لكنه لم يتعلّم إلا أنهن يتقاضين الكثير من المال حتى ولو لمجرّد المحادثة، وهو ما يفترض أنه أحد أسرارهن.

وعلاوة على المومسات، حضر مونتاني اجتماعًا مع البابا الحالي ابن الثمانين، جريجوري الثالث عشر. وصف السكرتير الشعيرة بالتفصيل. أولًا، دخل مونتاني

وأحد رفاق رحلته الشباب إلى الغرفة التي يجلس فيها البابا، وركعا لينالا البركة. وسارا جانبيًا بحذاء الجدار بطوله، ثم عبرا الغرفة في اتجاهه؛ وفي منتصف الطريق إليه، توقَّفا لينالا بركة أخرى. ثم ركعا على بساط مخملي عند قدمي البابا، بجوار السفير الفرنسي، الذي كان يقدِّمهما. وركع السفير أيضًا، وجذب معطف البابا إلى الخلف ليكشف عن قدمه اليمنى، منتعلة خفًّا أحمر عليه صليب أبيض. انحنى الزوار كلٌّ بدوره على هذه القدم وقبّلوها، ولاحظ مونتاني أن البابا رفع أصابع قدميه قليلًا ليجعل القبلة أسهل. بعد هذا العرض الذي يكاد يكون مثيرًا جنسيًّا، غطى السفير القدم البابوية مرة أخرى، ونهض ليلقي خطابًا عن الزوار. باركهم البابا وقال كلمات قليلة، حثّ فيها مونتاني على أن يستمر في إخلاصه للكنيسة. ثم نهض علامة على صرفهما؛ فتراجعا بخطواتهما للخلف عبر الغرفة في الاتجاه العكسي، ولم يديرا ظهرَيهما أبدًا، وتوقَّفا مرتين وركعا لينالا المزيد من البركات، ثم خرجا أخيرًا من الباب بظهريهما، وانتهى العرض. جعل مونتاني سكرتيره يكتب مذكرة، في ما بعد، بأن البابا تحدّث بلكنة بولونية، وهذا «أسوأ مصطلح في إيطاليا». كان البابا «رجلًا مسنًّا شديد الأناقة، متوسِّط الطول، مستقيم القوام، وجهه مليء بالجلال، له لحية بيضاء طويلة، عمره يزيد على الثمانين عامًا، صحيح البدن، وقويٌّ بالنسبة لسنه على النحو الذي يأمل فيه أي شخص، ليس مصابًا بالنقرس، ولا بالمغص، ولا بآلام المعدة»؛ مختلف تمامًا عن مونتاني المسكين الذي يعاني، وبه شبَه عائلي من الإله نفسه. بدا أنه «ذو طبيعة مهذَّبة، وليس شديد الشغف بأحوال العالم»، وهو أمر إما أنه شبيه جدًّا بالإله أو غير شبيه به أبدًا، يعتمد هذا على وجهة نظرك. وسواء كان مهذّبًا أم لا، فهذا هو البابا الذي صكَّ ذات مرّة ميداليات وأمر برسم لوحات للاحتفال بمذبحة سان بارتيلوميو.

لم ينسَ مونتاني أن روما هي مدينة البابا، وكثيرًا ما رآه يقود المراسم ويشارك في المواكب. وفي الأسبوع المقدَّس، راقب آلاف الناس يتدفَّقون نحو كنيسة القديس بطرس، حاملين مشاعل وهم يجلدون أنفسهم بالحبال، بعضهم حديث السن يناهز الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره، يصاحبهم رجال يحملون نبيذًا ينثرونه على أطراف حبال الجلد لتنديتها وفصلها عن بعضها حين تتجلَّط بالدم. كتب مونتاني: «هذا لغز لم أفهمه جيِّدًا بعد». أصيب التائبون بجراح قاسية، لكن بدا أنهم لا يشعرون بالألم ولا أنهم جادّون تمامًا في ما يفعلونه. شربوا كميات كبيرة من النبيذ هم أنفسهم ومارسوا الطقس «بلا مبالاة حتى إنك تراهم يحدِّثون بعضهم البعض عن أمورٍ أخرى، فكانوا يضحكون، ويصيحون في الطرقات، ويركضون، ويقفزون». وكما استنتج

مونتاني، فقد كان معظمهم يفعلون ذلك من أجل المال؛ فقد دفع لهم الأثرياء الأتقياء ليمروا بعملية التوبة بدلًا منهم. زاد هذا من صعوبة اللغز بالنسبة لمونتاني؛ «لماذا يفعل من استأجروهم هذا؟ إذا كان مجرَّد شيء مزيَّفٍ؟».

وشهد مونتاني أيضًا جلسة إخراج أرواح شريرة من جسم شخص. كان الرجل الملبوس يبدو تقريبًا في حالة إغماء، وقد أمسكه آخرون لتثبيته على المذبح بينما كان القسّ يلكمه بقبضتيه، ويبصق في وجهه، ويصرخ فيه. وشهد في يوم آخر شنق رجل؛ كان لصًّا شهيرًا وقاطع طريق اسمه كاتينا، من بين ضحاياه راهبان كبّوشيان[1]. ويبدو أنه وعد بالإبقاء على حياتَيهما إذا أنكرا الإله. وفعلا ذلك، مخاطرَيْن بفقدان خلود روحيهما، لكن كاتينا قتلهما على أي حال. ومن بين جميع الغرائب التي شهدها مونتاني، صادف مشهدًا من النوع الذي فتنه جدًّا، الفرد المهزوم الذي يتوسَّل من أجل الرحمة، والمنتصر الذي يقرِّر ما إذا كان سيمنحه إياها، ومن المرجَّح أن هذا كان أكثر المشاهد بشاعة. فعلى الأقل، كانت لدى كاتينا نفسه الشجاعة ليموت بجسارة. لم يصدر عنه أي صوت حين الإمساك به وشنقه؛ ثم قُطّع جسده إلى أرباع بالسيوف. كان الحشد أكثر اهتياجًا بسبب العنف الذي مورس على الجسد الميت، فيولولون مع كل ضربة بالسيف، أكثر مما أهاجهم الإعدام نفسه، وهي ظاهرة أخرى حيّرت مونتاني، الذي اعتقد بأن القسوة التي تمارس على شخصٍ حيٍّ أكثر إثارة للاضطراب من أيِّ شيءٍ قد يُفعل بجثّة.

كانت كل هذه روائع روما الحديثة، لكن لم يكن هذا هو السبب في أن معظم سائحي القرن السادس عشر ذوي الاتجاهات الإنسانية أتوا إلى هذه المدينة. لقد أتوا ليمتصّوا هالة القدماء، ولم يكن يوجد من هو أكثر من مونتاني عرضةً لهذه الهالة، فقد كان هو نفسه يكاد يكون من سكَّان روما الأصليين. فقبل كل شيء، كانت اللاتينية لغته الأولى؛ كانت روما وطنه الأم.

كانت المدينة الكلاسيكية معروضة إلى حدٍّ بعيدٍ حولهم، على الرغم من أن مونتاني وسكرتيره لم يقتفيا آثار أقدام أهل روما بقدر ما ارتفعا عنها بكثير. تراكم الكثير من التراب وركام الأنقاض عبر القرون حتى إن مستوى الأرض ارتفع بعدة أمتار؛ فدُفن ما بقي من المباني القديمة مثلما تُدفن القوارب في الطمي. تعجَّب مونتاني حين أدرك أنه كان يسير غالبًا فوق قمم جدران قديمة، وهو شيء لم يتّضح إلا في النقاط التي كشف

(1) الكبوشيون: شعبة من شعب الرهبانية الفرانسيسكانية التابعة للكنيسة الكاثوليكية، نشأت في 1529، يتميزون برداء له غطاء رأس طويل مدبّب متّصل به يعرف بالكابيشون (المترجمة).

فيها تآكل التراب بفعل الأمطار أو الأخاديد التي يتركها مرور العجلات عن لمحات منها. كتب مونتاني برعشة سرور: «كثيرًا ما حدث بعد الحفر عميقًا في الأرض أن يصل الحفّارون إلى مجرّد رأس عمود شديد الارتفاع ما زال قائمًا تحت الأرض».

الوضع مختلف جدا اليوم. فالتنقيب عن الآثار منذئذ أظهر معظم الأطلال كاملة وصولًا إلى أساساتها، وأعيد تركيب بعضها. اليوم، يعلو قوس سيبتيموس سفيروس في الهواء؛ أما في أيام مونتاني، لم يكن ظاهرًا إلا جزأه العلوي. كان الكولوسيوم وقتها خليطًا من الأحجار التي تغطيها الحشائش. وغطّت مباني القرون الوسطى والحديثة على كل شيء؛ إذ كان الناس يبنون فوق الأطلال أو يستخدمون موادَّ بناء قديمة لإنشاء مبانٍ جديدة. وظلّت بلاطات من الحجارة يعاد وضعها على مستويات أعلى لترقيع الجدران أو بناء مبنًى متداعٍ. وأُخليت بعض المناطق تمامًا لإفساح الطريق لمشروعات المنتصرين مثل كنيسة القديس بطرس الجديدة تمامًا. لم يقع التاريخ الروماني في طبقات منسقة؛ فقد تعرّض للتقليب العنيف مرارًا وتكرارًا وأعيد ترتيبه كما لو كان بفعل زلازل.

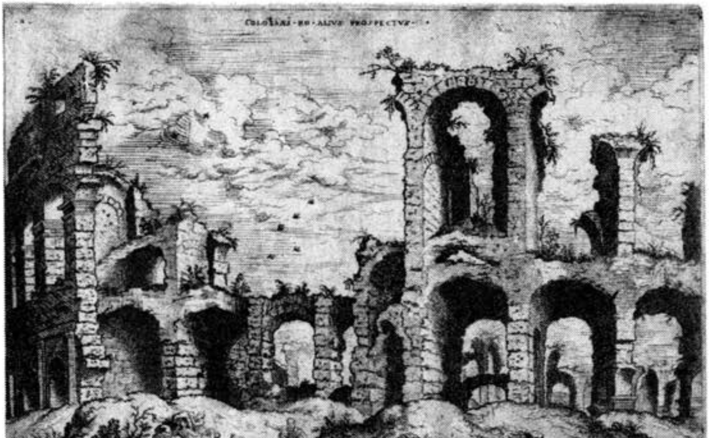

الكولوسيوم وطلل مجهول الهوية، من

H. Cock Praecipua aliquot Romanae antiquitatisruinarummonimenta, vivis prospectibus, ad veriimitationem affabredesignata (Antwerb: H. Cock, 1551). University of Chcago Library, Special Collections Research Center.

كانت النتيجة موحية، فقد خلقت انطباعًا مذكرًا بروما القديمة إلى الحدِّ الذي تُذَكِّر فيه البيضة المخفوقة المرء بالبيضة الطازجة السليمة تقريبًا. والحقيقة أن روما الحديثة تكونت بعملية مشابهة للتي اعتاد مونتاني أن يكتب عنها في كتاب **المقالات**. أعاد

مونتاني تدوير قراءاته الكلاسيكية بإضافة استشهادات وإشارات بلا توقّف، كما أعاد الرومان تدوير أحجارهم. يبدو أن التشابه طرأ على ذهنه، وفي ذات مرة سمّى كتابه «مبنى جُمِّع من نفايات سينيكا وبلوتارخ». وفي المدينة اعتقد بأن الأعمال الإبداعية المكوّنة من خليط من الأشياء والهنّات، كما هو حال كتابه، مفضّلة على نظام عقيم، ووجد لذة في تأمل النتيجة. وقد احتاج أيضًا إلى جهد ذهني معيّن، مما أعطاه المزيد من الإشباع. جاءت خبرة روما أساسًا ثمرة لخياله. كان يمكن له أيضًا أن يبقى في البيت تقريبًا - **تقريبًا**، لأن الوجود هناك كان فيه شيء فريد.

كان هذا الشعور المهلوس بالغربة ينتاب زوار روما بشكل متواتر، جزئيًا بسبب أن كل شيء هناك مألوف جدًا بالفعل للخيال قبل أن تراه بفترة طويلة. وبعد مائتي سنة، سيجدها جوته فورًا منعشة ومربكة. كتب عند وصوله: «تحققَت جميع أحلام شبابي، أول لوحة مطبوعة بالحفر أتذكّرها - إذ كان والدي يعلّق صورًا لروما في البهو - أراها الآن في الحقيقة، وجميع ما عرفته طوال هذا الوقت من خلال اللوحات، والرسومات، والحفر على الزجاج، والخشب، وقوالب الجبس والنماذج المصنوعة من الفلّين تقف الآن أمامي». حدث شيء مماثل لفرويد في أثينا حين رأى الأكروبوليس. تعجّب قائلًا: «إذن، كل هذا يوجد حقًا، كما تعلّمنا في المدرسة بالضبط!»، ثم شعر بعدها بشكلٍ يكاد يكون فوريًا بيقين أن: «ما أراه هنا ليس حقيقيًا». وجد مونتاني هذا الالتقاء بين النسخ الداخلية والخارجية غريبًا، وكتب أيضًا عن «روما وباريس الموجودتين في روحي»، اللتين كانتا «بلا حجم ولا مكانٍ، بلا أحجارٍ، وبلا جبسٍ، وبلا خشبٍ». كانتا صور أحلام قارنها بأرنب الحلم الذي طارده كلبه.

ستجلب روما لجوته سلامًا يكاد يكون صوفيًّا: «أنا الآن في حالة صفاء وهدوء لم أعرف مثلها منذ زمن طويل». شعر مونتاني بهذا أيضًا؛ على الرغم من إحباطاته السياحيّة. إيطاليا عمومًا كان لها هذا التأثير عليه. كتب بعد ذلك بقليل في لوكا Lucca: «لقد استمتعت بعقل مطمئنٍّ». لكنه أضاف: «شعرت بفقد شيءٍ واحدٍ فقط، الصحبة التي أحبّها، حيث أرغمت على الاستمتاع بهذه الأشياء الطيّبة وحدي ومن دون تواصل مع أحد».

وأخيرًا غادر مونتاني روما في 19 أبريل 1581، فعبر جبال الأبيناين ويمم شطر موقع الحج العظيم في لوريتو، والتحق بالحشد الذي كان يتدفّق في مسيرات خلف الرايات والصلبان. وترك تماثيل على سبيل النذور في الكنيسة هناك، لنفسه، ولزوجته ولابنته. ثم استمر صعودًا على ساحل البحر الأدرياتيكي ثم عاد عبر الجبال إلى مسبح في لا فيللا، حيث مكث لما يزيد على شهرٍ ليجرِّب المياه. وكالمتوقّع من زائر نبيل، أقام حفلات للسكان المحليين والضيوف المرافقين، تشمل رقصة «للفلّاحات» شارك فيها بنفسه «حتى لا يبدو شديد التحفُّظ». وعاد إلى لا فيللا بعد أن انعطف إلى فلورنسا ولوكا، ومكث حتى ذروة الصيف، من 14 أغسطس إلى 12 سبتمبر 1581. كان ألمه من الحصوة شديدًا، وسقط فريسة لآلام الأسنان، وثقل في الرأس وألم بالعينين. شكَّ في أن هذا حدث بسبب مشكلة في المياه، التي دمّرت نصفه العلوي حتى وهي تساعد نصفه السفلي، بافتراض أنها فعلت ذلك. «بدأت أجد هذه الحمّامات مزعجة».

ثم غيَّر وجهة سيره بلا توقّع. تسلّم مونتاني الذي زعم أنه يريد حياةً هادئةً فقط وفرصة لمزاولة «الفضول الأمين» في أنحاء أوروبا دعوة من على مسافة بعيدة لم يستطع رفضها.

مكتبة
t.me/t_pdf

15. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟

ج: أدِّ وظيفتَك جيِّدًا، لكن لا تسرفْ في إجادتها

العمدة:

وصلت الرسالة إلى مونتاني في حمّامات لا فيللا، تحمل كامل ثقل السلطة عن بعد. وقّعها جميع محلّفي بوردو - الرجال الستة الذين كانوا يحكمونها مع عمدتها - أخبرته الرسالة أنه انتُخب، في غيابه، ليكون العمدة التالي للمدينة. ولا بد من عودته فورًا ليباشر واجباته.

كان هذا ثناءً مغريًا، لكنه كان آخر ما يودّ مونتاني أن يسمعه. المسؤوليات ستكون أثقل من مسؤوليات القاضي. ستوجد متطلّبات تستغرق وقته؛ وستوجد خطب ومراسم احتفالات؛ جميع الأشياء التي كانت أقل ما يستمتع به وهو يتقدّم عبر إيطاليا. سيحتاج إلى مهاراته الدبلوماسية، لأن وظيفة العمدة تعني إدارة شؤون مختلف الفصائل الدينيّة والسياسيّة في المدينة، ولعب دور همزة الوصل بين بوردو وملك لا يحظى بشعبية. وكان يعني أيضًا أن عليه أن يقطع رحلته.

شعر بالخذلان، وكان يفضّل حياة المسابح، فلم يشعر برغبة في العودة إلى الوطن. فهو الآن بعيد عن وطنه منذ خمسة عشر شهرا؛ وقت طويل، لكنه ليس بالطول الذي يرضيه. يبدو أنه الآن حاول الاقتصاد في عدد الأسابيع الباقية بقدر ما استطاعته. لم يرفض طلب المحلّفين، لكنه أيضًا لم يهرع عائدًا ليراهم. عاد أوّلًا إلى روما، على مهله، وتوقّف في لوكا لوهلة، وجرَّب بعض الحمّامات الأخرى في الطريق. يتعجّب المرء من السبب الذي جعله يعود إلى روما أصلًا، حيث إن ذلك يعني السفر عائدًا لمسافة مائتي ميل في الاتجاه المخالف. ربما كان يحاول أن يجد نصيحة عمّا إذا كان يمكنه إنقاذ نفسه من المهمّة. إذا كان الأمر كذلك، لم يكن الردّ مشجعًا. وصل إلى روما في 1 أكتوبر، فوجد رسالة ثانية من محلّفي بوردو، أكثر حزمًا هذه المرّة. فهو الآن مطالب بالعودة «على وجه السرعة».

أكّد مونتاني في الطبعة التالية من كتاب **المقالات**، أنه لم يسعَ لهذا الميعاد إلا قليلًا،

وأنه حاول جاهدًا تفاديه. كتب: «لقد اعتذرت»؛ لكن الردّ أتى بأنه لا فرق سواء اعتذر أم لم يعتذر، حيث إن في الموضوع «أمرًا ملكيًّا.» بل إن الملك شخصيًا كتب له خطابًا، من الواضح أنه نوى إرساله له في الخارج، على الرغم من أن مونتاني لم يتسلّمه إلا حين عاد إلى ضيعته.

> **السيد دي مونتاني: لأني أقدّر بشدّة إخلاصك والتزامك الغيور بخدمتي، يسرّني أن أعرف أنك انتُخبت عمدة لمدينتي، مدينة بوردو، وإني لأجد هذا الانتخاب جديرًا جدًّا بالموافقة عليه وقد اعتمدته بكل سرور، لأنه جاء بلا تآمر وفي غيابك في مكان بعيد. وبهذه المناسبة أقصد وآمر وألزمك بصراحة شديدة أن تعود بلا تأخير أو اعتذار فور تسلُّمك هذه الرسالة، وأن تقوم بواجباتك وتحمّل المسؤولية التي دعيت لتحمُّلها بمشروعية. وبذلك ستفعل شيئًا يحوز قبولي البالغ، أما عكس ذلك فسيسوؤني جدًّا.**

بدا الأمر تقريبًا عقابًا على إيلاء اهتمام قليلٍ للطموح السياسي؛ بفرض أن احتجاجات مونتاني المعبِّرة عن النفور من السّياسة كانت حقيقية.

لا يوحي عدم إسراعه بالعودة للوطن بالتأكيد بجشع للقوة. وبينما ما زال يأخذ وقته، توجّه إلى فرنسا عبر لوكا، وسيينا، وبياسَّنزا، وبافيا، وميلانو، وتورينو، بحيث استغرقت الرحلة حوالى ستة أسابيع. وبينما كان يعبر الحدود الفرنسية، تحوَّل من الكتابة في الجريدة بالإيطالية إلى الفرنسية، وحين وصل إلى ضيعته أخيرًا سجَّل وصوله مع ملحوظة تقول إن سفرياته استغرقت «سبعة عشر شهرا وثمانية أيام»؛ وهي من الحالات النادرة التي ذكر فيها رقمًا دقيقًا بشكلٍ صحيح. وكتب أيضًا في تقويم يومياته تعليقًا بتاريخ 30 نوفمبر: «وصلت إلى بيتي». ثم قدّم نفسه للموظّفين الرسميين في بوردو، طائعًا ومستعدًا لأداء الواجب.

صار مونتاني عمدة المدينة لأربع سنوات، من العام 1581 إلى العام 1585. كانت وظيفة كثيرة المتطلبات، لكنها ليست جاحدة تمامًا. أتت ومعها امتيازاتها وزخارفها من جميع الأنواع؛ فكان له مكتبه الخاص، وحارس خاص، ومعاطف العُمُودِيَّة وسلاسلها، والفخر بالمكان في الوظائف العامة. الشيء الوحيد الذي كان ينقصه المرتَّب. لكنه كان أكثر من رمزٍ؛ فكان يشترك مع المحلَّفين في اختيار موظفي البلدة الآخرين وتعيينهم، ويقرّر القوانين المدنية، ويحكم في القضايا المنظورة أمام المحاكم؛ وهي مهمّة وجد مونتاني صعوبة خاصّة في الوفاء بها، وفقًا لمعاييره المرتفعة بخصوص الأدلة. وقبل

كل شيء، كان عليه أن يلعب لعبة السياسة بحذر. كان عليه أن يتكلّم باسم بوردو أمام السلطات الملكية، مع نقل السياسة الملكية من أعلى إلى أسفل لتوصيلها للمحلّفين وغيرهم من نخب المدينة الذين يحرّض الكثيرون منهم على المقاومة.

كان العمدة السابق آرنود دي جونتولت، بارون دي بيرون، قد أغضب الكثيرين من الناس، فكانت إحدى المهمات الأولى لمونتاني أن يرأب صدع الأذى. حكم بيرون بحزم لكن بلا تحمّل للمسؤولية؛ لقد سمح بتنامي السخط بين مختلف الفصائل، وأبعد هنري نافار، الأمير القوي لبيرن القريبة من بوردو؛ وهو شخص كان من المهمّ الحفاظ على علاقات طيّبه معه. حتى هنري الثالث نفسه امتعض من تعاطف بيرون الواضح مع أعضاء الجمعية الكاثوليك، الذين كانوا لا يزالون يتمرّدون ضد السلطة الملكية. يوضح النظر في حالة بيرون سبب اختيار المدينة لمونتاني ليخلفه؛ فلديهم الآن عمدة جديد معروفٌ باعتداله ومهاراته الدبلوماسية، وهي الخصائص نفسها التي كانت تنقص بيرون؛ وبالأخص أن مونتاني كان يعرف كيف يجيد التعامل مع الجميع، على الرغم من أنه كان ينتمي إلى السياسة المزدراة. كان معروفًا بأنه رجل ينصت بتمعُّنٍ لجميع الأطراف، فمبدأه البيرووي كان أن يعير سمعه للجميع ولا يعير عقله لأي أحد، مع الحفاظ على نزاهته في جميع الظروف.

مما ساعد مونتاني أن سنوات عُمُوديته كانت أيضًا سنوات سلم. توقّفت الحروب من العام1580 إلى العام 1585، وهي فترة تغطي سنوات سفر مونتاني وزمن شغله لوظيفته. لكن هذا السِّلْمَ لم يكن سهلًا أيضًا، وكان الجميع ممتعضين كالمعتاد من درجة التسامح المحدودة التي امتدّت إلى معابد البروتستانت. كانت بوردو مدينة منقسمة؛ فأقلّيتها البروتستانتية تبلغ حوالى سُبع عدد السكان، وكانت محاطة بأراضٍ بروتستانتية، لكن كان فيها فصيل قوي من أعضاء الجمعية أيضًا. كان من الصعب إدارة المكان في أفضل الأوقات. ولم تكن تلك أفضل الأوقات، لكنها لم تكن أسوأها أيضًا بأيِّ معيار، حيث إنها لو كانت كذلك لأسرع مونتاني بالإشارة إلى ذلك.

شارك مونتاني مسؤولية حفظ السلام والولاء مع قائد عسكري برتبة فريق تابع للملك في المنطقة، وهو رجل اسمه جاك دي جويون، كونت دي ماتينيون، وهو دبلوماسي خبير، يكبر مونتاني بثماني سنوات، وربما ذكَّره ماتينيون شيئًا ما بلا بويتي. لم يصبحا صديقين حميمين، لكنهما تعاملا فيما بينهما على نحوٍ جيد. كلاهما كان لديه موهبة في التعامل برفق مع المتطرّفين، وكانا رجلَيْ مبادىء. وأثناء مذابح سان بارتيلوميو، ميَّز ماتينيون نفسه بأنه من الموظَفين القلائل الذين حموا الهوغونوت في

نطاق منطقتي سان - لو وآلينكون اللتين كان مسؤولًا عنهما. ولأنه هادئ وحازم، كان الشخص المناسب للوضع في جويين في تلك اللحظة. وهكذا كان مونتاني، مع افتقاره إلى شيئين مهمَّين: الخبرة والحماسة.

كان مونتاني قلقًا من أي توقّعات استباقية بأنه نسخة من والده، شخص يدمِّر صحته بالعمل. يتذكّر أنه رأى بيير شديد الإنهاك بسبب رحلات العمل، «اضطربت روحه بقسوة بفعل هذه القلاقل العامة، مما أنساه جَوّ بيته الجميل». تناقصت حماسة مونتاني للسفر الآن، حيث إنه، كوالده، كان من المفترض أن يسافر من باب الواجب. لكنه لم يتمكّن من تجنّب السفر، وسافر في عدة رِحلات إلى باريس، خاصّة في أغسطس 1582، حين سافر للحصول على تأكيد لامتيازات بوردو التي استعادتها مؤخَّرًا كاملة بعد أعمال الشغب التي حدثت منذ زمن بعيد بسبب ضريبة الملح. وقرب نهاية مدّة عمله الثانية صار حتى أكثر تجوالًا؛ إذ تظهره الوثائق في كونت - ديمارسان، وفي بو، وفي بيرجراك، وفي فليكس، وفي نيراك. وتنقَّل يوميًّا أيضًا بانتظام بين بوردو وقصره الخاصّ، حيث يمكنه إنجاز الكثير من عمله بسعادة. ويمكنه وهو هناك أن يضطلع بمشروعاته الخاصّة أيضا، وصدرت الطبعة الثانية المنقّحة من كتاب **المقالات** في العام 1582، السنة التي أعقبت تقلّده للوظيفة.

حتى لو لم يتعامل مونتاني مع وظيفته على محمل أنها وظيفة لكل الوقت، فلا بد من أنه أجاد أداءها في المدة الأولى من تقلّده لها، لأنه أعيد انتخابه في 1 أغسطس 1583. لم يستطع مقاومة الشعور بالفخر لهذا، لأنه لم يكن من المعتاد أن يحصل الشخص على تصويت مرتين لمدّتين. «حدث هذا في حالتي، ولم يحدث من قبل إلا مرتين». وقوبل هذا بمعارضة، خاصّة من خصم أراد أن يصبح هو نفسه عمدة؛ ألا وهو جاك ديسكار، سير دي ميرفيل، حاكم قلعة فورت دو ها الموجودة بالمدينة. لم يستسلم له مونتاني، مما يوحي بأنه شعر بمزيد من الالتزام بالوظيفة أكثر مما توقّع في البداية.

ربما تغيّر قلبه لأنه اكتشف مدى استعداده للعمل السياسي. صار الآن مسؤولًا مع ماتينيون عن استمرار التواصل بين موظّفي الملك، والمتمرّدين من أعضاء الجمعية في بوردو، وهنري نافار البروتستانتي، الذي استخدم المزيد من القوة في المنطقة أكثر مما حدث فيها أبدًا. لعب مونتاني خلال مدته الثانية دور الوسيط على نحو متزايد. بنى علاقات طيبة على وجه الخصوص مع موظّفي الملك ومع معسكر نافار. زاد أعضاء الجمعية الصعوبات، حيث رفضوا أيَّ حلٍّ وسطٍ مع أي طرف وظلّوا يبدون عاقدي العزم على مناورة مونتاني لإخراجه من وظيفته والسيطرة على بوردو بأنفسهم.

أتت أكثر التمرّدات فجائية وإثارة من البارون دي فيللاك، عضو الجمعية وحاكم قصر ترومبيت بالمدينة. سمع ماتينيون ومونتاني في أبريل 1585 أنه كان يخطِّط لانقلاب سياسي على نطاق واسع في المدينة. لا بد من أنهما تناقشا في كيفية التعامل مع التهديد؛ هل سيواجهانه بشدة، أم يغيِّران رأييهما ويحاولان استمالة فيللاك. كان هذا مشهدًا آخر من تلك المشاهد التي يقف فيها الاختيار على طرفي نقيض. في هذه الحالة، قررَا أن أفضل رد هو المعارضة الجريئة ممتزجة بالاستعداد لتقديم الرحمة. دعا ماتينيون - بالتعاون الفعّال المفترض مع مونتاني - فيللاك ورجاله إلى **البرلمان**، ثم أمر بإغلاق المخرج فور أن صار المتآمرون داخل المبنى. قدم ماتينيون إلى فيللاك المأسور اختيارًا بين الاعتقال، مع احتمال الحكم بالإعدام، أو التخلّي عن حقوقه حتى في قلعة ترومبيت ومغادرة بوردو إلى الأبد. واختار فيللاك العرض الأخير. وذهب إلى المنفى، لكنه ما إن خطا خارج أسوار المدينة حتى شرع في حشد قوات الجمعية كما لو كان يعدُّ للهجوم. كان هذا دائمًا خطر إظهار الرحمة لأعدائك.

تلا ذلك أيامًا مليئة بالقلق. وكتب مونتاني في 22 مايو 1585 إلى ماتينيون يخبره أنه هو وغيره من موظِّفي المدينة الرسميين يراقبون البوابات، فهم يعرفون أن الرجال متجمعون خارجها. وكتب بعد خمسة أيام أن فيللاك ما زال في المنطقة. وقال إن خمسين تحذيرًا عاجلًا يأتي يوميًّا.

> **لقد قضيت جميع الليالي إما ألفّ حول البلدة مسلّحًا أو خارج البلدة في الميناء، وقبل تحذيرك استمرّيت في المراقبة هناك ليلة بعد ورود أنباء عن قرب وصول قارب محمَّل بالرجال المسلّحين على وشك العبور. ولم نرَ شيئًا.**

وفي النهاية، لم يحدث هجوم. ربما انسلَّ فيللاك مبتعدًا حين رأى الاستعدادات للدفاع، مما يثبت أن مزيج العدوان والتعاطف الذي قدّمه مونتاني وماتينيون يمكن أن يسود قبل أي شيء. على أي حال، مرّت الأزمة. لكن الحشد للحرب استمر في المنطقة، كما في جميع أنحاء فرنسا، واستمرت الجمعية في مقاومة جهود مونتاني لإنشاء أرض وسيطة.

أعجب الكثيرون ممن عرفوا مونتاني في هذه الفترة بعمله. كتب القاضي والمؤرخ جاك - أوجست Jacques – Auguste دي ثو أنه «تعلّم الكثير من ميشيل دي مونتاني، رجلٌ حرُّ الروح وبعيدٌ عن الفصائل المتناحرة، ولديه... معرفة كبيرة وأكيدة بشؤوننا، وخاصَّة شؤون منطقة جويين التي ينتمي إليها.» ومدح السياسي فيليب دوبليسيس - موروناي هدوء مونتاني وكتب عنه باعتباره شخصًا لا أثار قلاقل ولا زعزعَته القلاقل.

وكما حدث عمومًا حين سجَّل معاصرو مونتاني انطباعات عنه، يتّفق هذا بشكل واضح مع تقديره لنفسه. كتب أن سنوات عمله في الوظيفة تميّزت معظم الوقت بـ«النظام» و«السكينة الرقيقة الصامتة». كان له أعداء، لكن كان له أصدقاء طيبون أيضًا. ويوحي حل أزمة فيللاك بأنه كان قادرًا على اتخاذ خطوات صارمة عند الضرورة، إلا لو كانت كل هذه الصرامة جاءت من ماتينيون.

من الواضح أن البعض شعر أن مونتاني كان شديد التساهل ومنعزلًا، إذ يردُ في كتاب **المقالات** دفاعٌ معيَّنٌ عن هذه النقطة، حيث يعترف مونتاني أنه اتُّهم بإظهار «حماسة فاترة». بدا للبعض **سياسيًّا** نموذجيًا، شخصًا يرفض إلزام نفسه بأيِّ اتجاه. كان هذا حقيقيًّا بوضوح، واعترف به مونتاني؛ الفرق أن معارضيه اعتبروه شيئًا سيّئًا. بالنسبة للرواقيين والشكّاكين الحديثين مثله، لم يكن هذا سيّئًا على الإطلاق. الرواقية تشجِّع الانفصال الحكيم عن العالم، بينما يقيّد الشكاكون أنفسهم بالمبدأ. نبعت السياسة لدى مونتاني من فلسفته. كتب أن الناس يشتكون من أن سنوات عمله عُمدة مرّت من دون أن تترك أثرًا واضحًا. «هذا أمر طيّب! إنهم يتهمونني بالكسل في وقت كان فيه الجميع تقريبًا مدانين بعملٍ ما هو أكثر من اللازم». ومع «التجديد» (أي البروتستانتية) الذي سبّب هذا العجز، كأن من المناقب المحمودة بالتأكيد الحفاظ على المدينة في حالة تكاد تكون خالية من الحوادث لمثل هذا الزمن الطويل. وكان مونتاني قد تعلّم منذ وقت طويل أن الكثير مما يمرّ باعتباره التزامًا عامًّا حماسيًّا كان مجرد استعراض للذات. الناس يورِّطون أنفسهم لأنهم يريدون أن يحيطوا أنفسهم بجوٍّ من الأهمية، أو لتعزيز مصالحهم الخاصَّة، أو لمجرَّد البقاء مشغولين فلا يضطرون للتفكير في الحياة.

من مشكلات مونتاني أنه كان شديد الأمانة في ما يخصّ اختياراته. الآخرون، ذوو الضمائر الأقلّ صحوًا من ضميره بكثير، كانوا يتلقّون المديح لأنهم يتظاهرون بالالتزام والنشاط. حذّر مونتاني من تعاقدوا معه على العملِ من أن هذا لن يحدث معه؛ فسيعطي بوردو ما يتطلّبه الواجب، لا أكثر ولا أقلّ، ولن يمثّل تمثيليات.

يبدو مونتاني هنا بوضوح شبيهًا بشخصٍ آخر قال الحقيقة في أدب عصر النهضة؛ ألا وهي كورديليا، ابنة الملك في مسرحية شكسبير **الملك لير**، التي رفضت تلميع رأيها بشأن حبِّها لوالدها من باب النفاق مثل شقيقتيها الجشعتين لكسب عطاياه. مونتاني مثلها، يظلّ أمينًا وبذلك يعطي انطباعًا بأنه فظٌّ ولا مبالٍ. ربما تحدّثت كورديليا جيِّدًا عن نفسها، كما فعل مونتاني:

> **أكره رؤية المنافقين على نحو قاتل، وبذلك من الطبيعي أن تكون طريقتي جافّة، وبسيطة، وخشنة في الحديث... أنا أقدِّم أرفع التشريف لمن أظهر لهم**

أقل قدر من التشريف... أنا أبذل نفسي بقدرٍ ضئيلٍ وبفخرٍ لمن أنتمي إليهم. وأعرض نفسي أقلّ على من أعطيتهم نفسي بأكبر قدر؛ يبدو لي أنهم ينبغي أن يقرأوا مشاعري التي في قلبي، ويعرفوا أن ما تعبّر عنه كلماتي يَظلم أفكاري.

يبدو هذا موقفًا متمرِّدًا، لكن مونتاني وكورديليا لم يكونا مختلفين في هذا الموقف حقًّا عن عالم عصرهما، عصر النهضة المتأخر. كانت فضيلتا الصراحة والطبيعية تحظيان بالإعجاب. كما كان مونتاني بتأكيده على بساطة كلامه يبعد نفسه بشكلٍ مفيدٍ عن الاتهام الذي يوجّه باستمرار **لجماعة السياسيين**: إنهم كانوا رجالًا يرتدونَ أقنعة وكلامهم معسول ولا يمكن الوثوق بهم. كان مونتاني يبدو أحيانًا في كتاب **المقالات** مثل الرؤية الكابوسية لأحد **السياسيين**، غامض، وشديد الدهاء، وعلماني، ومراوغ. ولم يضرّه أن يكون خشنًا من حين إلى آخر.

وبالنوع نفسه من الالتفاف الذي جعل عدم وجود أقفال للأبواب دلالة أمنيّة جيّدة، أثبتت أمانة مونتاني الخشنة وجود موهبة دبلوماسية هائلة. لقد فتحت أبوابًا أكثر من الأبواب التي أمكن لأنواع الخداع الملتوية لزملائه أن تفتح. حتى عند التعامل مع أقوى الأمراء في الأرض - وربما بالذات حينذاك - كان ينظر إلى وجوههم مباشرة. «أخبرهم بحدودي بصدق». وانفتاحه على الآخرين جعلهم ينفتحون له أيضًا؛ وقال إنه جعلهم يتكلّمون، مثلما يفعل النبيذ والحبّ.

وقد قلّل مونتاني إجمالًا من شأن الصعوبات السياسيّة للانحصار بين طرفين. كتب أن ليس صعبًا حقًّا أن تتلاءم مع الوضع حين تحاصَر بين طرفين متعادِيين؛ كل ما عليك أن تتصرّف بعاطفة معتدلة نحو الطرفين، فلا يظنّ أحدهما أنه يمتلكك. لا تتوقّع الكثير منهما، ولا تقدّم الكثير أيضًا. يمكن أن نلخّص سياسة مونتاني بالقول إن على المرء أن يؤدّي وظيفته جيِّدًا، لكن لا يسرف في جودة الأداء. باتباع هذه القاعدة، أبعد مونتاني نفسه عن المشكلات وظلَّ إنسانًا كاملًا. فعل واجبه فقط؛ وهكذا أدّى واجبه، على عكس الجميع تقريبًا.

أدرك مونتاني أن الجميع لن يفهموا طريقة تدبيره لأمر نفسه. وأثار هذا مشكلات، ليس مع معاصريه، لكن مع من خلَفوهم. برَّرت المسرحيّة اختيار كورديليا: لا شك في حبِّها الصادق لوالدها. من الجهة الأخرى، عانى مونتاني من مشكلات مع صورته المرتبطة بوظيفة العُمدة منذئذ. كان يعرف أيضًا مخاطر الكتابة بتواضُع عن تصرُّفاته في كتاب **المقالات**: «حين يقال ويُفْعَل كل شيء، فإنك لا تتحدَّث أبدًا عن نفسك من دون خسارة. إدانتك لنفسك مقبولة دائمًا، ومدحك لنفسك موصوم». ربما كانت القاعدة القديمة المعارضة لكتابة الإنسان عن نفسه فيها شيء من الصحّة.

الاعتراضات الأخلاقية:

اتضح إحساس مونتاني المحدَّد بموقع واجبه بأشد ما يمكن في يونيو 1585، حين عانت بوردو من موجةٍ حارّةٍ تبعها بسرعة انتشار الطاعون؛ وهما مزيج مدمِّر على وجه الخصوص. استمر الوباء حتى ديسمبر، وخلال هذه الشهور القليلة مات أكثر من 14000 شخص في المدينة، يشكِّلون تقريبًا ثلث سكّانها. وقتل مزيد من الناس أكثر من قتلى مذبحة سان بارتيلوميو عبر البلد كلّها، لكن الوباء لم يترك إلا أثرًا ضئيلًا في الذاكرة التاريخية، كما يحدث كثيرًا مع الأوبئة التي تحدث في زمن الحرب. على أي حال، كان الطاعون مرضًا شائعًا. وكانت مرّات تفشيه شديدة التواتر في القرن السادس عشر إلى درجة أنَّ من السهل نسيان وقعها المأساوي في كل مرّة على من أوقعهم سوء حظهم في حبائلها.

وكالمعتاد، حين بدأت الشائعات الأولى عن الطاعون في بوردو في ذلك العام، فرَّ كلُّ من استطاع الفرار من المدينة. لم يبق فيها أحدٌ بإرادته تقريبًا، على الرغم من بقاء قليل من الموظّفين الرسميين في وظائفهم. غادرها معظم المرتبطين بالبرلمان، منهم أربعة من المحلّفين الستة. كتب ماتينيون للملك في 30 يونيو: «الطاعون ينتشر في هذه المدينة بحيث هجرها كل من لديه وسيلة للعيش في مكان آخر». كان هذا لا يزال في المراحل الأولى. وبعد شهر، أخبر ماتينيون مونتاني بأن «جميع السكان هجروا المدينة. أعني هؤلاء الذين يمكن أن يقدِّموا نوعًا من العلاج لها؛ أما القلائل الذين بقوا فهم يموتون مثل الذباب».

من الواضح أن ماتينيون بقي في المدينة، لكن مونتاني لم يكن في المدينة منذ البداية. كان في بيته حين بدأ الطاعون، يستعد للسفر لحضور مراسم تسليم عمله لمن يليه، فقد انتهت مدة عموديته الآن، وكان ماتينيون نفسه على وشك أن يخلفه. كان آخر يوم له في الوظيفة أول أغسطس 1585، فحين كتب ماتينيون رسالته في 30 يوليو- كان أمام مونتاني يومان ويغادر الوظيفة بعدهما. كان من الواضح أن مهمّته الوحيدة خلال هذين اليومين أن يحضر المراسم علامة على انتخاب ماتينيون. لكن المناسبة لن يحضرها أحدٌ إطلاقًا تحت الظروف الحالية، هذا إذا عقدت أصلًا.

كان على مونتاني الآن أن يقرِّر ما إذا كان ينبغي أن يذهب إلى بوردو للتسليم أم لا. ضيعته لم يصبها المرض؛ فإذا ذهب إلى بوردو الآن فإنه يدخل منطقة مصابة بالطاعون لمجرّد شكليات. ما الذي يتطلّبه الواجب حقًّا؟ لم يكن متأكدًا مما يجب عليه فعله، فسافر حتى ليبورن، قريبًا من المدينة لكن خارج منطقة الخطر. وكتب من هناك

للمحلّفين القلائل الذين بقوا في البلدة، طالبًا مشورتهم. كتب: «لن أُبقي على حياتي ولا على أي شيء آخر.» لكنه أضاف: «سأترك لكم الحكم على ما إذا كانت الخدمة التي يمكنني تقديمها لكم بحضوري الانتخابات القادمة تستحق المخاطرة بدخولي للمدينة بالنظر إلى وضعها السيئ.» وانتظر مونتاني في هذه الأثناء في قصر فيلاس، عبر النهر من المدينة. وكتب مرة أخرى من فيلاس في اليوم التالي، مكررًا سؤاله: بم يوصون؟

لم يتلقَ ردُّ المحلفين، إذا كانوا ردّوا أصلًا، إذا كان أحد منهم لا يزال في المدينة حقًّا. الشيء الوحيد المؤكّد هو النتيجة، التي أسفرت عن عدم ذهاب مونتاني إلى بوردو. يبدو أنهم إما أخبروه أن يبقى بعيدًا، أو لم يجيبوا على رسالته. لا بد أن أحدًا ظلّ يعمل في **البرلمان**، لأنه عند حوالى هذا الوقت أتى أمر جديد نافذ المفعول؛ نصَّ على أن أي شخص ليس موجودًا في المدينة بالفعل يجب ألا يدخلها. فلو كان مونتاني قد أصرّ على الدخول، فسيكون مخالفًا لهذا الأمر. من الواضح أنه حلَّ المسألة بضميره، وعاد إلى ضيعته. والآن، وقد مرّ هذان اليومان، تكون عُموديته قد انتهت رسميًّا. وبدلًا من أن تنتهي باحتفالات ممتعة وخطب شكر، فقد تلاشت في اضطراب.

يبدو أن لا أحد في القرن الذي عاش فيه مونتاني علّق تعليقًا خشنًا على قراره. بدأت المشكلة الحقيقية بعد ذلك بمئتين وسبعين عامًا، حين أعاد جامعو التحف القديمة في القرن التاسع عشر اكتشاف الرسائل المتعلِّقة بالموضوع في أرشيف مدينة بوردو، ونشروها، وعرَّضوا مونتاني لحكم عالم شديد الاختلاف - عالم من أفكار جديدة متشدّدة عن البطولة والتضحية بالذات.

الباحث المسؤول عن الكشف هو آرنود ديتشفيري، علّق بأن رسائل مونتاني كشفت ميله المعروف نحو «الإبيقورية اللامبالية». ومهّد هذا التعليق الجو لتعليقات نقاد آخرين. اعتقد كاتب السيرة الذاتية المبكر ألفونسو جرون أن مونتاني أظهر نقصًا في الشجاعة حين بقي في الجانب الآمن من النهر. وفي منهج محاضرات في كتاب جرون، قال ليون فوجير إن مونتاني «حالفه سوء الحظ حتى نسي واجبه في أخطر المواقف». وبالنسبة لمونتاني، وصمت الحكاية كتاب **المقالات** بأكمله. فإذا كان مؤلِّف الكتاب قد فشل في لحظة كتلك، فكيف يمكن للمرء أن يثق في ما قاله عن كيف تُعاش الحياة؟ كشف الحدث عن أعمق أعماق الفشل الفلسفي **للمقالات**؛ ألا وهو «الغياب المطلق للقرار» فيها. واتفق معه كتاب آخرون. ونبذ المؤرخ جول ليكومت مونتاني وفلسفته بأكملها بكلمة واحدة: «جبان!».

يبدو أن ما اعتقدوا جميعًا أنه لا يُطاق لم يكن مجرّد نقص الشجاعة الشخصيّة

لمونتاني، بل فشله في الوفاء بواجباته العامّة، فمونتاني، قبل كل شيء، بقي لما يزيد على أسبوع بجوار فراش رجلٍ مصابٍ بالطاعون يحتضر. بدت حسابات مونتاني وتساؤلاته الهادئة المكتوبة بغيضة في نظر جيلٍ كان حزمه الأخلاقي الجديد لا يزال محتفظًا بالأثر الضئيل المتخلّف عن المذهب الرّومانسي. هذا الأخير جعلهم يشعرون بأن على المرء أن يكون مستعدًا لتقديم أي تضحية، مهما كانت بلا معنى. والأول جعلهم يتشوّقون لأن يضحّي مونتاني بنفسه باسم العمل.

كان مصدر المشكلة - مثلما كان في القرن السابع عشر - النفور من شكّ مونتاني. انزعج قراء القرن التاسع عشر منه بطريقة لم ينزعج بها إلا قلة منذ عهد باسكال. لم يهمهم شك مونتاني في الحقائق، لكنهم لم يحبّوا تطبيقه للشك على الحياة اليومية، وإظهار الانفصال العاطفي عن المعايير المتّفق عليها. بدا أن **عصر** الشكّ، أو «أنا امتنع» يُظْهِر أن طبيعته غير جديرة بالثقة. بدا شبيهًا بشدّة بأعظم مصادر الخوف في العصر الجديد؛ ألا وهي العدمية.

كانت العدميّة تعني في نهايات القرن التاسع عشر الإلحاد، وعدم الجدوى، واللامعنى. كان يمكن استخدامها بمثابة قانون للاتديّن، لكنّها لمَّحت حتى إلى شيء أسوأ من ذلك؛ ألا وهو التخلّي عن جميع المعايير الأخلاقية. وفي النهاية، صارت كلمة «عدمي» مرادفة تقريبًا لكلمة «إرهابي». كان العدميون أناسًا يرمون قنابل ويدعون لتدمير النظام الاجتماعي الحالي، حيث لم يكونوا يؤمنون بإله. كانوا نوعًا من الجناح الثوري لجماعة الشكّاكين، أو كانوا شكّاكين فسدوا. فإذا تولّوا المسؤولية، لن يبقى شيء على حاله ولن يمكن أخذ أي شيء على علّاته.

في مواجهة هذا، صار فجأة أمام من بقي من المدافعين عن مونتاني مهمّة عاجلة أن يثبتوا، ليس فقط أن مونتاني قد تصرّف تصرّفًا عاقلًا أثناء تفشّي الطاعون، بل إنه لم يكن شكّاكًا عظيمًا قبل كل شيء؛ بل كان أخلاقيًّا محافظًا ومسيحيًّا صالحًا. كرَّس أحد النقاد المؤثّرين، هو إيميل فاجوت، سلسلة من المقالات ليوضح ضآلة الدور الذي لعبه الشكّ في كتاب **المقالات**. واعتقد ناقد آخر، هو إدمي تشامبيون Edme Champion، أن عناصر الشك يمكن اكتشافها، لكنه ليس من نوع الشك الهدّام الذي «ينكر» أو «يهلك» كل شيء.

ازداد الجدل أهمية؛ فقد رُفع كتاب **المقالات** من قائمة الكتب المحظورة في فرنسا. رُفع الحظر في العام 1854، بعد عام أو عامين فقط من اكتشاف أول رسالة ذكرت الطاعون، لكن رفعه لم يكن بالتأكيد بسبب هذه الرسالة. كان قرارًا تأخَّر طويلًا. وحاز

مونتاني اعتراف الكنيسة به في فرنسا الآن، على الرغم من إدانتها له من قبل، وصار موضوعًا لأعمال جديدة من البحث الأدبي وبحوث السيرة الذاتية. أدى رفع الحظر عن الكتاب إلى إعلاء قدر صورته وفتح الطريق لعدد أكبر من القرّاء، مع تقوية السؤال عن قبوله أخلاقيًّا.

صار مونتاني بالنسبة للكثيرين مرة أخرى ما كانه بالنسبة لباسكال ومالبرانش: مخادعًا، ضارًّا بالروح. سمّاه جيّوم جيزوت Guillaume Guizot, في العام 1866 «مغويًا» عظيمًا، وبذل قصارى جهده لتسليح القرّاء ضدّ هذا الإغواء. وحيث إنه وقع هو نفسه ذات مرّة فريسة لسحر مونتاني، فقد كتب الآن ليوجّه الضحايا للخروج من شراكه، مثل عضو سابق في طائفة دينية ألغيت برمجته فكرَّس حياته لمساعدة الآخرين على الهرب.

وضع جيّوم جيزوت قائمة بأخطار مونتاني، وضاهى كل منها بعيبٍ معيّنٍ في الشخصيّة. كان مونتاني ضعيف الإرادة. مغرورًا. لم يكن مسيحيًّا بقدر ما زعم. انسحب من الحياة العامة لأسباب أنانية محضة لكي يقضي مزيدًا من الوقت في التأمل، وهو ما يمكن غفرانه. حين أظهر هذا التأمّل الداخلي أخطاء، لم يحاول تصحيحها؛ ليس كاتبًا من النوع الذي يلزمنا؛ فهو «لن يجعلنا رجالًا من الصنف الذي يتطلّبه زمننا».

المؤرّخ چيل ميشيليت Jules Michelet، من أصعب النقّاد الذين نقدوا مونتاني، وقد اعتقد أن كل هذا يلام عليه التعليم الذي تلقّاه مونتاني، إذ كان تعليمًا حرًّا بإفراط، مصمَّمًا لإنتاج إنسان لديه مجرّد فكرة «ضعيفة وسلبية» عن الأمور، لا لإنتاج بطل أو مواطن صالح. هذا الاستيقاظ على الموسيقى الهادرة في طفولته مسؤول عن الإجابة عن كثير من الأسئلة. صوَّر ميشيليت مونتاني راشدًا في صورة عاجز عزل نفسه في برجه «ليراقب نفسه وهو يحلم»؛ وهذه هي العاقبة التي لا بد منها لتنشئة فاسدة وقليلة الانضباط. وفي إنجلترا، أتم عالم اللاهوت ريتشارد ويليام تشيرش دراسة مختلفة، فيها إعجاب بمونتاني، لولا أنه عبّر عن اعتقاده بأن مونتاني كان لديه حسٌّ عارمٌ «بتفاهة الإنسان، وبصغر أعظم خططه، وفراغ أعظم إنجازاته»؛ وكلّها إشارات واضحة للعدمية. هذا جعل من المستحيل له تصديق «فكرة الواجب، وتمنّي الطيبات، والتفكير في الخلود»؛ وعمومًا، أظهر مونتاني «تكاسلًا وحاجةً إلى نغمة أخلاقية».

أقلقت مشكلة أخلاقية أقلُّ خطرًا قرّاء مونتاني في القرن التاسع عشر؛ ألا وهي انفتاحه على الجنس. (وهي مشكلة لا تبدو على الأقل بكل هذا الخطر للكثيرين منا اليوم). لم يكن هذا جديدًا تمامًا، لكنه صار الآن مركزيًّا لمسألة مكانته ككاتب؛ فحتى

بين الأجيال الأقدم كان حديثه عن الأرداف، والتشققات، والأدوات يضايق الناس من حين لآخر. علق لورد هاليفاكس، الذي أهديت له إحدى ترجمات كتاب **المقالات** إلى الإنجليزية في القرن السابع عشر قائلًا: «لا يمكنني احتمال أنه بعد أن تحدَّث عن الحياة المثاليّة لرجل مقدّس، يتحدّث فورًا كما فعل عن الديوثة - القوادة والأعضاء الخاصة، وأشياء أخرى من هذا القبيل... أتمنّى لو أنه ترك هذه الأشياء، حتى لا تحمرّ وجوه السيدات خجلًا، حين يوجد كتابه **المقالات** في مكتباتهنَّ». هذا الجزء الأخير يبدو ساخرًا، حيث إن مونتاني مزح قائلًا إن الأجزاء المعرّضة للخطر لمجلّده الأخير ستخرج الكتاب من المكتبات وتدخله إلى مخادع السيدات، حيث يود أن يكون.

حلٌّ من حلول خجل السيدات ابتكار طبعات منقَّحة، وهي ممارسة شاعت في القرن التاسع عشر. وجدت طبعات مختصرة من كتاب **المقالات** لزمن طويل، لكن كان الهدف المعتاد منها إعادة ترتيب المادة بحيث يمكن العثور على أماكن شذرات الحكمة بمزيد من السهولة. والآن، صار لدى الناس إحساسٌ أنه لا بد من التدخّل في كتابات مونتاني على أساس التذوّق وعلى أساس أخلاقي أيضًا.

ظهرت طبعة نموذجية مهذَّبة من كتاب **المقالات** في انجلترا في 1800، أعيدت صياغتها لجمهور من النساء بواسطة محرِّرة سمَّت نفسها «أونوريا» 'Honoria. أخذ كتابها **المقالات، مختارات من مونتاني مع صورة سريعة لحياة المؤلّف** بالترجمة الإنجليزية المعتادة لوقت صدوره، ترجمه تشارلز كورتون، واختصرها لينتجَ مونتاني المضبوط المناسب للقرن القادم، منظَّفًا من أي شيء يثير الضيق أو الاضطراب.

كتبت أونوريا: «إذا كان فصل الذهب النقيِّ عن الخَبَث يجعل هذه المقالات ملائمة لسعي بنات جنسي إليها، فسأشعر برضا شديد». ولم يلحظ أحد أنها لكي تفعل هذا لا بد من أنها فكّرت في «الإشارات الفظَّة والفجَّة» بنفسها. كما أنها تساعد مونتاني في أساسيّات تقنيّات الكتابة. «وهو أيضًا كثيرًا ما يكون مفكَّكًا في تناول موضوعاته، وآراؤه شديدة الاختلاف، بحيث لا يمكن الكشف عن معانيه دائمًا». ساعدته أونوريا ليوضح ما يريد قوله، وأضافت هوامش، كانت أحيانًا توبِّخه فيها (لأنه لم يذكر مذابح عيد القديس بارتيلوميو مثلًا)، وأحيانًا لتحذِّر القرَّاء من أن يجربوا أفكاره الأكثر خطورة في البيت. خاصّة، إيقاظ الأطفال برفق بإسماعهم موسيقى «نمط غريب من أنماط التربية» «لا يذكر هنا باعتباره طريقة موصى بها أبدًا».

يرسم استهلالها صورة لمونتاني يبدو فيها جادًّا وقيِّمًا بما لا يطاق. «كان حريصًا على أن تكون فلسفته أكثر من تأمّل، حيث تمنّى أن ينظِّم، لا فقط عمره المتقدِّم، بل

حياته بأكملها، وفقًا لمبادئها». ووضّحت بشدة إذعانه السياسي، ولفتت الانتباه إلى «الكثير من العواطف الدينيّة الممتازة المتناثرة في مقالاته». مثل هذا الشيء لن يكاد يلهم الناس اليوم بالاندفاع إلى محلّات بيع الكتب. لكن أونوريا كانت مضبوطة على نغمة سوق القرن التاسع عشر، وساعدت على أن تخلق صورة جديدة لمونتاني، يبدو فيها عابسًا ومفكّرًا ويرتدي ياقة منشّاة.

استمر الكثير من قرّاء القرن التاسع عشر طبعًا في حبِّ مونتاني في صورته الهدّامة، الفرديّة، الحرّة مثل الرياح. لكن جهود أونوريا وغيرها ستجعله يزداد قبولًا لقرّاء من مختلف الأنواع، يتابعون جميعًا مونتاني من اختراعهم. جعلت هذه الجهود من الممكن قراءة مونتاني، لا فقط في مخادع النساء، أو على قمة جبل رومانتيكية، أو في مكتبة رجل عالمي، بل أيضًا في حديقة، أو في يوم صيف، حيث قد تُرى سيدة شابة مهذَّبة أخلاقيًّا وبريئة تتابع مونتاني في طبعة منقحة من القطع الصغير. وإذا أرادت أن تلحق بالأجزاء الشقيّة، يمكنها دائمًا أن تتسلّل إلى مكتبة والدها في ما بعد.

مهمات واغتيالات:

كثيرًا ما يكون مونتاني صادمًا حقًا، لكن ليس دائمًا في الأماكن التي قد يتوقّع فيها حدوث صدمة. يمكنه أن يربك القارئ بأكبر قدر ممكن حين يبدو في أكثر حالاته اعتدالًا، مثلما حين يقول بابتهاج: «أشكّ في أنني يمكن أن أعترف بلطف بأن أمان حياتي وسكينتها قد تكلفان القليل، وأنا الذي قضيت أكثر من نصف حياتي وسط أطلال بلدي». يستغرق الأمر بضع لحظات من التفكير لإدراك كيف أنه من غير المعتاد لأي أحد أن يكتب عن الحياة بهذه العبارات في أي فترة تاريخية. يمكن للمرء أن ينّحي هذه التعليقات جانبًا إذا كان قد بقي دائمًا في حالة سلبية وسكينة حقًا. لكن العبء الذي يحمله مونتاني على كاهله سيزداد في ثمانينيات القرن السادس عشر بفعل المسؤوليات المتعلِّقة بالحرب، التي قلَّل من قيمتها على أي حال في كتابه؛ مما أرهق ذهنه بالتأكيد.

بقيت البلد في سلام بحسب القواعد الرسمية خلال مدة بقائه في منصب العمدة، لكن في وقت تقاعده ليعود مرة أخرى إلى ضيعته كان أعضاء الجمعية الكاثوليك يبذلون قصارى جهدهم لإثارة حرب أخرى. والآن، صار الصراع على الأقلّ سياسيًّا بقدر ما هو ديني. كان أكبر سؤال سياسي هو من الذي سيخلف هنري الثالث على عرش فرنسا. لا يوجد خط ميراث واضح، لأنه لم يكن لديه ابن ولا قريب مباشر مناسب. كانت الملكية على وشك استيلاء غير المستحقّين لها عليها في لحظة اضطراب قومي قصوى، وهذا مزيج غير طيِّب من الأحوال.

معظم البروتستانت، وقلّة من الكاثوليك كانوا يفضِّلون هنري نافار، الأمير البروتستانتي من بيرن، الذي كان له تأثير كبير في منطقة بوردو، والذي كان يحتلّ الموقع الأول بحسب القواعد في خطٍّ تقلّد عرش الملكية؛ لكنَّ الكثيرين كانوا يعتقدون بضرورة استبعاده بسبب ديانته. كان غريمه الأساسي خاله تشارلز كاردينال دي بوربون، الذي كانت مطالبته بالعرش مدعومة بأعضاء الجمعية وقائدهم القوي هنري، دوق دي جويز. في أثناء ذلك، كان الملك نفسه لا يزال حيًّا، ويبدو أنه لم يكن على يقين أي خلف يصدِّق عليه. ستعرف المرحلة التالية للحرب بحرب الهنريات الثلاثة، لأنها دارت حول المروحة التي تدور بجنون والمكوّنة من هنري الثالث، وهنري نافار، وهنري جويز، الذين تعلَّق بهم الأمر.

كان **السياسيون**، بمن فيهم مونتاني، ملتزمين مبدئيًّا بدعم الملك الحالي. لكن معظمهم فضّل هنري نافار ليخلفه على العرش، وقد جلب لهم هذا الاختيار مزيدًا من كراهية أعضاء الجمعية. اعتقد الكاثوليك المتطرِّفون أن جلب ملك بروتستانتي يضاهي وضع الشيطان نفسه على العرش.

حاول مونتاني وهو عُمدة أن يتوسّط بين الطرفين ليتفاهما: سياسيًّا، باعتباره عُمدة مدينة كاثوليكية قرب أراضي نافار، وشخصيًّا، باعتباره دبلوماسيًّا جيِّدًا في المكان المناسب لفعل ذلك. كان يقابل نافار ويستضيفه من حين إلى آخر، وعقد صداقة مع عشيقته ذات التأثير القوّي ديان داندواينس، أو «كوريساند». وفي ديسمبر 1584، أقام نافار لبضعة أيام في ضيعة مونتاني، في لحظة كان فيها الملك نفسه يحاول إقناعه بأن يتخلّى عن البروتستانتية حتى يرث العرش. ورفض نافار. وبدا بذلك أن أحد سبل الأمل القليلة لفرنسا قد يكون إقناع نافار أن يعيد النظر في رفضه؛ وهذا ما حاول مونتاني فعله بالضبط.

وكانت الزيارة ناجحة على المستوى الشّخصي. وثق نافار في مضيفه بما يكفي للاعتماد على خدم مونتاني بدلًا من خدَمه، وأن يأكل من دون أن يطلب أن يتذوّق أحد له الطعام كالمعتاد خوفًا من السمِّ. وسجَّل مونتاني كل هذا في تقويم يومياته:

> **19 ديسمبر 1584. أتى ملك نافار ليزورني في ضيعة مونتاني، التي لم يزرها من قبل أبدًا، ومكث هنا يومين، يخدمه رجالي من دون أن يكون معه ولا واحد من ضباطه. لم يطلب أبدًا تذوُّق الأطباق ولا تغطيتها، ونام في فراشي.**

كانت مسؤولية كبيرة، والضيوف الذين من هذه القامة من المتوقّع أن يجدوا

استضافة ملكية أيضًا. نظَّم مونتاني رحلة صيد: «كان لدي غزال أُخرج من مخبأه في الغابة، مما قاده إلى مطاردة استمرت يومين». مضت مراسم الاستضافة جيِّدًا (إنما من المرجَّح أن هذه لم تكن وجهة نظر الغزال)، لكن المشروع الدبلوماسي لم يمضِ جيِّدًا. يوضح خطاب أرسله مونتاني لماتينيون بعد شهر أنه كان لا يزال يعمل على نفس المهمّة. وفي غضون ذلك، أتى هنري الثالث تحت ضغط من أعضاء الجمعية - الذين صاروا أقوياء جدًّا الآن، خاصّة في باريس - لتقديم تشريع مضاد للبروتستانتية سيقطع أمل نافار في اعتلاء العرش تمامًا. واستسلم هنري الثالث لهم، شاعرًا بأنه لا يوجد من يسانده في مدينته، وفي أكتوبر 1585، أصدر مرسومًا يعطي الهوغونوت ثلاثة شهور للتخلِّي عن عقيدتهم أو الذهاب إلى المنفى.

هنري نافار (هنري الرابع)، بريشة ت. دي بيه، 1589.
مجموعة مقتنيات خاصة/مجموعة مقتنيات ستبيلتون/ذا بريدجمان آرت ليبراري.

إذا كانت هذه محاولة لتجنّب الحرب، فقد كان لها أثر عكسي. دعا نافار أتباعه للانتفاض ومقاومة هذا القهر الجديد. أما هنري الثالث فأصدر المزيد من القوانين المضادّة للبروتستانتية في الربيع التالي، مما زاد من إبعاد نافار. وسافرت أم الملك، كاثرين دي مديتشي، في جولة في أنحاء البلاد تحاول، مثل مونتاني، التوسّط من أجل اتفاق في آخر دقيقة مع نافار، لكنّها فشلت أيضًا. وأخيرًا، نشبت حرب علنية.

ستكون هذه آخر الحروب، لكنّها أيضًا أطولها وأسوأها بما لا يقاس. استمرّت حتى العام 1598، بما يعني أن مونتاني لن يشهد السلام مرّة ثانية أبدًا، لأنه عاش حتى العام 1592 فقط. كانت المعاناة في هذه «القلاقل» أسوأ مما سبق على الإطلاق،

وحدث أسوأها فوضوية على المستوى المحلّي بسبب شراذم من الجنود لا يحكمها قانون وعصابات من المهاجرين المتضوِّرين جوعًا المتجوِّلين في الأرياف، بالإضافة للمجاعة والطاعون.

كان مونتاني في موقع خطرٍ، لا تتهدّده فقط الفوضى في الأرياف، بل أيضًا أعداؤه القدامى في بوردو. بدا أن له من الأصدقاء البروتستانت أكثر مما ينبغي لكاثوليكي صالح؛ وكان من المعروف عنه أنه استضاف نافار، وله شقيق يحارب في صفوف قوات نافار. وعبّر عن ذلك بقوله إنه كان جويلفي للغيبيلينيين وغيبيليني للجويلفيين - تلميحًا إلى الفصيلين اللذين قسَمَا إيطاليا لمدة قرون. كتب أنه «لم يوجد اتهام رسمي، لعدم وجود شيء يعضّون عليه بالنواجذ»، لكن «وجدت شكوك صامتة» غير أكيدة دائمًا. لكنّه استمرّ في ترك ممتلكاته بلا دفاع، متمسكًا بمبدأه في الصراحة. وفي يوليو 1586، فرض جيش من أعضاء الجمعية قوامه عشرون ألف رجل حصارًا على كاستيلون في دوردوجني، على بعد حوالى خمسة أميال؛ وامتدَّ القتال على طول حدود ضيعة مونتاني. عسكر بعض أفراد الجيش في أرضه، ونهب العسكر محاصيله وسرقوا مستأجريه.

كان مونتاني يحاول في هذا الوقت معاودة العمل في كتابه، بادئًا جزءًا ثالثًا، وواضعًا الإضافات في الفصول الموجودة. وفي منتصف هذا بالضبط، كما كتب: «ناء حملٌ قويٌّ من أحمال اضطراباتنا عليَّ بكل ثقله لعدة شهور. كان لديَّ، من جهة، العدو يقف على بابي، ومن جهة أخرى القراصنة، أسوأ الأعداء... وكنت أجرّب عيِّنات من كل نوعٍ من أنواع الضرر العسكري فجأة». وانتشر الطاعون في نهايات أغسطس وسط الجيشِ الذي يحاصر المدينة. وامتد إلى السكان المحليين، وأصابت العدوى ضيعة مونتاني.

لكنه وجد مرة أخرى أن عليه أن يقرِّر ما الذي يجب عمله بشأن تهديد الطاعون. ربما قد يملي عليه المفهوم البسيط عن السلوك البطولي أن يبقى مع مستأجريه ليعاني، وأن يموت معهم هو وأسرته إذا لزم الأمر. لكن كانت حقيقة الوضع أكثر تعقيدًا، كما سبق ذكره. أيُّ شخص يمكنه تفادي البقاء في منطقة مصابة بالطاعون سيفعل ذلك بالتأكيد. كان لدى القليل جدًّا من الفلاحين هذا الاختيار، لكن مونتاني فعل ذلك، وهكذا غادر الضيعة. أوقف العمل في المقال الذي كان يكتبه في هذا الوقت «عن السحنة»، وسافر مع أسرته.

يقال إنه إذ فعل ذلك فقد تخلّى عن مستأجريه. لا بد من أن مأزقهم كان رهيبًا

بالفعل قبل ذهابه، لأنه كتب في كتاب **المقالات** عن رؤيته لناس يحفرون قبورهم بأيديهم ويرقدون فيها منتظرين الموت. وما إن يصلوا إلى هذه المرحلة حتى يكونوا قد تجاوزوا المرحلة التي يمكن إنقاذهم فيها. لا شك أن مونتاني أخذ العاملين في بيته وخدمه الخصوصيين معه، لكنه لم يكن قادرًا على أخذ جميع المجتمع المحلّي والعمال الزراعيين. وحين رأوا أسرته تحزم متاعها وتغادر، لا بد من أنهم شعروا بأنهم قد تركوا ليموتوا؛ فمن المرجَّح أن هذا تقريبًا ما يمكنهم توقّعه من النبلاء الذين من المفترض أن يحموهم. والغريب، أنه على عكس الأحكام المتوحشة على تركه لبوردو، لم يوجد تقريبًا أي نقد لمونتاني في هذه النقطة. مع أن هنا أيضًا يصعب رؤية كيف كان يمكنه فعل العكس، وهو مسؤول عن أسرته.

والآن وقد تحوّلوا إلى مشردين هائمين على وجوههم، فقد أجبروا على البقاء بعيدًا لمدة ستة شهور، حتى سمعوا أن الطاعون قد خفَّت وطأته في مارس 1587. لم يكن من السهل أن يجدوا ضيافة لمدة ستة شهور. كان مونتاني يعرف زملاء سابقين من سنوات عمله العام، وكان لديه هو وزوجته روابط عائلية. أجبروا على استخدام كل هذا. لكن قليلًا من الناس كانت لديهم مساحة لزمرته بأكملها، ومن بين من كان لديهم هذه المساحة، نظر معظمهم برعب للاجئين الهاربين من الطاعون. كتب مونتاني: «أنا، الشخص شديد الكرم، وجدت الكثير من الصعوبات في العثور على مأوى لأسرتي؛ أسرة مشرّدة، مصدر خوف لأصدقائها ولنفسها، ومثيرة للرعب حيثما تسعى إلى مستقرٍّ لها، يضطرُّ أفرادها لتغيير محل إقامتهم فور أن يبدأ أحدهم في الشعور بألم في طرف أصبعه».

خلال شهور التجوُّل تلك، عاد مونتاني إلى نشاطه السياسي أيضًا. ربما كان ذلك في بعض الحالات الثمن الذي اضطر لدفعه للمأوى. لعب مونتاني دورًا كبيرًا متزايدًا في محاولات السياسيين وغيرهم لكسر حدّة الأزمة وضمان مستقبل لفرنسا. وقد أتاحت له مغادرة الوظيفة الرسمية في العام 1570 مساحة للتأمل في الحياة؛ وكان تأمُّلًا مختلفا هذه المرة. صعَّدته سنوات ما بعد عمله عُمدة إلى موقع أعلى في هرم القوّة، نحو عالم جوّه رديء ويمكن أن تكون السقطة فيه خطيرة. نسج مونتاني شبكة اتصال ببعض اللاعبين البارزين لعصره؛ أولًا مع هنري دي نافار، والآن مع كاثرين دي ميديتشي، والدة الملك الواقع في مأزق.

كانت كاثرين دي ميديتشي مؤمنة دائمًا بفكرة أنه لو أمكن للجميع أن يجلسوا ويتكلّموا، فستذهب المشكلاتفي حال سبيلها. وقد بذلت قصارى جهدها أكثر من

أي شخص آخر لتجعل ذلك يحدث، ووجدت مونتاني حليفًا طبيعيًّا لهذه الخطة. وقد دعته على الأقل لواحد من سلسلة اللقاءات التي عقدتها مع نافار في قصر سان - برايس، قريبًا من كونياك، بين ديسمبر 1586 وبدايات مارس 1587. أحضر مونتاني زوجته، وكوفئ الزوجان بمصروف خاص لنفقات السفر والملابس أثناء إقامتهما هناك. وفَّر هذا لهما مكانًا يقيمان فيه، لكن لا بد من أن الضغط كان قويًّا. كانت كاثرين تأمل في أن تخرج من هذه اللقاءات بمعاهدة؛ لكن لسوء الحظ، ثبت أن الكلام ليس كافيًا، كما حدث كثيرًا من قبل.

تراجع الطاعون في بريجورد أثناء هذه الفترة؛ فعاد مونتاني وأسرته ليجدا القصر سليمًا لكن الحقول ومزارع الكروم مدمَّرة. عاد مونتاني للعمل في المقال الذي كان قد تركه حين غادر الضيعة، فالتقط قلمه واستمرّ في التعليق على العبء الشديد للاضطرابات. لكن التزاماته السياسية لم تتضاءل. قابل كوريساند في ذلك الخريف، ثم قابل نافار وحده، الذي زار القصر في أكتوبر. الظاهر أن مونتاني حثّه مرة أخرى على السعي لحل وسط مع الملك. وحين مضى نافار ليرى كوريساند، حاولت أن تكلمه في الموضوع نفسه. يبدو أنها هي ومونتاني قد طبخا معًا هذه الاستراتيجية؛ هجوم مزدوج. وبدأ نافار في إظهار علامات الاستسلام.

وقابل مونتاني نافار مرة أخرى في بدايات العام 1588؛ وأرسله نافار بعد ذلك بفترة قصيرة إلى الملك في باريس على رأس مهمة سرّية. وفجأة، بدا أن الجميع في العاصمة يتحدّثون عن هذه المهمّة وبطلها الغامض، فلا بد إذًا من أنها ذات أهمية. ناقشها الكاتب البروتستانتي فيليب دوبليسيس - موراني في خطاب إلى زوجته. وتكلّم السير إدوارد ستافورد، السفير الإنجليزي في فرنسا، في تقريره عن «مونتاني»، فوصفه بأنه «رجل مهذّب شديد الحكمة من رجال ملك نافار». وأضاف بعد ذلك أن «جميع خدم ملك نافار هنا غيورون من قدومه». لا بد أن حاشية نافار المعتادة قد شعرت بأنها آخر من يعلم؛ فمونتاني هنا في مهمّة بتكليف من قائدهم، لكن لن يخبرهم أحد ما الذي يجري. كتب السفير الإسباني دون برناردينو دي ميندوزا لملكه فيليب الثاني أن رجال نافار في باريس «لا يعرفون سبب مجيئه»، و«يشكّون في أنه في مهمّة رسمية ما.» وبعد بضعة أيام، في 28 فبراير، لمح أيضًا إلى ما يشاع عن تأثير مونتاني على كوريساند، مضيفًا أن مونتاني كان «يعتبر رجلًا فاهمًا، على الرغم من أن فيه شيئًا من الغباء». ذكر ستافورد ارتباطات كوريساند أيضًا. وقال إن مونتاني كان «المفضّل الأثير» لديها؛ وكان أيضًا «رجلًا شديد الكفاءة»، الأمر الذي يعني بلغة العصر أنه شديد البراعة. ويبدو أن

مونتاني وكوريساند قد نجحا في المناورة مع نافار للتخلّي عن البروتستانتية إذا لزم الأمر، وأن مونتاني كان هناك لتوصيل هذه الرسالة للملك.

كانت حساسية الموضوع تعني أن كلًّا من أعضاء الجمعية وأتباع نافار البروتستانتيين لديهم أسباب وجيهة للرغبة في منع مونتاني من الوصول إلى باريس. حقًّا، بدا أن الجميع تقريبًا يكرهون هذه المهمّة، مهمّة الصلح والاعتدال. حتى السفير الإنجليزي خاف منها، لأن انجلترا تمنّت أن تبقى مؤثّرة على نافار ولم ترده أن يعيد التحوّل إلى الكاثوليكية. الوحيدون الذين يمكن أن يكونوا قد شعروا بالسعادة هم الملك، وكاثرين دي ميديتشي، **والسياسيون** المتناثرون، الذين أملوا دائمًا في مستقبل لفرنسا المتحدة.

ديان داندوينز، كونتيسة جريموند، المعروفة باسم «كوريساند».
القرن التاسع عشر. حفر نقلًا عن ميلشوير بيرونارد.
بيبليوتيك ناسونال، باريس/جيرودون/ذا بريدجمان آرت ليبراري.

لا عجب إذًا أن رحلة مونتاني لم تمضِ بيسر. فبعد قليل من مغادرة بيته، وأثناء السفر عبر غابة فيلبويز جنوب غربي آنجوليم، نصب لصوص مسلحون كمينًا لمرافقيه وقبضوا عليهم. لم تكن تلك هي الحادثة التي أطلق فيها سراحه بسبب سيماء الأمانة التي تبدو على وجهه؛ فمن الواضح أن هذا كان هجومًا أكثر عشوائية. كان الدافع هذه المرة سياسيًّا، أو هكذا كان اعتقاده على الأقل. قال مونتاني حين كتب عن هذا الهجوم لماتينيون في ما بعد إنه شك في أن الجناة كانوا من أعضاء الجمعية الذين يريدون إحباط أي اتفاق بين عدوَّيْهم. وأرغم تحت تهديد العنف، في منتصف الغابة، على تسليمهم أمواله، والملابس الجميلة التي في صناديقه (المفترض أنه كان ينوي

الظهور بها في البلاط الملكي)، وأوراقه، التي شملت بلا شك وثائق سرّية من معسكر نافار. ومن حسن الحظ أنهم لم ينهوا عملهم بقتله، بل نجا، ومن المفترض أنه سلم رسالته بأمان. لكن الصفقة لم تسفر عن أي شيء مرة أخرى، بالرغم من كل ما خاطر به مونتاني، وبالرغم من كل ما أحاطه من إثارة. وكانت الأمور على وشك أن تسوء.

بدأت القلاقل حين وصل دوق دي جويز، الذي كان لا يزال أخطر أعداء الملك، إلى العاصمة في مايو 1588، بعد مونتاني بفترة قصيرة. كان هنري الثالث قد حظَّر على جويز دخول المدينة، فكان هذا تحدّيًا صريحًا للسلطة الملكية، لكن جويز كان يعرف أن البرلمانيين المتمرّدين في باريس يساندونه. كان لا بد من أن يردَّ الملك باعتقال جويز. لكنه لم يفعل شيئًا حتى حين زاره جويز شخصيًّا. وكما ذكرت التقارير، علّق البابا الجديد، سكستوس الخامس في ما بعد على هذا اللقاء قائلًا: «كان جويز طائشًا غبيًا إذ وضع نفسه في أيدي ملك كان يسبّه؛ وكان الملك جبانًا إذ جعله يمضي من دون أن يمسَّه ضررٌ». كان هذا واحدًا آخر من التوازنات الدقيقة؛ فهنا، طرف غريب عليه أن يقرِّر إلى أي مدى يدفع بالتحدِّي، بينما على الأضعف أن يقرِّر ما إذا كان سيحني رأسه أم سيقاوم.

مضى هنري الثالث في أخذ القرار الخطأ ثلاث مرات. أولًا: لم يفعل شيئًا حين كان ينبغي أن يفعل. ثم لكي يعوِّض عن ذلك أفرط في رد فعله. أرسل قوات عسكرية ملكية في ليلة 11 مايو إلى جميع أنحاء المدينة، كما لو كان يستعدّ لحرب شعواء، ويمكن حتى أن تكون مذبحة لمساندي جويز. وتدفّقت حشود من أعضاء الجمعية في هلع وسخط وأغلقت الشوارع، استعدادًا للدفاع عن أنفسهم. وما تلا ذلك عرف باسم «يوم المتاريس».

والآن ارتكب هنري الثالث خطأه الثالث. لقد تراجع في هلع، مظهرًا مزيجًا من الضعف والشطط اعتبره مونتاني كارثيًّا، خاصّة عند التعامل مع الغوغاء. توسّل الملك إلى جويز ليهدئ مسانديه؛ ركب جويز عبر الشوارع، بافتراض أنه يفعل ذلك طاعة للطلب، لكنه فعلًا كان يزيد الحشود تهييجًا. وحدثت أعمال شغب. لاحقًا كتب إتيان باسكير صديق مونتاني في خطاب «لم أر أبدًا فسادًا مسعورًا مثل هذا بين الناس.» بدا الأمر مثل مذبحة أخرى تشبه مذبحة عيد القديس بارتيلوميو، لكن القتل كان أقلّ، وفي هذه المرة كان يوجد هدف محدّد أنجزه أصحابة بسرعة. قال باسكير بنهاية اليوم التالي: «صار كل شيء هادئًا جدًّا مرة أخرى حتى إنك قد تقول إنه كان حلمًا». لم يكن حلمًا؛ لقد استيقظت باريس على تغيّر الواقع. فرَ الملك من مدينته. تسلّل بهدوء حتى لم يكد أحد يلاحظه، وذهب إلى شارتارز تاركًا باريس لجويز.

وحيث إن هنري الثالث قد ترك المدينة أثناء القتال، فهو الآن ملك في المنفى. لقد خُلِع عمليًا عن العرش، لكنَّ مؤيديه ظلوا يعترفون به ملكًا. وأمره جويز بقبول كاردينال دي بوربون خلفًا له. لم يكن لدى هنري إلا أن يوافق. لم يكن هناك نقص في الناس المستعدين للفت نظره لكيفية حدوث هذه الكارثة. لقد فاتته فرصته الوحيدة في إخراج جويز من الصورة، إما باعتقاله، أو بقتله، وهو الأكثر حسمًا للأمر. ظل مونتاني ملكيًا مخلصًا، وصحب الملك في شارتارز؛ وحين انتقل هنري في ما بعد إلى روين، ذهب معه مونتاني أيضًا. الأمر ليس مدهشًا؛ فالبديل كان أن يبقى مع أعضاء الجمعية في باريس أو أن يتراجع خارجًا تمامًا ويعود إلى بيته. لم يفعل أيهما، لكنه انفصل عن صحبة الملك في نهاية المطاف وعاد إلى باريس في يوليو 1588. كان مريضًا في ذلك الوقت، ضربه النقرس أو الروماتيزم؛ نوبة شديدة السوء إلى درجة ألزمته الفراش أثناء جزء من إقامته هناك.

كان يتوقّع أن يُترك هناك بلا مضايقة، حيث إنه يرجِّح ذهابه لسبب لا علاقة له بالشغب، ولا يزيد عن اجتماع مع ناشريه؛ إذ كان قد انتهى حديثًا من العمل على الجزء النهائي من كتابه. لكن باريس لم تكن المكان المناسب لأي شخصٍ مرتبطٍ بالملك. فبينما كان مونتاني راقدًا في فراشه بعد ظهر ذات يوم، لم يتعافَ تمامًا، اقتحم رجال مسلّحون المكان وقبضوا عليه في روين، حين أمر هنري الثالث باعتقال أحد أعضاء الجمعية في ظروف مماثلة؛ كانت هذه على الأقل نظرية مونتاني، كما سجّلها في تقويم يومياته. أخذوه ممتطيًا جواده الخاص إلى الباستيل وحبسوه هناك.

كتب مونتاني في كتاب المقالات عن رعبه من الأسر:

> **لم أدخل أي سجنٍ من قبل، حتى ولو لزيارة. الخيال يجعل رؤية أي سجن، حتى من الخارج، أمرًا غير سارٍّ لي. أنا أتوق جدًّا للحرّية، حتى لو أن احدًا منعني من الوصول إلى ركن في جزر الهند، فسأعيش بصراحة وأنا أقل شعورًا بالراحة.**

كان إلقاء مونتاني في الباستيل صدمة له، خاصّةً وهو مريض، لكن مونتاني كانت لديه أسباب ليأمل في أنه لن يبقى هناك طويلًا، ولم يبقَ طويلًا. بعد خمس ساعات، أتت كاثرين دي ميديتشي لإنقاذه. كانت هي أيضًا في باريس الآن، تأمل كالمعتاد أن يتعامل الأطراف مع الأزمة بنجاح فتجعل الجميع يتكلّمون، بدءًا بجويز، الذي كانت تجري معه حوارًا حين وصلت أنباء اعتقال مونتاني. طلبت من جويز من فورها أن يرتِّب لإطلاق سراح مونتاني ومن الواضح أنه أذعن مرغمًا.

ذهبت أوامر جويز إلى مأمور الباستيل، لكن حتى هذا لم يكفِ في البداية. أصرّ المأمور على تلقي تأكيد من القائد المسؤول عن المساجين، ميشيل مارتو، سير دي لا شابيل، الذي أرسل خطاب موافقته بدوره من خلال رجل قوي آخر، هو نيكولاس دي نوفيل، سينيور دي فيليروي. وهكذا، استلزم الأمر في النهاية أربعة رجال أقوياء لإطلاق سراح مونتاني. كان فهمه الخاصّ له أنه «أطلق سراحه بجميل لم يسمع به أحد»، وفقط بعد «الكثير من الإصرار» من كاثرين دي ميديتشي. لا بد أنها أعجبت به؛ ومن المرجّح أن دوق دي جويز لم يعجب به، لكن حتى هو أمكنه أن يرى أن مونتاني كان يستحق اعتبارًا خاصًا.

مكث مونتاني في باريس لفترة قصيرة بعد ذلك. تراجع الألم الذي كان في مفاصله، لكن سرعان ما ضربه مرض آخر بعد ذلك. كان من المرجح أنها نوبة من حصوات الكلى، وهي حالة ظلَّ يعاني منها مع مهلة راحة قليلة، وكثيرًا ما خشي أن تقتله. كادت في هذه المرة أن تقتله. وصف صديقه بيير دي براش الواقعة بعد عدة سنوات تالية، في خطاب ذي نكهة رواقيّة قوية أرسله إلى جاستوس ليبسيوس:

> **حين كنا معًا في باريس منذ عدّة سنوات مضت، ويئس الأطباء من حياته وتمنّى هو الموت، رأيته حين حدّق الموت في وجهه من على مقربة، فأزاحه بعيدًا باحتقاره لما جلبه من خوف. يا للحجج الجميلة التي تشنِّف الآذان، يا للتعاليم الجميلة التي تجعل الروح حكيمة، يا للصلابة الحازمة النابعة من الشجاعة التي تطمئن أكثر الناس هلعًا، كل هذا أظهره هذا الرجل حينئذٍ! لم أسمع أبدًا رجلًا يتكلّم بشكل أفضل، أو يصمِّم بشكلٍ أفضل على فعل ما قاله الفلاسفة في تلك النقطة، من دون أن يهزم ضعف جسمه قوة روحه ولو بأدنى قدر.**

تقرير براش تقليدي، لكنه يشير إلى أن مونتاني تقبّل حالته كبشرٍ فانٍ على ما هي عليه إلى حدٍّ ما منذ أيام حادث ركوب الخيل. لقد مرّ بالكثير منذئذ، وأرغمته نوبات حصوات الكلى على لقاءات قريبة مع الموت بانتظام. كانت هذه أيضًا مواجهات في ساحة قتال. كان الموت محيطًا به لإثبات من الطرف الأقوى في نهاية المطاف، لكن مونتاني واجهه في تلك اللحظة.

ذهب مونتاني في فترة النقاهة لرؤية صديقة جديدة قابلها في باريس في العام السابق؛ هي ماري دي جورناي، وهي قارئة متحمِّسة لأعماله دعته للإقامة مع أسرتها في قصرها في بيكاردي. قدَّم هذا لمونتاني مكان استراحة أكرم ضيافته. وفي هذه الأثناء، صدرت

الطبعة الجديدة من كتاب **المقالات**، وكان مونتاني يفكر بالفعل في إضافات جديدة يحبُّ إضافتها إليه، ربما في ضوء خبراته الجديدة. وبدأ في إضافة هوامش للطبعة التي طبعت حديثًا، أحيانًا وحده، وأحيانًا بمساعدة سكرتارية من جورناي وغيرها.

وما إن شفي مونتاني تمامًا، في حوالى نوفمبر من ذلك العام، حتى انتقل إلى بلويز، حيث كان الملك يحضر اجتماعًا للمجلس التشريعي القومي المعروف باسم إستايتس - جنرال Estates - General، بصحبة جويز. كان من المفترض أن الهدف هو إجراء المزيد من المباحثات، لكن هنري الثالث تجاوز هذا الهدف. كان يشعر باليأس، فهو ملك بلا مملكة. وأنفق ستة شهور يستمع إلى الناصحين الذين يذكّرونه بأن كل شيء كان يمكن أن يختلف لو أزاح جويز من طريقه حين سنحت له الفرصة.

والآن، سنحت له الفرصة مرّة أخرى بوجود جويز معه في قلعة بلويز، وقرّر هنري تصحيح خطأه. دعا هنري الثالث جويز في 23 ديسمبر إلى غرفته الخاصّة ليتحدّث معه. وافق جويز، على الرغم من أن ناصحيه حذّروه من أن هذا خطر. وما إن دخل الغرفة الخاصّة المجاورة لغرفة نوم هنري الثالث، حتى وثب العديد من الحرّاس الملكيين من مخابئهم، وصفقوا الباب خلفه، وطعنوه حتى الموت. وصُدم حتى مؤيدوه هذه المرّة، فمرّة أخرى، ذهب الملك من أقصى هذا الطرف حتى أقصى الطرف الآخر، متخطّيًا منطقة اعتدال مونتاني الحكيم في المنتصف.

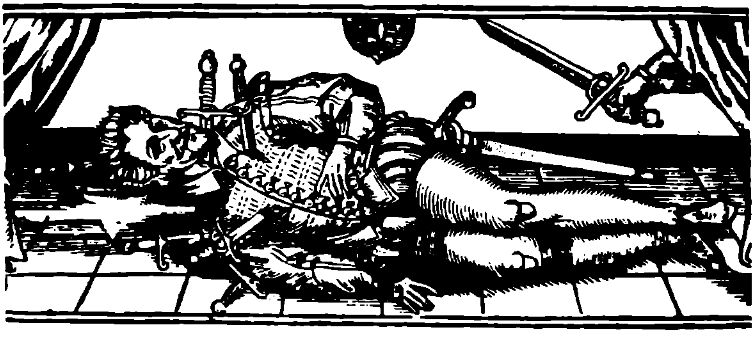

اغتيال دوق دي جويز، من
J. Boucher, La vie et faits de notables de Henry Valois
(Paris: Didier Millot, 1589).

على الرغم من أن مونتاني أتى إلى بلويز لينضم إلى حاشية الملك، فلا توجد أي إشارة إلى أنه عرف أي شيء عن مؤامرة القتل. كان يقضي الوقت خلال الأيام التي سبقت الحادث في إمتاع نفسه؛ فيقابل أصدقاء قدامى مثل جاك أوجست دي ثاو،

وإتيين باسكير؛على الرغم من أن الأخير كانت لديه عادة مزعجة، هي أن يجرَّ مونتاني إلى غرفته ليشير إلى جميع الأخطاء الأسلوبية في آخر طبعة من كتاب **المقالات**. كان مونتاني ينصت إليه من باب الأدب، ويتجاهل جميع ما يقوله باسكير، بالضبط كما يفعل مع الموظّفين الرسميين لمحكمة التفتيش.

كان باسكير أكثر تقلبًا في انفعالاته من مونتاني، فوقع في أسر اكتئاب سوداوي حين سمع بمقتل جويز. وكتب لأحد أصدقائه: «يا للمشهد البائس! لي زمن طويل أحتضن مزاجًا سوداويًّا بداخلي، لا بد من أن أتقيَّأه الآن في حجرك. أخشى أنني أعتقد بأني أشهد نهاية جمهوريتنا... سيفقد الملك تاجه، أو يرى مملكته وقد انقلبت تمامًا رأسًا على عقب». لم يكن مونتاني على استعداد لمثل هذا الحديث الدرامي، لكن لا بد من أنه شعر هو أيضًا بالصدمة. أما أسوأ ما في الموضوع بالنسبة لأحد **السياسيين** أن هذا القتل الذي حدث بدم بارد وفي توقيت غير مناسب ألقى بظلال خطيرة من الشكِّ على الحالة الأخلاقية للملك، الذي اعتبره **السياسيون** مركز جميع الآمال في الاستقرار.

يظهر أن هنري الثالث فكَّر في أن ضربة باترة ستنهي مشكلاته، بالأحرى مثل تشارلز التاسع في اندفاعه إلى مذابح القديس بارتيلوميو. بدلًا من ذلك، أدّى موت جويز إلى المزيد من التحوّل الراديكالي بين أعضاء **الجمعية**، وأعلنت هيئة سياسية جديدة في باريس، هي مجلس الأربعين، أن هنري الثالث طاغية. واستفهم السوربون من البابا عما إذا كان من المسموح به لاهوتيًّا قتل ملك ضحّى بمشروعيته. أجاب البابا بالنفي، لكنّ وعّاظ الجمعية ومحاميها ذهبوا إلى أن أي شخص يشعر بأنه مليء بالحماسة، وأن الإله ناداه ليؤدِّي مهمّة يمكنه أن يقترف الفعل على أيِّ حالٍ. كانت كلمة «طاغية» تُقال في كلّ مكان، لكن على غير مثال لا بويتي في مقاله **عن العبوديّة الطوعيّة**، لم يدعُ الوعّاظ إلى المقاومة السلبية والانسحاب السلمي من الموافقة؛ فاستخرجوا فتوى بأنه لو كان هنري عميلًا للشيطان على الأرض، كما يعلن طوفان من المنشورات، فقتله واجب مقدَّس.

طغا الاهتياج في باريس في العام 1589 على جميع جوانب الحياة. كتب المؤرخ البروتستانتي بيير ليستويل عن مدينة جنّ جنونها:

> **صار اليوم سلب ممتلكات الجار، وذبح أقرب الأقرباء، وسرقة مذابح الكنائس، وتدنيس الكنائس، واغتصاب النساء والفتيات الصغيرات، وابتزاز الجميع، هو السلوك العادي الذي يمارسه عضو الجمعية والعلامة المؤكدة للكاثوليكي المتحمِّس: التشدّق دائمًا بالدِّين والجماهير، لكن الإلحاد والسرقة في القلب، والقتل والدماء على الأيدي.**

قفزت العلامات والنُذُر من كلِّ مكان؛ حتى صديق مونتاني رابط الجأش جاك أوجست دي ثاو رأى ثعبانًا برأسين يخرج من كومة خشب، وقرأ فيه فألًا. وما إن بدا أن الوضع لا يمكن أن يسوء عن ما هو عليه، ماتت كاثرين دي ميديتشي في 5 يناير 1589. وصار هنري الثالث وحيدًا برحيل أمّه، لا يحميه من الكراهية المحيطة به إلا قواته التي يتقاضى أفرادها مرتبات أقل مما يستحقّون، و**السياسيون** الذين شعروا بأن من واجبهم البقاء بجانبه من باب المبدأ.

وكما هو الحال دائمًا، كان **السياسيون** هم من أثاروا ارتياب الجميع. ولم يساعد مونتاني أن يشير في نغمة هادئة وموزونة أن الجمعية والهوغونوت الراديكاليين صار من المستحيل تمييزهما عن بعضهما الآن:

> **المسألة بكلِّ وقارٍ، ما إذا كان تمرّد تابع على أميره ورفعه السلاح عليه دفاعًا عن الدِّين أمرًا قانونيًا. تذكَّر من الذي قال في هذه السنة التي مضت لتوِّها إن الإيجاب سند أحد الأطراف، والنفي هو سند أي طرف آخر؛ واسمع الآن من أيِّ جهة يأتي صوت الجانبين وتعليماتهما، وما إذا كانت الأسلحة تُعْلي صوت هذه القضية أكثر من تلك.**

أما عن فكرة الاغتيال المقدّس، كيف يمكن لأي شخص أن يعتقد بأن قتل ملك سيُدخل قاتله الجنّة؟ كيف يمكن أن يأتي الخلاص من «أسرع الطرق التي لدينا لِلَعْنَةٍ مؤكَّدة؟». فقد مونتاني ما تبقّى من استساغته للسياسة في لحظة من تلك الفترة؛ فغادر بلويز في حوالى بداية العام 1589. وبنهاية يناير، عاد إلى ضيعته وإلى مكتبته. وظلّ نشطًا هناك، يتواصل مع ماتينيون - الذي كان لا يزال قائدًا عسكريًّا للمنطقة برتبة رائد، علاوة على شغله لمنصب العمدة الجديد لبوردو - لكن يبدو أنه قرّر التوقّف عن السفر لأغراض دبلوماسية من الآن فصاعدًا. ومن المفارقات الساخرة، أنه بعد أن أصابه اليأس، وصل هنري الثالث ونافار أخيرًا إلى **التقارب** الذي طال انتظاره؛ فوحدا القوات وأعدًّا لحصار العاصمة في صيف العام 1589.

لكن كانت هذه غلطة أخرى من غلطات الملك. أدرك أعضاء الجمعية في المدينة أنه مع تجمّع الجيوش في المعسكرات خارج بواباتهم، صار هنري الثالث في متناول يدهم. تلقّى أخ دومينيكاني شاب اسمه جاك كليمانت أمرًا من الإله بالعمل. تظاهر بأنه يحمل رسالة من مساندين سرِّيين في المدينة، ووصل إلى المعسكر في أوّل أغسطس وسُمح له بالدخول ليرى الملك، الذي كان جالسًا على المرحاض وقتها؛ وهي طريقة شائعة لاستقبال الملوك لزوارهم. جرَّد كليمينت خنجرًا، وبالكاد استطاع أن يطعن

الملك الجالس في بطنه قبل أن يُقْتَل بيد الحراس. ونزف هنري ببطء عبر عدّة ساعات حتى الموت. كان أحد آخر أعماله أنه أكّد أن نافار وريثه، مع أنه كرّر اشتراط أن يعود نافار إلى الكنيسة الكاثوليكية.

وقوبلت أخبار موت الملك بالتحيّة والسرور في باريس. وفي روما، حتى البابا سيكستوس الخامس مدح تصرف كليمانت. ووافق نافار أخيرًا على العودة إلى الكاثوليكية. في البداية، ظلّ بعض الكاثوليك يرفضون الاعتراف به، خاصّة أعضاء **برلمان** باريس، الذين أصرّوا على أن بوربون هو ملكهم. ولفترة، وُجدت حقيقتان مختلفتان، بناء على الجانب الذي ينحاز له المرء. لكن نافار ربح ببطء، وبصبر، وصار ملك فرنسا بلا منازع باسم هنري الرابع؛ الملك الذي سيجد أخيرًا طريقة لإنهاء الحرب الأهلية وفرض الوحدة، وحدث ذلك في معظم الأحوال من خلال قوة شخصيته وحدها. لقد كان الملك الذي طالما تمنّاه **السياسيون**.

وحيث إن مونتاني كان دائمًا على علاقة طيّبة بنافار، فقد وجد نفسه الآن مشدودًا مرّة أخرى إلى دور شبه رسمي، دور مستشار هنري الرابع؛ وهو مستشار صريح وصادق بشكل مدهش، كما عُرف عنه. كتب مونتاني لهنري ليقدِّم خدماته، كما يقضي الإتيكيت؛ ورد هنري في 30 نوفمبر 1589 باستدعاء مونتاني إلى تورز، المقرّ المؤقت لبلاطه الملكي. وإما أن الخطاب سافر ببطء شديد أو أن مونتاني تركه على رف لفترة طويلة، لأن ردّه مؤرخ في 18 يناير 1590؛ وهو وقت متأخر جدًّا لإطاعة الطلب. كان الولاء لا بأس به نظريًّا، لكن مونتاني كان مصرًّا على ألّا يسافر، خاصّة أن صحته الآن صارت أسوأ مما كانت. شرح مونتاني للملك أن الخطاب تأخّر للأسف؛ وكرر تهانيه، وقال إنه يتطلّع لرؤية الملك وهو يكسب المزيد من المساندة.

كان هذا الجزء من الخطاب تقليديًّا بدرجة كافية، لكن مونتاني أضاف بعد ذلك مشورة أقسى. أخبر الملك الجديد - وهو ما زال يتحدّث بإجلال رسمي - أنه كان ينبغي أن يكون أقلّ تلطفًا في الوقت الحالي مع الجنود الذين في جيشه. لا بد من أن يفرض سلطته عليهم، لكن في الوقت نفسه يغلبهم «بالرأفة والسخاء»، حيث إنهما عوامل جذب أفضل من التهديدات لكسب الناس. لا بد من أن يكون الملك قويًّا، لكن لا بد أيضًا أن يظهر الثقة في الناس، وأن يحبّوه بدلًا من أن يخافوه.

وكتب خطابًا آخر في 2 سبتمبر، بعد أن أعاد هنري الطلب منمونتاني، أن يسافر إليه هذه المرة ليرى ماتينيون. وعرض أن يدفع نفقات مونتاني. لكن مونتاني انتظر مرة أخرى على مهله لمدة ستة أسابيع قبل أن يردَّ، ثم زعم أنه تلقّى الخطاب لتوّه. قال مونتاني إنه في الحقيقة كتب لماتينيون بالفعل ثلاث مرات، مقترحًا أن يزوره، لكن

ماتينيون لم يرسل ردًا. يشير مونتاني إلى أن ماتينيون ربّما أراد أن يعفيه من مخاطر الرِحلة وطولها، آخذًا في اعتباره «طول الطرق ومخاطرها». الإشارة واضحة؛ لا بد من أن يظهر هنري الرابع الاهتمام نفسه. واستاء مونتاني أيضًا من عرض المال.

> **لم أتلقَ أبدًا أيَّ هدايا من أيٍّ نوعٍ من كرم الملوك، أكثر مما طلبته أو استحققته؛ ولم أتلقَ راتبًا عن الخطوات التيِ أخذتها في خدمتهم، وهو أمر تعرفه جلالتكم جزئيًا. ما فعلته لسلفك سأفعله لك بمزيد من الترحاب. أنا، يا سيدي، ثريٌّ بقدر ما أتمنّى. حين أنفق جميع ما في حافظتي وأنا مع جلالتكم في باريس، ستكون لديَّ الجرأة لأخبرك بذلك.**

تبدو هذه طريقة حازمة ومدهشة للكلام مع ملكٍ؛ لكن مونتاني كان قد تقدّم في السن ومريضًا (كان مصابًا بحمى في ذلك الوقت)، وكان قريبًا من الملك لفترة طويلة تكفي ليحدِّثه صراحة. كتب في كتاب **المقالات**: «أنا أنظر لملكنا ببساطة بعاطفة الولاء والمواطنة، التي لا تحرِّكها ولا تمحوها المصالح الخاصة... وهذا ما يجعلني أسير في كل مكان برأس مرفوع عاليًا، ووجهي وقلبي مكشوفان». يوضح خطابه لهنري الرابع أنه كان طيّبًا مثل كلمته. لقد عبَّر عن نفسه حقًّا في الخطابين بالضبط كما يفعل في كتاب **المقالات**؛ فكان خشنًا، غير متأثّر بالقوة، ومصرًّا على الحفاظ على حريته.

ربما اكتشف مونتاني العلامة الأولى لما سيصير سمة لعهد هنري الرابع؛ ألا وهي ميل الملك إلى جعل نفسه معبودًا. كان قويًا، وهو ما كانت البلد تحتاجه بعد سلسلة الملوك الضعفاء المترفين، لكنه لم يكن لبقًا. كان أسلوبه يعتمد على الخطابات القصيرة والأفعال السريعة الحازمة. وبدلًا من الاستحمام بانتظام والأكل بالشوكة كما كان يفعل هنري الثالث، كان هنري الرابع قذرًا، كما بكل معنى الكلمة، ووصل من التقارير المتكرّرة أن رائحته كانت كريهة مثل اللحم النتن. كانت له كاريزما. أحب مونتاني فكرة الملك القوي، لكنه لم يحب الغموض. وكتب في كتاب **المقالات** عن هنري الرابع باستحسان حصيف لا بإخلاص أعمى؛ وأتت تحفّظات مماثلة في خطاباته. وكسب معركته الخاصّة، لأنه لم يسافر أبدًا لينضم إلى هنري الرابع.

وفي بدايات العام 1595، بعد أن فات الوقت لكي يعرف مونتاني بالأمر، تمكّن هنري الرابع بنجاح من بدء حرب ضد عدو خارجي، هو إسبانيا، ومن ثم بدأ في استنزاف طاقات الحروب الأهلية، التي انتهت أخيرًا في 1598. بدأت فرنسا في بناء هويّة جمعية حقيقية، على الرغم من أنها كانت لا تزال هشّة، تمركزت غالبًا حول هنري

نفسه. كان الكثيرون يدينون له بالولاء بحماسة، لكنَّ آخرين كرهوه بالحماسة نفسها. وقد اغتيل هو أيضًا في نهاية المطاف، إذ طعنه الكاثوليكي المتعصِّب فرانسوا رافيلاك حتى الموت في العام 1610.

كان من بين إسهاماته في التاريخ مرسوم نانت، الذي أعلن في 13 أبريل 1598، وقد ضمن حرية الضمير وشيء من حريّة العبادة لكل من جانبي الانقسام الديني. وعلى عكس معاهدات الصلح السابقة، نجح هذا المرسوم لفترة. وتحوّلت فرنسا من أسوأ بلد أصيب بالاختلافات الدينية إلى أول دولة أوروبية غربية تعترف بشكلين مختلفين من المسيحية. وضّح هنري في خطاب للبرلمان في 7 فبراير 1599 أن المرسوم لم يقم على أساس رغبة ضعيفة في جلب السرور، مثل ما سبقه، وينبغي ألا يؤخذ كرخصة لإثارة القلاقل. «سأقضي على جميع الفصائل وكل الدعوات للشغب في مهدها؛ وسأقطع رؤوس جميع من يشجّعونها».

فُرِض مرسوم نانت بقوة بنوع من الثقة الصريحة التي يقدّرها مونتاني، وصمد لحوالى قرن، حتى العام 1685، حين أرسل إلغاؤه موجة من اللاجئين الهوغونوت إلى إنجلترا وغيرها من الأماكن. كان من بين هؤلاء قرّاء لمونتاني، منهم بيير كوست، الرجل الذي سيهرِّب طبعة من كتاب **المقالات** الممنوع، ستتسلّل في نهاية المطاف عائدةً إلى الوطن عبر القناة، وتروِّج لمونتاني ثوري جديد وسط مواطنيه الغارقين في المشكلات.

16. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟
ج: تفلسَفْ بالمُصادَفَةِ فَقطْ

خمسةُ عشر رجلًا إنجليزيًّا ورجلٌ إيرلنديٌّ واحدٌ:

من الغريب أن الإنجليز لم يتوقّفوا عن الإعجاب بمونتاني خلال القرن المؤدّي إلى إعادة تعريف كوست له في العام 1724؛ وهي فترة لاقى فيها كتاب **المقالات** صعوبات في فرنسا. كانوا أوّل أناس خارج فرنسا يقرأون مونتاني، ووصلوا إلى اعتباره كاتبًا من كتّابهم تقريبًا. يوجد في العقلية الإنجليزية شيء ما وضع الإنجليز مع مونتاني على الموجه نفسها؛ فاستمرّوا دائمًا في إصدار نغمات متآلفة على هذا الموجة في لا مبالاة واضحة بالتغيّرات الثقافية التي تحدث في كل مكان آخر.

يستحقّ الأمر إيقاف قصة «الحياة الآخرة» لمونتاني (التي ظلّت تجري مع قصّة حياته الأساسيّة، والمعلّقة حاليًّا في منتصف القرن التاسع عشر منذ الفصل السابق) لأخذ جولة سريعة خلال عدة مئات من السنوات حظي فيها بحظٍّ حسنٍ على الجانب الآخر من القناة؛ وهو مكان يبدو أنه لم يفكّر أبدًا في السفر إليه، وكان سيدهش أيما دهشة حين يجد أهله يستقبلونه باعتباره لاجئًا، خاصّة أنها بلد بروتستانتي.

كان الدين سببًا في إحساس الكثيرين من القرّاء الإنجليز منذ القرن السابع عشر فصاعدًا بالحريّة في الاستمتاع بمونتاني. لم يهتم البروتستانت الإنجليز بأن الكنيسة وضعت كتابه في **قائمة الكتب المحظورة**. بل حتى سمح لهم ذلك بالتمتّع بالشعور السار بالفوز بنقطة على الكاثوليك، والأكثر بعثًا على الرضا أن ذلك الفوز كان على الفرنسيين. يمكن تصوير الآخرين كشعبٍ غيرِ قادرٍ على الاعتراف بأفضل كتّابه، لا سيما بعد أن بدأت الأكاديمية الفرنسية في فرض معايير صارمة من التأنّق الكلاسيكي على جميع كتاباتها. فكاتب «حرٌّ جامحٌ» (كما وصف مونتاني نفسه) لا مكان له في جماليات فرنسا الجديدة، لكن اللغة الإنجليزية رحّبت به ترحيبها بالابن الضالّ. فاللغة الإنجليزية التي هي البيت المرح والفوضوي لتشوسر وشكسبير بدت اللغة الصحيحة لمثل هذا المؤلف. لاحظ لورد هاليفاكس الذي أهديت إليه إحدى طبعات القرن السابع عشر أن

ترجمة أعمال مونتاني «ليست مجرد مكسب قيِّم لنا، بل هي أيضًا إدانة عادلة للصفاقة النقديّة لهؤلاء الفرنسيين مؤلِّفي التفاهات الّذين أتعبوا أنفسهم لإثارة اعتراضات تافهة صغيرة واستثناءات قليلة لخفض قيمة سمعة هذا الرجل العظيم، الذي جعلته طبيعته أكبر من أن يحبس نفسه في إتقان أسلوب مدروس». وتمكّن كاتب المقالات ويليام هازليت من ضغط مونتاني ورابليه وإدخالهما في قطعة اسمها «عن الكُتَّاب والمتحدِّثين الإنجليز القدامى». وقد برّر وضعهم في كتابه هكذا: «لكننا ننظر بعين الاعتبار لهؤلاء بمقياس اللغة الإنجليزية عالية القدر إلى حدٍّ بعيدٍ، أو ما كانت تميل إليه الشخصيّة الفرنسيّة القديمة قبل أن تفسدها البلاطات الملكيّة وأكاديميّات النقد».

إذا كان القرّاء الإنجليز قد أحبّوا أسلوب كتاب **المقالات**، فقد ازداوا افتتانًا بمحتواه. راق لهم تفضيل مونتاني للتفاصيل على الاختصارات، كما راق لهم عدم ثقته في الباحثين الأكاديميين، وتفضيله للاعتدال والراحة، ورغبته في الخصوصية: «الغرفة التي خلف الدكان». من جهة أخرى، كان للإنجليز أيضًا ذوق يحبّ السفر والغرائب، وكذلك كان مونتاني. وقد أمكنه أن يظهر انفجارات غير متوقّعة من الراديكالية وسط النزعة المحافظة بشدة، وتمكّنوا هم أيضًا من ذلك. وكان أسعد حالًا معظم الوقت وهو يراقب قطّته تلعب بجوار المدفأة، وهكذا كان الإنجليز أيضًا.

ثم كانت هناك فلسفته، إذا أمكنك تسميتها كذلك. الإنجليز لم يولدوا فلاسفة، وهم لا يحبّون التأمّل في الوجود، والحقيقة والكون. فحين يلتقطون كتابًا، يريدون حكايات، وشخصيات غريبة، ونزوات ذكيّة، ولمسة من الخيال. وعلى حدِّ القول السديد لفيرجينيا وولف عن السيد توماس براون، أحد المؤلّفين الإنجليز الكثيرين الذين كتبوا بالأسلوب نفسه لمونتاني: «يميل العقل الإنجليزي بطبيعته لأخذ راحته والتمتّع بأضعف الاستطرادات الخيالية الظريفة والفكاهات». لهذا مدح ويليام هازليت مونتاني بعبارات من المضمون أن تروق لأمّة غير متفلسفة:

> **حين يلتقط قلمه لا يتأهّب للكتابة إلى فيلسوف، أو إلى شخصٍ لامعِ الذكاء، أو خطيبٍ مفوّهٍ، أو مفكّرٍ أخلاقيٍّ، لكنّه يصير كلّ هؤلاء بمجرّد جرأته على إخبارنا بأيٍّ مما يطرأ على ذهنه، في بساطته العارية، وقوّته.**

في مرّة من المرّات النادرة التي أشار فيها مونتاني إلى نفسه باعتباره فيلسوفًا على أي حال، فعل ذلك ليقول إنه حدث بالصّدفة المحضة؛ فقد كان «فيلسوفًا بلا إعداد وبالمصادفة». استغرق عدة صفحات هائمًا في أفكاره عن أنه كان ملزمًا بالتعثّر في بعض النظريات الكلاسيكية العظيمة هنا وهناك. حظيت الفلسفة العمليّة لكيفَ تُعاشُ

الحياةُ باهتمامه، لكن هذا كان شيئًا مختلفًا. كل هذا، إجمالًا، كان ينطبق بالقدر نفسه على الإنجليز.

لكن الكثير من نجاحه هناك قد يكون أتى بصدفة سعيدة لا بانجذابٍ عميقٍ لمونتاني، كما يناسب رجلًا يحدث له كل شيء بالمصادفة. تصادف أن قُيِّضَ لكتاب **المقالات** مترجِم إنجليزي ممتاز منذ البداية، هو جون فلوريو، وهذا خلقَ الفارقَ كله.

لكنَّ أكثر ما فعله فلوريو شهرة هو أنه أول من استخرج الرجل الإنجليزي المختبئ في داخل مونتاني، لأنه هو نفسه كان متعدِّد الثقافات متجولًا بينها بحساسية أبعد ما تكون عن حساسية الإنجليز. عادة ما يوصف فلوريو بأنه إيطالي، على الرغم من أن أمَّه كانت إنجليزية، وأنه وُلد في لندن في العام 1553، وبذلك يكون إنجليزيًّا أكثر منه أي شيء آخر. لكن والده، مايكل آنجلو فلوريو، كان إيطاليًّا، وهو مدرّس لغات ومؤلّفٌ أتى لانجلترا لاجئًا بروتستانتيًّا منذ عديد من السنوات. وحين اعتلت الكاثوليكية ماري تيودور العرش، وجدت عائلة فلوريو نفسها في المنفى مرّةً أخرى، وهامت على وجهها في أنحاء أوروبا، وهكذا التقط الصغير جون عددًا كبيرًا من اللغات. وحين عاد مرّةً أخرى إلى انجلترا وهو رجل راشد، صنع لنفسه اسمًا بتدريس الفرنسية والإيطالية، وبنشر سلسلة من كتب مبادئ المحادثة، وكذلك قاموس إنجليزي - إيطالي ناجح.

ترجم فلوريو كتاب **المقالات** بإلحاح من راعية ثريّة، هي كونتيسة بيدفورد، التي أمدّته أيضًا بحشد من الأصدقاء والمعاونين لمساعدته على اقتفاء أثر الاقتباسات وترويج الكتاب. قابل فلوريو المساعدة بتدبيج إهداءات منمَّقة، كانت مسهبة في بعض الحالات حتى إن المهدى إليهم كادوا لا يتمكنون من فهمها. تقول جملةٌ من رسالته لكونتيسة بيدفورد:

> **وهكذا تتآلف سماتهم مع نقائصك: بينما يحثّني العمل في وظيفة طويلة النفس، حقلٌ جميلٌ وواسعٌ في آن واحد، أنا وأرواحي التي تحترق في داخلي لو لم تثبتيني فيها بيدك الحلوة الهادية (التي أمسكت دائمًا بهذه الرغبة، سرعان ما ستتجاوز ما فكرتِ فيه، ثم تفكِّر في ما هو ليس أنت) أم أني لا ينبغي أن أضرّ بالتكهّن بميزتك المؤكّدة، حين يأتي الأمر لتقدير قيمتك.**

كان هذا مثالًا نموذجيًّا لما يحدث حين يترك فلوريو مستمرًا في العمل من دون مراجعة. كان يكتب مثل مونتاني بإفراز أفكار مركبة دائمًا مثلما يفرز العنكبوت خيوط الحرير. لكن بينما كان مونتاني يتحرّك دائمًا للأمام، كان فلوريو يلفّ في الاتجاه العكسي على نفسه ويضغط جُمَله في أشكال مغزلية باروكية أضيق حتى تختفي معانيها في نفثة

من التركيب اللغوي العجيب. يحدث السحر الحقيقي حين يلتقي الكاتبان. الطابع غير المصقول لمونتاني يكبح جماح التواءات فلوريو، بينما يعطي فلوريو لمونتاني خاصّية إنجليزية إليزابيثية، علاوة على الكثير من المتعة الخالصة. حين يكتب مونتاني: «**ألمانيّونا غارقون في النبيذ**»، يحوِّلها فلوريو إلى «سكّيرونا العربيديون محطمو الكؤوس جنود ألمان، بينما هم غارقون في كؤوسهم حتى الثمالة، وسكارى مثل الفئران». وهي عبارة ترجمها المترجم الحديث دونالد فريم كما يلي «مذؤوبون، وعفاريت، وجنٌّ أشقياء، وغيرهم من أمثال الغيلان وإناث الوحوش المركَّبة من حيوانات مختلفة والتي تنفث النار من أفواهها»؛ قطعة خالصة من مسرحية **حلم ليلة صيف**.

جون فلوريو، واجهة كتابه عالم الكلمات الجديد للملكة آنًا

(London: E. Blount & W. Barrett, 1611)

كان شكسبير وفلوريو يعرفان بعضهما البعض، وكان شكسبير بين أوائل قرّاء ترجمة كتاب **المقالات**. بل ربما قرأ أجزاء منه وهو مسودة مخطوطة قبل أن يُطبع؛ إذ تبدو علامات شاحبة من مونتاني يمكن تمييزها في **هاملت**، الذي نُشر قبل طبعة فلوريو. وتوجد في مسرحية تلت ذلك بكثير، هي مسرحية **العاصفة**، فقرة قريبة جدًّا من فلوريو بما لا يدع مجالًا للشكِّ في أنه قرأه. تقول شخصية جونزالو التي ألّفها شكسبير في مدح رؤيته لمجتمع مثالي في الحالة الطبيعية:

سأصل إلى أسمى غاياتي في هذه الجمهورية

بمخالفة كلِّ ما هو متّبع! سوف أحرِّم التجارة
بأنواعها، وألغي القضاء، والتعليم، والغنى، والفقر
وتشغيل الخدم، والعقود، والمواريث، وحدود الأراضي،
وفلاحتها، وزراعة الكروم، وسألغي استخدام المعادن، والقمح، والنبيذ، والزيت،
والمهن والحِرَف، فيغدو الرجال بلا عمل، جميعا[1].

وهو يشبه بشكل ملحوظ ما قاله مونتاني عن التوبينامبا، وقد وردت كالتالي في ترجمة فلوريو:

إنها أمّة... ليس لديها أي نوع من التجارة، ولا تعرف الآداب، ولا ذكاء لديها لمعرفة الأعداد، ولا تعرف القضاء، ولا عظمة السياسة؛ ولا الخدم، ولا الغنى، ولا الفقر، ولا العقود، ولا المواريث، ولا التقسيمات، لا يوجد عمل بل كسل؛ لا احترام للأقرباء، بل للعموم، لا كساء إلا الطبيعي، لا تسميد للأرض، لا استخدام للنبيذ، ولا الذرة، ولا المعادن.

ومنذئذ وجد إدوارد كابيل في نهايات القرن الثامن عشر هذا التوازي الواضح، وصارت رياضة شائعة أن يصطاد الناس علامات تأثير مونتاني على غير ذلك من مسرحيات شكسبير. أكثر مسرحية واعدة منها هي بالتأكيد **هاملت**، لأن بطلها كثيرًا ما يبدو كأنه مونتاني وقد أعطي مشكلة درامية ليحلّها ويعرضها على خشبة المسرح. حين يكتب مونتاني: «نحن، لا أعرف كيف، مزدوجون داخل أنفسنا»، أو يصف نفسه بسيلٍ غيرِ مترابطٍ من النعوت «حيٌّ وجريءٌ؛ عفيفٌ وفاسقٌ؛ ثرثارٌ وصموتٌ؛ قاسٍ ورقيقٌ؛ ماهرٌ وغبيّ؛ فظٌّ ولطيفٌ؛ كاذبٌ وصادقٌ؛ متعلمٌ وجاهلٌ؛ كريمٌ وبخيلٌ؛ ومسرفٌ»، يمكن أن يكون ناطقًا بمونولوج من المسرحية. وهو يلاحظ أيضًا أن أيَّ شخصٍ يسرف في التفكير في جميع ظروف أي فعل أو عواقبه يستحيل أن يفعل أيَّ شيء إطلاقًا؛ وهذا ملخَّصٌ متقنٌ لمشكلة هاملت الأساسية في الحياة.

---

(1) هذه الأبيات منقولة من ترجمة د. محمد عناني لمسرحية **العاصفة** (شكسبير، وليم. العاصفة. ترجمة وتقديم د. محمد عناني. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2004). وقد ذكر د. عناني في مقدّمته في القسم الخاص بالتناص انتباه النقّاد للتناص بين مونتاني وغيره من الكتاب، ومنهم شكسبير في مسرحية العاصفة، وخلص إلى أن الإشارات التي بها تناص بين شكسبير وغيره ليست مصادر له، بل مجرّد مادة خام لا علاقة لها بمصدر معيَّن، وذلك لاختلاف وظيفة هذه الإشارات لدى شكسبير ولدى من سبقوه، مع اختلاف سياق مسرحية شكسبير عن سياق هذه الإشارات لدى غيره، «فالمحاكاة تتطلّب تشابه السياق لا تشابه الأصداء اللفظية فحسب». (المترجمة).

ربما يكون سبب التشابهات أن الكاتبين مضبوطان على جو عالمهما المشترك في نهايات عصر النهضة، بكل ما فيه من ارتباك وحيرة. اعتُبِرَ مونتاني وشكسبير كلاهما أول كاتبَيْن **حديثَين** بحقّ، إذ أمسكا بناصية المعنى الحديث المحدَّد لكون الإنسان غير متأكّد إلى أي مكان ينتمي، ومن هو، وما الذي ينبغي أن يتوقّع أن يفعله. اعتقد الباحث في أدب شكسبير ج. م. روبرتسون أن جميع الأعمال الأدبيّة منذ هذين المؤلّفين يمكن تفسيرها على أنها تطوير لموضوعهما المشترك، ألا وهو اكتشاف الوعي المنقسم ذاتيًّا.

لا يمكن مدُّ التوازيات إلى مدًى بعيدٍ، لأن شكسبير كان كاتبًا دراميًا وليس كاتب مقالات، فيمكنه تقسيم تناقضاته بين الشخصيات ووضعها في صراع على خشبة المسرح؛ أما مونتاني فلا بد من أن يحتوي جميع التناقضات داخل نفسه. فرق آخر أن مونتاني لا يجلس وحيدًا على قمة النظام الأدبي في وطنه كما يفعل شكسبير في إنجلترا، من ثم أثار قدرًا أقل من الغيرة، ولم يأت أيٌّ من محطمي التماثيل لإسقاطه من على قاعدته بزعم أنه لم يكتب **مقالاته**، كما حدث كثيرًا مع شكسبير.

تقريبًا، لا أحد أتى لإسقاط مونتاني. من بين الاستثناءات القليلة واحد من أعظم «المعتقدين بأن أعمال شكسبير من كتابة مؤلفين آخرين»، أو الشكّاكين في شكسبير في القرن التاسع عشر؛ هو إجناتيوس دونيللي. ذهب دونيللي في نهاية عمل أدبي كبير ألّفه إلى أن فرانسيس بيكون كتب مسرحيات شكسبير، ويضيف دونيللي فصولًا إضافية تثبت أن بيكون كتب أيضًا كتاب **المقالات** لمونتاني، كما كتب كتاب **تشريح الاكتئاب السوداوي** لروبرت بيرتون وجميع أعمال كريستوفر مارلو. وجد دونيللي إشارات مغروسة في أنحاء كتاب **المقالات**، مثل فقرة يكتب فيها مونتاني: «أي شيء يشفي طفلًا من النفور العنيد من الخبز، ولحم الخنزير [بالإنجليزية **بيكون** bacon] أو الثوم، سيشفيه من جميع أنواع الملذّات». ويرد اسم فرانسيس عدّة مرّات في النص، مع الاعتراف بأنه ورد دائمًا بتهجئته الفرنسية فرانسوا François، ويشير عامّة إلى الملك الفرنسي فرانسوا الأول. مهما كان الأمر؛ فهذه أيضًا إشارة. ولكي يحسم دونيللي الأمور، يستشهد باكتشاف للسيدة بوت، التي نبّهته إلى تواتر ذكر الجبال في مسرحيات شكسبير [Mountains] أو مونتاني. وحيث إن بيكون كتب أعمال شكسبير، فأي إشارة لمونتاني في المسرحيات لا بد أنها تشير إلى أنه كتب كتاب **المقالات** أيضًا. ويسأل دونيللي: «هل يمكن أن يصدِّق أحدٌ أن كل هذا نتيجة للصدفة؟».

ويعترف أنه هو نفسه دهش من بعض أقسام كتاب **المقالات** التي تبدو حبلى بالإشارات، لكن تفسيرها أصعب، خصوصًا قصة امرأة شابة تخبط على ثدييها الأبيضين بعد ذبح شقيقها. ويستسلم دونيللي:

من السيدة الشابة؟ لا يوجد المزيد عنها في النصِّ. وهل الثديان الأبيضان هما من ذبحا شقيقها؟... ومن أين أتت الرصاصة؟ هل أتت من الثديين الأبيضين؟ كل هذا كلام فارغ... وتوجد المئات من مثل هذه الفقرات.

وحيث إن كتاب **المقالات** قد كُتب باللغة الفرنسية فلا بد من أن يبدو أنه يطرح مشكلة؛ لكن دونيللي لا يجد في الأمر مشكلة. تفسيره أن بيكون أراد نشر كتاب من الآراء الشكَّاكة، غير الملتزمة دينيًّا بالدِّين القويم، لكنه لم يجرؤ على فعل ذلك في إنجلترا، فرتّب لظهوره متخفيًا في شكل ترجمة. ولحسن الحظ، كان أنتوني شقيق فرانسيس بيكون في فرنسا في ذلك الوقت وكان يعرف مونتاني. فأغرى مونتاني بإعارة اسمه للحيلة، بينما أغرى شخص آخر فلوريو بلعب دور المترجم. وهكذا يكون بيكون قد كتب كتاب **المقالات**؛ ووقَّعه مونتاني؛ ومن المفترض أن فلوريو ترجمه فعلًا، لكن من الإنجليزية إلى الفرنسية. كان «مونتاني» رجلًا إنجليزيا بحق، بطريقة أدبية أكثر مما حلم لورد هاليفاكس أو ويليام هازليت به إطلاقًا.

جانب من القصّة له في الحقيقة شيء من الأساس. كان أنتوني بيكون يعرف مونتاني، وزاره مرتين، مرة في بدايات ثمانينيات القرن السادس عشر، ومرّة أخرى في العام 1590. كان يمكنه بسهولة إحضار نسخة من كتاب **المقالات** لأخيه، بما يعني أن فرانسيس ربما قرأه (بالفرنسية) قبل نشر مختاراته من **المقالات** في العام 1597. هذا يفسِّر شيئًا كثيرًا ما حيَّر الناس: كيف حدث أن استخدم بيكون ومونتاني العنوان نفسه بفارق بضع سنوات بينهما؟

لكن لا بد من أن يُقال إن العنوان هو نقطة التشابه الوحيدة تقريبًا. جميع الخصائص التي تشير إلى «الصفة الإنجليزية» لدى مونتاني غائبة تمامًا عند نظيره الإنجليزي. كتب بيكون بصرامة ثقافية أكثر من مونتاني. كان قاطعًا أكثر من مونتاني، وكان أكثر منه فلسفة، وأكثر مللًا بكثير. حين تناول بيكون موضوعات مثل القراءة أو السفر، كان يصدر أوامر: هذا ما يجب أن تقرأه، وذاك ما يجب أن تزوره في رحلة. فإذا سمح موضوع بتقسيمه إلى موضوعات فرعية، سيقسمه هكذا، وسيعلن عن كل قسم فرعيٍّ مسبقًا قبل أن يسير فيها حتى يصل إلى النهاية. شيء واحد يمكنك التأكدُ منه مع مونتاني، ألا وهو أنه لن يفعل بك ذلك أبدًا.

ما إن بدأ الحديث بين فلوريو وبيكون، حتى ظهرت كتب إنجليزية لا تعَدُّ ولا تحصى تحمل عناوينها كلمة مقالات. بعضها كان مستلهَمًا صراحة من مونتاني كما ترجمه فلوريو، وغيرها كان مستلهَمًا من بيكون، لكن في جميع الحالات تقريبًا أخذوا أسلوب الكتابة والتفكير من مونتاني. قليل جدًّا من المقالات المكتوبة باللغة الإنجليزية

بعد بدايات القرن السابع عشر كانت طعنات فكريّة قويّة فلسفيًّا عن موضوعات مهمّة؛ فقد كانت جميعها تقريبًا تنقّلًا بهيجًا من موضوع إلى آخر حول لا شيء بالتحديد. من الأمثلة النموذجية كتابات ويليام كورنواليس، الذي قرأ ترجمة فلوريو في مسودة مخطوطة مبكرة ونشر سلاسل من **المقالات** في 1600، و1601، و1616 و1617، يستكشف فيها موضوعات مثل «عن النوم»، و«عن عدم الرضا»، و«عن العجائب الخيالية»، و«عن بيوت الجعة»، و«عن الملاحظة واستخدام الأشياء».

حتى الذين لم يستخدموا العنوان كثيرًا ما كتبوا بطريقة شخصية فيها استطراد يسهل تمييزه. وحتى حينما صار الأدب الفرنسي أكثر اتزانًا ورسمية، أنتجت إنجلترا سلسلة من الكتاب غريبي الأطوار مثل روبرت بيرتون، الذي وصف طريقته في الكتابة في بحثه الموسع **تشريح الاكتئاب السوداوي**، بأنها مطاردة «مثل كلب رعي، ينبح على كل طائر يراه». بل إن الأغرب هو سير توماس براون، الذي كتب تحقيقات مقالية في الطبّ، والحدائق، وطرق الدفن، والمكتبات المتخيّلة، وأكثر من هذا بكثير في أسلوب باروكيٍّ ملتوٍ لا يشبه أسلوب أحد آخر (حتى أسلوب فلوريو) إلى درجة أنّ أيَّ جملة من جمل براون يسهل التعرف عليها فورًا بأنها من كتابته.

في ذروة هذه المرحلة من الاستقبال الإنجليزي لمونتاني المتميِّزة بكثرة الغرائب، أتى مترجم جديد لتسوية الأشياء الملتوية قليلًا؛ هو تشارلز كوتون، الذي ظهرت ترجمته الجديدة في العامين 1685 و1686، ليس بعد فترة طويلة من وضع كتاب **المقالات** في قائمة الكتب المحظورة في فرنسا. كان كوتون أكثر دقّة من فلوريو، وجلب جيلًا جديدًا من القرّاء الإنجليز لكتاب **المقالات**. والمدهش، في مؤلِّف هذه الترجمة الأكثر ضبطًا أنه كان شخصيًّا من الشخصيات الأكثر مشاكسة وحبًّا للفنِّ من فلوريو. كانت أحقّية كوتون في الشهرة في أيامه قائمة على قصائده الساخرة عن البراز. وصف نفسه ذات مرة بأنه «شماليٌّ بارد» عمله المفضل احتساء الجعة في الحانة طوال المساء قبل العودة للاعتكاف في مكتبته لكي:

> **يكتب رسائل ماجنة، ويترجم أحيانًا**
> **حكايات قديمة عن مقاطعة جويين وأحواضها،**
> **ويراكم النصال الفرنسية القديمة بلا تنظيم.**

مكتبة
t.me/t_pdf

وبعد موت تشارلز كوتون مرّت سمعته بعد وفاته بتحوّلات تضارع في غرابتها ما حدث لمونتاني أو شكسبير، لكن على نطاق أضيق. اعتبر القرن التاسع عشر أبياته الشعرية الساخرة مثيرة للاشمئزاز، وأعجب به لا بسببها، بل بسبب الشعر ذي الطبيعة

الغنائيّة الذي تجاهله معاصروه. وفي ما بعد، انزلق هذا أيضًا إلى الغموض. واحتفى به الناس بالأحرى بسبب فصل عن صيد سمك السلمون المرقّط (الترويت) بدغدغة بطن السمكة، أسهم به في كتاب **صياد السمك الكامل** لإيزاك والتون، وهو كتاب يتبع نهج مونتاني بشدّة. واليوم، نُسي هذا الأثر لكوتون في معظم الأوساط، لكن ليس بين صيادي سمك السلمون المرقّط عن طريق دغدغة بطن السمكة، ويتذكّره الناس بسبب عمله الذي على نهج مونتاني أكثر من أي شيء آخر.

تشارلز كوتون، طباعة على الحجر (ليثوجراف)
نقلا عن لوحة بريشة سير ب. لايلي، في أي. وولتون، الصياد الكامل.
مجموعة مقتنيات خاصة/كين وولش/ذا بريدجمان آرت ليبراري.

ظلت ترجمة كوتون الترجمة النموذجيّة لكتاب **المقالات** عبر قرنين، وضمت مونتاني إلى فصيل جديد من الكتاب الأقل أخذًا بالأسلوب الباروكي، والأكثر اهتمامًا بحصر الحقائق النفسيّة للحياة اليومية بدلًا من غزل شبكات الخيال. لاحظ الشاعر ألكسندر بوب في نسخته من كوتون أن «هذا (في رأيي) أفضل كتاب كُتِب لمعرفة معلومات عن السلوكات؛ فهذا المؤلّف لا يقول إلا ما يحسّه الجميع في قلوبهم». ونشر مقالًا في جريدة **الاسبكتاتور** الأدبية يمدح عادة مونتاني في نسج الخبرات الشخصية والخصائص الشخصية في كتابه، وهي ممارسة قد تكون انغماسًا مترفًا في الذات لكنّها كانت مسليّة. وعلّق الناقد الفرنسي تشارلز ديديان بأن الإنجليز سعدوا بالسماح لكاتب بأن يواصل الكتابة عن نفسه، طالما فعل ذلك بشكلٍ لطيفٍ.

ومنذ الآن فصاعدًا، لن يوجد نقص في كُتَّاب المقالات الشخصيّة الإنجليز الذين

لا يفعلون إلا ذلك. كانوا جميعًا ممن سمّاهم الناقد وولتر باتر «العائلة الحقيقيّة لمونتاني»، وقد أظهروا «الحميميّة، والذاتيّة الحديثة، التي يمكن تسميتها العنصر المونتانيسكي (المونتاني) في الأدب». كان من بينهم كاتب المقالات المشهور لاي هانت، الذي ملأ نسخته من كتاب **المقالات** بخطوط تحت أجزاء معيّنة وتعليقات على الهوامش، كثيرًا ما تكاد تكون حمقاء. حين يحكي مونتاني قصّة عن رؤيته لصبيٍّ بلا يدين تمكّن من امتشاق سيف ثقيل وفرقع بالسوط مثل أي حوذيٍّ في فرنسا، يكتب هانت بعناية في الهامش: «بذراعيه طبعًا. لكن ما زال الموضوع مثيرًا للدهشة».

وكان ويليام هازليت معجبًا ثقافيًّا أكثر فطنة؛ فهو الذي مدح مونتاني لأنه يعدّ نفسه ليصير فيلسوفًا. يعطي تقويم هازليت للمقوّمات التي تصنع كاتب مقالات جيِّدًا مثالًا لما يميل الإنجليز اليوم للبحث عنه لدى مونتاني. يقول هازليت إن مثل هؤلاء الكتّاب يجمعون غرائب من حياة البشر كما يجمع المتحمِّسون للتاريخ الطبيعي الأصداف، والأحافير المتحجِّرة أو الخنافس وهي تسير على طول ممرٍّ في الغابة أو على شاطئ البحر. وهم يأخذون الأشياء كما هي عليه في الواقع لا كما ينبغي أن تكون. وكان مونتاني أفضلهم جميعًا لأنه سمح لكل شيء أن يكون ما هو عليه، بما في ذلك نفسه، وعرف كيف **ينظر** إلى الأشياء. والمقال المثالي في رأي هازليت

> **يسجّل موجزًا عن ملبسنا، ومزاجنا، وكلماتنا، وأفكارنا، وأفعالنا؛ يظهر لنا ما نحن عليه، وما ليس نحن؛ يعرض لعبة الحياة البشريّة بأكملها أمامنا، ويجعلنا مشاهدين مستنيرين بخصوص مشاهدها العديدة الملوّنة، يمَكِّننا (إذا أمكن) من أن نصير ممثلين معقولين إلى درجة محتملة في المشهد الذي علينا أن نمثِّل فيه دورًا.**

بعبارة أخرى، المقال هو الجنس الأدبي الذي يساعدنا على تعلّم كيف تُعاش الحياة، أكثر من أي رواية أو سيرة.

سيحرّر ابن هازليت، واسمه أيضًا ويليام هازليت، ترجمة كوتون بالرجوع إلى نسخ من رسائل مونتاني، وجريدة سفره الإيطالية، وسيرة موجزة لحياته، ليصدر **الأعمال الكاملة** له في العام 1842. صارت هذه الطبعة هي الطبعة النموذجية في بريطانيا عبر السنوات القادمة؛ وكرّر ابنه مراجعتها في العام 1877، منتجًا مونتاني الذي حرَّره كوتون الذي حرَّره هازليت الابن الذي حرَّره هازليت الحفيد. وعَرَّف آل هازليت في ما بينهم مونتاني باللغة الإنجليزية بشكل أكثر ديمومة حتى من فلوريو. أحب القراء هذه النسخة الجديدة من مونتاني، بسبب هذه الفضائل الهازلتية في المقام الأول: انتباهه للحياة اليومية كما كانت عليه فعلًا، وقدرته على الكتابة بشكلٍ سار عنها من دون قيود أدبية رسميَّة.

استمرَّ هذا الأسلوب بدءًا من القرن التاسع عشر وامتد حتى القرن العشرين، ويبدو أنه مستعدٌ للاستمرار في القرن الحادي والعشرين. أنتج كل عصر أنصارًا جددًا لمونتاني، ويستمر أسلوبه اليوم من خلال ما لا يُعدّ ولا يُحصى من كتّاب المقالات وكتّاب عواميد الصحف التي تصدر في نهاية الأسبوع، الذين يكتبون أعمالًا سريعة الزوال، والذين يحافظون على «العنصر المونتانيّ في الأدب» حيًّا سواء علموا بما يفعلون أم لم يعلموا.

الوحيد من بين جميع ورثة مونتاني على الجانب الآخر للقناة الذي يستحق أن تقال عنه آخر كلمة، هو رجل إنجليزي - أيرلندي اسمه لورانس ستيرن Laurence Sterne، وهو مؤلّف من القرن الثامن عشر، ألّف رواية **تريسترام شاندي** Tristram Shandy.. تحتوي روايته العظيمة، إذا أمكن تصنيفها هكذا، على عدّة عقد واضحة بالنسبة لسلفه الفرنسي، وهي مليئة بالألعاب والمفارقات والاستطرادات. الإهداءات والاستهلالات التي يجب أن تأتي في بداية الرواية تظهر في جميع أنحائها بترتيب خاطئ. تظهر «مقدّمة المؤلف» في الجزء الثالث، فصل 20. ووضعت صفحة بيضاء عند نقطة محدّدة، بحيث يتمكّن القراء من الإسهام بصورة للشّخصيّة بحسب تخيلاتهم الخاصّة. وتقدّم صفحة أخرى سلسلة من الرسوم الخطّيّة تزعم تلخيص نمط الاستطرادات الموجود في الكتاب.

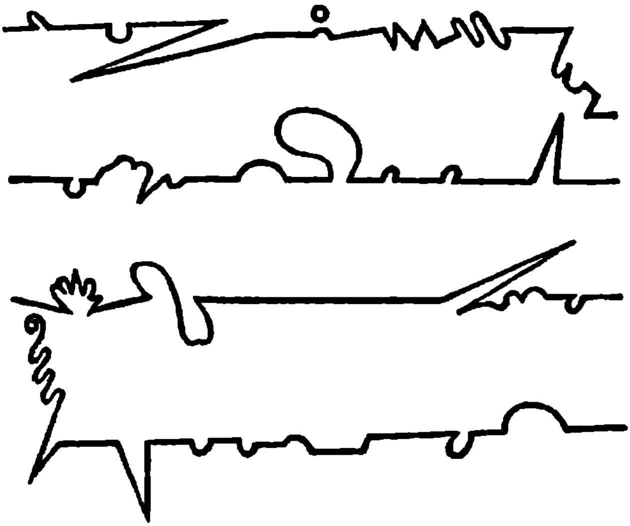

رسم تخطيطي للاستطرادات في كل جزء، من ل. ستيرن،
حياة وآراء تريسترام شاندي، ج 6 ن فصل 40 (نيويورك: ج. ف. تايلور، 1904).

يتأرجح الكتاب باستمرار على حافّة حلّ العُقَد. أيما حبكة ظهرت واعدة في البداية تتبخَّر؛ والانقطاعات والانعطافات تسيطر على السّرد الروائي بالكامل. ويفكر ستيرن عند نقطة ما: «ألم أعِد العالم بفصل عن العُقَد؟». و«فصلان عن الجانبين المعدول والمقلوب لامرأة؟ وفصل عن شوارب الحيوانات؟ وفصل عن الأمنيات؟ وفصل عن الأنوف؟ لا، لقد فعلت ذلك: فصل عن تواضع خالي توبي؛ ناهيك عن فصل عن الفصول، سأنهيه قبل أن أنام». إنه مثل مونتاني في السرعة.

ويقول ستيرن، لكن لا توجد طبعًا قصّة تولي انتباهًا للعالم كما هو يمكنها أن تكون غير ذلك. لا يمكنها أن تمضي في خطٍّ مستقيمٍ من نقطة بدايتها إلى نهايتها. الحياة معقّدة؛ لا يوجد مسارٌ واحدٌ يتبعه المرء.

> **هل يمكن لكاتب التاريخ أن يسوق تاريخه قدمًا، كما يسوق المكاري جحشه، - في خط مستقيم للأمام - مثلًا، من روما على طول الدرب إلى لوتريتو، من دون حتى إدارة رأسه ولو مرّة جانبًا إما ناحية اليمين أو ناحية اليسار - وقد يغامر بقراءة الحظِّ لك لمدّة ساعة حين كان ينبغي أن يصل إلى نهاية رحلته - لكن من وجهة النظر الأخلاقية الأمر مستحيل: لأنه لو كان رجلًا لديه أقلّ ما يمكن من الروح سيكون عليه الانحراف خمسين مرّة عن الخطِّ المستقيم.**

ومثل ما كتبه مونتاني عن رحلته إلى إيطاليا، لا يمكن اتهام ستيرن بالانحراف عن طريقه، لأن طريقه هو الاستطرادات. يقع مساره، بحكم تعريفه، في أيّ اتجاه يحدث أنه ضلّ فيه.

بدأت رواية **تريسترام شاندي** تقليدًا أيرلنديا سيصل إلى حدّه الأقصى مع **يقظة فينيجان** لجيمس جويس، وهي رواية تنقسم إلى تفرعات جانبيّة وتيّارات من التداعي الحرّ عبر مئات من الصفحات حتى تستدير في النهاية على نفسها، وينشبك آخر نصف جملة مع نصف الجملة التي بدأ بها الكتاب. هذا أسلوب شديد التنميق بالنسبة لستيرن، أو لمونتاني، الذي تفادى النهايات المنمّقة لكتاباته. فبالنسبة لكليهما، ينبغي ترك الكتابة والحياة تتدفّقان، حتى لو عنى هذا مزيدًا ومزيدًا من التفرع إلى استطرادات من دون الوصول أبدًا إلى حلٍّ. ينشغل ستيرن ومونتاني باستمرار بعالم ينتج دائمًا أشياء أكثر يمكن الكتابة عنها، فلماذا التوقف؟ هذا يجعل من كليهما فلاسفة بالصدفة: اثنان من ذوي النّزعة الطبيعية في رحلة ميدانية إلى روح الإنسان، من دون خرائط أو خطط، من دون أن تكون لديهما أدنى فكرة عن أين سينتهيان، أو ماذا سيفعلان حين يصلان إلى هناك.

17. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟

ج: تأمَّلْ كلَّ شيءٍ بعمْقٍ ولا تندمْ على شيء

لا، لست نادمًا على شيء:

بعض الكتاب يكتبون كتبهم فحسب. وغيرهم يعجنونها مثل الصلصال، أو يبنونها بالتراكم. من بين الأخيرين جيمس جويس، الذي ظهرت روايته **يقظة فينيجان**[1] عبر سلسلة من المسودات والطبعات المنشورة، وصولًا إلى الجمل الطبيعية إلى حدٍّ ما للنسخة الأولى:

Who was the first that ever burst?

- became weird mutants

Waiwhou was the first thurever burst?

لم يخفِ مونتاني معالم كلماته مثلما فعل جويس، لكنه عمل على مراجعة ما كتبه، والإسهاب فيه ومراكمته. وعلى الرغم من أنه كان يعود لكتابته باستمرار، يبدو أنه لا يكاد يفهم أبدًا الدافع الملحّ لشطب ما كتب؛ لا لشيء إلا ليستمرَّ في إضافة المزيد. كانت روح الندم غريبة عليه في الكتابة، كما كانت غريبة عليه في الحياة، حيث ظلَّ مرتبطًا بشدة **بحب القدر (آمور فاتي)**؛ الذي يعني قبول كل ما تأتي به الحياة بابتهاج.

كان هذا مخالفًا لعقائد المسيحية، التي كانت تصرّ على ضرورة أن يظل الإنسان نادمًا دائمًا على ما اقترف في الماضي من أفعال سيئة، لكي يستمر في مسح لوح الأردواز حتى ينظف ويعطي نفسه بداية جديدة. كان مونتاني يعرف أن بعض ما فعله في

(1) Finnegans Wake: آخر روايات جيمس جويس، صدرت في العام 1939. كُتبت في معظمها بأسلوب الكتابة الرمزية حيث أُدمجت اللغة الإنجليزية مع مصطلحات ومفردات قاموسية أو جذور لكلمات. رأى كثير من النقاد أن استخدام هذا التكنيك في الكتابة كان محاولة من جويس لإعادة خلق تجربة النوم والأحلام. تبقى هذه الرواية محدودة الانتشار جدًا بين القراء. والاقتباس الورد هنا تصعب ترجمته بحيث يعطي دلالة عما أراده جويس، ولذلك فضّلنا عدم ترجمته.

الماضي لم يعد يعني لديه أي شيء، لكن كان يرضيه أن يزعم أنه لا بد من أنه كان إنسانًا مختلفًا وقتها، ويترك الأمر عند هذا الحدِّ. كانت نفوسه الماضية شديدة الاختلاف مثل مجموعة من النّاس في حفل. وبالضبط كما لن يفكّر في الحكم على ملء غرفة من المعارف، لكلٍّ منهم أسبابه ووجهة نظره لتفسير ما فعلوه، فلن يفكِّر أيضًا في الحكم على النسَخ السابقة من مونتاني. كتب: «كلنا مكوّنون من رُقَع، وهكذا نكون بلا شكل ومختلفين في التكوين حتى إن كل قطعة صغيرة، وكل دقيقة تلعب ألعابها». لا توجد وجهة نظر شاملة يمكنه منها أن ينظر إلى الخلف، ويبني مونتاني الواحد المتّسق الذي كان يحبّ أن يكونه. وحيث إنه لم يحاول إزالة نفوسه السابقة من الحياة، فلم يكن لديه سبب ليفعل ذلك في كتابه. نما كتاب **المقالات** معه خطوة بخطوة لمدة عشرين عامًا؛ كانت ما كانت، وكان سعيدًا بتركه للمقالات على ما هي عليه.

لكن رفضه للندم لم يمنعه من إعادة قراءة كتابه، وإدخال إضافات عليه على فترات متقاربة. لم يصل أبدًا إلى أن يضع قلمه ويعلن: «الآن، أنا، مونتاني، قلت كل ما أريد قوله. لقد حفظت نفسي على الورق». استمرَّ في الكتابة طوال حياته. وكان يمكن لهذه العملية أن تستمرَّ إلى الأبد:

> **من ذا الذي لا يرى أني بدأت السير في طريق سأستمر في السير فيه من دون توقّف ومن دون بذل مجهود، طالما وُجد حبر وورق في العالم؟**

الشيء الوحيد الذي أوقفه أخيرًا موته. وكما كتبت فيرجينيا وولف، توقّف كتاب **المقالات** «لا لأن المقالات وصلت إلى نهايتها، بل لأنها توقّفت بمنتهى السرعة».

قد يكون بعض هذا العمل المستمرّ استجابةً لتشجيع الناشرين. حقّقت الطبعات الأولى مبيعات جيِّدة جدًّا، حتى اتّضح وجود سوق لطبعات جديدة أفضل وأكبر. وكان لدى مونتاني الكثير مما يمكن إضافته في العام 1588، بعد رحلته الكبيرة وخبرته في وظيفة العُمدة؛ بل كتب أكثر في السنوات التي أعقبت ذلك، حين طرأت على ذهنه أفكار جديدة لا بد منها بعد خبرته المزعجة في بلاط الملك اللاجئ، وهي ليست بالضرورة أفكار ذات علاقة بالشؤون الفرنسية الجارية، بل لها علاقة بالاعتدال، والحكم السليم على الأمور، ونقائص الحياة الدنيا، والكثير من الموضوعات الأخرى المفضّلة لديه.

نُشرت طبعة العام 1588 عن دار نشر آبيل لانجلير ذات السمعة الطيبة التي تقع في باريس، لا عن ناشره السابق في بوردو، وقدّمت صفحة العنوان لهذه الطبعة الكتاب بأنه «أكبر من الطبعة السابقة بثلث حجمها، وفيه ستمائة إضافة على الطبعتين السابقتين». هذا

صحيح تقريبًا، لكنه يقلّل من المدى الحقيقي للزيادة؛ فطبعة العام 1588 من كتاب **المقالات** كانت تقريبًا ضعف حجم طبعة العام 1580. وأضاف الجزء الثالث ثلاثة عشر فصلًا طويلًا، والمقالات التي كانت موجودة في الطبعتين السابقتين طالتها الإضافات أيضًا.

حقّق مونتاني الجديد لعام 1588 نجاحًا كبيرًا في العالم، بينما أظهر مونتاني الحقيقي الذي يتعقّب خطوات هنري الثالث، ويخطّط لتعافيه مع صديقته الجديدة ماري دي جورناي في بيكاردي درجةً جديدةً مذهلةً من الثّقة. ولم يندم مونتاني على الطبيعة الاستطرادية والشخصية للكتاب، كما ينبغي لشخص رفض فكرة التراجع عن خطاياه؛ بل لم يتردّد في أن يطلب مطالب من أي شخص يدخل عالمه. وكتب الآن عن مَيْله إلى التجوال: «القارئ غير المنتبه هو الذي يخسر موضوعي، وليس أنا». اختفت حجّة الكتابة للعائلة والأصدقاء وحدهم؛ وصار مونتاني يعرف ما لديه، وازدرى أي فكرة لتخفيفه، أو إخفائه، أو جعله مناسبًا للتيار السائد ليناسب التقاليد.

لكن كان ينتابه أحيانًا نوع أكثر خصوصية من الشكّ في الذّات مصاحبٌ للكتابة. لم يتمكّن من التقاط الكتاب من دون أن يقع في تشوّش إبداعي. «من جهتي، لا أحكم على قيمة أي عمل آخر بوضوح قليل بقدر ما أحكم بذلك على عملي؛ وأنا أضع كتاب **المقالات** الآن موضعًا متدنيًّا آنًا، وموضعًا رفيعًا آنًا آخر، من دون أي اتّساق أو تأكّد». وكلّما قرأ كلماته التي كتبها، يهاجمه هذا المزيج من الأحاسيس، وتنبثق المزيد من الأفكار؛ فيخرج قلمه من مكمنه مرّة أخرى.

وجدت طبعة العام 1588 من كتاب **المقالات** سوقًا توّاقًا إليها، كما توقّع الناشر، على الرغم من أن بعض القرّاء الذين التهموا طبعة العام 1850 باعتبارها تلخيصًا للحكمة الرواقية دهشوا بما وجدوه الآن. وبدأت الأصوات المعارضة تُسمع. هل ربما صار مونتاني مفرطًا قليلًا في الاستطراد، ومفرطًا قليلًا في الطابع الشخصيّ؟ هل كان يخبرنا أكثر من اللازم عن عاداته اليومية؟ هل وجدت علاقة أصلًا بين عناوين فصول كتابه والمادة التي تحتويها؟ هل كان كشفه لحياته الجنسيّة ضروريًّا حقًّا؟ وكما أشار صديقه باسكير حين كانا معًا في بلويز، هل ربما فقد استيعابه للغة نفسها؟ هل أدرك أن كتابته كانت مليئة بالكلمات الغريبة، والألفاظ المستحدثة والتباهي بالعامّية؟

أيما كانت أشكال عدم اليقين التي يكنّها مونتاني، لم يمسّه أيًّا منها بشدة. إذا كانت هذه الأنواع من النقد قد أدّت به إلى مراجعة أي شيء، فقد كان يجعلها أكثر استطرادًا في العادة، وأكثر اصطباغًا بالطابع الشخصي، وأكثر غزارة أسلوبيًّا. وخلال السنوات الأربع التي بقيت له في الحياة بعد نشر طبعة العام 1588 من كتاب **المقالات**، استمرّ على هذا المنوال، يضيف طيّة على طيّة، وصخرة فوق صخرة.

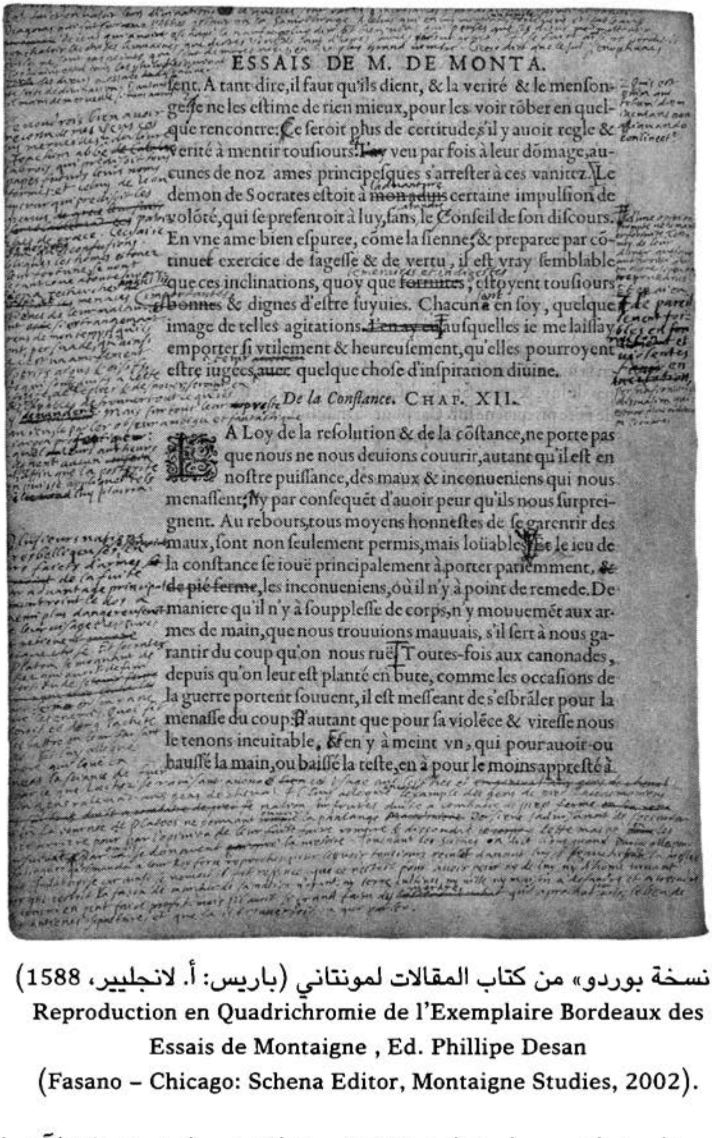
ESSAIS DE M. DE MONTA.

sent. A tant dire, il faut qu'ils dient, & la verité & le mensonge: ie ne les estime de rien mieux, pour les voir tõber en quelque rencontre. Ce seroit plus de certitude, s'il y auoit regle & verité à mentir tousiours. I'ay veu par fois à leur dõmage, aucunes de noz ames principesques s'arrester à ces vanitez. Le demon de Socrates estoit à mon aduis certaine impulsion de volõté, qui se presentoit à luy, sans le conseil de son discours. En vne ame bien espuree, cõme la sienne, & preparee par cõtinuel exercice de sagesse & de vertu, il est vray semblable que ces inclinations, quoy que fortuites, estoyent tousiours bonnes & dignes d'estre suyuies. Chacun a en soy, quelque image de telles agitations. I'en ay eu ausquelles ie me laissay emporter si vtilement & heureusement, qu'elles pourroyent estre iugees, auoir quelque chose d'inspiration diuine.

De la Constance. CHAP. XII.

LA Loy de la resolution & de la cõstance, ne porte pas que nous ne nous deuions couurir, autant qu'il est en nostre puissance, des maux & inconueniens qui nous menassent, ny par consequẽt d'auoir peur qu'ils nous surpreignent. Au rebours, tous moyens honnestes de se garentir des maux, sont non seulement permis, mais loüables. Et le ieu de la constance se ioue principalement à porter patiemment, & de pié ferme, les inconueniens, où il n'y à point de remede. De maniere qu'il n'y à soupplesse de corps, n'y mouuemẽt aux armes de main, que nous trouuions mauuais, s'il sert à nous garantir du coup qu'on nous rue. Toutes-fois aux canonades, depuis qu'on leur est planté en bute, comme les occasions de la guerre portent souuent, il est messeant de s'esbrâler pour la menasse du coup: d'autant que pour sa violẽce & vitesse nous le tenons ineuitable, & en y à meint vn, qui pour auoir ou haussé la main, ou baissé la teste, en à pour le moins apresté à

«نسخة بوردو» من كتاب المقالات لمونتاني (باريس: أ. لانجلير، 1588)
Reproduction en Quadrichromie de l'Exemplaire Bordeaux des Essais de Montaigne , Ed. Phillipe Desan
(Fasano – Chicago: Schena Editor, Montaigne Studies, 2002).

لقد أرخى الزمام لنفسه بطبعة العام 1588، وانطلق في العدو تمامًا الآن. لم يضف المزيد من الفصول، لكنه غرس حوالى ألف مقطوعة جديدة، بعضها طويل إلى حدٍّ يجعله كافيًا لعمل مقال بأكمله من مقالات الطبعة الأولى. صار الكتاب بالفعل حوالى ضعف حجمه الأصلي، ونما الآن بثلث جديد من الحجم. وحتى الآن، شعر مونتاني بأنه يمكنه فقط أن يشير إلى العديد من الأشياء، فلا يملك الوقت ولا الميل إلى العمل بدقّة. «من أجل أن أُدخل المزيد في الكتاب، أكوِّم فقط رؤوس الموضوعات. فإذا

كنت سأضيف إلى تسلسلها، لضاعفت حجم هذا الكتاب أضعافًا». وكما قال عن بلوتارخ: «كل ما عليه أن يشير بأصبعه إلى حيث يجب أن نذهب، إذا أحببنا». الحرّيّة هي القاعدة الوحيدة، والاستطراد هو السبيل الوحيد.

كتب مونتاني في صفحة العنوان من إحدى النسخ التي عمل فيها الكلمات اللاتينية التالية المأخوذة عن فرجيل: «viresque acquirit eundo» «إنه يجمع القوى أثناء تقدّمه». ربما كان هذا يشير إلى مدى حسن حال كتابه تجاريًا؛ والأرجح أنه كان يصف طريقة جمعه للمادة بالتراكم، مثل كرة الثلج حين تتدحرج هابطة التل. بل من الواضح أن مونتاني كان يخشى فقْدِ تحكّمه في مادة الكتاب. وحين أعطى صديقه أنطوان لويسيل نسخة من طبعة العام 1588، كتب عليها بخط يده يطلب من لويسيل أن يخبره برأيه فيها: «لأني أخشى أني أتحوّل للأسوأ كلّما مضيت في الكتابة».

من الحقيقي أن فهم كتاب **المقالات** بدأ يحتاج إلى معاناة لتداخل حدود طبعاته. يمكن للمرء أحيانًا استخلاص هيكل الطبعة الأولى من خلال التشابكات بين الطبعات، لا سيما في الطبعات الحديثة التي تضع حروفًا صغيرة لتحديد المراحل الثلاث. يشير حرف أ إلى طبعة العام 1580، ويشير حرف ب إلى طبعة العام 1588، ويشير حرف ج إلى كل ما صدر بعد ذلك. يمكن أن تكون النتيجة شبيهة باختلاس نظرة إلى الحدود العامّة لمعبد حجريٍّ يخصّ الخمير[1] من خلال كتلة من أوراق الشجر الاستوائية. يمكن أن يتساءل المرء متعجّبًا إلى ماذا كان يمكن أن يشير حرف الـ«د». لو كان مونتاني قد عاش ثلاثين عامًا أخرى، فهل كان سيستمر في الإضافة إلى الكتاب حتى يصير من المستحيل قراءته فعلًا، مثل الفنان في رواية «تحفة مجهولة» لبلزاك الذي كان يضيف مزيجًا من الألوان للوحته بحيث جعلها كتلة لا معنى لها من السواد؟ أم كان سيعرف بالضبط أين يقف؟

لا سبيل للإجابة عن هذا السؤال، لكن يبدو أن مونتاني في زمن موته لم يكن يعتقد بأنه وصل إلى هذا الحدِّ بعد. أنتج مونتاني في السنوات الأخيرة من عمله على الأقلّ نسخة فيها الكثير من الحواشي الشارحة، والتي ما إن غدت بين أيدي محرِّرتها بعد موت المؤلف حتى صارت أساس جميع الطبعات التالية لكتاب **المقالات** لمونتاني تقريبًا. كانت هذه المحرِّرة هي تلك المرأة الشابّة غير المعتادة التي دخلت حياته في باريس وهو يكاد ينهي طبعة العام 1588، ألا وهي ماري دي جورناي.

---

(1) امبراطورية الخمير Khmer مملكة قامت في بلاد الهند الصينية بين القرن التاسع والخامس عشر، كانت إحدى أقوى الامبراطوريات في جنوب شرق آسيا.

18. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟
ج: تخلَّ عن التحكُّم

الابنة والمُريدة:

ماري لي جارز دو جورناي Marie Le Jars De Gournay، أول أعظم محرِّرة وناشرة لمونتاني، فهي منه بمثابة القديس بولس من مسيحه، أو لينين من ماركِسِه، كانت امرأة ذات حماسة جارفة وعواطف متّقدة، ألقت بكل هذا بلا كوابح على مونتاني في لقائهما الأول في باريس؛ وصارت أهم امرأة في حياته إطلاقًا، أهم حتى من زوجته، وأمه، وابنته، هذا الثلاثي الهائل في أسرة مونتاني. وستعيش بعده مثلهنَّ جميعًا؛ وهو أمر لا يثير الدهشة في حالتها، حيث كانت تصغره باثنين وثلاثين عامًا. تقابلا حين كان مونتاني في الخامسة والخمسين، وكانت هي في الثالثة والعشرين.

بدأت حياة ماري دي جورناي في العام 1565، مع كثير من التشابهات مع حياة مونتاني وفارقَيْن مهمَّين: كانت امرأة، وكانت أموالها أقلّ. أسرتها من النبلاء الريفيين الصغار، عاشت جزءًا من حياتها في باريس وجزءًا في قصر بيكاردي وضَيْعَةِ جورناي - سور - آرنود، التي اشتراها والدها في العام 1568. وحين بلغت ماري سن الرشد أخذت اسمها الأخير من هذه الضيعة. هذا الحق كان محفوظًا فقط للأبناء، لكن كان من العادي بالنسبة لها أن تتجاهل هذه القاعدة. كانت دائمًا مصمِّمة على أن تطلب من الحياة الكثير، أكثر مما يسمح لها به جنسها ومكانتها.

مات والدها في العام 1577. كانت هذه ضربة شخصية لها وكارثة للأسرة. فقد تداعت حياتهم وتفتّت من دون دخله وإدارته لشؤون الأسرة. بل كان العيش في باريس أبهظ تكلفة من العيش في بيكاردي، فتخلّوا عن حياة المدينة بالكامل تقريبًا. وبحلول العام 1590 صارت ماري محبوسة في عالم ريفيّ لم يكن يناسبها كثيرًا؛ لكنّها الآن مراهقة عنيدة، تفعل كل ما في وسعها لتعليم نفسها باستخدام الكتب الموجودة في مكتبة العائلة. وقد أعطت نفسها أفضل ما في وسعها من رعاية كلاسيكية بقراءتها للكتابات اللاتينية مع ترجماتها الفرنسية. كانت النتيجة معرفة أشبه بالرّقَع، ليست نظامية لكنها اكتُسبت بدافع عميق.

ماري دي جورناي. صورة شخصية لها على صفحة العنوان في كتابها
Les Advis (Paris: T. du Bray, 1643).

ربما كان مونتاني سيقرُّ هذا التعليم الفوضوي نظريًّا. أما عمليًّا، فلا يمكن تخيّله راضيًا بما حصلت عليه ماري دي جورناي، ومن شأن هذا أن يقلِّل من ثقته في نفسه. يمكن لمونتاني أن يتحمّل التعلم الارتجالي، وكان يمتعض من إجلال والده للكتب. كانت جورناي فخورة بإنجازاتها لأنها كان عليها أن تحارب من أجلها، وكان من السهل دائمًا أن يضعها من أمامها في موقع الدفاع. كانت كثيرًا ما تشعر بأنها تعرّضت للضحك عليها. نعم، فقد قالت إن الناس اعتقدوا طبعًا أن من المضحك مقابلة

> **امرأة تتظاهر بأنها تتعلّم من دون أن تذهب إلى مدرسة رسمية، لأنها علَّمت نفسها اللاتينية بالحفظ عن ظهر قلب، يعاونها وضع الترجمة بجوار الأصل، ولن تجرؤ بالتالي أن تتحدّث بهذه اللغة خوفًا من أخذ خطوة زائفة؛ امرأةٌ متعلّمةٌ لا يمكنها بشكلٍ مريبٍ ضمان وزن بيت شعر لاتيني؛ امرأةٌ متعلمةٌ من دون لغة يونانية، ومن دون لغة عبرية، ومن دون صلاحية لتقديم تعليق علمي على المؤلفين.**

ظلّت نغمة صوت جورناي غاضبة وأتعبتها في جميع نواحي حياتها. وقد وصفت

نفسها شعرًا في قصيدة بعنوان **صورة ذاتية**، صوَّرت فيها نفسها كتلة متشابكة من العقل والعاطفة، عاجزة عن إخفاء مشاعرها؛ وكتاباتها تثبت ذلك.

ويظهر المزيج نفسه في ما تخبرنا به عن لقائها الأول مع مونتاني، أولًا على صفحات الكتاب ثم شخصيًّا. عثرت ذات يوم في أواخر مراهقتها على نسخة من كتاب **المقالات**، ويبدو أن ذلك حدث بالصدفة. كانت تجربة مدمِّرة شديدة الوطأة، حتى إن أمها اعتقدت بأنها أصيبت بالجنون؛ ووصلت إلى درجة إعطاء البنت نبات الخربق[1]، وهو علاج تقليدي للجنون، أو هكذا تقول جورناي نفسها، وربما كانت تبالغ لتترك لدى القراء أثرًا قويًّا. شعرت جورناي أنها وجدت نفسها الأخرى في مونتاني، الشخص الوحيد الذي انسجمت معه انسجامًا حقيقيًّا، والوحيد الذي فهمها. وكانت هذه هي التجربة التي خاضها الكثير من قرائه عبر السنين.

كيفَ عرف كل هذا عني؟ (برنارد ليفين).
يبدو أنه نفسي ذاتها (آندريه جيد).
ها هو ذا «أنت» تتجلّى فيها «أناي»؛ ها هنا تمّحي جميع المسافات. (ستيفن زفايج).

تاقت جورناي لمقابلة مونتاني شخصيًّا، لكنها حين استفهمت عن الأمر، أتتها شائعات بأنه مات. ثم حين كانت في باريس مع أمّها بعد ذلك ببضع سنوات، في العام 1588، سمعت أخيرًا أنه على قيد الحياة. ليس هذا فقط، بل كان الجميع يتكلّمون عنه أيضًا، لأنه في هذا الوقت كان في مهمته السرّية بين نافار والملك. وفي ذروة هذه الدراما، أرسلت ماري دي جورناي بجرأة دعوة إلى مونتاني لزيارة عائلتها؛ وهو شيء لم تألف التقاليد القويمة أن تفعله شابّةٌ في وضعها تجاه رجل كبير السن من طبقة عليا، هو الآن حديث المدينة. ومن الواضح أن مونتاني افتتن بجرأتها، ولم يكن أبدًا الرجل الذي يقاوم تودّد شابة إليه، فقبل مونتاني الدعوة وزارها في اليوم التالي.

وفقًا لتقرير ماري دي جورناي، لا بد أن هذا اللقاء كان حميميًّا عاطفيًّا، على الرغم من أنه لا يرجَّح أن يكون كذلك جسديًّا، لأنه في نهاية اللقاء دعاها بشكل عفيف إلى أن تصير ابنته بالتبنّي، وهو عرض وثبت إليه ماري دي جورناي. لم تقل المزيد، فلا يمكن لنا إلا أن نتخيّل الحوار الذي أدى إلى هذه النتيجة. هل هَذَتْ أمامَه بحماسة بالغة

(1) نبات عشبي معمِّر سامٌّ، زهوره جميلة الشكل. اسمه باللغة الإنجليزية هاليبور hallebore اشتقاقًا من اللغة اليونانية بمعنى «علاج الجنون»، وكان يستخدم قديمًا لهذا الغرض لكن توقّف استخدامه الآن للبشر (المترجمة).

بشعورها «بالانسجام» معه؟ هل حكت له قصة نبات الخربق؟ مما يناسبها أن توضح كلَّ شيء بسيل من الكلمات المفكَّكة. ومن الإضافات المتأخِّرة لكتاب **المقالات** إضافة يصف فيها مونتاني واقعة غريبة يبدو أنها حدثت في أحد لقاءاتهما الأخيرة. رأى فتاة، وأضاف تعليقات توضح أنها عزيزة عليه، فقد كانت جورناي، رآها وقد

> **وخزت نفسها بدبوس الشعر الطويل الذي كانت تشبك به شعرها لتظهر حرارة وعدها، وإخلاصها، أربع أو خمس طعنات شديدة في الذراع، فجرحت الجلد ونزفت بشكلٍ جدّي خطير.**

Michel Iturria, «Enfin – Une groupie!» Sud – Ouest/Michel Iturria

سواء كان هذا التشويه الذاتي الشديد قد ميّز لقاءهما الأول أم لم يميّزه، فالمرء يشكّ على الأقل في أن ماري دي جورناي قالت معظم ما قيل من كلام. يرجّح أن فكرة الوالد – الابنة كانت فكرتها لا فكرته. بل ربما حاول هو أن يستغل حماستها استغلالًا جنسيًّا، وأغرته هي بقبول علاقة التبنّي بدلًا من ذلك. شعرت جورناي من اللحظة الأولى لقراءة كتاب **المقالات** بأنهما من العائلة نفسها روحيًّا؛ وصار ذلك الشعور رسميًّا الآن. سيحلّ مونتاني محل والدها المفقود، وستقابَل بترحاب وسط حاشيته النسائية الصغيرة اللاتي لم يفهمهنّ تمامًا.

حتى لو كان قد وافق على أن يلعب في حياتها دور علاقة الأبوة ليسايرها، فهو حينئذ لم يصدّها بخشونة. أتاحت الدعوة التي وجهتها له ماري للإقامة معها ومع والدتها في قصر بيكاردي الريفي فرصة كريمة لكي يتعافى من مرضه، بعيدًا بقدرٍ كافٍ عن المتطلّبات السياسية الباريسية وأي احتمال لإعادة اعتقاله. وأتاحت له أيضًا فرصة للعمل. استقرّ هو وابنته الجديدة على الفور تقريبًا في وظيفة إضافة مراجعات

لطبعة العام 1588 من كتاب **المقالات**. لا بد أن هذا فتنها؛ لم يصل خيالها أبدًا إلى لَفّ مونتاني في شال ورعايته بهدوء وهو يتقدّم في السن. أرادته أن يكتب، فتكون هي تلميذته المتدرِّبة. ومن المرجَّح أن وجودها ساعد على جعل هذا يحدث؛ فوجود شخص شديد الحماسة على هذا النحو بجوار مونتاني سيشجّعه على العودة إلى كتاب **المقالات** بعد نشره فورًا تقريبًا- ويظلّ يعمل عليه حتى بعد أن يغادر بيكاردي. وقد ضبط هذا نغمة سنواته القليلة الأخيرة التي قضاها في الكتابة.

وفي المقابل، لا يمكن أبدًا اتهام ماري دي جورناي بأنها تحفظت بشأن صلة قرابتها بمونتاني. فحين أتت لكتابة الاستهلال لطبعة كتاب المقالات التي صدرت بعد موت مونتاني، وقّعت بلقب ابنة مونتاني بالتبنّي، ووصفته بأنه الرجل «الذي أتشرّف جدًّا بأن أناديه أبي». وأضافت: «لا يمكنني، أيها القارئ، أن استخدم اسمًا آخر، لأني لست نفسي إلا بقدر ما أكون بمثابة ابنته». وكتبت في عمل آخر لها:

هـ. واليس، مونتاني في مكتبته، 1857. زيت على قماش.
الصورة الفوتوغرافية من كتالوج مبيعات ج. ساويار؛ الموقع الحالي لأصل مجهول.
لوحة متخيّلة من القرن التاسع عشر، وتظهر فيها ماري دي جورناي
جالسة تحت قدمي مونتاني وهو يمليها نصًا.

في الحقيقة، لو دهش أيُّ شخصٍ من أننا لسنا والدًا وابنة إلا باللقب، فالنيات الحسنة التي ربطتنا ببعضنا البعض تتجاوز علاقة الآباء بأطفالهم - أول وأقرب علاقة من بين جميع الروابط الطبيعية بين البشر - دع ذلك الشخص يحاول يومًا وضع الفضيلة داخل نفسه وأن يقابلها في شخص آخر؛ حينئذ لن يتعجّب من أن لها عافية وقوّة لجعل الأرواح تتآلف أكثر مما لدى الطبيعة.

أما ما أحسَّته ليونور، الابنة الحقيقية لمونتاني نحو هذا الزعم بتجاوز الروابط العائلية البيولوجية فليس إلا تخمينًا لمن يفكّر فيه. لا يمكننا لومها إذا شعرت بالصدّ، لكن يبدو أنها لم تشعر بذلك. صارت هي وماري دي جورناي صديقتين حميمتين في السنوات الأخيرة، وصارت جورناي تناديها «أختي»، وهو ليس أمرًا منطقيًّا إلا لو كان لهما الوالد نفسه. حين كتبت ماري دي جورناي عن «التجاوز» ربما كانت تفكّر في قوة صلتها الحميمة بمونتاني لا في زجر غَريم. الشّخص الوحيد الذي شعرت بأنها في منافسة معه كان لا بويتي، الذي مات منذ زمن بعيد، والذي لم تتردّد في مقارنة نفسها به. وأنهت إهداءها باقتباس من قصيدة لا بويتي: «ولا خوف من أن تنقم علينا ذريتنا لإدراج اسمَيْنا بين مشاهير الأصدقاء، لو سمحت الأقدار». وفي استهلال كتاب **المقالات** كتبت: «كان لي لمدة أربع سنوات فقط، ليس أطول مما كان لا بويتي له».

تحتوي الفقرة نفسها أيضًا على تعليق غريب عن مونتاني، وربما كان تعليقًا كاشفًا: «حين كان يمدحني، كنت أمتلكه». ومن الواضح أنه مدحها. تشمل طبعتها من كتاب **المقالات** بعض السطور التي يتكلّم فيها مونتاني عنها باعتبارها الابنة المحبوبة التي تربطهما علاقة البنوة، والتي يحبها حبًّا يفوق الحب الأبوي (أيما كان يعنيه هذا)، والتي أحبّها في تقاعده كجزء من وجوده ذاته. ويمضي قائلًا:

> **إنها الشخص الوحيد في العالم الذي ما زلت أفكّر فيه. إذا كان لوعد الشباب أي معنى، فستكون روحها ذات يوم قادرة على فعل أرهف الأشياء، بين غيرها من الأشياء المكتملة في هذا النوع الأكثر قداسة من أنواع الصداقة، وهو ما نفسِّره بأن بنات جنسها لم تتمكنّ بعد من إحرازه. إن ما في شخصيتها من الإخلاص والحزم كافيان بالفعل، وعاطفتها نحوي أكثر من مفرطة الغزارة، وهكذا، باختصار، لم تترك شيئًا أرغبه لم تفعله، إلا لو كان هاجس نهايتي - في ضوء أعوامي الخمسة والخمسين حين قابلتها - لن يعذّبها بقسوة.**

وأخيرًا، يتكلّم مونتاني بدفء عن حُكمها السديد على كتاب **المقالات**: «هي امرأة، وفي هذه السن، صغيرة جدًّا، ووحيدة في منطقتها»، وعن «التشوّق الملحوظ الذي أحبّتني به ورغبت في صداقتي».

أحاط الشك بهذه الجمل عبر السنين، حيث إنها لا تظهر إلا في طبعة جورناي فقط وليس في نسخته البديلة، ذات الطابع الشخصي، المزوّدة بهوامش شارحة، وهي النسخة النهائية من كتاب **المقالات** المعروفة باسم «نسخة بوردو». من الطبيعي أن نتساءل هل

هي التي ألّفتها؟ النغمة تشبه جورناي أكثر مما تشبه مونتاني، ومن المثير، أنها هي نفسها ألغت أقسامًا من هذه المقطوعة في طبعة تالية. من جهة أخرى، تشمل نسخة بوردو بقايا مادة لاصقة في الأماكن التي تظهر فيها هذه السطور، مع صليب صغير مضاف بيد مونتاني - رمزه المعتاد للإشارة إلى إدراج كلمات. ربما سقطت الوريقة الملصوقة في إحدى المناسبات أثناء إدخال تحسينات على النسخة في القرنين السابع عشر والثامن عشر. أما إذا كانت المقطوعة أصليّة أم لا، فلا يبدو أي سبب للشك في العاطفة التي أحسَّ بها مونتاني نحو مريدته، ودبابيس الشعر، ونبات الخربق وكل شيء.

لكن بعد هذه السنة الأولى، ومع تدفّق العمل في بيكاردي، ظل هو وجورناي على اتصال بواسطة الرسائل فقط. وفي أبريل 1593، أخبرت جورناي صديقًا آخر لها من الأدباء، هو جيستوس ليبسيوس، بأنها لم تقابل مونتاني منذ خمس سنوات تقريبًا. لكنهما تراسلا بانتظام، لأنها في الوقت الذي كتبت فيه خطابها لجيستوس كانت قلقة لأن مونتاني لم يكتب لها منذ ستة شهور. وكانت محقّة في قلقها؛ فقد مات مونتاني خلال هذا الوقت، والرسالة الأخيرة التي أرسلها لها أحد أخوته لم تصلها. وكان على ليبسيوس أن يخبرها بالخبر في ردّه عليها. وفعل ذلك برفق، مضيفًا، «حيث إن من سمّيته والدًا لم يعد في هذا العالم، فاقبليني أخًا لك». وردّت عليه وهي مصدومة: «سيدي، حيث إن الآخرين فشلوا في التعرّف على وجهي اليوم، أخشى أنك لن تتعرّف على أسلوبي، لقد غيّرني موت والدي تمامًا. كنت ابنته، وأنا قبره؛ كنت وجوده الثاني، وأنا رماده».

وبهذا الوقت كانت ماري جورناي تمرّ بأوقات عصيبة بطرق أخرى أيضًا. ماتت أمها في العام 1591 وورثت ماري ديونًا فادحة عن عائلتها، علاوة على المسؤولية عن أشقائها الأصغر. ولما كانت قد قررت ألا تدخل في علاقة زواج من دون حب، من أجل المال؛ فقد بدأت في الإقدام على العيش من الكتابة وحدها، وهو طريق صعب، يكاد يكون غير مسبوق بالنسبة لامرأة. كتبت في بقية حياتها عن أي موضوعات كانت تعتقد بأنها قد تحقّق مبيعات: تحليلات لقصائد الشعر، والأسلوب، والنسوية، والجدل الديني، وقصّة حياتها؛ واستخدمت جميع العلاقات الأدبية التي استطاعت عقدها. كان جيستوس ليبسيوس أحد الكتّاب الذين سعت طلبًا لمساعدتهم في ترويج عملها. لكن لم يكن أحد منهم في أهمّية المرشد الذي سيظلّ اسمها مرتبطًا به دائمًا؛ ألا وهو مونتاني.

أحرزت جورناي أول إنجاز كبير لها بفضل مهارتها في استخدام سمعة مونتاني، حين نشرت في العام 1594 رواية بعنوان **نزهة السيد مونتاني**. محتويات الرواية لا علاقة لها بمونتاني إطلاقًا، عدا أنها - بينما كانت تكتب رسالة الإهداء - استلهمتها من قصّة قصّتها

عليه ذات يوم بينما كانا يتمشيان في حديقة عائلتها. والحقّ أن الصخب الروائي الغريب لرواية **النزهة** كان مسروقًا بالكامل تقريبًا من كتاب لمؤلف آخر. وقد حقّقت هذه الرواية نجاحًا باهرًا، ومهّدت الطريق للكتاب الذي كان البداية الحقيقية لمستقبل جورناي الأدبي؛ ألا وهو طبعتها العظيمة النهائية من كتاب **المقالات**، التي نُشرت في العام 1595.

يبدو أن فكرة أن تصير جورناي محرّرة مونتاني وتولّيها تنفيذ عمله الأدبي لم تظهر إلا بعد موته، حين وجدت أرملته وابنته بين أوراقه إحدى نسخه من الطبعة الصادرة في العام 1588 مزوَّدة بحواشٍ شارحة. أرسلتاها لجورناي في باريس لكي تنشرها. ربما أرادتا منها فقط أن توصلها إلى دار نشر مناسبة، لكنّها فسّرت طلبهما على أنه تفويض كبير لتحرير الكتاب، وبدأت العمل. وثبت أنها مهمّة ضخمة، وصعبة إلى حد أنها ما زالت تربك محرّرين أكثر خبرة وأفضل تأهيلًا منها. وحتى يومنا هذا لا يمكن أن يوافق أحد عليها؛ فالمتغيّرات كثيرة، والنص شديد التعقيد، وتحديد جميع مراجع مونتاني وتلميحاته عملٌ شاقٌ جدًّا. لكن جورناي أدّت المهمّة أداء رائعًا. ربما استسلمت لإغراء إضافة هذه السطور المشكوك فيها عن نفسها، أو ربما كانت هذه السطور أصيلة، لكنها كانت إجمالًا أكثر وسوسة بشأن الدقّة من معظم محرِّري زمنها. والنسخ الباقية من الطبعة الأولى للكتاب توضح أنها ظلّت تدخل تصليحات بالحبر حتى آخر لحظة، حتى حين كانت الصفحات تخرج من المطبعة، وكذلك بعد النشر؛ علامة على مدى اهتمامها بأن يخرج كل شيء في شكلٍ صحيح.

ومن الآن فصاعدًا، لن تكون جورناي ابنة لمونتاني بقدرِ ما ستكون أمًّا بالتبنّي لكتابه **المقالات**. كتبت: «أما وقد فقدت **المقالات** والدها، فهي بحاجة لمن يحميها». جمعت الكتاب معًا، لكنّها أيضًا تحيَّزت له، ودافعت عنه، وروَّجت له، و- في هذه الطبعة الأولى - زوَّدته باستهلال طويل عنيف انبرى لهزيمة أي تلميح نقديٍّ مقدّمًا. كانت معظم حججها رشيدة ومحكَمة البناء، لكنها تبَّلتها بالكثير من الانفعالات. وكتبت ضد من اعتبروا أسلوب مونتاني مبتذلًا أو لا يخلو من شوائب: «حين أدافع عنه ضدّ هذه التهم، أكون مليئة بالازدراء». وفي ما يتعلّق بالادعاءات القائلة إنه كان يكتب بطريقة غير منظَّمة: «لا يمكن للمرء التعامل مع هذه الأمور العظيمة بذكاء محدود... ما هنا ليس معرفة ابتدائية لتلميذ، بل قرآن الأساتذة، خلاصة الفلسفة».

ولم يكن يرضيها أن يمدح الناس كتاب **المقالات** بشكلٍ فاترٍ. «كلُّ من يقول عن سكيبيو إنه كابتنٌ نبيلٌ وعن سقراط إنه رجلٌ حكيمٌ يخطئ في حقِّهما أكثر مما لو كان التزم الصمت تجاههما». لا يمكنك أن تكتب بنغمات موزونة عن مونتاني: «فامتيازه يتجاوز جميع الحدود» (على الرغم من فكرة مونتاني عن الاعتدال). لا بد أن تكون

«مسلوب العقل»، كما كانت هي. من جهة أخرى، لا بد أن تقدر على أن تقول لماذا سلب عقلك؛ لأنك قارنته نقطة بنقطة مع القدماء ووضَّحت مواقع تساويه بهم بالضبط، ومواقع تفوقه عليهم. بدا كتاب **المقالات** دائمًا في عين جورناي الاختبار المضبوط للذكاء. ولما سألت الناس عن رأيهم في الكتاب، استنتجت ما ينبغي أن يكون رأيها فيهم. وسوف يبدي ديدرو الملاحظة نفسها تقريبًا عن مونتاني في قرن لاحق: «كتابه مَحَكٌّ للعقل السليم. إذا لم يحبّه أحد، فتأكد أن لديه عيبًا ما في القلب أو الفهم».

لكن ماري دي جورناي كان لها الحقُّ في توقّع الكثير من قرّائها، لأنها هي نفسها كانت قارئة ممتازة لمونتاني. فمع كل مبالغتها في مدح كتاب **المقالات** كانت تفهم بفطنة السبب الذي يجعله يناسب احتلال مكان بين الكتابات الكلاسيكية. وفي وقت أصر فيه الكثيرون على أن يروا الكتاب أساسًا باعتباره مجموعة من الأقوال الرواقية - وهو تفسير صادق حتى حينه - أعجبت هي به لأسباب غير معتادة؛ لأسلوبه، وبنيته المتنقِّلة بين الموضوعات، واستعداده لكشف كل شيء. أحسَّت جورناي جزئيًّا بأن جميع من حولها فاتته النقطة التي خلقت الأسطورة الخالدة عن مونتاني الذي ولد بطريقة ما خارج زمنه، كاتب عليه انتظار أن يجد قرّاء قادرين على إدراك قيمته. وقد جعلت من مونتاني عبقريًا أسيء فهمه، مع أنه كاتب حقّق لنفسه شهرة كبيرة بينما يبدو أنه لا يكاد يرهق نفسه.

كانت جورناي سعيدة باعترافها بأنها ظلّت تعيش في ظلِّ مونتاني: «لا يمكنني أخذ خطوة، سواء في الكتابة أو الكلام، من دون أن أجد نفسي في أعقابه». وفي الحقيقة، تظهر شخصيتها صاخبة وواضحة، غالبًا بطرق مختلفة عن طريقته. فهي حين تشيد بمناقب مونتاني مثل الاعتدال، تفعل ذلك بطريقتها الصدامية الجامحة. فهي تدافع بانفعال وخشونة عن فنون الانفصال الرواقي عن الواقع وعن الانسياب بهدوء في سبُل الحياة. يجعل هذا من طبعتها مباراة مصارعة جذّابة بين اثنين من الكتّاب، مثلما يحدث بالضبط بين مونتاني وفلوريو، أو حتى مونتاني ولا بويتي، في اللقاءات الأولى المحرِّكة للحوارات التي صارت **كتاب المقالات**.

كان هذا شراكة أدبية من النوع نفسه بعدة طرق، لكنه معقَّد كثيرًا لأن ماري دي جورناي امرأة. وضايقها أن شراكتها لم تؤخذ مأخذ الجد مثل غيرها من هذا النوع من العلاقات - ولا هي أُخِذت مأخذ الجد. لاحقتها السخرية طوال حياتها؛ ولم تجد أبدًا سبيلًا لإلقائها عن كاهلها؛ بل انتابها الغضب بدلًا من ذلك. وجد بعض هذا الغضب طريقه إلى استهلال كتاب **المقالات**؛ فقد بدا أن الكاتبة تمدّ يدها مباشرة في بعض الأحيان من خلال الصفحة لتمسك بتلابيب القرّاء الذكور وتؤنّبهم. «محظوظ أنت حقًّا أيها القارئ، إذا لم تكن من جنس حُرمت عليه جميع الممتلكات، والحرية، بل حُرِّمت عليه جميع

الفضائل». أكثر الرجال حماقةً يحظون بالإنصات إليهم باحترام بفضل لحاهم، أما حين تغامر امرأة بالإسهام بجهد، يتعطَّف الجميع بالابتسام، كما لو كانوا يريدون أن يقولوا: «ها هي امرأة تتحدَّث». لو كان مونتاني قد تعرّض لمثل هذه المعاملة، فلربما استجاب بابتسامة أيضًا، لكن جورناي لم تكن لديها هذه الموهبة. فكلما أطلقت جورناي العنان لإظهار غضبها يزداد ضحك الناس. لكن هذا الإحساس بالتوتّر والحسرة جعل منها كاتبة جذّابة. فالاستهلال ليس مجرّد أول مقدِّمة منشورة للعمل المعترَف به لمونتاني؛ بل هو أيضًا أحد أول المقالات النسوية في العالم وأفصحها.

قد يبدو هذا غريبًا بالنسبة لنصٍّ يقدّم مونتاني، الذي يتّضح أنه هو نفسه لم يكن نسويًّا عظيمًا. لكن نسوية جورناي ظلَّت على ارتباط وثيق «بمونتانيّتها». تناغم اعتقادها بأن الرجال والنساء سواسية؛ لا يعلو أحدهما على الآخر، على الرغم من الاختلاف في الخبرة والوضع؛ مع نسبيته. وقد ألهمها إصراره على الشك في المزاعم الاجتماعية الموروثة، واستعداده للتنقل بين مختلف وجهات نظر الناس. ترى جورناي أن الرجال لو تمكّنوا من بذل جهد مع خيالهم ليروا العالم كما تراه المرأة، حتى ولو لدقائق معدودة، فسيتعلَّمون ما يكفي لتغيير سلوكهم إلى الأبد. لكن هذا الانتقال لوجهة النظر هو بالضبط ما لا يبدو أنهم تمكنوا من فعله أبدًا.

للأسف، غيّرت جورناي رأيها في استهلالها القاسي بعد وقت قصير من النشر. كانت في هذا الوقت تقيم في ضيعة مونتاني؛ ضيفة على أرملته، وأمِّه، وابنته، اللاتي من الواضح أنهنَّ استضفنها من باب الصداقة، والولاء أو التعاطف. وكتبت من بيتهنَّ إلى جيستوس ليبسيوس في 2 مايو 1596 تقول إنها لم تكتب الاستهلال إلا لأنها كانت غارقة في الحزن على موت مونتاني، وإنها ترغب في سحبه. وهي تقول الآن إن نبرتها المفرطة في الشطط كانت نتيجة «حمَّى عنيفة أصابت الروح». وبعد ذلك بقليل، أرسلت نسخًا للناشرين في بازيل، وستراسبورج، وأنتويرب، وقد أزالت منها الاستهلال واستبدلت به ملحوظة موجزة فاترة لا تزيد على عشرة سطور. وظلَّ الأصل في الدرج السفلي لجورناي، وظهرت أجزاء منه في شكلٍ مختلفٍ في طبعة صدرت في 1599 عن دار **برومنيور**. وبعد ذلك، ندمت على ندمها تمامًا، ربما وصلت متأخرةً إلى معنى التحدي لدى مونتاني. واستعادت الطبعات الأخيرة من كتاب **المقالات** التي ظهرت في حياتها بعد ذلك الاستهلال بكل ما فيه من شطط وعظمة.

اجتازت جورناي سنوات عمرها المتأخِّرة وهي تصدر جميع هذه الطبعات المتعاقبة من كتاب **المقالات**، مع نشرها لسلسلة من الكتابات أقلّ أهمية وأكثر استمرارًا في غالب الأحوال. لكنها فعلت بشكل أو بآخر ما شرعت في فعله؛ إذ عاشت

من قلمها. كانت في هذا الوقت قد عادت إلى باريس، وشغلت هناك عِلّية مع خادمة وحيدة مخلصة، هي نيكول جامين. وأدارت صالونًا يُعقد بشكل غير منتظم، وألقت بنفسها في صداقات مع بعض أكثر رجال عصرها إثارة للاهتمام، شملوا **ليبرتينيين** مثل فرانسيس لي بولشر دي لا موت - ميسيميه، وفرانسيس دي لا موت لو فاير. شكّ الكثيرون في أنها هي نفسها من **الليبرتنيين** وأنها مفكِّرة دينيّة حرّة. كتبت في سيرتها الذاتية المعنونة **صورة السلوك**، أنها كانت تنقصها التقوى العميقة التي كانت تحبّ أن تكون لديها؛ وربما كانت هذه إشارة إلى أنها كانت ملحدة تمامًا.

حقَّقت كتب جورناي مبيعات، لكن الشهرة التي جلبتها كثيرًا ما أخذت شكل فضيحة أو سخرية عامّة. لم تركّز هذه السخرية أبدًا على كتاب **المقالات**، على الأقل ليس في حياتها؛ ولا حتى على كتاباتها النسوية المتنوِّعة. كان الناس يسخرون منها غالبًا بسبب نمط حياتها غير التقليدي أو أعمالها الأقل أهمية المثيرة للجدل. كانت تحظى أحيانًا باحترام مشوب بالكراهية. وصارت في العام 1634 إحدى مؤسِّسات الأكاديمية الفرنسية ذات التأثير، لكن هذا الإنجاز خيَّمت عليه مفارقتان ساخرتان كبيرتان؛ إحداهما أنها - بصفتها امرأة - لم يسمح لها أبدًا الدخول إلى أي اجتماع من اجتماعات هذه المنظمة. والأخرى أن الأكاديمية ارتبطت لقرونٍ بأسلوب الكتابة الجافّ الساعي للكمال الذي نفرت منه جورناي نفسها. لم تمدّها الأكاديمية بأي دعم؛ لا لآرائها في اللغة الأدبية ولا لمحبوبها مونتاني.

ماتت جورناي في 13 يوليو 1645، قبل فترة قصيرة من عيد ميلادها الثمانين. وصفتها المرثية المحفورة على شاهد قبرها بالضبط كما كانت تحبّ: كاتبة مستقلّة، وابنة لمونتاني. وقدِّر لسمعة ما نشر من كتاباتها بعد موتها - مثلما قدِّر لكتابات مونتاني التي نشرت بعد موته - أن تُحَرَّف وتُحوَّل إلى أشكال غريبة مع تغيّر الموضات. ظل أسلوب الكتابة المتدفّق الذي كانت تفضّله جورناي غير مفضَّلٍ لوقت طويل. كتب أحد المعلّقين من القرن الثامن عشر: «لا يوجد ما يضاهي المديح الذي تلقّته أثناء حياتها؛ لكن لم يعد بوسعنا أن نعطيها هذا التقريظ، ومهما كانت الجدارة التي حظيت بها كشخص، لم يعد أحد يقرأ كتاباتها، وقد طواها نسيان لن تخرج منه أبدًا».

العمل الوحيد الذي ظلّ يحقِّق مبيعات من بين كتاباتها هو طبعتها من كتاب مونتاني. لكن هذا أثار الغيرة بدوره، وبدأ القرنان الثامن عشر والتاسع عشر في النظر إليها باعتبارها دودة متطفِّلة على ظهر مونتاني. في هذا التفسير شيء من الحقيقة، حيث إنها استخدمت مونتاني لتبقى على قيد الحياة، لكنّه تجاهل مدى ترويجها له ودفاعها عنه أيضًا. لكن شدة هذا الإخلاص يمكن أن تثير الشك. وفي القرن العشرين، كان أحد

محرِّري مونتاني، وهو موريس رات، ما زال يصفها بأنها «آنسة مسنّة شاب شعرها... ارتكبت غلطة أنها عاشت أطول من اللازم»؛ وأن «اتجاهها العدواني أو المشاكس» نتج عنه أذًى أكثر مما نتج عنه من خير. بل إن المثقّف المتّزن بيير ڤيللي، الذي أخذ جانبها عمومًا، لم يتمكّن من مقاومة المزاح أحيانًا، واستاء من محاولتها لوضع صداقتها بمونتاني على المستوى نفسه لصداقته مع لا بويتي. وعمومًا، استمرّت صداقة جورناي ومونتاني في تلقّي الحكم عليها بمعايير مختلفة عن صداقة مونتاني ولا بويتي. الأخيرة يشاد بها، وتفكّك، وتوضع بشأنها نظريات، وتحلّل جنسيًّا وتحلَّل نفسيًّا حتى ما يقرب من البوصة من حياة هذه الصداقة. أما «تبنّي» مونتاني لجورناي فقد مرَّ لفترة طويلة بأكثر قليلًا من واحدة من هذه الابتسامات المتفضِّلة التي اعتادت أن تتضايق منها جدًّا.

وقد تغيّر الكثير في السنوات الحديثة، أساسًا بسبب نهضة النسوية التي تعترف بها باعتبارها رائدة. كان أول مدافع عظيم حديث عنها رجلٌ؛ هو ماريو شيف، الذي كتب دراسة سيرة ذاتية كاملة لها في العام 1910، ونشر طبعات جديدة من كتاباتها النسوية. ومنذئذ والرحلة في تصاعد دائم. أنهت مارجوري هنري إلسلي سيرتها الذاتية في العام 1963 بعنوان **ابنة عصر النهضة**، وفيها فصل بعنوان «صعود نجم حظ ماري دي جورناي»؛ ومنذئذ، ازدادت صعودًا بسير ذاتية جديدة وصدور طبعات علمية من أعمالها بانتظام، علاوة على روايات قائمة على معالجة قصة حياتها.

وحدث تحوُّل في الاتجاهات نحو طبعتها التي صدرت في العام 1595 من كتاب **المقالات** في زمن أحدث؛ وهي الطبعة التي سقطت في بئر النسيان فما عاد أحد يستخدمها لمائة سنة أو نحو ذلك، عقب القرون الثلاثة الأولى لسيادتها التي لا يرقى إليها الشكُّ. لقد غرقت في أعمق أعماق قاع البحار في القرن العشرين، بحيث لم يعد يذكرها أحد إلا في تنويهات قليلة في الهوامش، لكن ها هي تبرز إلى السطح مرّة أخرى الآن. ويبدو أن لها كل ما لماري دي جورناي نفسها من مرونة هائلة.

حروب تحرير الكتابات:

صار رفض طبعة جورناي على أشدّه في اللحظة نفسها التي بدأت فيها إعادة إحياء سمعتها. هذه الحقيقة الغريبة لها تفسير واحد. لم يكن لنصِّها قبل ذلك غرماء منافسون؛ كان غير ذي بال مهما اعتقد القراء عن شخصيتها. لكن ظهر في نهايات القرن الثامن عشر نصٌّ جديدٌ في أرشيف بوردو؛ نسخة من طبعة العام 1588، مشروح مباشرة بخط يد مونتاني ومساعديه وسكرتاريته، ومنهم ماري دي جورناي نفسها.

ظلت «طبعة بوردو» هذه - كما صارت تُعرف - لا تشدّ الانتباه كثيرًا حتى نهايات القرن التاسع عشر، حين اكتسب العلماء تذوُّقًا للتفكير العميق في التفاصيل الصغيرة

لمثل هذه النصوص. وظهر الآن تشابه بين نسخة بوردو وطبعة جورناي لسنة 1595، في العموميات، لكن ليس في التفاصيل. وجدت عدة آلاف من الاختلافات، متناثرة كالحصى في أنحاء الكتاب. من بينها حوالى مائة اختلافٍ مهمٍّ يكفي لتغيير المعنى، بينما كان القليل منها اختلافات كبيرة، تشمل القسم الذي يمدح ماري دي جورناي نفسها. الحقيقة أن جميع الاختلافات كانت مهمّة، لأنها تشير ضمنًا إلى أن جورناي لم تكن محرِّرة معتنية بعملها قبل كلّ شيء. كانت تفتقر للكفاءة في أحسن الأحوال، ومحتالة في أسوأها. أطلقت هذه الخلاصة شرارة ثورة ضد جورناي، تبعتها سلسلة من حروب تحرير الكتابات امتدّت إلى بدايات القرن العشرين، والتي ثارت مرة أخرى اليوم بعد فترة ركود.

اتبعت المعركة قواعد الحرب الكلاسيكية، فركّزت على حصار الممسكين بمقاليد القوة وتسهيل الحصول على الإمدادات. هاجمت جيوش الناسخين والمحرّرين المتنافسين نسخة بوردو، وكانوا يعملون في الوقت نفسه تقريبًا، وهم ينظرون كلّ من فوق كتف الآخر، ويبذلون أقصى ما في وسعهم لسدِّ سبيل الآخر للوصول للشيء الثمين. ابتكر كل منهم تقنيته الخاصّة لقراءة ما كتب بحبر باهت، ولتمثيل مختلف مستويات الإضافات والزيادات، علاوة على اختلاف خطوط الأيدي. عجز بعضهم عجزًا شديدًا عن التقدم وفقًا للمنهج المتبع حتى إنهم لم يحقّقوا المزيد من التقدّم. كتب ناسخ مبكّر، هو ألبرت جايجنيول، لمرؤوسيه في مكتبة بوردو يشرح لهم السبب في طول الوقت الذي استغرقه لينتج أي شيء:

> **تأثّر فصل مختلف المراحل بملاحظة الحقائق المادّية الواضحة وتحليلها...**
> **وقد اعتبرنا أن هذا الفصل قد تأثّر عن حق في حالة استيفاء هذين الشرطين:**
> **1. أخذ جميع العناصر التي يقدِّمها التحليل في الاعتبار. 2. أخذ هذه العناصر فقط في الاعتبار. وقد أظهرت النتائج فعالية هذا المنهج...**

وحين وُوجه بعد بضع سنوات أخرى بعدم وجود أي علامة على تكملة النسخ، جرَّب طريقًا مختلفًا:

> **كل ما بقي لإنجازه تم التجهيز لمعظمه ويمكن إتمامه في فترة قصيرة نسبيًا من الزمن، لكن يصعب تحديدها بسبب مشكلات معيَّنة تظهر فجأة وعلى نحو متواتر.**

لم ينتج أي شيء عن مشروع جانجيول، لكنَّ آخرين أنجزوا نتائج أفضل. وبحلول بدايات القرن التاسع عشر، كانت ثلاث نسخ مختلفة قيد الإنتاج، واحدة «طبعة مصوّرة

على ألواح» كل ما فعلته إعادة إنتاج أجزاء الكتاب بالفاكسميلي. والأخريان كانتا طبعة البلدية، التي أدار العمل فيها المثقّف المتغطرس فورتشونار ستروفسكي، والطبعة التي طبعت بحروف المطبعة، التي أدار إنتاجها آرثر - أنطوان آرمينجود، وهو لا يقلّ عن سابقه تعنتًا وصعوبة. تبادلا تخطّي بعضهما البعض بالدور، مثل حصاني سباق شديدي البطء على مضمار طويل. ربح ستروفسكي الدورة الأولى، فأصدر جزأيه الأولين في 1906 و1909. ثم تباهى بأنه ليس من الضروري أبدًا إصدار أي طبعة أخرى، وأغرى مركز بوردو لحفظ الوثائق بفرض شروط عمل جديدة صارمة على آرمينجود، تشمل إحاطة الوثائق المحفوظة بدرجات حرارة شديدة الانخفاض إلى حد أنها تسبّب تنميل الأصابع، واشتراط أن تُقرأ جميع الصفحات من خلال ألواح سميكة من الزجاج الأخضر أو الأحمر لحمايتها من الضوء. واستمر آرمينجود في النضال؛ وظهر جزؤه الأول في العام 1912، لكنه أرّخه بتاريخ زائف في العام 1906 لجعله يبدو للأجيال القادمة كما لو كان قد صدر في الوقت نفسه الذي صدرت فيه طبعة ستروفيسكي.

استمرّت اللعبة لفترة، وشحذ آرمينجود همّته ومضى قدمًا، لكنَّ أجزاءَه التالية سقطت في مسار معالجته لها. وعزل نفسه أيضًا مع ميله لترويج آراء غير معتادة عن مونتاني، ملحوظ منها فكرة أنه كان مؤلِّف مقال **عن العبودية الطوعية**. وهو لا يختلف عن ماري دي جورناي قبله، والكثيرين من المنظرين الأدبيين بعده، أحب آرمينجود أن يفكِّر في مونتاني كشخصٍ له مستويات سرّية من المعنى، هو الوحيد الذي يمكنه فك شفرتها. وعلى حد تعبير أحد أعدائه: «هو وحده الذي يعرف نفسه بعمق، هو وحده الذي يعرف أسراره، هو الوحيد الذي يمكنه الحديث عنه، باسمه، وأن يفسر أفكاره». حافظ آرمينجود على الأقل على إنتاج العمل قطرة بقطرة، لكن ستروفسكي صار الآن مشتّت الانتباه بمشروعات أخرى، وفشل في إتمام الجزء الأخير من طبعته. حوَّلت سلطات بوردو التي تموِّله العمل أخيرًا إلى شخصٍ آخر، هو فرانسيس جيبيلين، الذي أنتج الجزء الأخير في سنة 1919، بعد خمسين سنة من أول مرة اقتُرحت فيها الفكرة. وتبع ذلك صدور مجلدات من التعليقات والفهارس في عامَي 1921 و1933، أنتجها المونتانيّ الحصيف الذي تولّى المشروع الآن، بيير ڤيللي، الذي كان إنجازه أكثر الإنجازات جدارة بالملاحظة، لأنه كان مكفوفًا منذ سن الثالثة. أنهى عمله في الوقت المتّفق عليه ليناسب احتفالات بوردو بالذكرى الأربعمائة لميلاد مونتاني في العام 1933؛ لكنَّ منظّمي الاحتفالات نسوا دعوته. وفي أثناء ذلك، أنهى آرمينجود أيضًا نسخته، فأُهدِيت للعالم أخيرًا نسختان منسوختان دقيقتان من كتاب **المقالات**. الكتابان كلاهما لهما ملمح أساسي مشترك، ألا وهو أن من أنجزاهما بذلا جهدًا شاقًا

للوصول إلى نسخة بوردو المادية، التي أصرَّ محرِّرَا الكتاب على الالتزام بها، وتجاهلا نسخة ماري دي جورناي المنشورة فعلًا تجاهلًا يكاد يكون تامًّا. وتشاركا أيضًا في اعتبار نفسَيْهما مصدر الكلمة الأخيرة التي يستحيل الطعن فيها في جميع الأمور الثقافية النصّيّة المتعلّقة بكتاب **المقالات**، وهو اتجاهٌ منافٍ بشدّة لمونتاني.

ضَبَطَتْ هاتان الطبعتان الأسلوب لبقية القرن. منذئذ فصاعدًا، ستستخدم نسخة العام 1595 فقط مصدرًا للصياغات المختلفة عَرَضًا، التي يشار إليها في الهوامش. حتى هذا لم يُفعِل إلا حيثما بدا الفارق مهمًّا. عدا ذلك، اعتبرت الاختلافات الصغيرة علامة على التحرير السيئ الذي فعلته ماري دي جورناي، وعلى فساد نصّ العام 1595. كان من المفترض أن جورناي قد فعلت ما فعلوه هم بالضبط - نسخ نسخة بوردو - لكن لتصنع منها نصًّا مشوّشًا.

لكن رينهولد ديزيميريس قدّم بالفعل تفسيرًا بديلًا في فترة ترجع لزمن بعيد في العام 1866. أشار إلى أنه ربما أدّت جورناي عملًا ممتازًا في تحرير الكتاب، لكن في نسخة مختلفة. استغرق الأمر وقتًا حتى استوعب الناس هذه الفكرة. وما إن حدث هذا، حتى ربحت أعدادًا متزايدة من المتابعين، استنبط بعضهم بالتفصيل طريقة تغيير النسخ.

لو صحّت هذه النظرية، فلربما بدأت القصّة حين عمل مونتاني على نسخة بوردو لعدّة سنوات، كما يعتقد مؤيدوه دائمًا. لكن جاء وقت صارت فيه النسخة مثقلة بالملاحظات، حتى كاد يصعب أن تكون صالحة للاستخدام. وأصيب مونتاني بالإحباط بسبب الفوضى التي ضربت أطنابها في النسخة، وصنع نسخة واضحة؛ لم تعد موجودة، لكنها تلقَّب الآن بلقب «النموذج المثالي» للنسخة الملائمة. واستمر مونتاني في إضافة الإضافات لهذه النسخة، معظمها قليل، لأنه كان تقريبًا في نهاية حياته العملية بهذا الوقت. وحين مات، أرسلت نسخة النموذج المثالي - لا نسخة بوردو - إلى ماري دي جورناي لتحرِّرها وتنشرها. يفسِّر هذا لماذا لم تبقَ هذه النسخة؛ إذ كان يتم التخلّص من المسودات التي بخط يد المؤلّف، أو الطبعات المبكرة المؤشّر عليها بحكم طبيعة الأشياء كجزء من عملية الطباعة. وفي هذه الأثناء، ظلّت نسخة بوردو غير المستخدمة سليمة، مثلما يظلّ غلاف الشرنقة معلّقًا بالشجرة بعد أن تنمو الحشرة وتخرج منها.

الفرض النظري محكَم؛ إنه يفسر بقاء نسخة بوردو، والنصوص المختلفة المأخوذة عنها. وهو ينسجم مع أسلوب ماري دي جورناي في تحرير النصوص؛ فإذا كانت بمثل هذا الإهمال في عملها في المقام الأول لكان من الغريب أن تولي انتباهًا دقيقًا للتصحيحات التي تحدث في آخر لحظة، كما فعلت هي. لو قبلنا هذا الفرض لكانت

العواقب درامية. فهو يعني أن طبعة العام 1595، لا نسخة بوردو، هي أقرب النسخ تقريبًا للنسخة النهائية من كتاب **المقالات** كما كان مونتاني قد يرغب في أن يكون عليه، وهكذا يكون معظم التحرير الذي حدث في القرن العشرين إشارة مضلّلة في التاريخ.

من الطبيعي أن يدفع هذا الجدال بعالم مونتاني إلى الارتباك، ويطلق شرارة صراع كل قطعة فيه في سخونة الجدال الذي شجر منذ مائة عام مضت. عكس بعض المحرّرين الآن الرتب بشكل درامي بإحالة صياغات نسخة بوردو إلى نقطة متواضعة في الهوامش التي احتلتها جورناي لوقت طويل جدًّا، يلحظ منها طبعة بيلياد لسنة 2007 التي حرَّرها جان بالسامو، وميشيل مانيين وكاثرين مانيين – سيمونين. ما زال مثقَّفون آخرون يدعمون نسخة بوردو. وقد ازدهرت بشكلٍ خاصٍّ في طبعة أصدرها آندريه تورنون في العام 1998، تخطّت الطبعات السابقة في إخلاصها للتفاصيل الدقيقة لهذا النص؛ تشتمل على ما اختار مونتاني بنفسه وضعه من علامات الترقيم وغيرها من العلامات التي جرى تجاهلها أو تحديثها في ما سبق؛ كما لو كان لتأكيد قربها المادّي لخط يد مونتاني ولنياته. يبدو الأمر كما لو كان مونتاني ما زال يمسك بالقلم الذي ينساب منه الحبر.

وحين هدأ غبار المعركة، بافتراض أنه هدأ، سينشأ معيار للقرن القادم. ستوجد عدة عواقب لجميع قرّاء مونتاني. يرجّح أن طبعات جديدة سوف تدفع بنصٍّ أو بآخر للمقدّمة بدلًا من دمجها ببعضها البعض، حيث تحظى أهمية الاختلافات الآن بتقديرٍ شديدٍ. إذا فازت جورناي، قد تبدو صفحة مونتاني أيضًا بسيطة، لأنها يمكن أن تقلّص الرغبة في نثر حروف 'أ' و'ب' و'ج' التي تفسد الشكل بصريًّا وهي تشير إلى مختلف طبقات الإنشاء. ستظلّ لهذه الحروف أهمية، لكن من وضعها في البداية كانوا المحرِّرين الذين عملوا انطلاقًا من نسخة بوردو، والذين كان دافعهم جزئيًّا جعل عملهم الشاق مرئيًّا بالكامل. جورناي نفسها لم تفكِّر أبدًا في فعل مثل هذا الشيء، ولا مونتاني فكَّر في ذلك. ستوجد أيضًا عواقب تعود على قراء مونتاني بلغات أخرى غير الفرنسية. ستدعو الحاجة الملحّة إلى ترجمة إنجليزية جديدة، حيث إن الاثنتين الأخريين الممتازتين اللتين تسودان السوق الآن، من ترجمة دونالد فريم وم. أ. سكريتش، مأخوذتان بصرامة من عصر نسخة بوردو. سنعود بالدرجة الأولى للنصّ المصدر الذي استخدمه جون فلوريو، وتشارلز كوتون، وآل هازليت.

مهما يكن ما يحدث، لا يرجَّح أن تكون هذه نهاية القصّة. ستستمر الخلافات، وربما تكون فقط حول وضع الفاصلات. سيكون من الصعب الآن الاستمرار في الاعتقاد الاستروفسكي المتعجرف بأن الطبعة النهائية المضبوطة لا يمكن أن تُصنع

أبدًا. لا يمكن أبدًا أن يقال عن حق إن صياغة كتاب **المقالات** قد انتهت. ربما اعتزل مونتاني الإنسان الكتابة، وهجر قلمه، لكن طالما ظل القراء والمحررون مختلفين على النتائج، لن يضع مونتاني المؤلّف أبدًا هذه النقطة الأخيرة بالحبر على الصفحة علامة على انتهائه تمامًا من صياغة الكتاب.

مونتاني معدَّلًا ومسحورًا:

كان مونتاني يعرف جيِّدًا أنك في اللحظة التي تنشر فيها كتابًا تفقد التحكّم فيه. فالآخرون يمكنهم عمل ما يحبّونه؛ يمكنهم تحريره وصياغته في أشكال غريبة، أو فرض تفسيرات عليه لم تحلم بها أبدًا. حتى المسودة غير المنشورة التي بخط اليد يمكن أن تخرج من يدك، كما حدث مع لا بويتي في مقال عن **العبودية الطوعية**.

كان غياب قانون حقِّ المؤلّف والإعجاب بالنَسْخ باعتباره تقنية أدبية في زمن مونتاني ولا بويتي، يتيح مزيدًا من الحرّية عما قد نتوقّعه اليوم. أيُّ شخصٍ تعجبه شذرات معينة من كتاب **المقالات** يمكن أن ينشرها منفصلة؛ ويمكنه تلخيص أو تكبير العمل كلّه، واستبعاد أقسام منه لا تعجبه، وإعادة ترتيب نظامه، أو نشره باسم مختلف. ويمكن انتزاع دزينة أو نحو ذلك من الفصول وتحويلها إلى كتاب نحيف يسهل تداوله، ومن يفعل ذلك يقدّم خدمة ثمينة للقرّاء الذين سيتعب ساعدهم من حمل المجلّد بأكمله. ويمكن تقديم خدمة التبسيط؛ فحين تواجه محرِّرة جريئة مثل «أونوريا» بعشرين صفحة من تجوال مونتاني على غير هدى في موضوع ما، تختصرها إلى صفحتين يبدو أنهما تتناولان النقطة التي ذكرت في العنوان؛ وهذه فكرة غير مونتانيّة!

بل إن بعض المحرِّرين تدخّلوا أكثر من هذا. فبدلًا من اقتطاع مقاطع مختارة من هنا وهناك، شمروا أكمامهم ودسّوا أيديهم مباشرة في كتاب **المقالات** لتقطيع أوصاله إربًا مثل دجاجة، وصنع مخلوق جديد تمامًا منه. الممثل البارز لهذا الأسلوب في التعامل مع النص هو أيضًا أول المحررين وأشهرهم، وهو بيير شارون؛ صديق مونتاني والقريب من معاصرته، الذي أصدر في القرن السابع عشر كتابًا حقّق أعلى المبيعات بعنوان **الحكمة**. يكاد مونتاني لا يتعرّف على نفسه في هذا الكتاب، لكنه أساسًا كتاب **المقالات** منشور باسم آخر وبصيغة أخرى. وقد سُمِّي هذا الكتاب «إعادة صياغة»؛ ويمكن أيضًا تسميته «نسخة معدلة»، لكنَّ أيًا من المصطلحين لا يلتقط بالضبط مدى ابتعاد روحه عن روح الكتاب الأصلي. خلق شارون نسخة من مونتاني خالية من التفاصيل المميزة للاقتباسات أو الاستطرادات، أو الهِنات الصغيرة، وتفاصيل البوح الشخصي من أي نوع. لقد أعطى القرّاء شيئًا يمكنهم الجدال معه، أو الاتفاق معه لو أحبوا؛ مجموعة من الأحاديث التي لم تعد تنساب مبتعدة عن التفسير أو تتبخّر مثل

الضباب. فهو ينشئ البنية المرتبة التالية من أفكار مونتاني التي تتجوّل هائمة على وجهها في موضوع من الموضوعات مثل علاقة البشر بالحيوانات:

بيير شارون. صورة في صدارة كتابه الحكمة (باريس: دوكير، 1607).

1. **السّمات المشتركة بين الحيوانات والبشر.**
2. **السّمات غير المشتركة بين البشر والحيوانات.**
    1. **السّمات الملائمة للبشر.**
    2. **السمات الملائمة للحيوانات.**
        1. **سمات عامّة.**
        2. **سمات خاصّة.**
    3. **السّمات ذات المميزات الخلافية.**

مكتبة
t.me/t_pdf

إنها مؤثّرة وجافّة؛ جافّة جدًّا إلى درجة أن كتاب **الحكمة** قوبل بنجاح باهر. شجّع هذا النجاح شارون على مزيدٍ من ضغط الكتاب ليصدر نسخة مختصرة بعنوان **بحث موجز عن كتاب الحكمة**. حقّقت هذه النسخة مبيعات جيّدة أيضًا؛ وطبع من الكتابين طبعات عدة. ومع مضي القرن السابع عشر، التقى المزيد والمزيد من القرّاء بمونتاني الذي يخصّهم في شكل مصطبغ بصبغة شارونية، وكان هذا سببًا جزئيًا في قدرتهم على فهمه والتعامل مع ما فيه من الشكّ البيرووي بطريقة تحليليّة جدًّا. (وإذا كان باسكال لا يزال يجده مراوغًا بشكل باعث على الضيق، فالسبب هو أنه قرأ الكتاب الأصلي). لكن ماري دي جورناي لم تُقِرّ ما فعله شارون. ففي استهلال طبعتها لسنة 1635 من كتاب **المقالات** أبعدته باعتباره «ناسخًا سيّئًا»، وعلّقت بأن الشيء الجيّد الوحيد الذي يمكن أن يقال عن قراءة ما كتبه أنه يذكّر القارئ بعبقرية مونتاني الحقيقي.

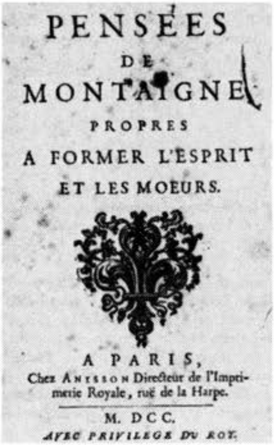

أفكار مونتاني
Penséesde Montaigne
(Paris: Anisson, 1700).

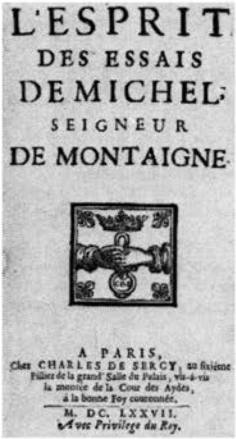

روح مقالات مونتاني
L'Esprit des Essais de Michel, seigneur de Montaigne(Paris: C. de Sercy, 1677),

بل أدخل من أتوا بعد شارون في القرنين السابع عشر والثامن عشر مزيدًا من التعديلات على مونتاني، وأدخلوا في بعض الأحيان تعديلات على شارون أيضًا. وبينما ظلّ كتاب **المقالات** في قائمة الكتب المحظورة، فقد كانت التعديلات وإعادات الصياغة الشكل الوحيد الذي يمكن نشر الكتاب به في فرنسا. من ثم أُغرق السوق بكتب لمونتاني نحيفة ومفتقرة للمصداقية، أو بكتب تستدعي عناوينها جوهر كتاباته بعد تنقيتها: **روح مقالات مونتاني**، أو **أفكار مونتاني**. وقد ظهّره هذا العنوان الأخير بعناية شديدة حتى إن حجم الكتاب بلغ 214 صفحة فقط من القطع الصغير، قدّمه المحرر بتعليق يقول: «توجد كتب قليلة شديدة السوء إلى حد أن المرء لا يمكنه أن يجد فيها شيئًا جيّدًا، وقليل من الكتب شديدة الجودة إلى حد أنّها لا تحتوي على أي شيء سيئ».

تعرّض المؤلفون دائمًا إلى اختصار كتاباتهم. وما زالت نسخ مختزلة من أعمال عظيمة تزدهر في صناعة النشر اليوم، غالبًا تحت عناوين مثل «طبعات مُختَصَرة». ورد اقتباس عن متحدّث عن سلسلة بريطانية حديثة من هذا النوع يقول: «لا بد من أن **موبي ديك** كان صعبًا في 1850؛ أما في 2007 فيكاد يكون مستحيلًا أن تشقَّ طريقك عبره». لكن خطر اقتطاع الكثير من شحم الحوت من **موبي ديك** أنه سيخلو من الحوت. وبالمثل، تكمن «روح» مونتاني في الشذرات نفسها التي يتشوّق المحرِّرون للتفريط فيها أكثر من أي شيء آخر؛ ألا وهي انعطافاته الجانبية الحادّة عن الموضوع، وتعليقاته

الجانبية، وتغييرات رأيه، وحركته المتململة من فكرة إلى أخرى. لا عجب أنه هو نفسه قد دُفِع ليقول إن «كل اختصار لكتاب جيِّد اختصار غبيّ».

لكنه عرف أيضًا أن القراءة تشمل دائمًا عملية انتقاء من نوع ما. وقد فعلها هو نفسه كلما التقط كتابا، بل فعلها بشكل أكثر حسمًا إذا أزاحه جانبًا في مللٍ. لم يقرأ مونتاني إلا ما أثار إعجابه، وفعل قرّاؤه ومحرروه الشيء نفسه به. تصير جميع قراءات الكتاب في نهاية المطاف **روح مقالات مونتاني**، حتى أكثرها اصطباغًا بالصبغة العلمية.

حقًّا، ربما كانت هذه القراءات أكثر عرضة للانتقاء من أي نوع آخر. يبدو أن النقّاد الحديثين يعدّلون ويعيدون صياغة الجزء الذي يشبههم من مونتاني، ويفعلون ذلك إلى حدٍّ مذهلٍ، لا على المستوى الفردي وحده، بل أيضًا على مستوى النوع من الكائنات الحيّة. فكما وجد الرومانسيون مونتاني رومانسيا، وجد أخلاقيو العصر الفيكتوري مونتاني أخلاقيًّا، ووجد الإنجليز عمومًا مونتاني إنجليزيًّا، وهكذ، فالنقاد «التفكيكيون» أو «ما بعد الحداثيين» الذين ازدهروا عبر نهايات القرن العشرين (ودخلوا لتوِّهم إلى القرن الحادي والعشرين) يتهافتون بحبور على الشيء نفسه الذي هم ميالون إلى رؤيته؛ مونتاني تفكيكي وما بعد حداثي. صار هذا النوع من مونتاني مألوفًا جدًّا للعين النقدية المعاصرة إلى حدٍّ أن الأمر يتطلّب بذل جهد معتبر للتراجع إلى بُعدٍ يكفي لرؤيته على ما هو عليه؛ شيء مصطنع، أو على الأقل تعديلًا إبداعيًّا.

يعتبر ما بعد الحداثيين العالم في حالة تحوّل لا نهائية عن نسق المعاني، فيركِّزون بذلك على مونتاني الذي يتحدّث عن العالم باعتباره أرجوحة ميزان راقصة، أو الذي يقول إن البشر «مختلفون ومتحرِّكون حركةً مَوْجِيَّةً»، وإننا «مزدوجون داخل أنفسنا». وهم يعتقدون بأن المعرفة الموضوعية مستحيلة، وبهذا ينجذبون لكتابات مونتاني عن وجهات النظر والشك. (هذا الكتاب عرضة للكثير من البتر مثل أي كتاب آخر، حيث إنه **نتاج عصره**). الأمر خادع ومغرٍ. ينظر المرء في نسخته من كتاب **المقالات** مثلما تنظر الملكة في قصة **بياض الثلج** في مرآتها. وقبل حتى أن يتاح وقت لتوجيه السؤال الذي في القصة الخرافية، تردّ المرآة بصوت رقيق خفيض: «أنت أجملهنّ».

توجد سمة من سمات نظرية النقد الحديثة تجعلها أكثر عرضةً من المعتاد لهذا النوع من أثر المرآة، ألا وهو عادتها في الحديث عن النصّ لا عن المؤلِّف. لم يتساءل النقاد عما كان مونتاني يعني «حقًّا» أن يقول، ولا فحصوا السّياق التاريخي له، بل نظروا في المقام الأول إلى الشّبكة المستقلّة من تداعيات الأفكار، والمعاني التي على الصفحة، وهي شبكة يمكن طرحها مثل شبكة صيد سمك ضخمة للإمساك بأي شيء تقريبًا. هذه ليست مجرّد سمة من سمات ما بعد الحداثة الصّارمة. فالنقاد الحديثون الآخذون

بنظرية التحليل النفسي يطبّقون تحليلهم أيضًا على كتاب **المقالات** نفسه لا على مونتاني الإنسان. البعض يعاملون الكتاب باعتباره كيانًا له لا وعيه الخاصّ. ومثلما يمكن للمحلِّل أن يقرأ أحلام المريض ليصل إلى ما يكمن تحتها، فالناقد يمكنه سبر غور الاشتقاقات اللغوية للنص، وأصواته، وسقطاته العرضية، بل حتى أخطائه المطبعية؛ لكي يكتشف المستويات الخفية من المعنى. من المعترف به أن مونتاني لم يكن يقصد وضع هذه الأخطاء المطبعية في النصّ، لكن هذا لا يهم، حيث إن للنص نواياه الخاصّة.

خرجت من هذه السلسلة من الأفكار قراءات، جميلة ومزخرفة بزخارف متكلِّفة بطريقتها على النهج الباروكي، مثل كتابات مونتاني. ولنختر واحدًا من أكثر الأمثلة جاذبية. يلتقط مقال توم كونلي «رضاعة المدن: مونتاني في باريس وروما» تعليقًا بسيطًا في مقال مونتاني «عن الزهو الأجوف»: إنه عرفَ معلومات عن روما قبل أن يعرف معلومات عن متحف اللوفر في باريس. «اللوفر»، القصر الملكي الفرنسي في ذلك الوقت، اسمه يشبه الكلمة الفرنسية louve الدالّة على «أنثى الذئب». يكشف هذا بالنسبة لكونلي عن الرابطة اللاواعية التي تربط النص بالذئبة التي أرضعت التوأمين اللذين أسَّسا روما، رومولوس وريموس. انفتحت أفواههما وهما يرضعان؛ ونحن نفتح بالطريقة نفسها وجهات نظرنا عن مدن مثل روما أو باريس بالتفكير في كيف بقيت على قيد الحياة عبر القرون. الفم يفتح هذا المنظور؛ إنه **يفتحه**، وهي كلمة l'ouvre الفرنسية التي تنطق **لوفر**. من ثم؛ حين يذكر مونتاني اللوفر في الوقت نفسه مثل روما، يكشف نصُّه عن صورة خفية تظهر فيها «شفاه كاتب المقالات وهي تنطبق حول الحلمة الملكية».

تقودنا صورة الإرضاع إلى الأثداء، التي تضاعفت في جميع أنحاء روما في شكل القباب والأبراج العديدة التي تعلو مباني المدينة. «أطراف مثيرة جنسيًّا ترتفع في أفق مشهد المدينة مندمجة في العديد من نقاط التغذية». بل إن رؤية شفاه مونتاني صارت أكثر غرابة:

> **مونتاني يمصّ الطرف المنتصب لمعبد جوبيتر أوبتيموس ماكسيموس القائم على التل الساتيري في روما من أعلى بينما يزمّ شفتيه حول حلمات الذئبة المؤسِّسة لروما من أسفل.**

كل هذا يمكن العثور عليه في ملحوظة مونتاني عن متحف اللوفر، لكن الكثير سيأتي في ما بعد. يمضي مونتاني في المقال نفسه قائلًا: «لديَّ في رأسي [plus en teste] من قدرات لوكولاس، وميتيلوس، وسكيبيو وثروتهم أكثر مما لدى أي رجل آخر من رجالنا». على الرغم مما يبدو عليه السطر من عدم الأهمية، فإن tester أو

teter تعني بالفرنسية «يرضع». يمكن التعبير البصري عن هؤلاء الأبطال الكلاسيكيين الثلاثة في شكل لوحة، ربما تطبع في شكل نحتٍ بارزٍ على العملات، التي يضعها مونتاني في فمه: «qu'il teste». من ثم، ينساب عبر هذه الصفحات القليلة «رضاعة وانسياب زمان ومكان» عظام.

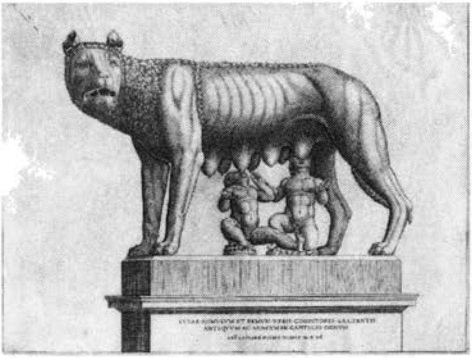

الذئبة تُرضِع رومولوس وريموس. حفر من صنع أ. لافريري نقلًا عن تمثال برونزي إتروسكي من القرن الرابع قبل الميلاد، في كتابه Speculum Magnificentiae Romanae (روما: أ. لافريري، 1552). مكتبة جامعة شيكاغو، مجموعة مقتنيات خاصّة بمركز البحوث.

وما زال في الجعبة الكثير. يكتب مونتاني في هذا المقال كيف أنه «embabooned» بالتاريخ الروماني (بالفرنسية embabouyné) التي تعني «مفتون» أو «مسحور»، لكنها قد تعني أيضا «يجري إرضاعه». بل إن الكلمة الفرنسية تحمل المزيد من الإيحاءات إذا قرأها المرء «en bas bou(e) y n(ais)»، بمعنى «أنا أولد بالأسفل في الوحل». يشير هذا مرة أخرى إلى التوأمين والذئبة، لأنهما كانا مضطرّين إلى الانحناء الشديد في وحل نهر التيبر ليرضعا من تحت الذئبة. وحيث إن الوحل اسفنجي القوام وبني اللون، يمكن رؤية مونتاني المسحور الآن يهبط إلى «عالم سابق على الرمز من الروائح والبراز».

مقال كونلي نفسه ساحر، أو فاتن، وهو لا يكتفي بمجرّد اللعب بالكلمات مثلما كان رومولوس وريموس يقذفان بملء قبضاتهما من طين نهر التيبر حولهما. ولا هو يقترح أن مونتاني كانت له حلمات في مخّه «حقًّا» حين كتب عن روما. الهدف استخراج شبكة من التداعيات الحرّة؛ ليجد في كلمات قليلة من النص تبدو مستقيمة معنى جميلًا وكاشفًا مثل الحلم. للنتائج جمالٌ خاصٌّ بها يشبه جمال الحلم، ولا سبب للضيق لأنه لا تبدو لها علاقة قوية واضحة بمونتاني. وكما قال مونتاني عن بلوتارخ، كل سطر من نص ثريّ مثل كتاب **المقالات** مليء بمؤشّرات تشير ل»إلى أين يجب أن

نذهب، إذا أحببنا». وقد أخذ النقّاد الحديثون هذا بجدّية شديدة.

وطوال الوقت، لا يكون المريض الراقد على أريكة المحلل - المريض الذي تصرخ أحلامه طلبًا لتفسير - هو نصُّ كتاب المقالات، ولا مونتاني بشخصه، بل الناقد. إن المخبرين الأدبيين إذ يعاملون نص مونتاني باعتباره كنزًا من المفاتيح الدالّة على شيء مجهول، وفي الوقت نفسه يفصلون هذه المفاتيح عن سياقها الأصلي، يعرِّضون أنفسهم لخدعة متأصِّلة لفتح مغاليق اللاوعي. إنها بالضبط التقنية التي يستخدمها قارئ الطالع حين يجعل من أوراق الشاي التي في الفنجان رسمًا تخطيطيًّا، أو المعالج النفسي الذي يطبّق اختبار رورشاخ. المرء يرسم حقلًا عشوائيًّا من المفاتيح الدالّة، المنفصلة عن سياقها المألوف، ثم يراقب ليرى ما الذي يخرج من عقل الملاحظ. لا بد من أن تكون الإجابة شيئًا ما على الأقل يضاهي في هشاشته وتقلّبه كتاب **روح مقالات مونتاني**.

شيء مؤسف لأي شخص لديه ملكة تذوّق هذه الأشياء، يبدو هذا الاتجاه في نظريّة النقد الحديثة - آخر زنابق الماء[1] في هذه الرحلة المشاكسة المتقافزة كالضفادع عبر تاريخ قراءات مونتاني - كما لو كان قد صار تاريخًا بالفعل، شهدت السنوات الأخيرة رد فعل ضده؛ تغيُّر بطيء في الجو. يتزايد المثقّفون الأدبيون الذين يعودون إلى التاريخ. أعيد القول بأنهم يدرسون بعقول واعية معاني القرن السادس عشر للغة مونتاني ويحاولون سبر غور نياته ودوافعه. إنها تبدو مثل نهاية عصر وبداية آخر.

ما الذي كان يمكن لمونتاني أن يفعل بكل هذا؟ لقد تمتّع باتباع إشارات الأصابع في أنحاء صفحة من كتابات بلوتارخ، لكنه زعم أنه ساخط على الكثير من التفسيرات الأدبية. يقول إنه كلما زاد عمل الناقد على نصٍّ، يقلّ فهم أيّ شخصٍ لهذا النصّ. «يسلّمه المعلّق رقم مائة إلى خلفه وهو أكثر تعقيدًا وخشونة مما وجده الناقد الأوّل». أي نصٍّ يمكن تحويله إلى خليط من التناقضات المربكة:

> **انظر كيف حرّكوا أفلاطون وقلّبوه على الجانبين. كل إنسان يشعر بالعظمة لتطبيق تعاليمه على نفسه، ويضعه على الجانب الذي يريده. إنهم يقدِّمونه مرارًا وتكرارًا ويغرسونه في جميع الآراء الجديدة التي يقبلها العالم.**

يتساءل مونتاني متعجبًا، هل سيأتي على الإطلاق وقت يتجمّع فيه المفسِّرون

(1) أتى هذا التشبيه لنظريات النقد بزنابق الماء وللأفكار النقدية بالضفادع لأن الضفادع تتنقل بالارتكاز على الأوراق العريضة لزنابق الماء التي تنمو بالمستنقع التي تعيش فيها الضفادع (المترجمة).

ويتّفقون على عمل معيّنٍ قائلين: «يكفي ما كتب عن هذا الكتاب؛ ولم يعد يوجد ما يقال عنه؟». بالطبع لا. ومونتاني كان يعرف أن كتاباته لا بد من أن تستمرَّ في المرور عبر هذه المطحنة طالما بقي لها قرّاء. سيجد الناس فيه دائمًا شيئًا لم يقصد أن يقوله أبدًا. وهم إذ يفعلون ذلك، سيخترعون بالفعل هذه الأشياء. «كثيرًا ما يكتشف قارئ متمكّن في كتابات الآخرين مواضع إتقان محكم تتجاوز ما وضعه المؤلف أو تصوَّره وتعطيها معاني ووجوهًا أكثر ثراء».

قرأت في ليڤي مائة شيء لم يقرأها رجل آخر فيه. وقرأ فيه بلوتارخ مائة، بجانب ما استطعت قراءته، وربما إلى جانب ما وضعه المؤلِّف في الكتاب.

يخلق هذا التفسير وتفسير التفسير عبر القرون سلسلة طويلة تربط الكُتَّاب بجميع القرّاء الذين سيأتون في ما بعد؛ الذين كثيرًا ما يقرأون لبعضهم البعض، علاوة على الأصل. كان لفيرجينيا وولف رؤية جميلة لأجيال رُبطت ببعضها البعض بهذه الطريقة؛ طريقة كيف «تضمّ العقول معًا في خيط؛ كيف أن أي عقل حيٍّ مصنوعٍ من المادّة نفسها التي صنع منها عقل أفلاطون ويوريبيديس... إنه ذلك العقل المشترك الذي يربط العالم بأسره مع بعضه البعض؛ والعالم بأسره عقل». هذه القدرة على الاستمرار في العيش من خلال العوالم الداخليّة للقارئ عبر حقبٍ طويلة من التاريخ هي التي تجعل من كتاب مثل كتاب **المقالات** عملًا كلاسيكيًّا حقيقيًّا. وحيث إنه تعاد ولادته بشكل مختلف في كل عقل، فهو يجمع هذه العقول معًا أيضًا.

لا يمكن أن توجد كتابة طموحة حقًّا من دون قبول أن يفعل الآخرون ما يعجبهم بكتابك، ويغيِّرونه حتى لا تكاد تعرفه. قبِلَ مونتاني هذا المبدأ في الفن كما قبله في الحياة. بل تمتع به. ناس ذوو أفكار غريبة بالنسبة لك؛ يكيِّفونك بحسب غرضهم. وبسيرك مع التيار وتخليك عن التحكّم في العملية تكسب جميع فوائد الخدعة الهللينية **لحبّ القدر**؛ القبول بحبور لكلّ ما يحدث. في حالة مونتاني، كان **حبّ القدر** إحدى إجابات السؤال العام عن كيفَ تعاشُ الحياةُ، وتصادف أن فتح الطريق أيضًا لخلوده الأدبي. ما تركه خلفه كان أفضل لأنه ليس بالغًا حدَّ الكمال، وغامض، وغير وافٍ، وعرضة للتشويه. قد يتخيَّل المرء مونتاني وهو يهتف: «يا إلهي، اجعلني غير مفهوم بجميع الطرق».

19. س: كيفَ تُعاشُ الحياة؟

ج: كنْ عاديًّا ولا تكنْ كاملَ الأوصاف

كنْ عاديًّا:

كان هذا الكتاب إلى حد ما قصّة كيف تدفّق مونتاني عبر الزمن من خلال نوع من نظام قنوات العقل. وأخذنا أمثلة هي بمثابة عيّنات من عند كل محبس، منعطف، سد والأمثلة مأخوذة من:

- القراء الأوائل المتحمِّسون لمونتاني، الذين مدحوا حكمته الرواقية ومهارته في جمع الأفكار الدقيقة من القدماء؛
- مثالا ديكارت وباسكال، اللذين لم يعجبهما مذاق ما كتبه، لكنهما وجداه فاتنًا في الوقت نفسه بسبب شكّه وجعله للحدود بين البشر والحيوانات الأخرى مجرّد حدٍّ مضبَّب؛
- ليبرتينيو القرن السابع عشر، الذين أحبّوه بوصفه مفكرًا حرًّا جريئًا؛
- فلاسفة التنوير للقرن الثامن عشر، الذين انجذبوا مرة أخرى إلى شكّه وحبه لثقافات العالم الجديد؛
- الرومانسيون، الذين هلّلوا لمونتاني «الطبيعي» بينما رغبوا في أن يزداد دفئًا؛
- القراء الذين دمّرت الحرب والقلاقل السياسية حياتهم، والذين نصَّبوا مونتاني بطلًا واتخذوه رفيقًا؛
- أخلاقيو نهايات القرن التاسع عشر الذين كانت وجوههم تحمرّ خجلًا بسبب بذاءته وأسفوا لافتقاره للخيط الأخلاقي، لكنهم تمكّنوا من إعادة اختراعه في صورة سيّد مهذّب محترم مثلهم؛
- كُتّاب المقالات والفلاسفة بالصدفة الذين كتبوا كتب قراءات في مونتاني عبر حوالى أربعمائة عام؛
- فريدريك نيتشه - وهو ليس فيلسوفا بالصدفة بالضبط - الذي أعجب بخفة روح مونتاني وأعاد تخيّل حيله الرواقية والإبيقورية لعيش الحياة في عصر جديد؛
- الحداثيون مثل فيرجينيا وولف التي حاولت أن تمسك بزمام الإحساس بأنها حيَّةٌ وواعيةٌ؛

- المحرِّرون، والناسخون، ومن أجروا تعديلات على كتابات مونتاني، الذين صبّوا مونتاني في قوالب ذات أشكال مختلفة؛
- مفسرو نهايات القرن العشرين الذين أنشأوا بنًى متجاوزة للعادي من حفنة من كلمات مونتاني.

وعلى طول الطريق، وُجد من اعتقدوا أنه أفرط في الكتابة عن جهازه البولي، ومن اعتقدوا أنه كان بحاجة للمساعدة بشأن أسلوبه في الكتابة، ومن وجدوه شديد الدفء؛ علاوة على من وجدوه حصيفًا، أو ذاتًا ثانية شديدة القرب منهم إلى درجة انهم لم يعودوا متأكِّدين مما إذا كانوا يقرأون كتاب **المقالات** أو يكتبونه بأنفسهم.

كان الكثير من هذه القراءات المستميتة تحويلات للمبادئ الهيللية العظيمة الثلاث، كما نقلها مونتاني وعدَّلها. هذا طبيعي، حيث إن هذه المبادئ كانت الأساس الذي قام عليه فكره، وخطّ تأثيرها يجري عبر الثقافة الأوروبية برمّتها. يكاد يستحيل الآن فصل المبادئ الثلاثة عن بعضها البعض أكثر مما ذي قبل، حتى في أصولها المبكرة؛ وهي تزداد تشابكًا في نسخة مونتاني الآخذة بالحداثة. وهي تتماسك معًا قبل كل شيء بواسطة سعيها المشترك نحو **اليوادايمونيا** (**السعادة** أو **ازدهار الإنسان**)، وباعتقادها أن أفضل سبيل للحصول عليه يأتي من خلال **الإكوانيميتي**، أو **الاتزان**؛ المؤدّي إلى **الأتاراكسيا** (**الطمأنينة**). هذه المبادئ تربطهم بمونتاني، وتربطهم من خلاله بجميع القراء الآتين بعد ذلك الذين يقصدون كتاب **المقالات** بحثًا عن الصحبة، أو عن حكمة عملية يمكنهم **استخدامها** في حياتهم اليومية.

القراء الحديثون الذين يقاربون مونتاني سائلين عن ما يمكنه فعله لهم يسألون السؤال نفسه الذي سأله هو عن سينيكا، وسيكستوس ولوكريتوس، والسؤال نفسه الذي سأله **هؤلاء** عن **أسلافهم**. هذا هو المعنى الحقيقي لسلاسل العقل لدى فرجينيا وولف؛ فهي ليست مبدأ علميًّا، بل سلسلة من الأفراد المهتمين بذواتهم محتارين في حل لغز حياتهم، لكنّهم يفعلون ذلك بشكل تعاوني. وكلّهم يشتركون في خاصّية يمكن أن نعتقد بأنها «الإنسانية»؛ وهي خبرة أن يكون الشخص كائنًا مفكِّرًا حسّاسًا، لكن لا بد له من أن يتماشى مع الحياة الإنسانية العادية، على الرغم من أن مونتاني مدَّ اتحاد العقول بأريحية ليشمل أنواعًا أخرى من الكائنات أيضًا.

> **أنا أعرض حياة بسيطة وخالية من العظمة: هذا لا يهم. يمكنك أن تربط جميع الفلسفات الأخلاقية بحياة عاديّة وخصوصيّة، كما يمكنك ربطها بحياة أكثر ثراءً.**

هذه حقًّا الحياة العادية والخصوصية؛ حياة من أثرى ما يمكن تخيله.

لا تكنْ كاملَ الأوصافِ:

كثيرًا ما كانت صحّة مونتاني تعتل في سنواته القليلة الأخيرة إلى حدٍّ بدا معه أنه ينفق نصف وقته على الحدود بين الحياة والموت؛ تلك المنطقة التي سبقت له زيارتها في ريعان شبابه بعد حادث ركوب الخيل. لم يكن مسنًّا بعد، إذ كان في نهايات الخمسينيات من عمره فقط، لكنه كان يعرف أن نوبات حصوات الكلى التي تهاجمه يمكن أن تقتله في أي وقت، وكان يشتاق إليها أحيانًا، كان الألم ممضًّا جدًّا. لكن الحصوات لم تمسك بخناقه في هذه الأيام مثل بلطجي قوي البنية وتجذبه إلى أعلى لتقرّبه إلى الوجه الطغياني للموت، بل أغرته بالاقتراب من الموت «بدهاء ورفق»، وأتاحت له ما يكفي من الوقت للتفكير بين النوبات. بدا الموت ودودًا ـ بالضبط كما قال الرواقيون أنه يجب أن يكون.

> **لديَّ على الأقلّ هذا المكسب من الحصوات، أنها ستُتِمّ ما ظللت عاجزًا عن إنجازه في نفسي، وتصالحني تمامًا مع الموت، وتجعله مألوفًا لي.**

أول ما أدركه بعد سقوطه مغمى عليه تأكّد الآن أكثر من اللازم؛ فالطبيعة تفعل لك كل شيء، ولا داعي لتتعب رأسك بشأن أي شيء. كتب إنها تقودنا آخذة بيدنا كما لو كنا «نهبط منحدرًا رقيقًا وغير محسوس فعلًا، جزءًا بجزء». نكاد لا نحتاج للنظر إلى أين نمضي. وحين أمرضته الطبيعة، أعطته ما سعى إليه طويلًا: **الأتاراكسيا (الطمأنينة)**، ومن ثم **اليودايمونيا (السعادة الناجمة عن ازدهار الإنسان)**. أتت أعظم لحظات حسن الحال التي عرفها في حياته فورًا بعد إحدى النوبات، حين خرجت الحصوة مع البول أثناء النوبة. شعر براحة جسدية، لكنه شعر أيضًا بخفة روحيّة محرّرة له.

> **هل يوجد ما هو في حلاوة هذا التغيّر الفجائي، حين أنتقل من أقصى درجات الألم إلى الشفاء بإخراج الحصوة مع البول؟ تحقّق لي الشفاء كما لو كان بواسطة إشعال الضوء الجميل للصحّة، شديد الحرية، وشديد الاكتمال...؟**

بل وصل لأن يجد لذّة مماثلة في وسط النوبات نفسها. كانت لا تزال مؤلمة، لكنّه تعلم أن يبتهج لتعويضاتها القليلة، التي تشمل بصيص الرضا الذي شعر به حين رأى الإعجاب في أعين الآخرين:

> **توجد لذّة في سماع الناس يقولون عنك: يا لها حقًّا من قوّة، يا له حقًّا من جَلَد! إنهم يرونك تتصبّب عرقًا من الألم الممضِّ، ويشحب وجهك، ويحمرّ،**

وترتعد، وتتقيأ دمًا، وتعاني من تقلّصات وتشنجات غريبة، وأحيانًا تذرف الدمع الهتون من عينيك، وتُخرِج بولًا سميك القوام، وأسود اللون، ومخيفًا، أو توقفه عن الخروج حصوة خشنة حادّة تخزّ عنق قضيبك بقسوة وتسلخه؛ بينما أنت مستمرٌّ في الحوار مع من في صحبتك وأسارير وجهك طبيعية، وتمزح في الفواصل بين النوبات مع خدمك.

هو فقط الذي كان يعرف الحقيقة؛ وهي أن من الأسهل أن تمزح وتستمر في الحوار وأنت في قبضة الألم بأكثر مما يمكن لأي ملاحظ أن يخمِّن إطلاقًا. وكما علّمته خبرته السابقة في الاقتراب من الموت، لا يجب أن يكون للمظهر الخارجي للشخص أي علاقة بما يجري في عالمه الداخلي. كان هذه المرة في ألم ممضٍّ حقًّا، ليس مثل اللحظات التي كان يمزق فيها سترته. لكنه كان لا يزال يشعر بلا مبالاة الروح نفسها. يبدو أن الخبرة كانت تمسّه برفق.

لقد تصالحت حقًّا مع الحياة بصحبة هذا المغص؛ فأنا أجد فيه غذاء للسلوى والأمل.

واستمد درسًا مماثلًا من مسألة التقدّم في السنّ عمومًا. لم يكن الأمر أن السنَّ تنقل الحكمة آليًّا. بالعكس، كان يعتقد بأن المسنين أكثر عرضة للأباطيل والعيوب من صغار السنِّ. فهم يميلون إلى «التفاخر السخيف البالي، والثرثرة المملة، والمزاح الشائك والشرس، والخرافات، والاهتمام المضحك بالثروات». لكن هذا كان تحريفًا للموضوع، لأن قيمة التقدّم في السنِّ تكمن في تعديل هذه العيوب. التقدم في السنِّ يتيح فرصة للإنسان ليدرك أنه ليس معصومًا من الخطأ بطريقة عادة ما يجدها الشباب صعبة. حين يرى المرء تدهوره مكتوبًا على جسده وعقله، يقبل أنه كائن محدود وبشريّ. وحين يفهم الشخص أن السنَ **لا** تجعله حكيمًا، يحصل أخيرًا على نوع من الحكمة.

إن تعلّم كيف تعاش الحياة في النهاية يعني تعلّم العيش مع نواحي عدم الاكتمال بهذه الطريقة، بل حتى اتِّباعها.

وجودنا مثبَّت بخواصَّ بائسة... ومن يزيل بذور هذه الخواصّ من داخل الإنسان سيدمّر الشروط الأساسيّة لحياتنا.

حتى الفلسفة يلزمها أن»تتكثّف وتصير خفيّة» قبل أن يمكن تطبيقها على الحياة

الواقعيّة. «لا حاجة لإضاءة الأمور بمثل هذا العمق والبراعة». لن يكسب المرء شيئًا من العيش مثل تاسو، مغميًا عينيه بنفسه بألمعيّته. من الأفضل أن يكون المرء معتدلًا، ومتواضعًا، وغامضًا بعض الشيء. والطبيعة ستعتني بالباقي.

استمر مونتاني في العمل في كتاب **المقالات** عبر هذه السنوات الأخيرة، التي كانت أنضج مما قبل على الإطلاق. بقي في البيت، لكنه ظلّ يكتب خطابات، منها العديد لهنري الرابع. وكان يلتقي بالأصدقاء، والكتّاب، والزملاء القدامى من أيام بوردو وغيرها من الأماكن، ومنهم أنتوني شقيق فرانسيس بيكون. وابنته ليونور، التي كبرت الآن، وتزوّجت من فرانسوا دي لا تور في 27 مايو 1590 في احتفال أقيم في ضيعة مونتاني. وفي السنة التالية، صار مونتاني جدًّا، حين أنجبت ليونور في 31 مارس 1591 ابنة سمّتها فرانسواز. وظل مداومًا على الكتابة، مضيفًا آخر خيالاته وحكاياته، التي تشمل أفكاره النهائية عن فن عيش الحياة في انسجام مع الحالة العادية ونواحي عدم الاكتمال. وبدا أكثر فأكثر مثل رجل تعلّم كيف تُعاش الحياة؛ أو ربما كانت مجرّد لا مبالاته وقد تطورت إلى درجة أكثر براعة وإحكاما عما كانت عليه من قبل إطلاقًا.

20. س: كيفَ تعاشُ الحياة؟

ج: دعِ الحياةَ تكونُ الإجابةَ عن السؤال عنها

هاجمت نوبة من نوبات حصوات الكلى مونتاني في بدايات سبتمبر 1592. حدث له هذا كثيرًا من قبل، وربما تعامل معها بهدوء في البداية ولم يدعها تعطّله عن أداء عمله. لكن حدثت هذه المرة مضاعفات شديدة جدًّا، كما كان يعرف دائمًا أن هذا قد يحدث. وبدلًا من أن تخرج الحصوة مع البول وتعطيه هذا الإحساس السريع بالراحة والبهجة، ظلّت في مكانها. ثم حدث تلوّث.

بدأ جسمه كله في التورم. ولم يمض وقت طويل حتى انتشر الالتهاب إلى حلقه. أدى هذا إلى حدوث حالة من التهاب الحلق تعرف باسم «الخُنَّاق»، واللفظ الدال عليها «سينانشي cynanche» مشتق من اليونانية بمعنى الزمام أو الأنشوطة التي تستخدم لخنق الكلب أو غيره من الحيوانات؛ وهو اسم يعطي معنى حيًّا بمدى بشاعته. ومع تفاقم الحالة، أغلق حلق مونتاني وصار أكثر ضيقًا، حتى اضطر إلى النضال من أجل كل نفس.

وأدى الخُنّاق بدوره إلى حدوث خرّاج متقيّح بالحلق، وهو حالة التهاب خطير في الحلق، ما زال حتى اليوم يعتبر قاتلًا محتَمَلًا إذا تُرِك من دون علاج. كان علاجه بحاجة إلى جرعات منتظمة من المضادات الحيوية، لكنها لم تكن متاحة لمونتاني. ومن هنا فصاعدًا، مع تورّم حلقه، عجز عن الكلام، لكنه ظلّ في كامل وعيه، وكان قادرًا على توصيل رغباته لمن حوله بالكتابة.

ومرّت ثلاثة أيام بعد حدوث خرّاج الحلق. جلس مونتاني مسنودًا في فراشه، بينما تجمعت أسرته وخدمه ليراقبوا وينتظروا. صارت الغرفة مسرحًا لمشهد فراش موت من النوع الذي أمل مونتاني دائمًا في تجنّبه. هذه الطقوس تجعل الموت أسوأ من اللازم؛ إنها لا تفعل إلا بث الخوف في الرجل المحتضر وكل من حوله. الأطباء والوعّاظ ينحنون على الفراش؛ والزوار الحزانى؛ و«الخدم الشاحبون الباكون؛ والغرفة المعتمة؛ والشموع الموقدة،... باختصار، كل ما حولنا رعب وخوف». كان كل هذا

أبعد ما يكون عن الموت البسيط، بل الذي يحدث أثناء شرود الذهن، الذي كان يفضِّله مونتاني. لكن الآن وقد حانت اللحظة، لم يحاول أن يصرف الحشد المحيط به.

جوزيف روبرت - فاليري اللحظات الأخيرة لمونتاني، 1853. زيت على قماش.
مجموعة مقتنيات خاصّة فيل دي بيريجو، متحف بيريجورد للفنون
والآركيولوجي (ماب)، فرنسا.، Inv رقم 438B صورة بكاميرا ماب.

وما إن اتّضح أنه لم يبق أمل في الشفاء، كتب مونتاني شهادته وأمنياته الأخيرة. أكد كاتب محلي هو بيرنارد أوتومان أن مونتاني خلال هذه الأيام الأخيرة «نهض وغادر الفراش بملابس نومه»، واستدعى جميع خدمه وغيرهم من صغار المستفيدين من وصيته إلى غرفته، حتى يتمكّن من دفع ميراثهم لهم بنفسه. ربما كان هذا حقيقيًّا، على الرغم من أنه لا يتّفق جيّدًا مع وصفه وهو يرقد مشلولًا. جميع التقارير عن ساعاته الأخيرة لا يُعتمد عليها تمامًا؛ فكلّها وصلتنا بطريق غير مباشر. لكن تقريرًا واحدًا على الأقل يجب أن يكون دقيقًا إلى حدٍّ ما؛ كتبه إتيين باسكير، صديق مونتاني القديم؛ بناء على ما سمعه من فرانسواز، التي ظلّت بجوار زوجها طوال الوقت؛ فلم يصرف مونتاني زوجته بعيدًا عن فراش موته كما صرف لا بويتي زوجته منذ سنوات مضت.

ومع ترتيب الوصيّة، أقيم قداس أخير في غرفته. صار الآن يكاد لا يقدر على التنفس. ووفقًا لما قاله باسكير، نهض جالسًا في الفراش «بمجهود مستميت، ويداه

مقبوضتان»، بينما كان القسّ يتكلّم، لكي يزكّي روحه عند الإله. كان فعلًا أخيرًا من أفعال العُرف الكاثوليكي؛ اعتراف موجز بفضل الإله في حياة هذا الرجل العلماني التي عاشها بحبور.

ولم يمضِ وقت طويل بعد ذلك حتى أغلقت القناة الصغيرة الأخيرة التي تمرِّر الهواء خلال حلقه. ربما مات بجلطة في المخ، أو ربما اختنق ليس إلا. ومات ميشيل إكويم دي مونتاني عن تسعة وخمسين عامًا في 13 سبتمبر 1592 محاطًا بالعائلة، والأصدقاء، والخدم.

لا بد من أن موت مونتاني كان مفجِعًا لمن راقبوه: النضال للحصول على الهواء، والجهد المستميت، والورم البشع. وكان يبدو واعيًا تمامًا لما يحدث، وهو شيء آخر كان يأمل في تجنّبه. لكن ربما لم يشعر بأنه مفجع إلى هذه الدرجة له. في يوم حادث ركوب الخيل الذي حدث له، كان يتقلّب على الجانبين وهو يتقيأ دمًا بينما تطفو روحه في حبور. ربما حدث الشيء نفسه في النهاية أيضًا. ربما لم يشعر إلا بالإحساس بأن حياته تنفصل عنه برفق وتخرج من شفتيه. لقد انقطع هذا الخيط الرفيع في نهاية المطاف.

ألّف إتيان باسكير مع صديق آخر هو بيير دي براش تقاريرهما عن المشهد لمعاصريهم، وهي تقارير معتمِدة على القيل والقال، فجعلا موت مونتاني مثالًا للموت الرواقي. وقدَّما الخدمة نفسها لذكراه كما فعل هو للا بويتي. كتب بيير دي براش في خطاب إلى جستوس ليبسيوس أن مونتاني عاش سعيدًا، ومات الآن سعيدًا، وفي حال حسَنٍ. الوحيدون الذي يحسّون بالألم هم من سيعيشون بعده، الذين سيحرَمون للأبد من صحبته الطيبة.

أول عمل ينبغي على هؤلاء الذين عاشوا بعده عمله، هو الجنازة والدفن، مع تجريد جثمان مونتاني من ملابسه، وهو عمل رهيب. وسجِّلت ملحوظة في تقويم يوميات العائلة بعنوان الزوال:

> **دُفن قلبه في كنيسة سان ميشيل، وأمرت أرملته فرانسواز دي لا تشاسين، مدام مونتاني، بنقل جثمانه إلى بوردو؛ ودُفن في كنيسة جماعة الفويليين، حيث أمرت ببناء قبر مرتفع له هناك، واشترت من الكنيسة حق بناء هذا القبر.**

لم يكن فصل أجزاء الجثمان عن بعضها البعض عند الدفن أمرًا خارجًا عن المعتاد، على الرغم من أنه يبدو اختيارًا غريبًا أن يوضع القلب فقط، لا الجثمان بأكمله، في

الكنيسة الصغيرة التي ترجع للقرن الثاني عشر في الضيعة. هذا مكان جيّد للرقاد بسلام؛ كان يمكن أن يرقد بجوار والده والهياكل العظمية الصغيرة للكثير من أطفاله.

قبر مونتاني. نقلًا عن استروفسكي، مونتاني
(باريس: نوفيل ريفيو كريتيك، 1938).

بدلًا من ذلك ذهبت بقايا حسده إلى كنيسة جماعة الفويليين، وهو قرار غريب، ونعيد القول إنه من الواضح أنه ليس القرار الأصلي. كانت الخطّة الأولى أن يدفنوه في كاتدرائية سان أندريه في بوردو؛ وقد أقرّت قواعدها هذا في 15 ديسمبر 1592. كان هذا سيضعه بين أعضاء عائلة فرانسواز، بدلًا من رقاده بين أعضاء عائلته. لكنها غيَّرت رأيها، إما لأنها هي نفسها كانت من أنصار جماعة الفويليين، أو لأنه هو الذي كان كذلك؛ فقد عبّر عن إعجابه بهم في كتاب **المقالات**. كان القرار جيدًا بالتأكيد بالنّسبة للرهبان. فمقابل تسكين جثمان مونتاني وإقامة قداسات منتظمة لروحه تلقوا إيجارًا سخيًّا استخدموه لتمويل عملية طلاء المبنى من الداخل. أعطوه قبرًا رائعًا، يعيش

على مر الزمن؛ يصوِّره راقدًا مسلّحًا بالكامل بسلاح فارس وقد خلع عن يده القفاز الواقي ويديه في وضع الصلاة. تغطي المراثي المكتوبة باليونانية واللاتينية جوانب القبر، تمدح شكّه المسيحي، والتزامه بقوانين أسلافه وديانتهم، «وأسلوبه المهذّب»، وحكمه الصائب، وأمانته وشجاعته. ينتهي هذا النص اللاتيني نهاية مؤثِّرة:

يا للأسى! لقد تُرِكت فرانسواز دي لا تشاسين، ضحيّة للحزن الأبدي. لقد شيّدت هذا النصب التذكاري لذكرى هذا الزوج التي تندم عن حق على فراقه. لم يتّخذ زوجة أخرى: ولن تتخذ زوجًا آخر.

رقد جثمانه ناقصًا القلب في هذا القبر أخيرًا في 1 مايو 1594، بعد سنة ونصف من موته. كان عليه أن ينتظر زمنًا طويلًا حتى يرقد رقدته الأبدية بسلام؛ ولم يقدَّر لها أن تكون أبدية أبدًا. فبعد عِقد آخر من الزمان، بدأ العمل في توسيع الكنيسة وتعديل تخطيطها. كان من شأن هذا أن يظلّ قبر مونتاني محصورًا في مكانه بعيدًا جدًّا عن المذبح الجديد، انتهاكًا للاتفاق مع فرانسواز. ورفعت فرانسواز قضية على جماعة الفويليين وكسبتها؛ وأرغموا على نقل القبر في العام 1614 إلى موضع رئيسي في الكنيسة الجديدة.

رقد هناك، ومرت العقود بسلام، حتى أتت الثورة الفرنسية بعد حوالى عشرة أجيال من ذلك الوقت. أبطلت الدولة العلمانية الجديدة جماعة الفويليين وغيرها من الفرق الدينية، وصادرت ممتلكاتهم، بما فيها الكنيسة بكلِّ ما فيها. حدث هذا في زمن اعتُبر فيه مونتاني بطلًا للتنوير، ومفكِّرًا حرًّا محبًّا للفلسفة، وشخصًا يستحق أن يكرّمه النظام الثوري. بدا أن من الخطأ تركه حيث هو؛ فصدر أمر في العام 1800 باستخراج جثمانه وإعادة دفنه في صالة التذكارات في معبد بوردو الجديد العظيم: أكاديمية العلوم والآداب والفنون. استخرجت البقايا الثمينة ونقلت بإجلال هائل إلى الموقع الجديد، مصحوبة بموكب من الخيالة، وتحييها الموسيقى النحاسية بعزف الموسيقى العسكرية طوال الطريق.

وبعد سنتين ونصف، اكتشف خبير آثار يتعامل مع السجلات في أكاديمية بوردو نفسها اكتشافًا محرجًا. فالجثمان الذي نقل لم يكن جثمان مونتاني؛ بل كان جثمان زوجة ابن شقيقه، وهي امرأة تدعى ماري دي بريان دفنت في القبر نفسه مع غيرها من أفراد العائلة. وبهدوء، وبلا موسيقى نحاسية ولا خيالة هذه المرة، استعيد جثمانها من صالة التذكارات وأعيد إلى مكانه الأصلي. وظل مونتاني حيث كان طوال الوقت،

لم يُمَس، في القبر الأصلي. الرجل الذي كان يكره أعمال البناء، «والتجديد» المثالي والتغيّرات الفجائية العنيفة غير الضرورية، ظلّ في نهاية المطاف من دون أن تزعج الثورة رقدته، ومرّت من فوق رأسه مثلما تمرّ موجة من فوق قاع البحر العميق.

وبعدئذ، في العام 1871، دمّر حريق الكنيسة. وظل القبر في معظمه سليمًا، لكنه قام الآن من دون حماية وسط الأطلال الواسعة المفتوحة للكنيسة لحوالى عِقد من الزمان. وفي ديسمبر 1880، فتحه المسؤولون ليقدِّروا حالة الرفات المبجّل، ووجدوا الغلاف الرصاصي المحيط برفات مونتاني وقد تفتت إلى قطع صغيرة. فحصوا الشذرات، وصنعوا له تابوتًا جديدًا من خشب البلوط. ثم ظل القبر المرمَّم في مكان مؤقت في مخزن منزل مستأجَر، قبل أن ينصب في 11 مارس 1886 في بهو المدخل لمبنى جديد بجامعة بوردو، يضم كليات اللاهوت، والعلوم، والآداب. وهو اليوم في متحف الآثار في بوردو، حيث يمكن رؤيته معروضًا بفخر.

يصعب وجود مجموعة من المغامرات الملائمة منشورة بعد وفاة كاتبها مثل مغامرات مونتاني المنتبه بشدّة إلى تدفّق تيار العالم، والواعي بأن جميع مساعي البشر يربكها الخطأ. وحتى بعد أن مات مونتاني، بدا أن شيئًا ما ظلّ يجذبه إلى الخلف إلى تيار الحياة، بدلًا من تركه يتجمّد في ذكرى تبلغ حد الكمال. فلا علاقة لإرثه الحقيقي بقبره إطلاقًا؛ بل يوجد إرثه في الحظوظ المضطربة لكتاب **المقالات**: ذاته الثانية التي لا تكفّ عن التجدد. لقد ظلّ مونتاني وكتابه أحياء. وبالنسبة إلى مونتاني، كانت الحياة دائمًا هي التي تهم. كانت فيرجينيا وولف مغرمة بشكل خاص باقتباس هذه الفكرة من آخر مقال له؛ كانت الأكثر قربًا من مونتاني عند وصوله إلى نهاية مقاله أو أفضل إجابة على سؤال كيف تُعاش الحياة.

لا بد أن تكون الحياة هدفًا في حدِّ ذاتها، غَرَضًا في حدِّ ذاتها.

إما أن هذه ليست إجابة إطلاقًا أو أنها الإجابة الوحيدة الممكنة. إن لها السمة نفسها التي للإجابة التي يقدّمها زعيم طائفة الزن البوذية الصينية لمن يسأله: «ما التنوير؟»، إذ يضرب السائل بعصًا على رأسه. التنوير شيء تتعلّمه على جسمك؛ إنه يأخذ شكل أشياء تحدث لك. لهذا علّم الرواقيون، والإبيقوريون، والشكّاكون الناس حيلًا لا قواعد. كل ما يمكن للفلاسفة تقديمه هذه الضربة على الرأس، أو تقنية مفيدة، أو تجربة فطرية، أو خبرة؛ وهي في حالة مونتاني خبرة قراءة كتاب **المقالات**. المادّة التي يدَرِّسها الكتاب ليست إلا نفسه ببساطة، مثال عادي لكائن حي.

على الرغم من أن كتاب **المقالات** يقدّم جانبًا مختلفًا من المسألة لعين كل قارئ، فكل ما في مقالاته متّحد في هذه الشخصية الواحدة؛ شخصيّة مونتاني. لذلك يرجع إليه القراء بطريقة لا يفعلون مثلها إلا مع عدد قليل من الآخرين الذين عاشوا في القرن الذي عاش فيه، أو حقًّا مع معظم الكتاب في أي حقبة زمنية. المقالات التي في كتاب **المقالات** مقالاته. إنها تختبر وتفحص عقلًا هو عبارة عن «أنا» لنفسه، مثل جميع العقول.

قد يتساءل البعض عما إذا كنا لا نزال في حاجة لأي كاتب مقالات مثل مونتاني. أهل القرن الحادي والعشرين من مواطني العالم المتقدّم مفرطون في الفردية بالفعل، بالإضافة إلى ارتباطهم ببعضهم البعض إلى درجة تتجاوز أكثر الأحلام شططًا لزارع الكروم وصانع النبيذ الذي عاش في القرن السادس عشر. قد يبدو إحساس مونتاني بالـ«أنا» في جميع الأشياء حالةً من تبشير المتحوّلين إلى عقيدته، أو حتى تقديم المخدّرات للمدمنين. لكن مونتاني يقدّم ما هو أكثر من الإغراء بتدليل النفس. يمكن أن يكسب القرن الحادي والعشرون كلَّ شيء من فهم مونتاني للحياة، ففي أكثر لحظات هذا القرن اضطرابًا حتى الآن، كان في حاجة ماسّة لسياسات تضاهي سياسات مونتاني. كان بإمكان القرن الحادي والعشرين أن يستخدم معنى التوسّط لدى مونتاني، وحبّه للائتناس بالناس والكياسة، وتعليقه للحكم على الأمور، وفهمه الأريب للآليات النفسيّة الداخلة في عمليّات المواجهة والصّراع. وهو بحاجة ليقين مونتاني من أن أيَّ رؤية للسماء، وأيَ تخيّل لنهاية العالم، وأيَّ تخيّل للوصول إلى حدِّ الكمال لا يمكن أن يضاهي ثقلهم أبدًا أضأل ذات من الذوات في العالم الواقعي. يجد مونتاني أن من المستحيل التفكير في أن أيَّ شخصٍ يمكنه أبدًا أن «يرضي السماء والطبيعة بارتكاب المذابح وقتل البشر، وهو اعتقاد تشترك فيه جميع الديانات». والاعتقاد بأن الحياة تتطلّب مثل هذه الأفعال نسيانًا للطبيعة الفعلية للوجود اليومي. إن ذلك يستدعي نسيان أنك حين تنظر إلى جروٍ بجوار دلو من المياه، أو حتى إلى قطة لديها مزاج للعب، فأنت تنظر لمخلوق يبادلك النظرات. لا يوجد في الموضوع أيّ مبادئ مجرّدة؛ يوجد فقط فردان، وجهًا لوجه، يأملان في الحصول على أفضل ما لدى الآخر.

من ثم؛ ربما استحقّت قطّته الاعتراف لها بفضل آخر إجابات مونتاني؛ وهذه القطّة فرد ذات خصوصية من القرن السادس عشر، عاشت حياة بهيجة في ضيعة ريفية مع سيد شغوف بها، لا تضطرّ للتنافس كثيرًا لجذب انتباهه. كانت هي التي قد ذكَّرت مونتاني بمعنى أن يكون الإنسان حيًّا برغبتها في اللعب معه في لحظة غير ملائمة. كانا

ينظران إلى بعضهما البعض، ولمجرد وهلة، كان يثب متخطّيًا الفجوة بينهما ليرى نفسه من خلال عينيها. وقد خرجت جميع فلسفته من هذه اللحظة، ولحظات مثلها لا تُعدّ ولا تُحصى.

ها هما إذًا في مكتبة مونتاني. القطّة يجذبها صرير قلم مونتاني؛ فتضع براثنها من باب التجربة على القلم المتحرك. فينظر إليها مونتاني، وربما يتضايق مؤقتًا لوهلة لمقاطعتها له. ثم يبتسم، ويميل القلم، ويجرّ الريشة المثبتة في نهايته عبر الورقة لكي تلاحقها القطة. فتثب القطة. ويتلوّث باطن براثنها بالحبر فتمسّ بالحبر الكلمات القليلة الأخيرة؛ وتنزلق بعض الأوراق وتسقط على الأرض. يمكن ترك الاثنين هنا، معلّقين في وسط حياتَهما التي يعيشانها مع كتاب **المقالات** الذي لم تكن كتابته قد اكتملت بعد، بينما ننصرف نحن ونعيش حياتنا، بينما لم نتم قراءة كتاب **المقالات** بعد.

قطة مونتاني، صورة تخطيطية على هامش نسخة من كتاب المقالات لمونتاني (باريس: أ. لانجلبير، 1602) من ممتلكات القاضي الهولندي بيتر فان فيين (ولد في 1561 أو 1562).
وهو الذي رسم الصورة، ربما ليهديها لابنه. بريتيش ليبراري، لندن.

الأحداث مرتَّبة زمنيًّا

1533 (28 فبراير) مولد مونتاني
1539؟ – 48 ذهاب مونتاني للمدرسة في كوليدج دي جويين في بوردو
1548 (أغسطس) حدوث قلاقل ضريبة الملح في بوردو: مونتاني يشهد قتل الغوغاء لمونينز
1548 – 54 يدرس مونتاني (ربما القانون)، وربما في باريس و/ أو تولوز.
1554 بدأ مونتاني العمل في محكمة ديس آيديس في بيريجيو
1557 جميع رجال بيريجيو ينقلون إلى **برلمان** بوردو
1558 – 59 صار مونتاني صديقا لإتيين دي لا بويتي
1559 اتفاقية شاتو كامبريسيس تنهي الحروب الأجنبية لفرنسا، مع عواقب كارثية
1562 مذبحة ڤاسي: بدء الحروب الأهلية في رووين مع شارل التاسع، مونتاني يقابل ثلاثة من قبيلة التوبينامبا البرازيلية.
1563 (18 أغسطس) وفاة لا بويتي؛ ومونتاني بجوار فراشه
1565 (23 سبتمبر) مونتاني يتزوج فرانسواز دي لا تشاسين.
1568 (18 يونيو) وفاة بيير إكويم ومونتاني يرث الضيعة.
1569 مونتاني ينشر ترجمته لكتاب **اللاهوت الطبيعي** للمؤلّف سيبوند
وفاة آرنود شقيق مونتاني في حادث أثناء لعب التنس
1569 أو بدايات 1570 مونتاني نفسه يكاد يموت في حادث أثناء ركوب الخيل
1570 مونتاني يتقاعد من وظيفته في **برلمان** بوردو
تولد طفلته الأولى، وتُتوفَّى بعد شهرين
مونتاني يحرِّر أعمال لا بويتي
1571 (فبراير) مونتاني يكتب النقش عن يوم ميلاده على جدران مكتبته
1571 (9 سبتمبر) تولد طفلته الوحيدة التي ستظل على قيد الحياة، ليونور
1572 ربما بدأ مونتاني العمل في كتاب **المقالات**
1572 (أغسطس) مذابح سان بارتيلوميو

1574 وفاة شارل التاسع: هنري الثالث ينصَّب ملكًا
1576 مونتاني يأمر بصكِّ ميداليته، عليها ميزان ومكتوب عليها شعار **العهد**
1578 يعاني من أولى نوبات حصوة الكلى
1580(يونيو) - 1581(نوفمبر) مونتاني يسافر إلى سويسرا، وألمانيا وإيطاليا
1581(أغسطس) يُنتخب عُمدةً لبوردو
1582 كتاب **المقالات**: صدور الطبعة الثانية
1583(أغسطس) يعاد انتخابه عُمدةً لبوردو
1584(ديسمبر) هنري دي نافار يقيم في ضيعة مونتاني
1585 الطاعون يصيب الضيعة؛ مونتاني يهرب
1587 كتاب **المقالات**: صدور الطبعة الثالثة
1587(أكتوبر) هنري دي نافار يزور ضيعة مونتاني مرة ثانية
1588 مونتاني في باريس في مهمّة سرّيّة، ثم يتبع بلاط هنري الثالث. يقابل ماري دي جورناي
1588(مايو) يوم المتاريس؛ هنري الثالث يهرب من الأطراف المتناحرة.
1588(يونيو) كتاب **المقالات**: صدور الطبعة الخامسة التي زاد حجمها كثيرًا (الطبعة الرابعة، لو كانت موجودة، لم يظهر لها أثر)
1588(10 يوليو) مونتاني يُسجَن في سجن الباستيل، ثم يُطلَق سراحه
1588 (في الخريف) مونتاني يتماثل للشفاء في بيكاردي مع ماري دي جورناي
1588(ديسمبر) هنري الثالث يأمر باغتيال دوق دي جويز
1588 - 92 مونتاني يعمل على الإضافات النهائية لكتاب **المقالات**
1589 (أغسطس) اغتيال هنري الثالث؛ وهنري الرابع يخلفه على العرش، على الرغم من الخلاف على أحقّيته في المطالبة بالعرش
1592(13 سبتمبر) مونتاني يتوفَّى بسبب خراج متقيّح بالحلق
1595 صدور طبعة ماري دي جورناي من كتاب **المقالات**، التي ستسود كتب قراءات في مونتاني لثلاثة قرون
1601 موت أم مونتاني، أنطوانيت دي لوبي دي فيلينوف
صدور كتاب **الحكمة**، وهو نسخة من كتاب **المقالات** «معدّلة» بيد بيير شارون
1603 كتاب **المقالات**: أول ترجمة إنجليزية للمترجم جون فلوريو
1616 وفاة ليونور ابنة مونتاني

1627 وفاة أرملة مونتاني، فرانسواز دي لا تشاسين

1637 صدور كتاب **مقال في المنهج** لديكارت

1645 وفاة ماري دي جورناي

1662 وفاة بليز باسكال، تاركًا الملاحظات لتُنشر بعنوان **خواطر**

1676 وضع كتاب **المقالات** في قائمة الكتب الممنوعة

1685 - 86 تشارلز كوتون يترجم كتاب **المقالات** إلى الإنجليزية

1724 نسخة كتاب **المقالات** الفرنسية تنشر في لندن عن دار نشر ريفيوجي بيير كوست

1772 اكتشاف جريدة السفر التي حرّرها مونتاني في حقيبة سفر قديمة

«نسخة بوردو» المزودة بهوامش شارحة من كتاب **المقالات** تُكتشف في الأرشيف وتُستخدم للتحقّق من مصداقية الجريدة.

1789 الثورة الفرنسية

1800 السلطات الثوريّة تقرّر إعادة دفن مونتاني في أكاديمية بوردو باعتباره بطلًا علمانيًّا، لكن الخطة تنحرف عن طريقها

1850 نشر خطابات مونتاني عن «الطاعون»، مسبّبة الذعر

1854 رفع كتاب **المقالات** من قائمة الكتب الممنوعة

1880 - 86 تجديد قبر مونتاني ونقله إلى جامعة بوردو

1906 نشر أول مجلّد من طبعة استروفسكي من كتاب **المقالات**، قائمة أساسًا على «نسخة بوردو»

1912 نشر المجلّد الأول من طبعة آرمينجود من كتاب **المقالات**، قائمة أساسًا على «نسخة بوردو»

2007 نشر طبعة نيو بلياد من كتاب **المقالات**، قائمة أساسًا على طبعة جورناي لسنة 1595

مكتبة
t.me/t_pdf

شكر وعرفان

«عبوديتي الطّوعية» لمونتاني التي استمرت خمس سنوات كانت نصف عِقد استثنائيًّا، تعلّمت فيه الكثير؛ ليس أقلّه ما لمسته من طيبة الأصدقاء، والباحثين، والزملاء الذين ساعدوني بطرق كثيرة.

أوجّه الشكر بشكل خاص إلى وارين بوتشار، وإيميلي باتاروورث، وفيليب ديسان، وجورج هوفمان، وبيتر ماك، وجون أوبراين لدفء تشجيعهم لي، وكرمهم في مساعدتي، وترحابهم بمشاركتي في وقتهم، ومعارفهم، وخبراتهم.

وإني لممتنّة لإليزابيث جونز لتزويدها لي بمادة مدهشة من الفيلم التسجيلي **الرجل الذي أكل كبد مطرانه**، وكذلك لفرانسيس كوتوراس من متحف الفن والآركيولوجي في بريجورد بيريجو، ولآن - لاوري رانو من متحف اللوفر، وآن - صوفي مارشيتّو من صحيفة صاد - كويست، ولمايكل إيتوريا لسماحه لي باستخدام فيلم الرسوم المتحركة الذي أخرجه بعنوان «**وأخيرًا معجبة واحدة!**»ً وأنا أدين أيضا بأقصى امتنان لجون ستافورد لسماحه لي باستخدام الصور الفوتوغرافية التي لديه.

وقد اعتمدت كثيرًا على مكتبات؛ تشمل المكتبة القومية في فرنسا، ومكتبة بلدية بوردو، والمكتبة البريطانية، ومكتبة لندن، وأنا أشكر طاقم العاملين في هذه المكتبات لمساعدتي بخبراتهم. وإني لأقدّر كثيرا كرم دار نشر جامعة استانفورد لإعطائي تصريحًا فوريًّا بالاقتباس من ترجمة دونالد فريم.

وما كان الكتاب ليتم إلا بمساعدة منحة من مؤسسة المؤلفين من جمعية المؤلفين، ومن مكتبة كارليل ممفيس في لندن؛ وإني لممتنة لكليهما.

وجزيل الشكر موصول لوكيلتي زووي والدي في روجرز، كولريدج& وايت، ولمحرّرتي جيني آجلو، كما أشكر آليسون صمويل، وباريزا إبراهيمي، وبث همفريز، وسو آمارديڤاكارا، وجميع
طاقم شاتّو & ويندوز الذين اعتقدوا بأهمية الكتاب وساعدوا على خروجه للنور.

وعلى الرغم مما يبدو من أن هذا لن يحدث، أشكر توندي هوليك، وجولي ويلرايت، وجان وراي بيكويل، وسيمونيتا فيشاي - ڤيلتروني؛ التي عاشت طويلًا

مع مونتاني، ولم تفقد أبدًا الإيمان به (أو بي). وإني لأشكرهم لقراءة المسودات المخطوطة للكتاب في مختلف مرحل إعداده وهو لم يستقر على ترتيبه النهائي بعد، وإعطائي مشورات حكيمة، وطمأنتي على أن كل شيء يسير بحسب الخطة المرسومة.

قابلت مونتاني للمرة الأولى، حين كنت في بودابست من حوالى عشرين عاما وكنت أبحث باستماتة عن شيء أقرأه في القطار؛ فانتهزت فرصة شراء نسخة مترجمة زهيدة الثمن من كتاب **المقالات** من متجر يبيع الأشياء المستعملة. كان هو الكتاب الوحيد الذي باللغة الإنجليزية على رفوف المتجر؛ وشككت كثيرًا في أني سأستمتع به. لا يوجد في تحولات الحوادث هذه شخص معين يمكن أن أشكره؛ أشكر فقط الحظ، والحقيقة المونتانيّة القائلة بأنك تحصل على أفضل ما في الحياة حين لا تحصل ما اعتقدت أنك تريده.

نبذة عن المؤلفة:

عملت سارة بيكويل أمينة مكتبة في مكتبة ويلكوم، وكانت مسؤولة عن الكتب القديمة، وبعد ذلك صارت كاتبة متفرِّغة، فنشرت سيّرها التي احتفت بها الأوساط الأدبية، وهي **الذكي**، و**الدنمركي الإنجليزي**. تعيش سارة بيكويل في لندن، وتعمل على تدريس الكتابة الإبداعية في جامعة سيتي وتسجّل مجموعات مقتنيات الكتب النادرة لحساب دار الودائع القومية.

نبذة عن المترجمة

سهام بنت سنيَّة وعبدالسلام

· طبيبة، وباحثة أنثروبولوجية، ومترجمة، وناقدة سينمائية، وممثلة.

· حصلت على بكالوريوس الطب والجراحة 1972، ثم دبلوم الدراسات العليا في الطب المهني وطب الصناعات 1976، من كلية الطب جامعة عين شمس.

· حصلت على الماجستير في الأنثروبولوجيا من الجامعة الأمريكية بالقاهرة 1998.

· كما حصلت على دبلوم الدراسات العليا في النقد الفني 1985 من أكاديمية الفنون، ودبلوم الدراسات العليا في الترجمة من جامعة القاهرة 2007.

· أتمت ورشة إعداد الممثل بمركز الإبداع الفنّي تحت إشراف المخرج خالد جلال في العام 2005، ومارست التمثيل المسرحي والسينمائي.

· عضو جمعية نقاد السينما المصريين.

من أهم أعمالها في الترجمة:

- **حين يكون الداء في الدواء: دليل من إعداد الحركة الحيّة الدولية**، قبرص، 1991.
- **برنامج بورتيدج للتربية المبكرة**، الطبعة المعربة التجريبية 1993.
- **على هواها.. نظرة فاحصة: أفلام تجريبية لمخرجات من النمسا**، صندوق التنمية الثقافية 1994.
- **السينما العربية والإفريقية**. تأليف روي آرمز وليزبيث مالكموس. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة 2003.
- **الأدب والنسوية**. بام موريس. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة 2003.
- **صور ما بعد الكولونيالية: دراسات في أفلام شمال إفريقيا**. روي آرمز. القاهرة: المركز القومي للترجمة 2008.
- **أس الشرور: عرض للتعصّب، والأصولية واختلال موازين القوى بين الجنسين**. تأليف: شارون ج. ميهاريس، وعلياء رافع، وراشيل فاليك، وجيني إيدا شيبر. 2011، القاهرة: المركز القومي للترجمة.

- **السينما الإفريقية في البلدان الواقعة شمال الصحراء الكبرى وجنوبها**. تأليف: روي آرمز. القاهرة: المركز القومي للترجمة 2011.
- **أنثروبولوجيا الطعام والجسد: النوع، والمعنى، والقوة**. تأليف: كارول م. كونيهان. القاهرة: المركز القومي للترجمة. 2012
- **آليس في بلاد العجائب وآليس في المرآة**. تأليف: لويس كارول. القاهرة: دار التنوير 2013.
- **دراسة النوع والعلوم الاجتماعية**. تأليف مجموعة من الباحثات. تحرير د. هانيا شلقامي. القاهرة: مؤسسة المرأة والذاكرة 2015.
- **أزمنة متصدعة: الثقافة والمجتمع في القرن العشرين**. تأليف: إريك هوبزباوم. بيروت والدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات 2015.
- **الحجاب بين الحشمة والخصوصية والمقاومة**. تأليف: فدوى الجندي. القاهرة. المركز القومي للترجمة. 2016.
- علاوة على مجموعة كتب غير منشورة ومجموعة مقالات ترجمت للاستخدام الداخلي في معهد إعداد العاملين في مهنة تنمية قدرات المعوَّقين بمركز عين شمس للتأهيل التابع للهلال الأحمر الفلسطيني. ومجموعة مقالات لمجلة الثقافة العالمية الكويتية، ومجلة العربي العلمية الكويتية، ولجريدة الجزيرة السعودية، ولبعض الجمعيات الأهلية المصرية. ولها كتابات ومقالات مترجمة في مجال السينما بنشرة **عالم السينما**، **ومجلة الفن السابع**، ودوريات أخرى متفرقة.
- كما عملت بالترجمة الفورية والتتبعية من الإنجليزية إلى العربية ومن العربية إلى الإنجليزية بمركز عين شمس للتأهيل وبورش عمل ومؤتمرات لبعض الجمعيات الأهلية الأخرى ومع بعض الصحافيين والباحثين الأجانب.

مكتبة
t.me/t_pdf

«لا توجدُ معرفةٌ يصعبُ اكتسابها
مثل معرفة كيف تُعاش الحياةُ بشكلٍ طبيعيٍّ وجيّدٍ ومبهجٍ»

كيف تندمجُ بسهولةٍ وسطِ مجموعةٍ من الناس؟ كيف تتعامل مع العنف؟ كيف تتأقلم مع فقدان شخصٍ عزيزٍ؟ مثل هذه التساؤلات حاضرةٌ في حياة معظمنا، وهي جميعها ترجماتٌ متعدّدةٌ لسؤالٍ واحدٍ كبيرٍ: كيف نعيش؟

كتبَ مونتاني تأمُّلاتٍ حرةً لأفكاره وتجاربه كما لم يكتب أحدٌ من قبل... بعد أكثر من أربعمئة عام لا تزال الناس منجذبةً إلى قراءته بفعل سحره وصدقه.. القرّاء يسعون إليه طلبًا للرفقة والحكمة والتسلية، وأيضا لكي يتواصلوا مع أنفسهم، وهذا ما سنجده في هذه السيرة الملهمة...

إنه كتاب عن الفقدان، وعدم القلق من الموت، وعن الحبِّ، فـ"الحب عظيم لأنه سرٌّ يصعب فهمه... إذا دقّ قلبك بعاطفةٍ عصيّةٍ عن الوصف... ادخل". وعن الصحبة: "وُلدت للصّحبة والصداقة"، وعن المودّة: "المودّةُ، كلمةٌ صغيرةٌ لكنّها ذات كثافة لا نهائية.. تُسهم في تحسين عيش الناس أكثر من الشفقة، والأعمال الخيرية والتضحية بالنفس". وعن بهجة المعرفة: "إذا لقيتُ صعوبةً في القراءة، لا أقضم أظافري، بل أضع ما أقرأه جانباً. لا أفعل شيئاً من دون بهجةٍ".

إنه كتاب حاضر في كل زمانٍ ومكانٍ، هكذا قيل عنه دائماً وعلى مدى قرون. واليوم، ونحن نعيش جنون القطعان التي تندفع خلف تعصّباتها، نراه حاضراً أيضًا: "كم يلزم من الشجاعة والإصرار، للحفاظ على الذات في زمن يسوده جنون القطيع؟".

***

«في هذه السيرة المذهلة، تسرد بكويل باستمتاع الحكايات الأنثروبولوجية التي أثْرَتْ أعمال مونتاني وتقدِّم لنا ببراعة تأثيره الفلسفي».

The New Yorker

«كتاب "كيف تعاشُ الحياةُ" عبارة عن سيرة مقدَّمة في صيغة حوارٍ ممتعٍ بين الأزمنة«.

The New York Times

«كتابٌ منعشٌ ومذهلٌ، الكتاب الأكثر إمتاعًا للتعرّف إلى مونتاني».

The Times Literary Supplement

«تقديمٌ عاطفيٌّ مؤثِّرٌ... تخبرنا بكويل أنه بعيدًا عن كونه فيلسوفًا، فإن مونتاني لا يمكن أن يكون أكثر ارتباطًا بواقعنا الحالي... مدوّن من القرن السادس عشر- بحسب تعبير المؤلِّفة - ... كتابٌ واجبُ القراءة، بسيطٌ ومفهومٌ... تقدِّم لنا بكويل دليلًا ذكيًا ساحرًا من أجل أن نعيش...».

The Daily Beast

t.me/t_pdf

ISBN 978-614-472-085-1

9 786144 720851

التنوير
daraltanweer.com
بيروت • القاهرة • تونس